خورخه فولبي

مكتبة بغداد

سجلّ الخديعة

ترجمة: غوستابو إثكييردو

ترجمة الترجمة: رفعت عطفة

منشورات الجمل

رواية

خورخه فولبي

سجلّ الخديعة

ترجمة: غوستابو إثكييردو
ترجمة الترجمة: رفعت عطفة

منشورات الجمل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خورخه فولبي: سجلّ الخديعة

ترجمة: **غوستابو إثكييردو**، ترجمة الترجمة: **رفعت عطفة**

Jorge Volpi: Memorial del engaño

© 2013 Jorge Volpi

الطبعة الأولى ٢٠١٦

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2016*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى روثيّو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القائد يندم!

دون جيوفاني

لا!

موزارت، دون جيوفاني (١٧٨٧)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

افتتاحية

في صباح الثالث والعشرين من نيسان ٢٠١١ وضعت السكرتيرةُ على مكتبي طرداً مُرسَلاً بالبريد العادي، من دون عنوانِ مرسِلٍ، مختوماً في كولومبو، في داخله رسالة ومخطوطٌ بعنوان سجل الخديعة، يحمل توقيعَ خ. فولبي. تصوّرت نفسي أمام مزحةٍ سوقيّة، أو تحدّي مؤلفٍ خبيث من الوكالة (فكّرتُ باسمين أو ثلاثة)، وتابعتُ، ككلِّ نيويوركيّ، ببعضِ الاهتمام قصّةَ فولبي، المستثمر في وول ستريت، وراعي الأوبرا، الذي نَصَبَ، بحسبِ خبرِ التايمز، تشرين الأوّل ٢٠٠٨، على زبائنهِ على طريقة نظام بونزي[1]، بمبلغٍ يقارب الخمسة عشر مليار

---

(١) نسبة إلى تشارلز بونزي (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩) أحد أكبر النصابين الماليين في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، أنشأ ما نسميه هنا نظام بونزي ويسميه آخرون سلسلة بونزي، تقوم على هرمية وهم الربح، وذلك خلال عمله في بنك استثمارٍ عقاري في كندا، الذي كان يدفع لزبائنه القدامى ستة بالمئة فائدة، من مدخرات الجدد وليس من فوائد البنك، حين أفلس البنك غادر إلى المكسيك ومنها عاد إلى أمريكا حيث اكتشف فارق قيمة القسائم البريدية بين دول أوروبا والولايات المتحدة عند استبدالها بطوابع بريدية فصار يشتري القسائم من إيطاليا ويبيعها في أمريكا وقارب مقدار الفائدة من هذه العملية الأربعمئة بالمئة فجرّ للاستثمار معه أقاربه والمحيطين به، ثم ناساً كثيراً، وفي كلّ الولايات، حين انتشار خبر أنه يدفع فائدة تفوق الخمسين بالمئة خلال فترة وجيدة: ٤٥ يوماً ومئة بالمئة خلال ٩٠ يوماً، فحصّل أموالاً طائلة إلى أن انكشف أمره.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دولار: وهو رقم صغير جداً مقارنة بالخمسة والستين مليار دولار التي سطا عليها بِرنارد مادوف، لكنّه كافٍ كي يُعدَّ واحداً من كبار المجرمين الماليين في الركود العظيم الذي بدأ في هذا العام. مع فارق أنّه بينما حُكِمَ على مادوف بالسجن مئة وخمسين عاماً بعد اعترافه بالاختلاس، هرب فولبي من البلد قبل إلقاء القبض عليه دون أن يوجدَ حتى تاريخه أيّ مؤشر عن مكان وجوده.

في رسالته، أو في الرسالة المكتوبة باسمه، يطلبُ فولبي منّي (يكاد يُطالبني) أن أقرأ سيرته الذاتية وفي حال أنّني قدّرت «قيمتها الوثائقية والأدبية التي لا تُنكر» أن أقوم بتمثيلها. أثارت نبرته المتعالية والآمِرة قرفي - نبرة، ميّزت بحسب الصحافة كلّ مداخلته العامة - لكن ومع ذلك طلبت من إس. سي أتش.، وكانت آنذاك نائبة رئيس الوكالة، أن تُقدّم لي رأيها القانوني بذلك. حاولتْ بارتيابٍ مماثلٍ لارتيابي أن تتنصّلَ من الطلب وأوكلته إلى مساعد لها. أُريدكِ أن تُراجعيه بنفسك، طالبتها من دون رويّة.

يوم السبت التالي وبينما كنّا نلعب أنا وزوجتي البريدج مع مؤلّفِ رواياتٍ بوليسية مشهور وزوجته، هتفت لي إس. سي أتش. لتُخبرني بأنّ المخطوط إما أنّه عمل لفولبي، أو لشخصٍ كان يعرفه عن مقربة كبيرة جداً: عليّ أن أُلقي عليه نظرة بأسرع وقت. التهمتُ يومَ الاثنين، قبل أن أنتبهَ إلى أنّ عليّ أن أُعلِمَ السلطات بوجود المخطوط، أكثرَ من ثلثِه دفعة واحدةً. كنتُ قد وصلتُ، أخيراً حين أدرتُ قرصَ هاتف مركز التحقيق الفيدرالي إلى نهايته، وأنا مصرٌّ على استخدام القفازات المطاطيّة كي لا أُخَرّب البصمات المحتملة المتناثرة بين صفحاته.

بعد بضعة أسابيع توصّلَ الخبراءُ إلى استنتاجِنا ذاته: كان النص

يحتوي على سيلٍ من المعلومات وحده فولبي يمكن أن يعرفها؛ إذا لم يكن رجل المال الهارب هو مؤلِّفه، فلا بدّ على الأقل أنّه ساهم في تحريره، وربما ساعده كاتبٌ مأجور. من سوء الحظ أنّ النصّ لم يكن يملك إشاراتٍ تقود إلى العثور عليه أو معرفة هويّة المتواطئ معه. وبالمناسبة لم يكن يحتوي على أيِّ أثرٍ مقروء.

بعد انتهاء عمليّة مرهقة، قرّر قاضٍ فيدرالي أنّ يُعْتَبَرَ المخطوط جزءاً من ميراث فولبي وأن يُضَمَّ إلى الأملاك التي أوكل إلى محامي الدولة أمرُ التصرّف بها لتعويض ضحاياه. أبدت كلٌّ من لي[1] لِفيت، زوجةُ فولبي الثانية (التي لم تحصل على الطلاق إلا بعد ثلاث سنوات من اختفائه) وابنتِهِ سوزان، موافقتَهما على تسليم العائدات المتوقّعة من الكتاب إلى الصندوق المُخصّص للتخفيف من الأضرار التي تسبّب بها مؤلفه. بعد تنافس تمّ في إطار معرض كتاب فرانكفورت لعام ٢٠١٢، سيجدُ كتابُ سجّل الخديعة طريقَهُ إلى الجمهور بفضل تحمّسِ كثير من دور النشر له.

لماذا أرسل فولبي كتابَهُ إلى وكالة أدبيةٍ حصراً بدل أن يتوجَّهَ به إلى وكالة مختصّة بأعمال واقعيّة؟ على الرغم من أنّنا التقينا بشكلٍ عابر في حفل خيريّ ما في نيويورك أو عند هبوطنا درجات مركز لينكولن، إلا أنّه لم تُتَحْ لنا فرصةُ أن نُدردِش معاً ولم تَقُمْ بيننا قط علاقةٌ شخصية. الجواب موجود، كما أتصوّرُ، في مكان آخر: كانت كبرياؤه الأسطورية التي تسبّبت بصعوده السريعِ وسقوطِهِ المريع تمنعه من أن يتصوّر اسمه على كتابه بين آلاف الكتبِ الأكثر رواجاً المُكرَّسَة للانهيار المالي

---

(١) لي اسم المرأة. لا بدّ من التنبيه إلى ذلك كيلا يقع هناك التباس مع لي حرف الجر وياء النسبة في العربية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويُفضّل أن يَعْتَبِرَ أنّ مكانه إلى جانب الثلاثة عشر الحاصلين على نوبل والاثنين وعشرين الحاصلين على جائزة بوليتزر الموجودين في قائمة مؤلفينا.

المسألة الحقيقيّة بالأحرى هي لماذا قرّرتُ أن أُمثّله، أو، ولكي أكون أكثر دقّة، أن أُديرَ حقوقَ سيرته الذاتية. بودي أن ألفت الانتباه إلى أنّ لِفولبي ـ أو لِكاتبِ مذكراته ـ أسلوباً تخطى توقّعاتي (وإن كان من العبث مقارنته بكتاب آخرين من الوكالة) إذا ما تركنا جانباً عيوبه الشكلية، قليلة هي المرّات التي يُمكن أن يُسمَعَ فيها صوتُ كاتب يجرؤ، بعيداً عن أيّ حذرٍ أو شعورٍ أخلاقيّ، على أن يُحلّل بالتفصيل وبمثل هذا الاستهتار الكارثةَ المالية لهذه السنوات.. ثمّ إنّ فولبي يروي قصّة والده، وهو اقتصاديّ من أصل روسيّ عمل خلال الحرب العالمية الثانية واتفاقيات بريتون وودز مساعداً لهاري دِكستر وايت في وزارة الخزانة. يُسلّمنا فولبي، المهووس بالكشف عن هويته، فصلاً من تاريخنا السياسي والأخلاقي، الذي يجب ألا يبقى اليومَ، أكثر من أي وقت آخر، طيَّ النسيان.

قصّته، بعد كلّ حساب، هي القصة المروية بضمير المُتكلّم لجيلٍ كان بين فكّي الخطر والهول والجشع أوقعَ العالم في واحدة من أفظعِ كوارثِ الأزمنة الأخيرة، الاقتصادية والإنسانية. كما توصّل أحدُ المحلّلين إلى القول: لم يحدث أن أوقعَ عددٌ بمثلَ هذه القلّة مثلَ هذا الضرر بمثلَ هذه الكثرة. بطل هذه الصفحات، ربما شبيه فولبي الحقيقي أو نسخة طبق عنه يخاطر بالكلام ـ بالبوح ـ نيابةً عنهم.

أ. دبليو.

نيويورك ٢ كانون الثاني ٢٠١٢

الفصل الأوّل

الفاسق المُعذّب[1]

(١) أو دون جوان في المسرح والأوبرا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الأوّل
حول كيف دمّر فرخُ حمام
عيدَ ميلادي الأول وجحود جراء الذئاب

طقطوقة جوديث

نصفٌ براق وآخر معتم، كما لو أنّ أحداً قسمَ القمر بمخرز. بقي أبوك دقائق طويلة أمام النافذة، مفتوحَ العينين جيّداً، مهووساً بتناقض الضوء والظلّ. كان قد عاد واستيقظ في الساعة الخامسة فجراً ـ توقّفتْ ساعتُهُ على الخامسة وثلاث وعشرين دقيقة ـ، كما في كلّ يومٍ منذ أن تَخلّى عنّا. عند تَبَيُّن الخيطِ الأبيض من الخيط الأسودِ في الفجرِ عاد نُوَا ليستلقي على سريره. أُصحِّحُ: فراش أكله العثّ مترنح على ألواح الأرض، حوله زوج من الصناديق الخشبية يقوم بدور الطاولة أو الكراسي: ممتلكاته الوحيدة: بضعة عشر كتاباً، صورتان وجهيَّتان وغمد الكمان المحزن والكمان في داخله. هكذا تأمّلته في مناسباتٍ كثيرةً، يا بُني: جسد بلا روح أو بروح لا تعود إلى الجسد إلا بعد دقائق من الشرود. عندما استعاد أبوك وعيَهُ، كان الفجر يبزغ. زريبة الخنازير تلك لم تكن تكاد تلامِسها بضعةُ خيوط من الشمس. من حسن الحظ أنَّ خيطاً من نور كان يتسلّل عند العاشرة تقريباً من حصير النافذة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويُظهر اتساخَ السرير الفرديّ والألحفة. في البعيد كانت تعلو جلبة العصافير، العصافير اللعينة التي تصرُّ على الزقزقة عند انبلاج الصباح.

تَوَجّهَ نُوَا إلى الحمّام، وهو مكان رباعيّ الأضلاع صغير جداً، فيه مرحاض تآكله الصدأ. مشهد قاس، يا بُني، وإن كان أبوك هو من اختاره عندما وضع حياتنا المشتركة على الهامش. أنا لا أدّعي أنّ تعايشنا كان بسيطاً، لكّننا نجحنا على الأقل في شقة بارك سلوب في أن نبقى على هامش النمائم. في أسوأ الحالات كان باستطاعتنا أن نرحل إلى مدينة أخرى أو ولاية أخرى. لكنّ أباك لم يُكلّف خاطره حتى بالنظر في اقتراحي. أدار الحنفية فنزل دفق قليل من الماء على وسخه. أتصوّر أنّه تعرّى بشدّةٍ واحدة، تهزُّهُ سرعةٌ مفاجئة: كان جسده يظهر في كلّ مرّة أكثر ضموراً، أضلاعه غائرة في جانبيه، السرة ناتئة، جمجمته مع خليجين يصلان حتى قمةِ رأسه (في شبابه كان سواد شعره يذهب بعقول السكرتيرات). رجال آخرون بعمره يحتفظون بهالة شبابيّة أو على الأقل ببعض القوّة في نظرتهم، لكنّ أباك سرقت منه سنواتُ وجودِهِ في واشنطن كلَّ طاقتهِ والماء الفاتر بالكاد خفّفَ من أرقه.

ما إن صار خارجَ المِرذاذِ حتى نظر إلى نفسه في المرآة، زجاج تقشّرت فضته أعاد إليه تدهوره مُكرَّراً. كره نُوَا دائماً هذا الطقس الصباحي، التأكّد من أنّه في كلّ مرّة أقلّ شبهاً بمن كان في الماضي. مرَّ بمهارة بالموسى على عنقه وفكّه: ما من قطرة دم واحدة. عاد إلى الغرفة البائسة بحث في إحدى الحقائب، التي لم يُفرّغها بعد، واكتشف آخرَ قميص نظيفٍ عنده. أنا نفسي كنت قد نشَّيْتُهُ له دون أن أعلم أنّه سيتركنا. من المحال أن أعرف ما إذا كان قد شكرني عليه أم أنّه اشتاق إليّ أخيراً. لبس سرواله الداخليّ والبنطلون والقميص ووضع الشيالَ وملك وقتاً كي يسرح شعرَهُ ويرشّ بضعَ رشات من الكولونيا على رقبته. لماذا؟ ربّما بحكم العادة، هو فعل انعكاسيّ بلا هدف.

جلس على السريرِ، فتح رسالةً في الاقتصاد. لا تُطالب بمفاتيح، يا بُنيّ. الكتاب المدرسي مثل أيّ كتاب آخر ـ هذا ما أكّده لي زملاؤه ـ مُلخّص مدرسي دون طموحات. ربّما أعاد قراءة بعض الفصول أو بحث عن معلومةٍ ما بين صفحاته. كيف سنعرف ذلك؟ منذ شهور، أُكرِّر عليك، ما عاد سلوكه ما يقال إنّه عاديّ. كلمة تافهة. لنرَ هذه الكلمة الأخرى: مُتَوقّع. متوقّع بالنسبة لمن رافقتْهُ عقدين، بالنسبة لِمن شاركتْهُ محنه وأفراحه، لمن نامت معه يومياً، لمن كانت تعرفه كما لا يعرفه أحد. كان نُوَا أكثر من مُتحفِّظ كان مُسْتَغلقاً، لكن لا تخلط هذا التعبير بالغامض أو المُبهم. هناك رجال مُنفتحون ورجال مُنغلقون، ووالدك كان ينتمي إلى الصنف الثاني. صندوق حديدي لا يحتوي في داخله على غير المشاعر المثالية والطيبة.

كان قد مضى عليه سنوات كثيرة حزيناً، مهدوداً. كيف لا يكون كذلك؟ كان قد كرّس حياته لوزارة الخزانة، للنضالِ من أجل بلدهِ وفجأةً لم يبق أمامه شيء. أفهم هذا. لكنّ الاستيحاش لا يُبرّر ذهابه بين ليلةٍ وضحاها، وخاصّة بالنسبة إلى حالتي. بعد عشرين عاماً اختفى، استأجرَ هذا البيت الحقير في كوينز وتدبّر نفسه فيه كما لو أنّه سجن أو كنيس. ماذا كان ينتظر؟ أنّ أُنقذه؟ أن أُطالب بالعدالة باسمه؟ أن أتوسّل عودَتَهُ؟ أنت تعرفني، يا بُنيّ، أنا لا أتوسَّلُ أحداً. عندما تواقحَ وعاد إلى البيت بعد أسبوعين، اكتفى بأن أخذ كمانَهُ وأوراقَهُ وكتبه. مرة أخرى لم يُقدم توضيحات. *عليّ أن أذهب*. هذا فقط. وانصرف إلى كوينز

أتصوّرُ أنَّ والدَكَ كان ما يزالُ يتصفّح رسالتَهُ في الاقتصاد أو أنّ عقله كان فارغاً عندما سرق انتباهه زعيق في النافذة. عندما التفتَ بنظرهِ ميّز حمامةً تصارع كي تُحرّر جناحَها العالق بين الزجاج والخشب. نهض واقتربَ من الحيوان الصغير، الذي كان يخفق مجنوناً، رفع نُوَا درفة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النافذة، لكنّ الفرخ وبدل أن يُحَلّق طائراً، بقيَ هناك، مشلولاً بجناحٍ نصفِ مكسور وألمٍ في نظرته. يبدو أنّ والدَك تأمّلَهُ برهةً مُتأثّراً بضعفِ الحيوان، لا يعرفُ ماذا يفعل. بالتأكيد فكّر بأنّه مُجْبَرٌ على إنقاذه. دفعَهُ دفعةً صغيرة. لا شيء. ثمّ أخرى. لا شيء. عندها لا بدّ أنَّهُ فكّر أنّ من الأفضل أن يسوقَ الفرخ إلى الداخل وأن يداوي جرحه. يُغذيه بالبسكويت، ينتظر أن يتحسّن شيئاً فشيئاً، فربّما أفاده في مرافقته. ألقى بثقله فوق الإفريز وحاول أن يُمسك بجسمه الصغير. يبدو أن البهيمة أساءت تفسيرَ مقاصده فترنحت فوق الإفريز ببلادة. استجمع نُوَا قوّته ومدَّ ذراعه. ربّما هزّه الدوار عندما رأى الأحد عشر طابقاً التي تفصله عن الرصيف. أو أنّه تعثّر فوق الإفريز في آخر جهدٍ لإنقاذ الفرخ. الأكيد هو أنّه عندما صادفَ أوّلُ مارٍّ جسدَهُ منفجراً على الرصيف كان والدك ما يزال يحتفظ بقبضةٍ من الريش في يده.

ترتيل[1]

كلمات أكثر وكلمات أقل، هذه هي روايةُ جوديت عن موتِ أبي وكما يمكن أن نرى لم تنقصها الكلمات قط. كنتُ في الرابعة أو الخامسة من عمري عندما نثرت الحادثَ لأوّل مرّة أمامي وأتذكّرُ أكثرَ من دخولِ الحمامة جرسَ صوتها السامّ الذي لم أقم بمحاكاته بإنصاف، نظرتها الفولاذية تشقّ جبيني وأصابعها ترسمُ حركات بهلوانية في الهواء (حمرة الأظافر غامقة)، دون أي برهان على اللمس أو الخجل، إلى أن انفجرت إحدى كفّيها المرفوعتين على مستوى الرأس على توأمِهِ مُعيدةً

---

(١) Recitativo مصطلح أوبرالي يعني الكلام العادي والمُغنى قليلاً، الذي يفصل بين غناءين منفردين في الأوبرا.

طقطقة عظام أبي على الإسمنت. كانت جوديث تُطيل أحياناً تفكيرها بفاقة، أرقٍ أو قراءاتِ زوجِها المُتوفّى وفي أخرى تُتبّلُ الحادثَ بنبرةٍ أكثرَ شجناً أو أكثر مهزلة (أو كليهما معاً) وفي أخرى كانت تصرّ على أن تُبَرهن لي على أنّ المسؤولَ عن الكارثة بالكامل كان أبي، وإن لم تكن تنسى في كلِّ مناسبةٍ أن تشيرَ إلى أنّ نَوَا كان، على الرغم من طبيعته المراوغة، وحظّه العاثر وهربه المفاجئ، رجلاً طيّباً، تقول هذا مع جرعة مماثلة من الشفقة والازدراء.

هكذا كان يحدث.

كانت جوديث تعيدُ في الليل، بعد أن تغطيني باللحاف، كما لو أنّها ستحكي لي قصّةَ جنياتٍ، أو في ساعة الغداء بمرافقة السمك المحشو وصلصة الفجل، صياغةَ الأحداثِ دون أن تقبل أسئلة منّي. وكان الشيء الوحيد الذي عرفته خلال سنواتٍ عن أبي بسببِ هذا التكتيك هي ملامحه ذات الطبيعة الحادة أثناء مصادفته العاثرة مع الفرخ: رِفقٌ صميم تجاه الحيوانات (وربّما تجاه الأشخاص) وبعض الإهمال أو اللامبالاة بالأجنّة البشرية، ميل واضح إلى الفاجعة وولع بالموسيقى الكلاسيكية يتناقض مع مهنته السوقيّة كاقتصادي. من المحال أن تستخلص من أمّي تفاصيلَ ليست مضمّنة في هذا السرد، أو أن تطلبَ منها برهاناً بالصورة: باستثناء واحد: جميع صوره ـ كانت تُبرر هي ـ ضاعت أثناء تبديل السكن، الذي تلا الجنازة. يجب ألا يستغرب أحد أنّ أبي كان بالنسبة إليّ شيئاً قليلاً جداً: اسم ملفوظ على مضض وإحساس بجهلِ أصلِ الخمسين بالمائة من جيناتي.

بعد سنوات، أشار قوّاد من قوّادي العقل إلى أنّ أصل صراعاتي مع السلطات هو غياب شخصية الأب في طفولتي. قمّة الغباء: كانت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جوديث تقوم بالمهمة على أكملِ وجه. يكفي ولعها بالجين وسيجارِ الهافانا، أخلاقها السيّئة والوحشية، لغتها السوقية وولعها بالشجار، والذي تُفضل أن يكون بالضرب مع من يجرؤ على أن يُناقضها أو يخدعها، كي تبرهن على أنّها أكثر رجولية من أيّ رجل. سأعود على امتداد هذه الصفحات إلى طبعها المزدوج كسجانة وسيّدة مُحسنة، سأكتفي الآن بالتأكيد على أنّ أميّ، على الرغم من نحولها وقصر قامتها ـ تخطّيتُ وأنا في الثانية عشر من عمري طولَها ـ لم تكن فقط قادرة على أن تملأ غرفة بحضورها وحسب بل وأن تملأ ثلاثة أو أربعة طوابق. لا أتطلّع إلى أن أتعارك معها (لم يحن بعد): أتذكّرها مثل قزم يهوديّ لطيف، لا يخلو من جمال مُدهِش، قادر على أن يهزم جيشاً أو يفرض إرادته على عصابة من القتلة. سأكون أكثر عدلاً: امرأة كوّنت نفسها منذ صغرها ـ نموذج الفقير الذي لا يشبع، أب زان وأم كئيبة ـ ولم تسمح لنفسها بأن تنحني أو تندم ولا حتى أمام الموت.

حتى سنّ الخامسة عشر أو السادسة عشر لم ينل منّي اليتمُ، الحالة التي كانت تضعني في مصاف البؤساء الذين كان يحتفظون بعلم الخطوط والنجوم أو بميداليات القلوب الأرجوانية، مستسلمين إلى أمهاتهم في احتفالات فيها من الوقار بقدر ما فيها من النفاق. من المحال أن أتبجّح بأنّ أبي كان بطلاً سقط في معركة، مثل آباء رفاقي في المدرسة، لكنّ مدرّسيّ، الذين هزّهم استضعافي كانوا يخصّونني بعطف نجحتُ دائماً في استغلاله (في الوقت الذي كنتُ أكرههم لأنهم خصوني به). لم يتدخّل نُوَا في تربيتي: ميزة عظيمة إذا ما قورنت بالخراب الذي كان يحدثه تقدير الذات عند رفاقي بسبب احتكاكهم اليومي بالوحوش الذين أنجبوهم. الأب الصالح برأيي هو ذلك الذي يهرب من أبنائه بأسرع وقت.

لا شيء عندي من نُوَا فولبي، أُكرِّرُ، غير الكنية، هذه الفولبي التي

كانت تُكتب في بولونيا وولبي، وجررناها منذ ذلك الوقت أنا وهو في هذه الأمّة التي أسّسها لصوص ومتعصبون. على الأقل حتى الوقت الذي ما عدتُ فيه إوزّةً أقرب إلى البلادة وصرتُ الفولبي الوحيد الذي يتكلّمون عنه في الوقت الحاضر. الفولبي الذي سمعتموهم، يا شبيهِيَّ المُمِلّين وإخوتي التنين وقرّائي الفضوليين، يلعنون اسمَهُ في دقائق الشهرة الخمس عشرة[1] (للحقيقة منذ بضع سنوات)، الذي شغلَ تُرافقه صورٌ مشكوك بمصدرها، مساحةً في الشبكة ونشراتِ الأخبار وفي تلك الأوراق المحتضَرة، الصحف. فولبي، المحسن المعروف، رجل الأعمال، مؤسّس جي. في. كابيتال منجمنت أحد أقوى صناديق التحوّط في فجر القرن الحادي والعشرين، وفولبي بحسب بلومبِرغ وقناة MSNBC، المُنعِم المُحسنُ الذي لا يكلّ على متحف متروبوليتان للفن، وأوبرا مدينة نيويورك وأوركسترا نيويورك ومدرسة جوليارد للموسيقى ومهرجان سالزبورغ ومسرح مارينسكي وكوفنت غاردن، فولبي، المستأجر المعتاد للصحفِ المصوّرة وصفحاتِ التفاحة العظيمة المتفسخة؛ فولبي النصّابُ، مجهول المكانِ منذ تشرين الأول ٢٠٠٨ بعد أن خدع مستثمريه بخمسة عشر مليار دولار، الرقم الذي لا يُصدّق بأيّ شكل. هذا أنا، أيّتها السيداتُ والسادةُ أعضاء هيئة المُحلّفين الموقّرون وبالفعل إنّني أكتب هذه الصفحات من مكان مجهول، بلدة ساحلية لطيفة ليس فيها، بعكس ما كنتُ أتخيّل، موجة عريضة (على الهارب من الإنتربول ألا يكشف عن هذه التفاصيل).

---

(١) هي الدعاية أو الاحتفالية التي يُحاط بها شخص أو حدث في وسائل الإعلام الجماهيرية وتُعزى هذه العبارة عادة إلى أندي وارهول، حيث قال في عام ١٩٦٨ في معرض له: «في المستقبل سيكون للجميع خمس عشرة دقيقة من الشهرة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لماذا أتجرّأ على إزعاجكم بحكايتي؟ عنجهيّة؟ لا شكّ. ندم؟ أبداً لا. تبرير ذاتي؟ الحدّ الأدنى. لِنَقُلْ إنَّ الذنبَ ذنبُ العجوز نُوَا، هذا الرجل الذي هجرني حين كنتُ على وشك أن أولَد كي يتعثّر بالفرخ وينطلق سابحاً من الطابق الحادي عشر، هذا الرجل الذي لم يُرافقني قط وعملت أمّي جهدها على محوه من ذاكرتي، هذا الرجل الذي كان أكثر من بيروقراطي عاطل عن العمل وأقلَّ بكثير من شخصيةٍ ثانوية في قصّتي وفي القصّة الساخرة التي انتهت بذلك السقوط الآخر، قصّة ليمان برازرز. هكذا ورغم كلِّ ذلك أنا مدين لهذا الشبح بأكثر من الكنية اليهودية ـ البولونية المنتحلة. في وحشة مَنْ كان عليه أن يتنقّل متخفّياً من تخم إلى آخرَ من الكوكب، اكتشفتُ أنَّ هناك شيئاً يربطُ بيننا أقوى وأعقَد. كان نُوَا رمزاً شكّاكاً في زمانه، وأنا كذلك في زماني. هو رمزُ ذروة الرأسمالية وأنا رمز انهيارها. وبما أنّه يتوفّر لديّ لأوّل مرّةٍ منذ عقود متسعٌ لا نهاية له من الوقت (أستثني أفضلَ رأي لحراس القانون)، فإنّني سأعمل، مثل رسّام خرائط عجوز مُصَمّم على أن يربط بين هاتين النقطتين على الخارطة.

جوقة[1] سادة العالم

يقولون إنّه قبل أن تتسلّل الأمواجُ من الشاطئ كي تصبح ضربةَ مخلبِ شيطانية، كما حدث خلال التسونامي الذي دمّر الساحل الآسيوي في عام ٢٠٠٤ (الذي قدّرتُ حجمَهُ فقط في البداية المدوّية لفيلم *ما بعد الحياة*، حيث يتحول كلينت إيستوود إلى مُحَضّر أرواح محزن)، تصير السماء مخملية وساطعة، خالية من اليشب والغيوم، مسكونة بضياء هو، بحسب المتنبّئين بالطقس، المقدّمة الوحيدة للكارثة.

(١) استخدمتُ كلمة جوقة بدل كورس لأنّها تتناسب وروح النص أكثر.

هكذا عاش الناسُ ربيع ٢٠٠٨، فترة خمول وخمود، مماطلة وحزن، وحدهم بعض المتنبّئين بالكارثة، القابعين على ضفاف نظامنا المالي (مثلاً في نعيم الجامعات المنفصلة عن الواقع) كانوا يصرخون بتنبؤاتهم في قاعات شبه فارغة، لم نكن بحسبها أمام عصر الوفرة اللاعقلانية، والكلام للمعلّم الروحي العظيم كرينسبان، بل أمام فقاعةِ صابون لن تتأخّر في الانفجار في أنوفنا. حسّاد. حالمون. حمقى. يا للأشياء التي كان على المرء أن يسمعها من أفواه أولئك المُمتَعِضين. فقاعة عقارية؟ حماقات. كان واضحاً أنّه لا ريبيني ولا رابيني ولا أحد من رفاقه الهارفارديين والأوكسفورديين الأشرار كانوا يعرفون عما يتكلّمون. ألم يملكوا فرصة لأن يُراجعوا المعلومات الرسمية؟ لم توجد قط في الولايات المتحدة فقاعة عقارية. إطلاقاً. ظهرت هذه من حين لآخر، ربّما في أماكن مثل جنوب فلوريدا بسبب مضاربات عصابات يهودٍ مُتقاعِدين. على البلهاء أن يصفوا إحصائياتهم: هذا البلد العظيم، إذا أخذناه بمجموعه، لم يُعانِ قط من أزمة سكنية. كان من الأولى ألا نولي المعتوهين أذناً صاغية، أو بالأحرى أن نُسكتهم ونُركِّز على إدارة تلك الوفرة اللاعقلانية والممتعة.

لا أبالغُ. اقرأوا الصحفَ اليومية واستمعوا إلى التصريحات المدلى بها على امتدادِ أشهر الهدوء الجميل. ربيع ٢٠٠٨ بل وبدايات صيفه. ستكتشفون من سيتحوّلون بسرعة إلى الأبطال المزيّفين أو الأوغاد العابرين في مأساتنا المضحكة. كان الجميع يُردّدون ذات المانترا (التعويذة): ليس هناك ما يُقلق، النموّ باقٍ، التضخّم مُحْتوى. سنتجاوز هذه اللحظة السيّئة وسنتابع إلى الأمام. رجال أعمال وسياسيون. مضاربون، أصحاب بنوك، أساتذة، موظّفو وزارة الخزانة والاحتياطي الفيدرالي، وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والأمم المُتّحِدة. غرينسبان وكلينتون وبوش وج.ر. باولسون وبِرنانك وغيتنِر والمدراء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التنفيذيون لأعمدتنا المالية، إنّهم مثل مجموعة من المواطنين العاديين، مثلكم، قرّائي، ومثلي. كلّنا كنّا نحافظ على الإيمان ذاته، أو هذا ما كنّا نقوله: هذه المرّة سيكون مختلفاً، الإنذارات مضطربة، المخاوف ليس لها ركائز، نستطيع أن نستمر بالاستدانة ـ والاغتناء ـ بلا توقّف، فالأسواق، سليمة مثل الثيران، ستعرف كيف تضبط ذاتها.

لا شكّ كان هناك بضع علامات مُقلقة، فالرهونات العقارية ارتفعت بسرعة جنونيّة، ولم يكن هناك من هو قادر على أن يُقَدِّر ماذا سيحدث إذا ما توقَّف دفعها، راح الاستهلاك ينخفض، لكنّ الرأسمالية راحت تُروِّجُ للتدمير الخلاّق. في أسوأ الحالات ستنتهي بعضُ شركات ومؤسسات الائتمان إلى التصفية، كما حدث خلال كارثة شركات الـ dot.com؛ سينخفض سعرُ العقارات قليلاً وسيرتفع سعر القروض: في كلّ الأحوال إعادة التنظيم ضروريّة، ضبط بحدوده الدنيا قبل العودة للإمساك بالنموّ. الآن وقد وقعت الواقعة، صارِ من السهل أن نقول: لم يكن هكذا. كان تسونامي، موجة، دون أدنى سابق إنذار، ولا حتى صفاء السماء المقلق خرّب يقينياتنا ـ والأسوأ، ثرواتنا ـ. لم نكن غير مسؤولين. لم نكن طمّاعين ولا جشعين. فقط كان حظّنا سيّئاً.

يسرّني أن أستحضر هذه الذرائع، أن أصدِّقَها حقيقةً مثل غرينبان وبوش الابن، مثل بولسون وبِرنانك، ومثل غيتنِر ومثل المدراء التنفيذيين لأعمدتنا المالية. أخفض ندمي وعاري ـ ليس أمام عمليات الإخلاء وفقر الملايين، بل أمام عدم الخبرة ـ وتلطيف الحنق من خسائري.، مع فارق أنّني، بخلاف هؤلاء النبلاء، لن أستمرّ بالرياء. لا تُحرّكني فورةُ نزاهة لن يقبلها جمهوري أبداً، بل رفضي لأن أكون واحداً من كباش الفداء ممن يلطمون الآن على صدورهم. في نظام، أنا فيه مجرم بينما هم، بالمقابل، فقط أخطأوا. أنا الوصمة، التي يُقضى بضرورة ملاحقتها من نصف العالم كما لو أنّني جلاَّد أو مجرمُ حرب،

بينما هم، الموظّفون، الوجهاء، الذين نودع فيهم إيماننا وثقتنا، يكيفهم أن يطلبوا اعتذاراً. أما أنا فيجب أن أُصاد مثل كلبٍ أو يُقضى عليَّ مثل فأر، بينما هم وبعد أن يحنوا صلعاتهم قليلاً ويعرضوا أسفهم أمام ملايين ضحاياهم، يُعادون إلى مناصبهم الإدارية ـ أو إلى أخرى معادلة ـ ويعودنا ليكنزوا سندات ملايينهم.

لا، يا سادة، أنا لا أفكّر أن أسمح بذلك. هذه هي مرافعتي. نعم، لقد نصبتُ على قرابة المائة مستثمر. بلى وكان بينها صناديق تقاعدٍ وجامعات ومشافٍ وجمعيات فنّية وإنسانية. بلى، خدعتُ أصدقائي وأصدقاء أصدقائي. بلى عرّضت شركائي وعائلتي للمخاطر. بلى، أنا وغدٌ ولصّ، جدير بأن أرث تشارلز بونزي. بلى، أقبلُ أن أُقارَن بِ بيرني مادوف (أرجوكم، باستثناء التسريحة)، وإن كانت عملية نصبه تفوق عمليتي بأربعة مقابل واحد. بلى، أنا مسخٌ، شيطانٌ، خطير على المجتمع. لكن الذين يُشيرون إليّ بسبّاباتهم البرّاقة، بينما هم يتأملون أفق منهاتن، يستمتعون بشرب الكونياك أو بعضَ السيجار الهافاني، ليسوا أفضلَ منّي بكثير.

ثلاثيّ

هذا ما قاله لنا.

لا بدّ أنّ صوتَ سوزان كان يُسْمَعُ كأنين. أتصوّرها بالملابس ذاتها التي احتفلتُ بها قبل ساعات: التنورة العقيقية المفتوحة حتى الفخذ، وقميص الحرير بلونه الطبيعي وسترة ماركة دي أند جي في غاية الجاذبية. جسد في غاية النحول، مقوّس بشكل خفيف، شحمتا الأذنين والرقبة عارية ـ أحد ما نصحها بأن تُخبّئ مجوهراتِها كي تُبرز ضعفَها ـ وجهها مطليّ برهافة، شعرها مربوط في كعكة ويداها، يداها الصافيتان، ترتعشان. بخلاف إسحاق هي لم تكن هناك بإرادتها أو نتيجة الاستياء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي أكّدته السنون. كانت شفتاها تبرهنان على أنها ذهبت إلى قسم الشرطة، لأنّه لم يبقَ أمامها خيارٌ آخر. في البداية قاومت. «ما من خيار آخر؟ ألا نستطيع أن ننتظر قليلاً كي نُقدِّر حجم الأضرار؟».

أمنع أن يُحاكموها! ليس صحيحاً أنّها كانت إلى جانبي؛ أو أنّها شكّكت مسؤوليّتي أو بحثت عن التخفيف من أخطائي وجرائمي: فقد كانت تكره فكرة الاعتراف أمام بعض رجال مكتب التحقيق السوقيين، كما لو في فيلمِ جريمة مُنظّمة ـ هي التي كانت تدفع سبعمئة دولار على كل جلسة محلِّل من أوبِّرْ إست سايد ـ ولم تسمح بأن تُجرّ إلى تلك الزريبة إلاّ بعد أن هدَّدها أخوها بتوريطها في ألاعيب أبيها القذرة، مبتغياً أن يُؤكّد على تلاعبها وليس تلاعب الاثنين.

إسحاق، المعرّض للهسترية منذ طفولته (كان باستطاعته أن يبكي لساعاتٍ دون أن يهدّئه شيء)، كان يئنّ ويحرّك يديه كي يؤكّد على انزعاجه كما لو أنّ صراخه يُبرهن على براءته. مسكين. يكاد يؤثر بي ظهره المحني، علامات الرعب الذي لا بدّ كان يمزّقه في أعمق أعماقه. هو أيضاً لم يكن يرى خياراً آخر. كان يجب أن يظهر قاسياً دون أيّ ذرةٍ من رحمة تجاهَ من أساءوا معاملته منذ طفولته. هذا ما كان يعتقده: عندما أدرتُ له ظهري في لحظةٍ ما بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة من عمره ـ لا أكاد أذكر الحادث ـ حكمت عليه بحياة قائمة على مضادات الاكتئاب والأدوية. لم يكن هناك من طريقة لمواجهة ذلك الظلم القديم: ما من سيارة رياضيّة، رحلةٍ إلى الهند أو إلى هملايا ولا حتى من تلميح بالاعتذار نجحت في تهدئته. آخرون كانوا يُفكّرون بأنّني فاسد وأنانيّ، وإن كانوا يعتقدون أيضاً أنّني كريم ومتفهّم (أوّلهم سوزان) بالمقابل كان إسحاق يعرف أنّ فضائلي كانت قناعاً كي أستفيد ممن سبقوني، بما فيهم أسرتي. ضد الجميع، ربّما ضدّ العالم ـ دائماً بدافع من أمّه ـ لم يسمح لنفسه قط بأن ينبهر. والآن والحقيقة تنكشف، يشعر بأنّه أنُصِف أخيراً.

آمل أن أكون قد فهمت جيّداً ـ تمتم أحدُ رجال الشرطة ـ ؟ أبوك اعترف توّاً...

في العاشرة وسبع عشرة دقيقة صباحاً ـ قاطعه إسحاق.

في العاشرة وسبع عشرة دقيقة استدعاكما أبوكما إلى مكتبه كي يكشف لكما أنّ رأسمال استثماراته الهائل كان قائماً على الخديعة. وأنّ حساباته مثقلة بالديون وأنّ إجماليّ الخسائر يرتفع إلى قرابة... ـ راجع الشرطي دفتره وبلع ريقه ـ.. العشرة مليارات دولار.

هو كذلك.

لا بدَّ أنّ رجلَيّ الشرطة (أتصوّرهما بَدينَيْنِ وأسمرين يرتديان معطفين وربطتي عنق بثلاثة دولارات: الهيئة النمطية في التلفزيون) نظرَ كلٌّ منهما إلى الآخر دون أن يتبيّن ما إذا كان أمام معتوهَيْن، وللطامّة الكبرى، توأمين يكاد يكون الواحدُ منهما صورة طبق الأصل عن الآخر، أو أمام أحد الاتهامات الأكثر غرابة في مسيرة عملهما. اعتذر واحدٌ منهم ونهض كي يستشير رؤساءه.

هل أستطيع أن أُدخِّن؟ ـ سألت سوزانا الشرطي الأوّل.

أتكهّنُ بنفادِ صبر ابنتي أمام تينك الغوريلتين، بجمالها المشكوك به نتيجة انتفاخ أجفانها.

أخشى أن لا.

هل أستطيع أن أخرج لحظةً؟

بالطبع ـ لا بدّ أن الشرطيّ ابتسمَ ابتسامة صغيرة ـ، لستِ أنت المُتّهمة.

بعد قرابة الساعتين، حين كان إسحاق يقضمُ أظافره وسوزان تسيء لرِئَتَيْها بعددٍ من علب السجائر، صادق خدمُ القانونِ أخيراً على الاتهام وسارعوا إلى المُطالبة بصورة مستعجلة بإصدار الأمر بإلقاء القبض عليَّ بالاسمِ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوقت ذهبٌ، والذهبُ يَشتري كلَّ شيء، بما في ذلك الوقت.

ما إن غادر إسحاق وسوزان مكتبي في ذلك الصباح، صافقَيْن البابَ صفقةً مُدوّية بين دموع واتهامات متبادلة، بعد أن رميا في وجهي بطاقَتَيّ السفر اللتين حجزتهما لهما ـ بطاقتها إلى إحدى جزر الكاريبي الجميلة، وبطاقته إلى منتجع في المحيط الهادي، حتى شرعت بطريق هربي الخاصّ متبعاً خطّاً مختلفاً عن الذي كشفت لهما عنه. أعطيت فيكرام تعليماتي الأخيرة، التي نفّذها مدمدماً، تعانقنا عناقاً أقصر مما كنتُ أحتاجُ إليه وأخذت مصعدَ الخدمة كي آخذ السيارة التي كانت تنتظرني في الشارع الثالث.

ليقولوا ما يقولوا، إنّه الحظّ، هذه المصادفة التي نصارع ضدها يوميّاً نحن المضاربين، التي تُدمّرنا أو تنقذنا. لم يكد يوجد سير في ذلك الصباح في نفق هولاند. لن أكشف عن خطّ سير هربي (لا أعرف أبداً ما إذا كنتُ سأعودُ وأسلكه) سأكتفي بالتباهي بأنّه عندما أصدر القاضي أمرَ القبض في الساعة الرابعة عشر والنصف من بعد الظهر كنتُ بعيداً جدّاً عن أرض الحلم الأمريكي.

لا أريد أن أقع في الاستهتار، : كان ذلك أسوأ يوم في حياتي. أعرفُ أن لا قيمة لكلمتي، لكنّني آمل أن تنقلَ كلماتي الحدَّ الأدنى من القنوط، الحنق، الخوف، القلق والحبّ ـ بلى، الحبّ ـ الذي كان يحرقني خلال هربي. كنتُ أريد أن أُنقذهما وأحملهما معي. أليس مهمّة الأبِ الرئيسية انتشال أبنائه من الخطر؟ ربّما ما كنت لأفعل هذا في الماضي، أو ما كنتُ لأفعله بما يكفي، لا شكّ عرفت ما لانهاية له من الأخطاء، ما كنتُ قط صديقاً أو المثل في السلوك بالنسبة إليهما، دائماً أعطيت رفاهيتي الأولوية على رفاهيتهم، لكنّني كنتُ في تلك اللحظة أبحث عن انعتاقي. كنتُ أريد أن أهرب، طبعاً. لم يكن أمامي مخرج. كان بقائي يعني مائة أو مائتي سنة خلف القضبان. أيضاً أردتُ أن أمنح

أولادي حياةً في مكان آخر.. من المؤسف أنّ إسحاق الأبله ترك الندم يجرفه وجرف معه أخته في طريق بغضائه وعماه.

ـ لا أستطيع أن أصدّق، يا أبي ـ تأتأت سوزان عندما اعترفت لها بحالة شؤوننا المالية ـ يجب أن يكون خطأ، العدّادات، الأزمة، أنت لا...

كان عليَّ أن أُوقفها. فهي وأخوها كانا يستحقان الحقيقة.

كلّ شيء بدأ قبل قرابة العشر سنوات، قلتُ لهما. لم يكن مقصوداً، على الأقل في البداية. وقعت في مطبّ من المطبات التي يتعرّض لها كلّ رجل أعمال. ما كان ليحدث شيء لو أنّني نجحتُ في نقلِ رأس المال من أصل إلى أصل وكانت السوق ستتعافى خلال بضعة أيّام وسيصير الانزلاق إلى نسيان. وهكذا كان. خطيئة صغيرة. سرعان ما وجدتُ نفسي في بالوعة أخرى وسهل عليّ تكرار اللعبة. وشيئاً فشيئاً تحوّلتْ إلى عادة. ليست هذه لحظة أن أحكي لكما كيف كانت تعملُ الشبكة، يكفي أن أعترفَ بأنّني انتهيت إلى أن خرجت الأمور من يدي، مثل سدّ حين يَفيض، ولم يعد باستطاعتي أن أسبح عكسَ التيار.

ـ لكن الفوائد التي كنتَ تدفعها لزبائنك بقيت دائماً استثنائيّة ـ قاطعني إسحاق.

ـ كانت الطريقة الوحيدة للاستمرار بجذب رؤوس المال. كان النكوص سيوقظ كلّ أنواع الشكوك وسيسرّع بالكارثة.

ـ والكارثة وقعت.

كان ابني الفظُّ على حقّ، لكن هذه هي طبيعة نظام بونزي[1] وهي

---

(١) Esquema pozni نسبة إلى المهاجر الإيطالي كارلو بوزني (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩)، الذي اكتشف في العشرينات من القرن الماضي أنّ قسائم ردّ البريد في أوروبا أرخص منها=

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أيضاً، إذا ما سمح لي تعجرفي، طبيعة الكون: تدوم الأشياء ما تدوم، كلّ شيء ينزع إلى الفوضى. بعدها ينتهي. هو قانون بلا ضمير. قانون، أخذته بالمناسبة دائماً بالحسبان. من اللحظة التي تحوّلت فيها المحاسبة المزدوجة إلى حياة ثانية بالنسبة إلى مؤسّستي، أدركتُ أنّني فقط أستطيعُ أن أُطيلَ في عمر المظاهِرِ. بدأتُ حياةً انتقالية عابرة تميّزت بهشاشة معقّدة متّجِهة بوعي نحو الكارثة. عندما سقط لِهمان عرفتُ أنّ زمني انتهى. بعد كلّ حساب يُخيّم الموتُ فوقنا. لكنّني كنتُ قد تبنيت آخر: موت اليوم الذي اكتشفتْ فيه لي وولداي أنّني لم أكن الذي كنتُ أقول.

ـ لا تعرفون كم مرّة استيقظتُ في منتصف الليل، مُتَصَبِّبا عرقاً ومتصوِّراً اللحظة التي سأرى فيها نفسي مُجبراً على أن أُبيِّن لهم من أكون. لا أطلب أن تتفهموني، أيضاً لست من الوقاحة إلى حدّ أن أطلب منكم الغفران. الشيء الوحيد الذي أطلبه هو أن نُوَلّي الأدبار من هنا وأن نواجه هذه الصفعة ضمن الأسرة. أرجوكم أن تأتوا معي.

ـ ونتحوّل إلى فارّين؟ ـ أفلت إسحاق ـ. نحنُ لسنا مُجرمين.

لم يكن خطابي جيداً، أعترفُ، لكنّه كان عليّ أن أعمل كلَّ ما بوسعي كي أحملهم معي. يا سوزان قلتُ لكِ وقتها وأنا ألفظ اسمكِ بأعظم عذوبة، ساعديني، يا سوزان، على إقناع أخيك. كان عليّ أن أُناشِدَ مشاعرك وأنجحَ في أن تُساعديني. استراتيجية مشينة، أعرف، لكن كان عليّ أن أجرّبها.

ـ أليس هناك خيار خر؟ ألا نستطيع أن ننتظر أكثر قليلاً كي نُقيّم حجم الأضرار؟ ـ قلتِ بصوتك الناعم المهشّم.

=في الولايات المتحدة وأنّه إذا استجرّها وباعها سيربح أموالاً طائلة ولم يفعل لكنّه فعل شيئاً آخر نشر الخبر وتجاوب الناس معه فاستثمروا أموالهم عنده؛ يأخذ من المستثمرين ويدفع لهم فوائد مغرية من أموالهم ذاتها أو من أموال المستثمرين الجدد.

رماكِ إسحاق بنظرةِ حيوان.

ـ هل ستُدافعين عنه؟ هل تنتبهين إلى ما تفعلين؟، يريد أن يُقسّمنا، يا أختي، كما يفعل دائماً. أنت الطيّبة وأنا المتمرِّدُ، أنت الشكورة وأنا الجحود. لا تدخلي في لعبته.

ماذا كان باستطاعتكِ أن تفعلي بين جبهتين؟ فأنت منذ نعومة أظفارك وجدت نفسك مُجبرة على أن تتظاهري كما لو أنّك حكم في نقاشاتنا، على أن تخففي من إهاناتنا وخسارتنا لمصداقيتنا وتعدّلي من خروجنا عن طورنا وأن تُحققي الحدَّ الأدنى من الودّ بيننا. إلى أن جاء يوم ما عدت فيه قادرةً على تحمّل كلّ ذلك الوزر، وما عاد جسدُكِ المحروم من الغذاء يستطيع مقاومته فانكسرتِ. وعندما تجاوزت المرض أنذرتنا بأنّك لن تعودي لتتوسّطي بيننا وأنك لن تخسري اتزانك بسببنا وطلبت منا أن نكفّ عن إقحامك في مشاجراتنا. والآن عدت لأطلب منك ـ لأطالبك ـ أن تتدخّلي من أجلي مع أخيك وتساعديني على إنقاذه.

إسحاق لم يَنْصَعْ.

رمى على المكتب برزمِ الأوراقِ المالية وجوازاتِ السفر ومعلوماتِ الحساباتِ الخارجية، بطاقاتِ السفر وعناوين اتصالاتِنا في كلّ محطة من رحلتنا. وجرَّكِ من ذراعكِ باتجاه الباب دون أن يتركك تودّعينني.

لن أغفر له أبداً أنّه اقتلعك من بين ذراعيَّ وأنّه منعني من أن أقبّلك القبلة الأخيرة.

اللعنة عليكَ، يا إسحاق.

ما تبقى سبق وحكيته. هتفتُ لِفيكرام، وجّهته باقتضاب، نزلتُ في مصعدِ الخدمة، أخذتُ السيارة في الشارع الخلفي وهربتُ للأبد، أو هذا ما أنشدهُ.

حاولتُ أن أُنقذكما، يا ولديَّ، لكنّكما رفضتما. كيف كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باستطاعتي أن أجبركما. وبينما كنتُ أقفز من مكان إل آخر من الكوكب واسمي محفور في مكان ممتاز في لوائح المطلوبين الأكثر بحثاً من الإنتربول، ، أردت أن أصدّق أنكما في منجاة وأنّكما لسبب ما ـ ترتيب جنٍّ سحري ـ ستبقون على هامش الشكوك وأنّكما إذا ما سارعتما لإبلاغ الشرطة عنّي، كما فعلتما في ذلك الصباح لن يحدث لكما سوء. تفكير سحري. خداعٌ ذاتي. في أعماقي كنتُ أعرفُ إنّكما إذا بقيتما ستكونان مهدَّدين دائماً. أوّلاً من أولئك، نسلِ الثعالب ذاك، الذين هم الصحفيون ثم من شرطة مكتب التحقيقات الفدرالي أولئك، الذين سجّلوا تصريحاتكما بدقة مُفترضة.

صعقني الموتُ الحقيقيّ في اليوم الذي التقطتُ فيه من الأرض، بعد أسابيع طويلة دون أخبار من الغرب، نسخةً مُتّسخة من الهيرالد تظهر فيها صورتكما:

إسحاق وسوزان فولبّي، ابنا المضارب الذي نصب عل زبائنه بخمسة عشر مليار دولار اتهما رسمياً بالتواطؤ مع أبيهما، الفارّ منذ الثاني من تشرين الأوّل من عام ٢٠٠٨.
كيف لن يكون أسوأ يومٍ في حياتي؟

المشهد الثاني
حول كيف أخطأ بعضُ الجنّ في سحرهم الأسود وانضمّت أُمي إلى الكائنات غير الأرضية

آريا جوديث

بالطبع أنا لم أكن أؤمن بهم، يا ولدي، لكنّ جدّتي كانت تؤكّد أنّها رأتهم بينما كانوا يحومون فوق رأسها في ليالي البدر، هناك في الشتيتل[1]، قبل وقت قصير من دخول القوزاق، «يصدر عنهم نور داكن»، كانت تُرَدّد عليّ العجوز وهي تُطقطق بفكيها، «خفيفة كاليعاسيب، تسكن بين ظلال الملحق وفي جحور النواجذ، تتغذى على القشور التي تنسلخ عن أقدامنا بينما نحن نيام. هل تدرين ماذا قالوا لي، يا جوديث؟ إنّني سأُدرك العمر الذي أرى فيه أجنحة البشر». كان الأطفال الآخرون يجرون حين يرون ثآليلها، شالها الذي يصدر عنه نتن الجبن الزنخ، طرقات عكّازها عل الدرجات، وقتها كنتُ أعيش في بروكلين وقبل أن تصاب بالعمى تمكّنت من تمييز طائرة. ماتت المسكينةُ قبل أن أكمل الخمس سنوات، لكنّني ما زلتُ أتذكّرُ حرَّ المقبرة

(١) الاسم الذي عرفت به القرى اليهودية في وسط وشرق أوروبا وسنسميها في الترجمة القرية اليهودية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجهنّمي، ترنيمة الحاخام الناعسة، غياب الدموع عن خدَّيّ. لم أعد لأفكّر في تلك المخلوقات الرقيقة حتى سنوات لاحقة، حين حَبِلتُ.

عندما تعارفنا حذّرني والدُك قائلاً: «إذا كنتُ واثقاً من شيء فهو من أنّني لا أريد أن أُضيف مزيداً من البؤس إلى هذه الأرض». كان الشرط الوحيد الذي فرضه عليّ عند زواجنا: حفاظنا على عقمنا، أولاد من دون أولاد. ماذا أستطيع أن أقول لك؟ كنتُ مسحورة بِنُوَا، ذلك الشاب الهشّ والمحمّل بالمشاريع، كانت صرامته وحفيظته تزيد من رغبتي. قلتُ له موافقة، كنتُ ما أزال في عزّ الشباب وأبحث عن الحبّ، حبّ متلهف، كيف سيكون باستطاعتي أن أعرف أنّ جسدي ـ وليس روحي، جسدي ـ سيُطالبني بالحنث بذلك الوعد. تجرّأتُ خلال سنوات زواجنا الأولى على أن أمرِّر ذلك، لكنَّ عناده لم يكن يسمح بالتنازلات. ما الذي حمله على أن يكره فكرة أن يكون أباً؟ من المحال استنطاقه: كان نوَا، كما قلتُ لك، من حجر. «لا يهمّ الماضي، كذب أنّنا تابعون لحمله»، كان يقولُ لي، «فقط يهمّ المستقبلُ، وفي المستقبل، لا أريد أن أصبح مسؤولاً عن ألمِ مَنْ حتى لم يطلب مني الحياة، هذه الهدية المسمومة».

تواطؤي صبَّ في الإذعان، ثم الضيق، لا بد أن يكون صحيحاً أنّنا نحن النساء تحكمنا الغرائز. على الرغم من أنّني لم آتِ من أسرة متعلّمة كأسرته، بل من محيط من التجار أقرب إلى الريفيين، كنتُ أعتبر نفسي فتاةً مثقفة في تمرّدٍ دائم ضد أحكام العصر المجحفة. لا ترسمني في مخيلتك ربَّةَ منزلٍ مذعنة لكيِّ الملاحفِ وتتبيلِ كرات اللحم، إذا كنتُ قصمتُ ظهري وأنا أعمل مستخدمة فذلك كي تُدْفَعَ لي ساعاتُ العمل الليلية وأحقّقَ مستقبلاً على قياسي، كنتُ قد قرأت، مثل أبيك، كتباً كثيرة بل وأكثر منه وكنتُ أستلهم أعمالَ إيمّا غولدمان والمناديات بحق الاقتراع. لم أعتبر نفسي قطّ أدنى من الرجال، وأردتُ في فريق مع أكثر

الناس مناداة بالمساواة، أيضاً أن أُحسّن العالم. لا أستطيع أن أقول إنّني كنتُ شقيّة، لكنّني عندما أتممتُ الخامسة والثلاثين انتابني شعورٌ بانزعاجٍ مبهم في بطني وثدييّ. فراغ. على الرغم من الحساسية التي تتميّزُ بها، إلا أنّك لن تستطيع، يا بُني، أبداً فهمه: أنا نفسي تأخّرتُ كثيراً في اكتشاف أنّ الطبيعةَ تقهرُ أيّ إيديولوجيا. قد تكون الهرمونات، أو ما يحلو لك، عواء في الأحشاء، يُترجم بصوت طفوليّ يثقب سمعك. ليس جنوناً: أؤكّد لك إنّني سمعتُ صوتك في أحشائي، مطالبتك لي بأن تُولَد.

أردتُ أن أتكلّم مع نوَا عمّا كان يحدث لي، لكنّه، هو الغارقُ في أوجاع الرأس الخاصة به ـ كانت تلك سنوات الحرب ـ، لم يعرني أدنى انتباه. خفتُ أن تكون معركتي خاسرة، بحثتُ عن تسليات أخرى، انغمستُ في مدينة الأيتام، بل وفكّرت بتبنّي واحد من أولئك البؤساء، الذين هُجِروا. لكنَّ صرختك في داخلي صارت في كلّ مرّة أكثر حدَّة، صارت لا تُطاق. هزمنا النازيين واليابانيين، صارت حياتنا مقلقلة وعشوائية، الأمر الذي زاد من عزيمتي عل حملكَ، بينما كان أبوكَ ضحيةَ كلّ أنواع الإشاعات. بعد أن رُقّي في المنظّمة التي ساعد هو نفسه على إنشائها جُرد بين ليلة وضحاها من منصبه. بعد حياة كاملة مكرّسة للخدمة العامّة ـ لتقفّي الخير، للكفاحِ من أجل مصالح بلده ـ لم يكد يحصل عل منصب مستشار في شركة نيويوركية بائسة. كنتُ أعرفُ أنّه يحتاجني أكثر من أيّ وقتٍ مضى، لكنّني كنت بحاجة إليكَ أكثر.

كيف اتخذتُ القرار؟ لم أتوقف لأفكّر بذلك، كما أنّني لم أخطّط له بخبث، أقسمُ لك. خرج أبوك باكراً جدّاً في ذلك الصباح، كان على موعدٍ مع من لا أدري من في نيوجيرسي ـ لم يشاركني قط في عمله ـ وأنا بقيتُ في السرير حتى ساعة متأخّرة جدّاً. كنتُ أشعر بأنّني مغمومةٌ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على وشك أن أختنق، ركضتُ إلى الحمّام وتقيّأت في المغسلة. وعندها رأيتُها هناك مكومة في الجانب الخلفي من غرفة المؤونة: الواقيات التي كان يكومها نوَا بحذر (والتي لم نكدْ نستخدمها منذ أن بدأت المشاكل) لم أشكّ ولم أُقدّر النتائج، منذ تلك اللحظة لم أعد أعمل لوحدي، أكاد أحبّ أن أقول إنّ تحالفاً تشكّل بين الاثنين، بينكَ، وكنتَ عل وشك الولادة وبيني *أنا* التي سأساعدك بالفوز بها.

عندما وصل والدك في تلك الليلة والتعبُ وسوءُ المزاج علِقا بروحه، قدَّمتُ له كأسَ ويسكي ورجوته أن نتكلّم حول ما كان يحدث لنا. لشدّما أدهشني أنّنا انتهينا إلى الدردشة بألفةٍ فقط أتذكّر أنها كانت موجودة فيما قبل الحرب. اعتذرتُ لأنّني ظهرت بعيدة عنه كلّ ذلك البعد ولم أساعده حين كان بأمس الحاجة إليها. إغواء بكل المقاييس. حضّرت كؤوساً أخرى وحين أصبحنا أقرب إلى النشوة أخذته من يده وقدته إلى الغرفة. تعرّينا ووضعت له الواقي بنفسي (أوفّر عليك التفاصيل). ذلك الواقي الذي كنتُ قد ثقبته في الصباح بمقصّ. أعترف لكَ أنّني لم أندم قطّ على تلك الخدعة وركّزتُ على انتظار اللحظة التي أستطيع أن أتأكّد فيها مما إذا كانت قد نجحت أم لا.

ربّما نتيجة الخجل الحميم أو الموروث رفضت أن أذهب إلى القابلة وقرَّرتُ أن أزور تشارنا وهي مولِّدة عجوز هاجرت إلى أمريكا من قرية جدّي اليهودية نفسها. أتذكّر أنّ أمّي حملتني قبل سنوات إلى شقّتها في هارلم لتستشيرها بموضوع لم تبغِ أن تُفصّله لي (كان عمري قرابة الخمسة عشر عاماً). طرقنا الباب، استقبلتنا بإيماءة انزعاج وقادتنا إلى غرفتها، سرير بائس محاط بسلسلةٍ من الوجوه الريفية. لا أدري ما الذي جرى في الصالون ـ ميَّزتُ بعض الصلوات بالعبرية وعندما خرجتُ

ميّزتُ موقداً صغيراً ودخانَ شمعة ـ، لكنّ أمّي، التي بدت في تلكَ الأيام أكثَر اضطراباً من المعتاد، كانت ترسم ابتسامة واهنة على وجهها. «هل تستطيعين أن تؤمِني بهذا، يا جوديث، أم لا؟» قالت لي في الشارع، «لكنّ هذه المرأة قديسة».

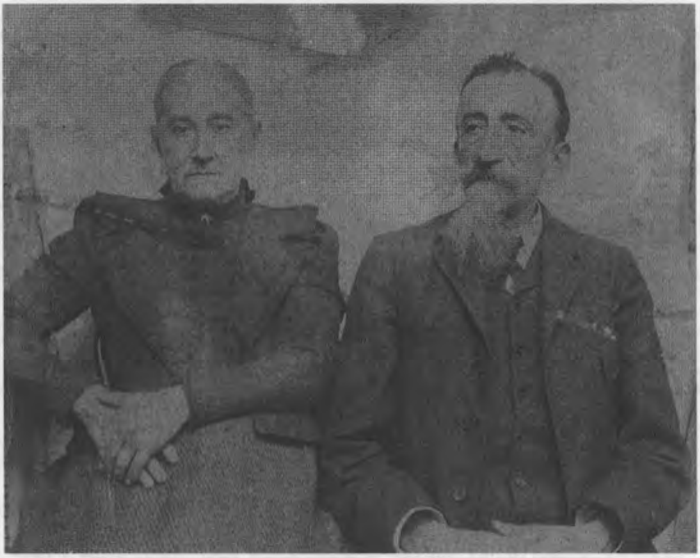

جدّايَ في قريتهما

كانت تشارنا في سنوات عمرها التي تقارب التسعين شخصية مهيبة، بعينين كالجمر وحيوية وزنٍ ساحقٍ يبلغ مائتي رطلاً. يبدو أنّ مزاجها لم يتحسّن، فقد فتحت لي البابَ بذات الوجهِ المُتجهّمِ، الذي أتذكّر أنّه كان لها في المرّة السابقة، الفارق الوحيد المحسوس كان في لثّتيها العاريتين وشفتيها المُزمومتين إلى داخل الفم، كما لو أنّها ستبتلعهما.

ماذا تريدين؟ ـ صاحت باليديشية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنا...

أعرف جيّداً من أنتِ، جوديت فاربستاين.

خفضت نظري.

فهمت ـ أضافت ـ انتظري ثانيةً.

رفعت جسدها العملاق ببعض الرشاقة، انسحبت إلى المطبخ وعادت ببيضةٍ، وكتاب صلوات صغير وشموع. جلست مقابلي وأشعلتها؛ أمرتني بعدها بإطفاء الأنوار، وضعت يديْها الإسفنجيَّتَيْن فوق يديَّ.

أغمضتْ عينيها ولزمتْ الصمت.

إنّهم هنا ـ تمتمت بصوت خشن.

من؟

اسكتي ـ وبّختني ـ إنهم يسمعونك. هنا من حولك. لا تستطيعين رؤيتهم، لكنّهم يستطيعون رؤيتك. يلحقون بأسرتك من القرية.

فهمت ما كانت تقوله، إنهم الشياطين، المخلوقات التي كانت تطوف حول جدّتي في ليلة البدر التام، خفيفةً كاليعاسيب.

لا تخافي، يحيطون بك وبأسلافك منذ أجيال، تعلّمي أن تتعايشي معهم، أصيخي السمعَ وستسمعين همسهم.

أخذت تشارنا البيضةَ ووضعتها فوق اللهب، مقطوعة في الظلمة مثل محاقِ إهليلجيّ وفتشت في نسيجها الذي كان يظهر من داخلها.

الجواب الذي يعطونه لسؤالك هو نعم ـ أفتت ـ سيكون توأماً.

هناك شيء آخر ـ أضافت ـ واحد منهما سيكون صالحاً والآخر شريراً. هم يقولون إنّ عليك أن تعرفي هذا.

أخذت كتابَ الصلوات وأمرتني أن أرافقها. لا أتذكّر ما الذي قالته

أكثر عن الشياطين، انطباعي كان أنّها كانت تبحث عن تهدئتهم. على الرغم من أنّني لم أكن أؤمن ـ ولا أؤمن ـ بتلك الشعوذات. لم أكن أستطيع أن أقتلع كلماتها من رأسي فهزمني الإجهاشُ. حاولت تشارنا أن تُواسيني ببعض من سماحة الأم. ودّعتها دون عناق. وضعتُ بعضَ الأوراق المالية على الطاولة، شكرتها وذهبت بكلّ سرعة.

لم أنجح خلال أسابيع من محو ذلك الجسد الدقيق المنطوي على نفسه في داخلي. والدك نفسه، الذي كان يبدو وقتها أنّه لا يهتمّ إلا بنفسه، لاحظَ ضيقي وسألني ما الذي يحدث لي. قلته له: أنا حامل. رأيتُ كيف راح يُجهد نفسه كي يكبحَ خوفه ويحاول أن يكون عقلانياً. كيف أمكن ذلك؟ وكيف تعرفين. ببساطة أعرفُ. هل ذهبت إلى الطبيب؟ لا. إذن؟ ببساطة أعرف، كرَّرتُ. وأعرف شيئاً أسوأ من هذا: إنه توأم. لن تزرعي حياة أخرى في عالمِ الخراء هذا، يا نُوَا بل حياتين.

وقتها لم يستطيع أبوك أن يتحكّم بنفسه، ضرب الجدارَ بقبضته ـ اضطرَّ بعدها لأنّ يستعمل حمّالة ـ وهرع إلى الشارع. لكنّه كان رجلاً طيّباً وعاد بعد دقائق قليلة. اعتذر منّي وأمرني بأن أذهب إلى الطبيب. لم أجرؤ على أن اعترف له بزيارتي للتشارنا، كما لم أكلّمه عن الشياطين ولم أحكِ له عن الأسوأ، الذي هو أنّ أحد ابنيه سيكون بحسب قولها صالحاً والآخر شريراً. كيف يمكن لواحد مثل أبيك، مُدمن على العقلانية وقوانين التاريخ أن يُصَدّق تنبّؤاً بمثل هذا الجنون؟

«أنتِ في أسبوعك التاسع» أكّد الاختصاصيّ، لكنّه أصرّ على أنّه لا يُسمع في داخلي غيرُ قلب واحد، وبالتالي هناك جنين واحد فقط. لا جنينان. لا شيء من التوأم. رفضت أن أثقَ بتشخيصه، واثقةً من أنّه كان مُخطئاً. لكن أمام الزمجرات العنيفة لأبيك، الذي على كلّ الأحوال لن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتأخّر في هجره لنا، لم أنقطع عن تصديق تشارنا ولعنةِ الشياطين حتى الليلة التي وُلِدتَ فيها.

برهنت الولادة، بعد كلّ حساب، على أنّهم أخطأوا، وحدك، يا بُنيّ، كنتَ تسكن بطني. لم يكن هناك أيّ أثر لأخٍ فاسد. كان جنوناً خالصاً، هذيان امرأة أضنتها الوحدةُ والريبة والرغبة. تبدو لنا المصادفاتُ وسط الاضطراب نبوءاتٍ. شيء غريب أنّك أنتَ من أنجبَ توأماً في النهاية، لكن هذا زمن آخر. عصر التقدّم وتقدم العلوم، أصوات ما فوق السمعية والرحلات إلى القمر، لا شيء مما يجب أن يشغلك.

ترتيل

آه، يا أمي.

على الرغم من أنّ أفكار جوديث كانت تتنبأ بحركة الستينيات النسائية الحانقة ـ أو، الآن وأنا أُفكّر بذلك، أقولُ ربما كان تماماً لهذا السبب ـ ؛ كانت تؤكّدُ أنّ قوانين الإرث خطأ شنيع، وكان التطوّر يبدو لها وسيلة ذكرية، وُضِعت لغاية وحيدة هي اقتلاع نصف الأولاد من صاحباتهم الشرعيات، النساء. من هو الذي رأى القديم والجديد داخل خلايانا؟ كانت تسخر، في الوقت الذي كان يتحوّل فيه كريك وواطسون إلى جانب نيكسون، هوفر، البابا وأي ملياردير بمن فيهم آل كينيدي، إلى أبغض الناس إلى نفسها. الطبيعة الطفولية تتشكّل، بحسب قولها، بفضل المُحاكاة، هذه النسخة الصامتة والحتمية التي تبدأ حين تهدهد الأمُّ طفلَها في حضنها وتبتسم له. «الرجال دائماً غائبون» كانت توضّحُ، «وجيّد أن يكون كذلك. لا أفهم أولاء النساء اللواتي يتذمّرن لأنّهن يبدلن حفّاظات أطفالهنّ أو يعقمن رضاعاتهم، بينما أزواجهن يناقشون

في السياسة أو ينتفخون بالبيرة أمام التلفاز. عليهنّ أن يحتفلن بأن هذه التسليات البدائية تُبعدهم عن صغارهم».

آه، يا أميّ.

في حالتي بالكاد كانت تُخفي فرحتها بغياب المنافسة: بعد وفاة أبي المبكّرة - أذكّركم قرّائي المتأثرين - بأنّني وُلِدتُ بعد أسبوعين من سقوطه. كانت هي مثلي الوحيد. وجهدت في أن يكون ذلك. لا أستطيع أن أؤكّد أنّها عانقت العفّة، على الرغم من أنّه ما من رجل عاد وعبر بابنا. نظريتها النفسية الخاصّة حكمت علينا بأن نبدو مثل قطرتي ماء؛ منذ أن بدأت أستخدم عقلي كان هذا هدفها الوحيد، رغبتها البطولية أن تحوّلني إلى نسخة طبق الأصل عنها، تُشكّلني على صورتها وشبهها. هي يجب أن تكون إلهتي وأنا مخلوقها؛ هي زيوسي وأنا أثيناها؛ هي حاخام براغ وأنا غوليمها[1]، هي الدكتور فراكشتاين وأنا (جاذبيته) المسخ.

انتصرتُ في جوانب كثيرة: في طريقتنا الفظّة بشكلٍ متساوٍ، في كيف نعضّ على شفتنا السفلى عندما نستاء، في شغفنا المشترك بشقراوات هيتشكوك وقصصِ الأشباح، في الكراهيةِ التي نكنّها للأثرياء، البلهاء والمتهيّبين (تصوَّروا حين تجتمع كلُّ هذه الصفات في شخصٍ، إنّه شيء يحدث أكثر مما نُفكّر)) في عدم قدرتنا على البقاء صامِتَين وفي المتعة التي تحدثها عندنا النميمةُ والمجلات الوردية، في

(١) حاخام أو مهرال براغ (١٥١٣ - ١٦٠٩) الذي قيل إنّه صنع غوليماً من طين نهر فولتافا ودبّ فيه الحياة من خلال الطلاسمِ كي يحمي الطائفة اليهودية من أعدائها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقتنا للبيض المسلوق مقشوراً، والقطط السيامية وأصحاب الأجسام الكاملة وفي هذه الأنانية الحميمة والمركّزة في كلّ عمل من أعمالنا.

النسخ لا تكون، للأسف تامّةً أبداً. وانظروا إلى أنّني جهدتُ ودّاً أو خوفاً في أن أُقلّد حتى مظاهر اليديشية في نبرتها البروكلينية وفي أن أحافظَ مثلَها على الأمل بالجنس البشري. *محال*. منذ نعومة الأظفار أظهرتُ بعض العلامات الفارقة التي كانت جوديث تعمل عل استئصالها كما لو كانت أوراماً سرطانية: تعلّقي بدرجاتِ ألوان الباستيل في الوقت الذي كانت هي تعشقُ الألوان الطفالية والحمراء، مزاجي أكثر تنافسية مما كانت تحكم هي بأنه المزاج السليم، تعلّقي بِ نابوكف ومغمدات الأجنحة والفومولا ١؛ بعض الخبث الذي كانت تعتبره خطيراً (وكانت تصيب عين الحقيقة) وشغفي بالقصص الفكاهية المصوّرة والرسوم المتحرّكة وفوق كلّ شيء هوسي بجمع الأشياء.

كنا نتشارك، هذا صحيح، بعدم الثقة بفرويد والتحليل النفسي، لكنّني لن أثقل عليكم، قرّائي الصابرين، بما لا نهاية له من الحكايات عن طفولتي وثغراتها كي تخرجوا باستنتاجات لا طعم لها حول ميولي للنصب والهرب. دائماً مقتُّ في السير الذاتية ذلك الترتيب الزمني الذي يُجبرنا على أن نحكم على الحياة كطريق مستقيم ومضاء يصل بين ظلمة الرحم وظلمة القبر. ما أزيف أن نعتبر أنّنا دائماً كنّا أنفسنا، أو أنّ أسبابَ ضياعنا مكتوبة على ندوب الماضي! حين أغوص في مذكرات شخصيّةٍ أو نجم سينمائيّ، أبدأ القراءة عندما يكون هؤلاء قد تخطوا العشرين، موفّراً على نفسي مئات الصفحات المحشوّة بالتفاهات والتعذيب المدرسي.

جوديث فاربستاين، أمّي في شبابها.

سأحاولُ كي أُنصفَ هذه المبادئ أن أُلخّص طفولتي، ـ كلّ طفولتي، منذ ولادتي وحتى الثانية عشر ـ فيما يقارب المشهدين. هل سيكون كافياً؟ إنّهما يرسمان بجرّة قلم علاقتي بأمّي. وما زالا يؤلمانني. فقط أتوسّل إليكم ألا تفسروهما بمصطلحات رمزية.

كنتُ في السابعة أو الثامنة وكنت في كلّ مرّة أذهب فيها إلى الحمّام آخذ معي ورقاً معدنياً من النوع الذي يُستَخدَم في لفِّ الشطائر؛ وما إن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصبح هناك حتى أُودِعَ عيّنة من برازي في ورق الألمنيوم قبل أن أجلس على المرحاض. ولم أكن أشدّ الحبل حين تفرغ أمعائي، كي أتأكّد من أنّني لم أُقاطَع وكنت أُركّز على تحليل قاذوراتي. باحث علميّ بالتمام والكمال! كانت تسحرني العلاقة الغامضة بين الأغذية التي أستهلكُها وقوامِها، رائحة أو عطر البراز الذي تنتجه. وكنت أتابع الأوصاف البصرية والشمّية لسبانخ العشاء ومعكرونة الغداء أو رقائق ذرةِ الفطور، مقتنعاً بأنّني أحقّق تقدماً مفصلياً في تقدّم العلوم. كنتُ أُسَجّل اكتشافاتي في دفاتر لؤلؤية، أُشير في صفحاتها إلى ساعةِ ويومٍ كلِّ غائط، أرسم مخططات وجداول مقارنة وبسلم عشرة إلى واحد أُقدر صلابةَ المادّة وكذلك نتنها (بالنسبة إلى آخرين، فأنا كنت معصوماً من غازاتها)، بالإضافة إل تسجيل فرضيتي عن الأصل الحيواني أو النباتي لكلّ مُنتج. أخيراً كنتُ أطوي ورقة الألمنيوم بعناية حتى تتشكل كرة صغيرة أخبّئها بعد ذلك في رفّ في عمق الخزانة.

أعرف أنّ هوايتي ستبدو للكثيرين غير سليمة، أو أنّهم سيُحاولون أن يفسروا من خلالها انحرافاتي. أنا فخور بمزاجي التحليلي وولهي بالتفاصيل، الفضيلتين اللتين عادتا عليّ بفائدة جمّة في مراهناتي اللاحقة. من يستطيع أن يؤكّد أنّني لو تابعت في بحوثي ما استطعت أن أصير كيميائياً أو عالم غذائيات شهير؟ أو أنني استطعت أن أُؤسّسَ مذهباً جديداً، علم البراز، ونشرت مئات المقالات والكتب الأكاديمية حول الموضوع؟ (ولكان زبائني شكروني عليه).

آه، يا أمّي.

جوديث لم تكن مُهتمة بالعلوم. ذات يوم عدتُ من المدرسة وتوجّهتُ إلى الخزانة بنوعٍ جديدٍ من البراز لمجموعتي، فوجدتُ أنّ كلّ

العيّنات اختفت. لم يبق منها أدنى أثر، حتى نتنها الخفيف أزيل بمعقم. لم تقل لي أمّي شيئاً. كنتُ أعرف أنّها المسؤولة عن السرقة، لكنّني لم أجرؤ على الإبلاغ عنها وهي تحصّنت خلف لامبالاة محسوبة تجاه قلقي. لم توبّخني ولم تسألني عن أيّ شيءٍ في تلك الليلة، ومع أنّني رفضتُ أن أتناول العشاء، وأنّني بالكاد لفظت كلمةً فإنّها لم تُؤنّبني كما في مرّات أخرى. اكتفتْ عندما ذهبتُ إلى سريري بأن وضعت كأسَ حليب وبعض البسكويت بجانبي. ووصل بي الأمرُ أنْ شككت بجمعي لتلك الكرات الفضّية وبمستنقعاتِ الذاكرة الخادعة، وأكثر من ذلك لا أستطيع اليوم أن أقسم بأنّني ملكتها. بالمقابل رافقني إحساس أنّ جوديث خانتني ـ بل وأسوأ من ذلك، نهبتني ـ لسنواتٍ عديدة. أفترض على الأقل أنّ هذا الغضبَ حقيقيّ.

آه، يا أمّي.

شيئاً فشيئاً نسيتُ الحادث إلى أن انضمّت جوديث إلى سكان الفضاء الخارجي. بحسب المعلومات التي كانت تجمعها من ملحقات صحف الأحد المصوّرة، فإنّ سكان الفضاء الخارجي صاروا بيننا، وحراشفهم الزيتية وعيونهم الجارحة تبقى متخفية تحت جلود بيضاء مزيّفة وابتسامات ودّية مزيّفة. مهما أصرّ الواحد على كشفِ قناعهم، فإنّهم يملكون صيغة تسمحُ لهم بأن ينسخوا مظاهرَنا، فقط عندما يموتون، وخاصّة على يد العدالة أو الشرطة، تنكشف طبيعتهم، طبيعة الزواحفِ وعندها يشتعل لحمهم تلقائياً وتتلوى ذيولهم، التي لضبٍّ إلى أن تنتهي رماداً. الدرس بسيط جدّاً، يجب أن يكون المرء متيقّظاً دائماً، أن يشكّ بأصدقائه وجيرانه، فأي منهم يمكن أن يحمل في داخله واحداً من هذه المخلوقات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد بضعة مساءات من تحمّل تجاهلها ـ كانت تنقطع عن الكلام معي في كلّ مرّة لا تُشبع تقديراتي توقّعاتِها ـ اقتنعتُ بأنّ جوديث واحدة منهم. درستُ تصرّفاتها أسابيعَ. كنتُ أتجّسس عليها وهي نائمة وأراقبُ مكوِّنات طعامها (كان يُقال إنّهم يحتاجون للسكر بإفراط) دون أن أتوصّل إلى تشخيص دقيق. وماذا لو أنّ أمّي كانت مُخْتَطَفَة ومُسْتَبْدَلة بعظاءةٍ، تجاعيدها بلاستيكية؟ كنتُ أسمعها تتمتم خلسةً بالهاتف، بكلماتٍ غير مفهومة، ربّما كانت منتج لغتها، لغة كائنات الفضاء الخارجي النشاز، غير المفهومة.

كنتُ أعرف أنّها كانت تُخبّئ في أدراج منضدة سريرها صندوقاً صغيراً وتخيّلت أنّها تكنز فيه مخططات سفينة فضائها أو التعليمات لقتل قادتنا. إذا كنتُ فعلاً أريد أن أُنقذ حياتي ـ وأُؤمّن بقاءَ البشر على الأرض ـ عليّ أن أفتح بالقوّة تلك الحصّالة وأسلّم محتوياتها للسلطات. لم تكن المهمّة سهلة، فقد حظّرت جوديث عليَّ الدخول إلى غرفتها وتظهر دائماً حذراً وتوثّباً. فرصتي الوحيدة هي أن أستغلّ حمّامها الليليّ. كانت الخطّة مخاطرة، إذ لو خطر لها أن تفتح البابَ بطريقة غير متوقّعة سأكون تحت رحمة أنيابها. جّهزتُ نفسي مدّةَ أسابيع، أقيسُ الدقائقَ التي كانت تقضيها تحت الماء، بين سبع واثنتي عشرة دقيقة، بحسب تعبها. عملتُ مناورتين وحضّرتُ نفسي للتاريخ الحاسم.

أنا في طفولتي

ذات ثلاثاء، أتذكّره لأنّها اعتادت أن تزور في ذلك اليوم قبر أبي، وتظهر عملياً منهكة. التهمت عجّتي الفرنسية بكلّ سرعة ولجأتُ إلى غرفتي، نظريّاً كي أُنهي واجباتي المدرسية. قرأت هي قليلاً ثمّ أغلقت على نفسها الحمّام. لم يكن باستطاعتي أن أضيّع ثانيةً واحدة، دخلتُ غرفتَها بحذرٍ، وفتحت الأدراج، محاولاً ألا تصرَّ، درجاً بعدَ آخر، دون أن أعثر على الصندوق الصغير. فجأةً حين التفتُّ بنظري كانت أمّي هناك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمامي، صغيرة ومتوعّدة. كانت عيناها تُطلِقان إشعاعاً أحمرَ، مثل كلِّ العظاءات. لقد قُضي عليَّ.

هل تبحث عن هذا؟ ـ سألتني بصوت هادئ مشيرة إلى الصندوق الذي كانت تحمله بين يديها (عليّ أن أقول مخالبها)

لا ـ تلعثمت.

أوّلاً لقّنتني درساً في الخصوصية واحترامِ أسرارِ الآخرين، ضربتني بعدها ضربتين مدوّيتين على إليتيّ (شعرتُ بالحراشف تحت جلد راحتيها الخشن) وحبستني في غرفتي حتى إشعار آخر. شعرت بالراحة تقريباً. فهي على الأقل لم تلتهمني.

لكنّ انتقامها اللاحق كان بلا حدود. ما إن عدتُ من المدرسة في اليوم التالي حتى طلبت منّي أن أُريها مجموعة قصصي المصوّرة. أريتُها وأنا أرتعدُ مُنَوّعاتي الواسعةَ عن الأبطال الخارقين والأوغاد ـ المُفضّلون لدي كانوا من يتوزّعون بين حياة سوقية يومية، غير مختلفةٍ عن حياتي، وأخرى مليئة بالمغامرات والمخاطر ـ وهي طالبتني بأثمن كنوزي، قصصي عن الأطباق الطائرة ورجال الفضاء. تصفّحت جوديث بفظاظة كتابَ *عوالم أخرى*، المُفضّل لدي. فكّرت ظننت أنّها ستذيبه بنظرتها الليزريّة، لكنّها وبدلاً من هذا أمرتني أن أضعَ كلَّ قصصي المُصوّرة في حقيبة جلدية. بكيتُ بصمتٍ، مدركاً أنّني لن أملك الشجاعة كي أهرب وأنضمّ إل المقاومة.

أخذتني جوديث إلى مأوى أيتام، ثم ولكي تبيّن لي قيمة الكرم وخسّة البخل أجبرتني على أن أهدي مجموعة قصصي المُصوّرة، عشرات النسخ المُجمّعة على امتداد السنين. لم أتحقّق قط مما إذا كانت

غازية من الفضاء الخارجي أم أنّها كانت مجرَّدَ أمٍّ صارمة لا ترحم (اليوم أُفكّرُ أنه كانت لها الطبيعتان) ما لا شكّ فيه هو أنّ طرقها في التعليم لم تعطِ النتائج التي كانت ترغب بها. إجبارها لي على أن أتنازل عن أعزّ ممتلكاتي لم يحوّلني إلى شخص أفضل، لم يجعلني أكثر حساسية أمام الشقاء أو الفقر، لم يدفعني كي أصير محسناً أو كريماً. بالعكس، إذا كنتُ قد تبرّعتُ فيما بعد بالملايين لكل أنواع القضايا الخيرية، فقد كان فقط كي أُلَمِّع صورتي أو أُقَلّل من حجم الضرائب.

في ذلك المساء ذاته وبينما نحن عائدان إلى البيت أقسمتُ أن أُصبحَ ذاتَ يوم صاحب أكبر مجموعة قصصٍ مصورة لرجال الفضاء الخارجي. ووفّيتُ. من المؤكّد أنّ الشرطة صادرتها دون أن تتكهّن بالقيمة العاطفية ـ والاقتصادية كيلا نخدع أنفسنا ـ التي كانت لتلك القصص بالنسبة إليّ.

آه، يا أمي.

ثنائي[1]

لم يكن باستطاعتي أن أتكهّن بردّ فعل جوديث ـ على الرغم من أنّني كنتُ في تلك المرحلة إلهاً، إلاّ أنّه كان لبصيرتي حدود ـ حين قرَّرتُ أن أزورها في دار العجزة الفاخرة في ضواحي أورلاندو، حيث أودعتها قبل خمس سنوات. بدت أمّي في سنواتها السبع والثمانين متّقِدةَ الذهنِ وشجاعةً كما في شبابها، كانت، بحسب ممرّضتها ـ وهي جنوبية نمشاء، بها حول خفيف يضفي عليها سحراً ـ، تُسبّب وجعَ

(١) لحن موسيقى معزوف على آلتين أو أغنية بصوتين نديّ وصادِح في الأوبرا مثلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأس رائع بالنسبة لرفيقاتها، فهي إذا لم تقع موقعاً حسناً فورياً عندهنّ فإنّها كانت تثير إعجابهنّ بقوّة نفسها وصرامة مزاجها. بكلمات أخرى كانت مُتَسَلِّطة ووقحة وترفض أن تُطبق القواعدَ والبرامج، تصرُّ على أن تفرض سلطتها على بقية المسنات، اللواتي لم يكنّ بالوداعة التي توحي بها أجهزة مشيهنَّ وحبوب دوائهنّ. لماذا هزمت مقاومتي وطلبتُ في أوج الطيران مِنْ مات أن يحرفَ الطائرة، باتجاه جنوب فلوريدا، كما لو أنّها مسألة حياة أو موت بدلَ أن يأخذني إلى لندن، لحضور عرض كوفنت غاردن الافتتاحي ـ حكايات هوفمان، بطولة المغنّي رولاند فيلازون المتوثّب ـ ؟ ليس عندي جواب. كان قد مضى عليّ أشهر وأنا أجترُّ إمكانية أن أتكلّم معها، أن أواجهها حتى النهاية، أن أحصرها في الزاوية.

الحقيقة، يا بُنيّ؟ ـ سخرتْ خلال آخر شجار بيننا ـ عند هذا المستوى عليك أن تعرف أنّ لكلٍّ حقيقته التي يستحقّها.

يصعب تخيّلُ أنّ تكونَ تلك العجوزُ، بفولارها الكرزيّ وخدَّيْها المُغطّيين بعنايةٍ بالمسحوق، وبشرتِها ويديها اللتين لطفلة. يداها، فعلاً، كانتا مبقّعتين وبارزتَيّ العظام، (البرهان الوحيد على طبيعتها المنتمية للفضاء الخارجي) قادرةً على أن تقهرني، أنا الأربعينيّ المشهور بانفجاراته وفورات غضبه، لكن كان يكفي أن ترفع نبرتها قليلاً جدّاً كي يتهاوى اليتيمُ المرعوب في داخلي، أمام نزوتها. غادرتُ في ذلك اليوم على وجه السرعة بيتها في فيرمونت ـ القَفْر الذي أصرّت على أن تُقيم فيه ـ، شاعراً بنفسي مثل كلب مضروب. لجأتُ انتقاماً منها إلى شيخوختها البادئة وأجبرتها على أن تنتقل إلى مقبرة الفيلة تلك في

فلوريدا، آخر مكان في العالم كانت ستختاره امرأة تتحسّسُ من الشمس ومن المتقاعدين. بدا أنّ سنواتِ البعدِ والصمتِ السبع (جهدتُ خلالها ألا أهتفَ لها ولا حتى في أعياد ميلادها) حفّفت من حدّتها، أو على الأقل لم تتظاهر بالاستغراب حين عرفت بزيارتي. كما أنّها لم تواجهني بنسياني لها وبرودتي معها. استقبلتني بابتسامةٍ وديعة وعناقٍ شديد. تبادلنا بعضَ الترهاتِ حول صحتها والطقس، الذي كان بالنسبة إليها خانقاً وعاودنا معركتنا.

ما الذي تريد معرفته؟ ـ قالت لي، متغطرسة أكثر مما هي مذعنة.

ستبقى التي كانت حتى النهاية.

من كان نُوَا؟

استثمرتُ على امتداد السنوات العشرين الأخيرة عشراتِ آلاف الدولاراتِ لمعرفة ذلك. لكن ما زال هناك حتى الآن فجوات، فراغات وصدوع، أو على الأقل كنت أنا بحاجة لأن أعتبرها كذلك، كي تُتاح لها هي فرصةُ أن تملأها، ومهما كان وقعها غير معقول، إلاّ أنّني كنتُ أحتاج لكلمتها الأخيرة، لقرارها. كما لو أنه فيما بالرغم من الأرشيفاتِ والشهودِ والرسائلِ والأوراقِ العدلية والتقاريرِ السرية والأسرارِ المسروقة ـ كلّ هذا ولحسن الحظّ يُشترى بالمال ـ، وحدها من كان باستطاعتها أن تؤكّد مصداقية اكتشافاتي وإعادة ترتيبها. أمرتني أن أرافقها إلى الحديقة. جلست في منعطفٍ تحت الأشجار وطلبت من المُمرّضة إبريقَ شاي مثلّج. جلستُ مقابلها على كرسيّ معدنيّ غير مُريح.

ألا تريد شيئاً؟

رفضت بحركة من رأسي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمّي في مأوى العجزة

عليك أن تشرب مُرطّباً ـ حثّتني ـ الحرُّ بالكاد بدأ وتنتظرُك قصّةٌ طويلة.

كان يبرق في عينيها مَلمَحُ سفهٍ، كما لو أنّها تستبق انتصارها. لماذا تندفع بعدَ كلِّ هذا الزمان لتُرضيني؟ لماذا تتراجعُ عن صمت حافظت عليه بعناية؟ هل كانت تستبق نهايتَها وتريد أن تستغلّ الفرصة الأخيرة لتبرئة نفسها؟ بدا لي هذا التفسير في لحظتها، التفسيرَ السليم. صدّقتُ طيبَ نيّتها. ربّما لم يكن عندي خيار آخر.

كاباليتا جوديث

كان أبوك يبدو صعلوكاً. كنتُ أعملُ كبائعةٍ في حانوت للثياب وكان يتوقّف كلَّ مساءٍ، أمام الواجهة، بالكاد عشر أو عشرين ثانية، ما يكفي كي أُميِّز ملامحَهُ الناعمة. شعرَهُ المتشابك، أو قبعته اللبادية في أيام الشتاء، نظارته، دائريةَ العدستين وشاربه الصغير كخطّ داكنٍ بين حنيةِ الأنف وخطِّ الشفتين. لم يلفت انتباهي لِوقفتِهِ ولا لأنّني لَمحتُ في نظرته علامةَ خبثٍ أو رغبة. تكرار ظهوره، مواظبته العنيدة والملحّة بحدّ ذاتها هي ما يجب أن يكون قد ثبت في ذاكرتي. عندما تشجّع أخيراً على الدخول إلى الحانوت خلطتُ بينه وبين أحدِ أبناء العائلة أو المعارف. حياني بطريقةٍ باترة أو بالأحرى مقتضبة وطلبَ منّي لفاعاً. سألتُه: من أيّ لون؟ لزِم الصمت، كما لو أنّه أمام أكثر المسائل صعوبة. لا أعرف، تمتم، لم أُفكّر بالأمر. ضحكتُ في وجهه، بصراحة من دون خبث، بفضولٍ أمام صرامة وجهه. انسحبتُ إلى الغرفة الخلفية وعدتُ بقطعة قماش طويلة برتقاليّة، الأكثر لمعاناً التي عثرت عليها كي أُغيظه. لا أدري، تمتمَ. لماذا لا تُجرّبها؟ اقترحتُ عليه بدعةٍ ووضعتها حول عنقه. لم أَغْنَج معه أو غَنِجْتُ بالحد الأدنى، الذي تحاوله فتاة، استظرفتُ ردَّ فعل الخائف والمندهش عنده. يُناسبك بشكل رائع! صحتُ. أخرجَ بعضَ الأوراق النقديّة وحمل اللفاع، تماماً كما عقدته له. فكّرتُ ببعض الحزن أنّه لن يعودَ ليتوقّف أمام الواجهة.

يوم الاثنين لمحتُ وجهه الحزين على الجانب الآخر من الزجاج واللفاع حول عنقه. ابتسمت له وحييته بيدي؛ تأخّر في ردّ فعلِهِ، لكنّه رفع ذراعه أخيراً. تابعنا هذه الرقصةَ الخرساءَ أسابيعَ، كلّ من جانبٍ من الواجهة، كما لو أنّ هذه الحدود الشفافة حكمت علينا بالسكن في عالمين متوازيين. خارج تلك اللحظاتِ من الصمت المتواطئ لم يكن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يتطفّل على أفكاري؛ فأنا كنتُ مشغولةً بأعمالي وبالوصول في الوقت المناسب إلى الليل أكثر مما يسمح لي بأن أهتمّ بذلك الرجل، الذي بذهابه وإيابه الصامتين، بدا لي ظاهرة طبيعية أكثر مما هو خطيب أو طالب ودٍّ.

والداي (١٩٥٢)

وفي إحدى تلك الأماسي (أعتقد أنّ القاعدة كانت تذهب بعقلي) لم أنجح في كبح نفسي عندما رأيته هناك، بسلامه المقتضب المعتاد فخرجتُ لأُواجهه. استقبلتني الريح بصفعة. أخذتُهُ من ذراعه وقدتُهُ حتى الكوخ. كان يُراقبني مُشوّشاً بل وأقولُ ميتاً من الخوف.

ـ تدعوني للسينما ـ رنّت جملتي كأمرٍ أكثر ممّا كاقتراح.

ـ لا أعرف ـ تمتم ـ اليوم لا.

ـ إذن غداً.

وافق ومضى بكلِّ ما أوتي من سرعة.

وصل في اليوم التالي دقيقاً إلى موعدنا. لكنّه نبَّهني إلى أنّنا سنقوم بمشوارٍ قبل أن يأخذني إلى السينما ـ وأنا كنتُ أموتُ توقاً لرؤية فيلم *الشيطان امرأة*، بطولة مارلين دييتريخ ـ. صعدنا إلى المترو، قمنا بتبديل عدد من القطارات ونزلنا أخيراً في جزءٍ من برونكس لم يسبق لي أن زرته أبداً.

ـ ماذا نفعل هنا؟

هزّ نوَا (عندها فقط أباح لي باسمه) كتفيه، وشددتُ أنا على ذراعه. سرنا في أزقّةٍ ممحوقة، موبوءةٍ بالشحاذين والعاهرات، والأطفال المتسخين ومخازن الألواح الخشبية والجدران الطينية المزوّقة والزجاج المكسّر والصناديق المليئة بالقمامة. بقايا الأزمة الكبرى. عائلتي كما تعرف، بعيدة عن أن تكون غنيّة، لكن حيّ بروكلين الذي ترعرعت فيه، لم يكن يُظهر تلك الحالات أو أنّني لم أعرف كيف أراها. أُذَكّرك بأنّني كنتُ في الثامنة عشرة من عمري؛ وأبوك في الرابعة والثلاثين. أي أنّني كنتُ أصغر منه، مفعمةً بالأحلام، وكنتُ بالرغم من الزمن السيّئ ما زلتُ أؤمنُ بالحلم الأمريكي؛ طبعاً كنتُ قد خَبِرْتُ الفقرَ، لكن لم يكن يهمّني مصيرُ الآخرين، بل أن أتقدم بنفسي، أتابع دراستي وربّما أن أكوّن أسرة. بالمقابل لم يكن نوَا يستطيع أن يكون أكثر صرامة وجدّيّةً. فقد أخذني في موعدنا الأوّل لنتأمّل فاقةَ المدينة، القنوطَ الذي يخيم على الأحياء الفقيرة. أعترف أنّه لم يلقِ عليّ أيّ خطابٍ حماسيّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أراد ببساطة أن يتركَ أولوياته واضحة، كان يُحبّ أن يخرج معي، لكنّ الأولّية عنده كانت قبلي وقبل نفسه تعاطفه مع المحرومين

أجبرتني مثاليته على أن أنظر إليه بطريقة أخرى، كما لو أنّه كشف لي في ذلك اليوم عن أعمق جانب في روحه (تلك الروح التي، كما عرفتُ لاحقاً، لم يكن يؤمن بها) شاركته قلقه ولهفته للعدالة، أو جهدتُ بأنانيّة المراهقة عندي في أن أبدو متضامنة، الأمر الذي لم يمنعني من أن أُطالبه بعد ذلك الدرس الأوّل من الضمير الاجتماعي، بأن يفي بكلمته، إذا كان قد رافقني إلى السينما مُكرها فهو لم يُظهِر ذلك؛ عندما تأكّدَ من لجاجتي (أو تقاسيم لا ديبتريخ القاسية) رسم واحدة من الابتسامات القليلة التلقائية التي أتذكّرها على شفتيه.

ترتيل

لم تسمح لي جوديث على امتداد الكاباليتا[١] أن أقاطعها، إذا كنتُ قد أصررت على أن أقتفي قصتها، فإنه لم يبقَ أمامي الآن إلاّ أن أتركها تحكيها على طريقتها. من المحال جعلها تُسرّع الإيقاع؛ ففي كلّ مرّة كنت أُظهرُ نفادَ صبري، مبدلاً وضعيّتي، مطلقاً زفرةً، أو تدخل رسالة من جوالي على الخطّ كانت هي ترمقني بواحدة من نظراتها الليزرية، أو بالتأكيد تؤنّبني فإذا لم أكن مستعدّاً لأن أهدأ وأصغي إليها لا مصلحة لها في أن تتابع قصّتها.

ـ إنّ قصّة مثل قصّتنا لن تُفهم ما لم تُحْكَ منذ البداية ـ كانت تصرّ ـ فلكي نحكم بتوازنٍ نحتاج لمعرفة المراوغات والتفاصيل.

---

(١) Cabaletta مصطلح موسيقي يطلق على الجزء الثاني من الآريا في أوبرا القرن التاسع عشر.

خفضتُ مستوى صوتِ الجوّال. طلبتُ من المُمرِّضة كأسَ ماء وحاولتُ أن أُحافظَ على رصانتي.

بين حادث السينما والقبلة الأولى مرَّت، بحسب قولها، شهورٌ عديدة. شهورٌ من العمل الاجتماعيّ ومشاهدة الأفلام بالأبيض والأسود، كما لو أنّ توزيع هواياتهما كانت الطريقة للإغواء المتبادل والارتباط الأبدي.

- بفضلِهِ تعلَّمْتُ الاهتمامَ بالآخرين ومعارضةَ كلِّ أشكالِ الظلم - لخّصتْ -. من جهتي علّمته أن يَسبر عواطفه.

قليلة هي المرّات التي رأيتُها تبتسمُ فيها بتلك الطريقة، غائصةً بنظرتها في الماضي. لا أشكّكُ بحنينها إلى ذلك العصر الذهبي، لكنّ سعادتها، إذا كان عندها سعادة، لم تكن لأسبابٍ رومانسية إلى هذا الحدّ.

- ارتبطنا في أيار عامَ ٣٧ - كشفت لي لاحقاً - عندها تركت اسبنسر.

- سبنسر؟

- خطيبي.

- تريدين أن تقولي إنّك خلال تلك الأشهر الفردوسيّة كان لديك خطيب آخر؟

- على المرأة أن تُراعي كلَّ خياراتها - وبَّختني جوديث، فخورة بانتصارات شبابها - كان نوَا يعجبني، لكن كان عليّ أن أعرفَ ماذا كان وراءَ صمته.

كاباليتا جوديث (إعادة)

- أبوك - اسمه الأصلي نُوَا، كما يبدو لي - ولد في عام ١٩٠١، في شقة كالحة في غيتو كراكوفيا، أو على الأقل هذا ما كان يحكيه، فوالداه حملاه من هناك في الثالثة من عمره وهما يتذكّرانه كمكانٍ حسن التهوية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والإضاءة. آل وِلبّ يتحدرون من سلالة من الخياطين والدباغين المتحولين إلى تجار صغار. لا يمكن أن يُقال إنّهم كانوا عائلة ميسورة، وإلا لما بُررت هجرتهم إلى أمريكا، لكنّهم أيضاً لم يكونوا بؤساء، والأبرز هو أنّ والدَهُ كان رجلاً مستنيراً، منكمشاً محبّاً للتاريخ والأدب، الذي بالرغم من وضعه كحدّادٍ استطاع أن يجمع مكتبة صغيرة لكنّها غنيّة.

عندما كنت أُجبره على الغوصِ في أصوله، كان نوَا يشير إل أبيه بمزيجٍ من الإعجاب والمرارة؛ يبدو أنّه كان رجلاً شحيحاً بقدر ما كان حميماً، وبقدر ما كان متحذلقاً بقدر ما كان غضوباً، يستطيع أن يمضي ساعاتٍ وهو يحكي لك قصصاً أسطورية، أو يجلدك بقسوةٍ عند أوّل غلطة. ذات ليلة بينما كنتُ أفتّشُ في أدراجه، اكتشفتُ صورةً للعجوز. كان يجلس أمامَ خزانة منخفضة من خشب البلوط وبعض الأواني الخزفيّة، في بيته في نيوجرسي، بسترته السوداء ونظارته المستطيلة ـ وبعض الجفاف في وجهه ـ كان يظهرُ مماثلاً لأبيه، النظرة التفتيشية ذاتها الأذنان الحادتان ذاتهما والشارب ذاته. ما أعرفه عن الأم أقل. امرأة صارمة ومتحفّظة، باردة وجلفة مثل ابنها.

كما حكيتُ لكَ دائماً لم يكنْ يهمّ نوَا شيءٌ آخر غير الموسيقى، وهو ما كان ليقول هذا بهذه الطريقة أبداً، لأنّه في نضجه تبرّأ منها كما يتبرّأ المرءُ من لعنة أو آفة. أنا أعتقد أنّه بعد موت هاري وفصلِهِ الظالم من الصندوق، جعلتهُ الموسيقى يُفكّرُ بالمصير الذي لم يتبعه، ذلك المصير الذي لو لا اضطراباته ومخاوفه لكان منحَهُ رضاً أكثر من مهمته الفاشلة كموظّف. لقد منحه الله موهبة لا حدود له: سمعاً مطلقاً. أنتَ ورثتَ موهبته الموسيقيّة، وإن كانت لا تُقارن بموهبته، بتلك القدرة التي كانت تسمح له بأن يميّز كلَّ علامة، كما نُمَيّز نحن الآخرون

الألوانَ. عمل سحري. عندما بدأنا نخرج وكنتُ أُشيرُ إلى أوّلِ ما كنتُ أسمعه، مواء، صفير معملٍ، صرخة مقطوعة، زمور سيارة، لم يكن أبوك يشكُّ ويقول: (علامة) اللا أو الدو أو الري حادّة. لم يكن حتى ليتباهى. تماماً كما أنّني أطلبُ منك أن تقولَ لي ما إذا كانت أوراقُ القيقبِ حمراء أو سطح القمر أبيض، ما الفضلُ في ذلك؟

سرعان ما اكتشفَ جدُّك هذه الفضيلة وسمح له هوَسُهُ بالكمالِ وضعفُهُ أمام الفنّ بدراسةِ الكمان على يدِ أحد أعمامه. ومع أنّ نُوَا لم يكن موزارت ولا بتهوفن، فقد بدا أنّه كان قادراً على عزفِ أعمالهما منذ الحادية عشرة من عمره. الآن أنت المتعصّب للكونشرتو والأوبرا، أنتَ أعرفُ مني بما أقوله. وجد والدُك لنفسه ملاذاً بين المُدَرَّجات الموسيقية.. لم يكن يُحرِز علاماتٍ سيّئة في المدرسة ـ تفوّقَ في الرياضيات ـ لكنّ مهارته على الكمان كانت ساحقة لدرجة أنّ أساتذتَهُ الجدد تنبّأوا له بمستقبلٍ عازفٍ منفرد. في الثانية عشرة من عمرة قدَّمَ أوّلَ حفلة موسيقيّة واستقبل بتعليقات حماسية.

ـ وماذا جرى وقتها؟ ـ سألتُ والدَك حين لم يكن قد مضى شهرٌ على التزامنا.

ـ في الرابعة عشرة من عمري أُصبتُ في يدي اليسرى ـ أجابني ـ. لا شيء مريع، كسرٌ في سُلاميتَيْن. قالوا لي إنّني سأعود بعد فترة لأعزف إذا ما تمرّنتُ. لكنّه كان قد صار لي وقتها اهتماماتٌ أخرى.

لم أثقْ قط بتوضيحاته. وماذا يمكن أن تكون تلك *الاهتمامات*؟ رفض أن يستفيضَ في الموضوع. بعد سنوات وبينما كنتُ أدردشُ مع دانييل أرينسكي، واحد من الأصدقاء القليلين الذين تبقّوا له في نيوجرسي ـ اقتصادي من وزارة الخزانة، قويّ ووقح، كان يُغازلني على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الرغم من أنّه لم يستلطفني قطّ. كشف لي أنّ تلك القصّة فقط كانت صحيحة جزئياً. الحادث لم يكن كذلك: خلال مُشاجرة مع أبيه، الذي كان أرينسكي يجهل طبيعته، أغلق هذا البابَ على براجم أصابعه. هكذا حدث تماماً كم تسمع. أيّ نوع من الآباء هذا الذي يفعل ذلك؟ على الفور استنطقت نُوَا عما كشفه لي أرينسكي. أنكر ما قاله صديقُهُ، فأبوه ما آذاه قط، عليه أن يوضّح ذلك لدانييل.

عاد نُوَا بعد سنوات كثيرة، قبل أن يهجرنا بقليل، ليشتاق لمهنة عازف الكمان المنحوسة. اعترف لي ذات يوم أنَّ شجاره مع والده وقع وأنّ السبب هي الموسيقى، نعم الموسيقى. كأن جدُّك يعتزّ بموهبة ابنهِ، لكنه ومنذ بدأ نوَا يُحيي احتفالات موسيقية جماهيرية فسدت علاقتهما، نادراً ما كان يحضر حفلاته وكان يتفادى أيّ ذكر لأعماله ومؤلفاته المفضّلة. كانت الموسيقى تبدو لجدّك مستحسنة، بل ومثيرة للحماس، لكن يجب الحفاظ عليها، هذا نعم، كهواية. إذا كان قد دفع أجرة دروس نوَا فقد فعلَ ذلك ليُدهش أقرباءه بل وحتى كي يقضي الولدُ برهة جميلة مع مقطوعات باخ أو مع سوناتا لبرامز، لكنّه قبل هذا وبعده عليه أن يكرّس نفسه للشيء الوحيد الذي يستحق المعاناة، مهنته النزيهة كتاجر.. العجوز فولبي لم يُهاجر من بولونيا إلى نيوجرسي ولم يقم بما لا نهاية له من الأعمال الجهنّمية، لم يوفّر كي يؤسس محله لأدوات الحدادة ولم يزدهر كي يحوله إلى مركز تجاري عالمي، ـ ثلاثة فروع في الولاية ـ كي يتركه ابنه الوحيد يتعفّن من أجل بلاهة أن يشرع بعمل موسيقيّ جوّال.

«في كراكوفيا يوجدُ فِتْيَةٌ بموهبتك تحت الحجارة» أجابه. «يمكن للفن أن يكون فرحاً، لا أُنْكِرُ ذلك، لكن هناك أشياء أكثر جدّية. أكثر نضجاً. إن رجلاً، رجلاً حقيقيّاً يجتهد كي يمضي قدماً، بوسائله

الخاصّة، دون أن يُسلِم مستقبله إلى نعمة عابرة. المجتمع حقل معادٍ، يا ولدي، حيث يتنافس بعضنا ضدّ بعض، وحدهم الذين يصمدون يلقون المكافأة. تابع عزفك على الكمان، لا أحد يمنعك، لكن تذكّر أنّكَ مُجْبَر على أن تضمن أن تزدهر تجارة العائلة وتتضاعف. لم نخرج من الغيتو كي نتحوّل إلى مُغنّين جوّالين، بل كي نجد مكاناً مُحتَرَماً في العالم الجديد. افهمْ هذا، يا نوَا، واجبنا هو أن نخلق وظائفَ، أن ننمو ونوسّع السوق؛ على هذا يجب أن تُركِّز، ما عداه باطل بباطل. أعتقد أنّك لا تريد أن تُخَيِّبَني أو تُخيّبَ على الأخصّ أمّك. أنت أملنا. اليوم بالذات محلات فِولبّي للأدوات الحديدية تشكل أعمدة الجالية اليهودية في نيوجرسي عندما يستدعني الله إليه، أُريد أن أعرف أنّني سأتركُها في أيدٍ أمينة».

عندها أغلق الباب على براجمِ أصابعك؟ ـ سألتُهُ.

طبعاً لا. أبي كان رجلاً طيّباً ـ اغتاظَ نوَا ـ. أنا نفسي من فعل ذلك. بهذه الطريقة وحدها أتغلّب على الإغواء، أهجرُ فكرة العازفِ المُنفرد وأرتضي بالقدر الذي رسمَه لي والداي.

أعتقد لو أنّ نوَا ملك الشجاعة لكان أصبح عازفاً منفرداً عظيماً، مثل هايفتز أو مِنوحيم، هذين الفتيين اليهوديين اللذين فعلاً لقيا الدعم الضروريّ كي يُطوّرا موهبتهما. ما عاد يهمّ. كان والدك بالإضافة إلى تحكّمِهِ بعواطفه صبياً لامعاً باستطاعته أن يبرز في مجالات أخرى. سبق وقلتُ لك: كان عبقرياً في الرياضيات، وبابتعاده عن التسلية بالموسيقى سرعان ما صار الأوّلَ في صفّه. لا يوجد بين الطباق الموسيقي والحساب مسافة كبيرة، أنت تستطيع أن تُكَذّبني. مهما يكن فالانتقال في حالته سار بطريقة شبه طبيعية، دون أن يفتح مجالاً للندم أو المرارة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمام عالم الأرقام والنظريات ذاك، الجميل بالنسبة لنُوَا مثل الطباق الموسيقي الباروكي، لم يكن عند جدّك ما يعترض عليه. ألاّ يخطرَ العالمُ الحقيقيُّ ببالِ أبيك كان سرّاً يحتفظ به الآنَ لنفسه؛ فبضياعه في ميدان الأرقام، كان يعودُ ليشعر أنّه في منجاة. والأفضل هو أنّه ما مِن أحدٍ جادل باستغراقه.

عندما أنهى الثانوية حصل نوَا على منحةٍ للدراسة في مدرسة نيوجيرسي، حيث أخذ دروساً في الحساب والرياضيات المتقدّمة، ولكي يستمرّ بالتظاهر ببعض الاستعداد العملي، أخذ دروساً في الإدارة والمحاسبة. كان يزور في بعض الأماسي محلات الأدوات الحديدية كي يرتّب حساباتها، ولم تكن المهمّة تأخذ منه سوى بضع ساعات. انبثق الصراع من جديد، كما كان مُتوَقَّعاً، في نهاية تلك الدورات بفضل ملخصاته وعده أساتذته بمنحة أخرى، هذه المرة لنيل الدكتوراه من كولومبيا. كان هذا يعني انتقاله إلى نيويورك، أرض الصعاليك والبوهيميين، الشيء الذي ما كان ليوافق عليه والده أبداً. خلاف جديد كان على وشك أن يجعلهما يتواجهان، لكن خثرةً مفاجئة أرسلت جدَّك إلى القبر في الثالثة والستين من عمره. فكّر نُوَا بأن يأخذ على عاتقه إدارة التجارة؛ أمّه، تلك المرأة الكتومة والمدلّلة، التي صمتت حتى تلك اللحظة عن مآزق ابنها، أمرته بأن يذهبَ إلى نيويورك ليدرس الدكتوراه.

هذا ما ترغب به ـ نبّهته ـ عندما تتخرّج ستعود وستساعدني في محلات الأدوات الحديدية.

سجّل نُوَا وقتها في جامعة كولومبيا، مستعدّاً للتخصص بالاقتصاد، المجال الذي يناسب شغفه بالأرقام والخطط الخيالية وانكبابه على المشاكل اليومية التي كان سيفرضها عليه العجوز لو بقي حياً. توفيت

الأمّ بعد وقت قصير من إقامة نوَا في التفاحة الكبيرة الفاسدة. نقل بعد أن تحرّرَ من القيود إدارة تجارة العائلة إلى أحد أبناء عمومته وانكبّ على دراساته.

عندما بدأ نُوَا يتمشى أمام واجهتنا، كانت قد مضيت عليه سنواتٌ في الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك في شارع ليبرتي، كمساعد مالي. العمل الذي لم يكن يشعره بالاعتزاز، لكنّه أيضاً لم يكن يرفضه (ويُفضّل ألا يتناوله بالتعليق معي). من هناك كان باستطاعته أن يُطوّر مسيرته الصاعدة كمصرفي. من أين جاء الالتزام الاجتماعي الذي ميّزَ عملَ أبيكَ العام في الوقت الذي كان يبدو، بحسب الصورة التي رسمتها لك، غير مهتمّ بمحيطه؟ سأقوله لك: غيّره الكسادُ العظيم. اكتشف خلال سنواتِ عمله في الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك ألمَ الغيرِ بفضل مشاويره الطويلة في ضواحي المدينة. منذ تلك اللحظة لم يغمض قط عينيه عن الفقر المُدقع لأمثاله. لذلك صار العملُ في مؤسّسة لا تُساهم في التخفيف من تلك الفاقة يزعجه في كلّ مرّة أكثر. هل يبدو لك سيّئاً أن يعثرَ رجلٌ على الكرامة ويجد هويته بين الفقراء؟ أن يهرب أحدٌ بحساسيةِ وذكاءِ أبيك من ذاته كي يضع نفسه في مكان الذين يُعانون؟

ما إن أُتيحت له الفرصة ـ كان قد مضى علينا كخطيبين بضعة أشهر ـ حتى قبل المنصب الذي عرضه عليه معلّم قديم في إدارة تأمينات المزارع التي أسّسها روزفلت. كان أبوك مثالياً. كان أبوك يريدُ أن يُغيّر العالم. هل يُشَكِّلُ هذا خيانةً أو خطيئة؟. كان مثل فتية من جيله كانوا يثقُ بأنّ إصلاحاتِ الصفقة الجديدة ستُساعِدُ في التخفيفِ من فقر الملايين. أُقسم لك أنّني، عندما فصّل لي مما يتكون منصبه، شعرت بسعادة هائلة. الاحتياطي الفيدرالي لم يكن له، لم يكن لنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هل تحبين أن تُرافِقيني؟ ـ سألني في أحد مقاهي الجادة الثالثة.

لو كانت امرأة أخرى لشعرت أنّ ذلك الاقتراح خالٍ من الرومانسية، لكنني شعرتُ بالرضا. أيضاً كان يؤمن بروزفلت وبإصلاحاتِ العهد الجديد وبمستقبلٍ واعِد. تزوّجنا في المعبد الكبير الواقع في الرقم ١٧ من باركواي الشرقي، يرافقنا عددٌ قليلٌ من أبناء عائلتي. بعد يومين ركبنا القطارَ إلى العاصمة، حيث استأجرنا شقّة صغيرة جداً في دوبّونت سيركل؟ كانت تلك دون شكّ أفضل سنوات زواجنا.

ثنائي

أصغيتُ إلى صدحِ جوديث المنفرد دون أن أنظر إلى الساعة، دون أن ينفدَ صبري ودونَ أن أُقاطعها، تماماً كما طالبتني. نظرتُ إليها بصرامة، محاولاً أن ألتقط شرارة غير مرغوبة تسمح لي أن أفهم، لماذا تفعل ذلك، ماذا كان في قلبها بينما هي تلفظُ ذلك السيلَ من الكلام، وتُدوّخني بالقصّة المؤثّرة عن التزامها بالمجتمع وبأبي. فقط عندما لفظت الجملة الأخيرة، قبل قليل من ساعة الغداء ـ لن تتأخّر الممرضة في حملها ـ، تجرّأتُ على الابتسام. وبفضلِ لي وتحقيقاتِنا، الأرشيفاتِ والاستنطاق ـ وقتها لم أكن أعرفُ كلَّ الحقيقةِ عن أبي ـ صرتُ أعرفُ ما يكفي. انتصبتُ وغرزتُ عينيّ في عينيها.

أمّاه، ـ همستُ لها ـ لماذا تُصرّين اليوم، بعد كلّ تلك السنين، على أن تُكرري هذه الأكاذيب؟

المشهد الثالث

حول كيف تُقطّع كماناً بمنشار كهربائي وتكون شيوعياً ومعادياً للشيوعية في مساء واحد

طقطوقة[1]

كانت أصابعي تتعثّر بالأوتار مثل جيش واهن من الرجال الآليين، غير مبالٍ بأوامر قائده ـ قزم قابع في غياهب دماغي ـ، تتعثّر أو تتوقّف، مُبكّرةً أو مُتأخّرةً أكثر من اللازم، خالطةً الإيقاعَ ومحطمةً التناغم محدودبة ومُنهكة، لن تتعلّم أبداً! كنت سرقتُ مع أصدقائي ساعاتٍ لا حدود لها من البيسبول، لأحاكي القفزة الثلاثية لفريد أستير، فوق جدار من جدران الثانوية (أو عل الأقل لأحاول) ولأبحث عن قصص سكان الفضاء الخارجي في مكتبات الكتبِ القديمة بهدف أن أحصلَ على التشجيع الأدنى من السيّدة سكاربارلّي. عبثاً فعلتُ. فالعلامات كانت تتدفق في دماغي مثل حبّات متعددة الألوان، مجهزة بشكلٍ وحجمٍ ووزنٍ، لكنّ عضلاتي لم تكن تتجاوب مع هذه الحكايات الخرافية.

لا، لا، لا! من البداية!

---

(١) المصطلح الإيطالي الأوبرالي المُستخدم هو cavatina وهو وهي نوع من الغناء الرخيم، مُعبّر وبطيء اللحن، يسمح للمغنّي أو المُغنية بالتألّق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قطع صوت السيدة سكاربالّي النسخة الأنيقة من النوتة الثانية التي كانت تتدفّق في دماغي وأعادني إلى النسخة النشاز، التي تعجّ بالعلامات الزائفة والبهرجات، الأخطاء في الزمن الموسيقي وتبديلات في النغمة خادعة، كانت تخرج من أصابعي.

لا، لا، لا! من البداية[1]!

باخ مُقَطّع.

ما القضية التي كان ينطوي عليها الإصرار على المهزلة؟ إذا كانت الموسيقى فعلاً تمنحني أعظمَ سعادة إلى جانب القصص المصوّرة والمال، إلاّ أنّني لم أكن أملك الأهلية أو التواضع كي أتحوّل إل عبدٍ لها. بحسب السيدة سكاربارِلي كنت أملك مهارة ـ هكذا كانت تقول بأحرف علتها الإيطالية المزيّفة ـ ولم يكن ينقصني سوى المثابرة. كذب! فقد كنت في تلك المرحلة منكبّاً تماماً على الموسيقى، منذ عودتي من المدرسة لم يكن لي عمل آخر غير دراسة النوتة ذاتها. لا، لم يكن عندي قدرة!

إذا كانت جوديث قد أخفت عني كلَّ سيرة أبي، إلاّ أنّها لم تتعب قط من تفصيل موهبته الموسيقية ورهافة سمعه المطلقة: أعظم خصاله. فقد أجبرتني منذ السادسة من عمري على أن آخذ دروساً بالكورس والصولفاج ـ لك صوتٌ صادح في غاية الجمال كانت تصرُّ عليّ ـ وعندما أتممت السابعة أهدتني كماني الأوّل وقوسيَ الأوّل. في المعركة

(١) العبارة المستعملة إيطالية Da capo، وتعني من الرأس أو من البداية وتُستخدم في الموسيقى لتدلّ على أنّه في لحظة معيّنة من عزف مقطوعة ما يجب العودة إلى البداية وتكرارها للوصول إلى إيقاع محدّد حتى النهاية

المشؤومة التي كانت ما تزال تخوضها مع شبح زوجها، كانت تريدُ أن تراني أهزمه في ميدانه ذاته.

أنت، نعم ستلقى دعمي ـ كانت جوديث تؤكّد على هذه النعم التي كانت تبعدها عن حميها المتوفّى.

في كلّ سبت كانت تضع في ساعة الغداء اسطوانة كونشرتو تشايكوفسكي التي تحمل علامة ديوتش غرامفون الصفراء، ووجه دافيد أويستراخ الطافح ـ، بنوع من احتفالية تحضير الأرواح.

طالب أبوك بأن ندفنه على لحن هذا العمل، لكنّني لم أجرؤ على طلب ذلك من الحاخام. لا تعلم كم أنا نادمة. الأغنية الخفيفة الغبيّة ما زالت حتى الآن تنتزع مني دموعي.

غصباً عنّي نجحت جوديث في أن تزرع الموسيقى في لبّ حياتي. في المرّة الأولى التي جرّتني فيها إلى أوركسترا السيمفونية، التي كان يقودها ليونارد بِرنستاين، تنبّأ لي بتجربة لا تُنسى، وأعترف بأنّه لم يُخطئ. وعلى الفور ضممت هذا المدير اليهودي الطموح مثلي إلى قائمة أبطالي الخارقين، الذي يكادُ يأتي بعد باتمان والرجل العنكبوت.

بعد سنوات حصلتُ على تسجيل ذلك اليوم: كونشرتو للبيانو رقم ١ لبراهمز، مع غلين غولد (عظيم آخر) كعازف مُنفرد. يأخذ بِرنستاين الميكرفون، قبل أن يفسح المجال للموسيقى، ويشرح قائلاً إنّه إذا كان التصوّر الفنّي للعازف الكندي متناقضاً فعلاً مع تصوّره، فإنّه سيرافقه للاحترامِ الذي يستحقُّهُ كفنان. يا له من برهان مزدوج على التواضع والتعجرفَ! مذّاك وحتى وفاته في عام ١٩٩٠ جهدت في حضور كلّ كونشرتو لليني ـ التهمت برامجه التلفزيونية وفي رأسي ما تزال تطفو إيقاعات ووندرفول تاون وويست سايد ستوري ـ، مستعداً لأن أعبرَ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحيط في طريقي إلى تل أبيب، لندن، فيينا أو أمستردام شرط أن أسمعه وأستمتع بقفزاته القصيرة على الخشبة. أخيراً عندما تعرّفت عليه في عام ١٩٨٣ في نهاية خماسيةٍ مثيرة لشوستاكوفيتش، لم أفلت يده حتى صار الشدّ على اليد مُحرجاً.

جمعت على امتداد تلك السنوات ما يقارب الخمسة آلاف إسطوانة، إذا لم تعبث بها السلطات فإنّها ما تزال يتكدس عليها الغبار في شقتي في بارك أفينو (إلى جانب ما يقارب الثلاثين ألف قرص مضغوط) وقد أثارت تلك المجموعة من الاسطوانات فيَّ، كما في أيّ عُصَابيّ، من السعادةِ ما أثارته من المرارة، إحدى طرقي المفضّلة في تمضية الوقت كانت القيام بتنظيف كلّ إسطوانة منها بقطعة قماش قبل أن أعيدها إلى الرفّ، حيث كانت تشغل مكاناً دقيقاً بحسب ترتيبٍ صارم للمؤلفين وعدد الأعمال. كانت الكارثة تأتي إذا خدشت الإبرة الألماسية الأسطوانة وأنا أسمع رباعية لشوبرت أو معزوفة ليلية لشوبان، عندها لا يعود قلقي وحده لا يحتمل بل إنّني كنتُ أوفّر كي أشتري أخرى طبقَ الأصل بدَلَ المتضرّرة (ليس عندي كلمات أشكر بها رواد التكنولوجيا الرقمية لتخفيفهم عنّي ذلك الهوس). هل تتصوّرون إذن، قرّائي المُبجّلين، خيبة فتى مثلي عندما يتأكّد أنّه على الرغم من كلّ هيامه بالموسيقى لم يكن قادراً على أن يعزف نوتة لباخ بل دراسة سوقية لكايسر؟

لا، لا، لا! من البداية!

كانت السيّدة سكاربارِلّي الطويلة والهزيلة بشعرها المصبوغ باللون البلاتيني، تخفي بشكل سيّء أربعينياتها. لم يستظرف الواحد منّا الآخر قط. كانت نظرتها، نظرة الثعلب تتكشف عن ومضة تسامح، بل وشفقةٍ

أيضاً تجاه عزفي. لم تدفعني قط صرخاتها الخفيفة بالعلامة المخفضة أو ابتساماتها الفالتة؛ في كلّ مرّة كنتُ أقطع فيها كومباساً أو أدمر علامةً تواجهني بجهود أمّي كي تدفع دروسي.

ليس جيداً، ليس جيّداً ـ كانت تُوبّخني بإيطالية بروكلين.

فكَّرتُ ألف مرّة بأن أرمي الآلة من النافذة وأدوسها حتى تتشظى إلى ألف كسرة: أؤلف كونشرتو للكمان والمنشار الخشبي وأغرز كلّ شظية في كلّ فتحة في سكاربارِلّي. لا بد أنّها حدست بأحلامي القاتلة؛، فقد وضعت ذات يوم سلاميّاتها على كتفي وقالت لي إنّه لم يعد هناك ما يُفعل. في ذلك الأسبوع أخبرتْ الساحرةُ أميّ بأنّها لن تعطيني بعد الآن دروساً، عل الرغم من أنّ بوبي أندرسون، مساعدها سيكون سعيداً بأن يتابع تدريسي. غضبت جوديت.

هذا، أفضل، يا أمّي ـ هدَّأتُها ـ ما عدت أتحمّل هذه الساحرة الشمطاء.

ترتيل

ومع أنّ لارس كان من عمري ـ كنتُ قد أتممتُ الثالثة عشرة في آذار وكان سيُتِمّها هو في نهاية تموز ـ، إلاّ أنّه كان بضعف وزني ويزيدني عشرة سنتيمترات طولاً، إنّه مثل أبويه، النرويجيي الأصل، وكان يلوكُ إنكليزيةً صدئة، تثير الضحك في مدرسةِ بروكلين للموسيقى. سنحت لي الفرصةُ، قبل أن أعجب بأنفه المستقيم ومربعِ حنكه أو قوّة عضلاته، أن أستمعَ إليه سرّاً؛ كان يأخذُ دروساً على التشيلو في الغرفة المجاورة، فعلى الرغم من فلين الجدران العازل، إلا أنّه كان من المستحيل الإفلات من الصوتِ اللزج الذي كان يخرجُه من أوتاره.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تركتُ نوتاتي وأطللتُ من ثقب بابه. كان ذلك الفتى الضخم، بجلده شبه الشفاف وعينيه الفحميتين وتنفّسه المجهد يهزّ ساعديه بحركات قوسٍ هزيلة. كانت بجعة سانت ـ سينز تتحوّل على يديه الضخمتين إلى خيطٍ ناعم بقدر ما هو فرور.

منذ ذلك الوقت لم أُفوّت فرصةً للتجسّس عليه. ما إن كان الأستاذ أندرسون يتركني لوحدي، منزعجاً من عدم تقدّمي، حتى كنت أعتلي نافذته الصغيرة. كان لا يُصدّق أنّ يملك ذلك الفتى الخشن والمفتول العضلات، والذي كان من السهل أن يُظن أنّه مشاغِب أو لاعبُ كرةِ قدم، تلكَ الرهافةَ الموسيقيةَ والرقّة. لم أستجمع الشجاعة الكافية كي أُكلّمه، لو كنتُ مكانه، كنتُ أفكّرُ، ما كنتُ لأرغب بأن أقيم علاقة مع طالب عاديٍّ مثلي. اكتفيتُ بالإعجاب به عن بعد، واثقاً من أنّه لن يضمّني أبداً إلى دائرة أصدقائه. سرعان ما تأكّدتُ من أنّ لارس كان شخصاً انعزاليّاً، ومع أنّ عازفةَ نايٍ هزيلة كانت تلاحقه عادةً إلاّ أنّه كان يغادر لا يُرافقه غير التشيلو. قرّرت عند انتهائي من الدرس أن ألحق به على بعد خطوات، لم يُبدِ لارس انتباهاً لوجودي وتابع طريقَهُ باتجاه باب المترو. فقط عندما رأيته يختفي في عتبة بناء مقشّر في كوينز سلكتُ طريق العودةِ إلى بروكلين..

هل تعيش أنتَ أيضاً في فلاشينغ ميدوز؟ ـ سألني في اليوم التالي.

لا ـ تلعثمتُ ـ أزور عمّة لي هناك.

سألني لارس، عندما كنّا نستعدّ لمغادرة المدرسة، بمسحة من سخرية، عمّا إذا كنتُ سأذهب في ذلك المساء أيضاً لرؤيتها. على الرغم من أنّني أقسمتُ أن ألتزم الصمت ـ لأنّ ثرثرتي أفقدتني عدداً من الأصدقاء ـ، إلاّ أنّني اعترفتُ له خلال الطريق بالحقيقةِ واكتشفت بعدها

أنّني أحكي له قصّة جوديت وأبي، عازفِ الكمان المتوفّى. حكى لي هو أنّ أباه طبّاخ وأنّ أمّه درست البيانو في أوسلو وإن كانت تركت ذلك كي تهتمّ به وبأخته (عازفة بيانو أيضاً). ودّعني بعدها شاذّاً على يدي، شدّاً لا يليق بشخص عفيف.

لم أُخفِ عندما وصلتُ إلى البيت إثارتي. عندي صديق جديد، تباهيتُ أمام جوديث، عازف كمان. هي ابتهجت بذلك آملة أن يستطيعَ أن يُخرجني من تأثير صبيةِ الحيّ، وقالت لي أن أدعوه للعشاء معنا. حدث أنَّ لارس هو الذي دعاني إلى بيته، قدّمت لنا أمّه بعضَ الشطائر وعند الانتهاء اقترحت علينا أخته، ابنة العشرين تقريباً، الشقراء، الفارعة الطول والشاحبة مثله، أن نعزف معاً. قلت لها إنّني لستُ بمستواها وأكره أن أُخَرّب عليهم سهرتهم. أصرّت. جلسنا في الصالون، في إحدى تلك الزوايا بيانو قائم محطّم. وضعنا حاملات النوتات وقرأنا قراءةً أولى ثلاثيّةً لشوبرت. على الرغم من أنّ موهبة لارس تفوق موهبة إلين (طبعاً وموهبتي) فإن هذه الأخيرة هي من كانت تُعطي الإيقاع والمدخل. في البداية خانتني أعصابي، لكنّ تواطؤ الأخوين أومدال أعادَ إلَّ ثقتي ونجحتُ في متابعتهما، دون كثيرِ ارتباك. على الرغم من أنّني كنتُ على مسافة سنين ضوئيّة من دقتهما وتعبيرهما الموسيقي، إلاّ أنهما ساعداني في تحسينِ أدائي ودقّةِ قوسي. كانت أمّهما تُصفّق في نهاية الحركة الأخيرة.

نبّهتني جوديث إلى أنّني إذا أردتُ أن يستمرَّ صديقايَ بدعوتي، عليّ أن أتدرّب لساعات طويلة لوحدي. أهملتُ الأعمالَ التي كان عليّ أن أُقدّمها في حفلة نصف السنة تلك، وركّزتُ على المقطوعات التي اخترناها لارس وإلين وأنا.

الآن صرتُ أعرف ما سنُسمّى ـ أعلنتُ لهما ـ الثلاثيّ أومدال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليست كنيتُك ـ ضحك لارس

الثلاثي أومدال تام.

ضممنا إلى قائمة معزوفاتنا ثلاثيةً لبتهوفن ـ بل وجازفنا بالشبح ـ، وأخرى لبراهمز وأخرى لشومان. شجّعتنا السيّدة أومدال على وضع برنامجٍ كامل وتقديمِ أوّل كونشرتو عام لنا. بدا لي غيرَ مناسب، لكنّ لارسَ وإلين تحمّساَ. اخترنا ثلاثتنا ثلاثياتٍ من المؤلّف ١ لبتهوفن ومنحنا أنفسنا وقتا حتى أيّار لتحضيرها، وعندها سنُعلن في المدرسة عن انطلاقة الثلاثيّ أومدال.

على الرغم من أنّني كنتُ أريدُ أن أقضي وقتاً أكثر على انفراد مع لارس إلا أنّ الثلاثيّ كان يفرضُ حضورَ أخته. كنتُ أُقدّر إلين ـ ففكرة العزف معاً بعد كلّ حساب كانت فكرتها ـ كانت دائماً مهذّبة وعذبة معي، وعلى الرغم من فارق السنتين بيننا، إلا أنّها كانت تُفَضّل الخروجَ معنا على الخروج مع صديقاتها، لكنّها كانت تُعَطّل علي اقترابي من أخيها دون أن تنتبه. عندما اقترح عليّ لارس أن نلتقي في مقهى على انفراد، ظننتُ أنّه يمكن أن يشعرَ بشيء مشابهٍ. بعد أن طلبتُ كأسَيّ حليب بالملت[1]، انطلقتُ لأجمعَ إسطوانات لمختلف نسخ الثلاثيات التي سنقدّمها في الحفلة.

آسف ـ أطلقَ أخيراً وهو يرشف الفقاعات الوردية ـ في أيّار سيكون عندي حفلةٌ مع فورنيير وأستاذي طالبني بأن أركّز على ذلك.

خبر عظيم! ـ كذبتُ بأفضل ما استطعتُ ـ لنؤجّل ظهورَ الثلاثي أومدال إلى الصيف.

---

(١) شعير العجّة.

إذا سار كلّ شيء كما يُرام، سأذهب في حزيران إلى جنيف.

أنهينا مشروبنا بصمت.

تستطيع أن تستمرّ بالمجيء إلى البيت ـ أضاف قبل أن ينزل إلى المترو ـ ربّما تستطيع أن تتدرّب مع إلين على بعض السوناتات، أنت تعرف كم تُقدِّرك.

تابعت زياراتي لبيته ليلاً، كنّا أحياناً نقرأ عملاً ما جديداً، وأحياناً أخرى كان يتركني مع أخته ويُغلق على نفسه غرفته. اقترحتُ على لارس، بدل أن أظهر له مرارتي، أن نجد طريقة لكي نسترخي قبل الحفلة. ذهبنا مرّتين إلى السينما ثم فضّلنا أن نلوذَ ببيتي. حيث كنّا نقضي ساعاتٍ نستمع لكاسالس، روستروفيتش بل وفورنيير نفسه.

أقنعتُهُ ليلةَ ما قبل الحفلة بأن نحتفلَ بها مسبقاً. بودّي أن أعزي لنفسي فضيلةَ فشلِهِ، لكنّه لا يعودُ لي: كانت المسؤولية كاملة عليه. شربَ أكثر من اللازم، أكثر من أيّ وقت مضى. حين أودعته في بيته كان لا يكاد يستوي على رجليه. باغتتنا أمُّهُ وحاولتْ أن تغيّر تاريخ الحفلة. محال.

حضر لارس أمام فورنيير بهالتين أرجوانيتين حول عينيه شاكياً من شقيقة قاسية. عزفَ لارس، بحسب جميع الحضور، بشكلٍ جيّدٍ بل وممتازٍ، وبخاصّة رقصة المقطوعة الثانية لباخ، هنّأه أرستقراطي التشيلو وتنبّأ له بمستقبلٍ عظيم. لكنّه لم يأخذه معه إلى فيينا.

على الرغم من أنّنا بقينا نتقابل، لارس وأنا، خفيةً عن أمّه (كانت وقتها قد صارت تمقتني) إلاّ أن اجتماعاتنا الموسيقية تباعدت شيئاً فشيئاً. والثلاثيّ أومدال لم يُقَدّم، كما كان متوقّعاً، عرضَهُ الأوّل قطّ. بعد سنوات وبينما كنتُ أُراجِع برنامجَ كونشرتو لفرقة بوفالو السيمفونية ـ لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجد، بعد أن اجتمعتُ مع بعض زبائني، ما هو أفضل من أن أحضرَ حفلة تُعزف فيها بشكل خادِشٍ *لوحاتُ معرض* ومقطوعة *طائر النار* ـ، اكتشفتُ اسم لارس أومدال بين أعضاء الأوركسترا. حمالة نوتاته كانت ما قبل الأخيرة.

كاباليتا

كانت أينْ أوّل حبٍّ لي. أُصحّح: أوّل امرأة عشقتها. علاقة، كما يُقال عادةً، معقّدة، أوّلاً لأنّها كانت في الرابعة والستين من عمرها وأنا في السابعة عشرة. ثانياً لأنّها لم تكن على دراية جيدة بما يسحرني. أين راند. حبّ من أوّل نظرة. ما إن توغّلتُ في عالمها، عالم اللامبالاة والتمرّد المواجهين لفساد السياسيين الخرقاء والبيروقراطيين، قبل أن أكتشف بكثير زوايا حنكها الجميلة، وشدة وجنتيها أو صفاء بؤبؤيها، حتى عرفت فيها توأم الروح. النسخة الذابلة من *أطلس طليق*، التي أنقذتها من مكتبة لبيع الكتب القديمة، أو بالأحرى أنقذتني هي، صارت مكتبتي. والمنفية الروسية، التي كانت ما تزال تتسكّع في مقاهي نيويورك (ستموت عام ١٩٨٢) تحولت إلى دليلي.

كانت أينْ هي من أثارتني ضدّ الدولة ومجساتها ذات ليلة من قراءة لا تنضب، وخفية عن أمّي. بفضلها استبعدتُ كلَّ عاطفة يسارية وقرّرتُ أن أتحوّل إلى مُنافس لجون جالت، البطل الذي يهرب من الضِّعة وينشئ جماعة من المغامِرين في جبال كولورادو. تلك الطوباوية القريبة جدّاً من الخيال العلمي التي كانت تسحرني وقتذاك أعطتني درساً مفصلياً: وحدهم المستعدون للدفاع عن الاستقلال الفردي والهروب من أذرع الحكومةِ يستحقّون أن يُسمّوا رجالاً أحراراً. كل ذلك الخطاب المبهم عن الدفاع عن المحرومين على حساب الناجحين وكلّ تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخطابات المشجية حول إعادة توزيع الثروة والضرائب وتدخّلِ الدولة في الشؤون المالية لم تكن سوى ذرائع لتبرير الشمولية. كانت أينْ قد عانت منها هي ذاتها عندما جرّدَ البلشفيون عائلتَها من أملاكهم الشرعية، رافعين شعارات المساواة زيفاً.

كان حبّي، مثل كلِّ حبٍّ مُعذّب، سرّياً: لم تكن جوديت لتوافق أبداً على شغفي بتلك المرأة، التي كانت نقيضها. ليس باستطاعتي أن أقول أنّ أمي في تلك السنوات، من بداية السبعينيات كانت ثوريّةً أو ناشطة ـ عملها كسكرتيرة لم يكن يترك لها وقتاً للاجتماعات ـ، لكنّها لم تكن تفوّتُ فرصة كي تشتم نيكسون، وفورد والجمهوريين بعامّة ولكي تتّهم «المصالح الاقتصادية الغامضة» أو «المركّب الصناعي العسكري» بكلّ الشرور التي تحل بالأرضِ. حدث تمرّدي المراهق، إذا كان من الممكن تسميته هكذا، فقط في ذلك الجوّ بحدوده الإيديولوجية الدنيا، بخلافها (أو بخلاف أبي) لم أكن مستعدّاً لأن أكون جزءاً من تلك الجماهير المُغفلة والعمالية التي دافعا عنها. وككلِ إنسان حرّ، لم أكن أعتبرُ المالَ عدّة الشيطان. عل العكس، وحده المالُ يمنحني تلك الحرّية التي علّمتني أينْ الدفاعَ عنها في مواجهة الأوهام التقدّمية.

بدأ شغفي بالمخاطر، أعتقدُ، مع ألعابِ الطفولة. بدأتُ أندفعُ فوق زلاجاتٍ من منحدرات كانت في كلّ مرّة أشد انحداراً وانتهيتُ بالمراهنة بمبالغ فلكية، على الأقل بالنسبة إلى مقاييس مراهقتي في سهرات بوكر طويلة مع عصابتي. سرعان ما اكتشفتُ أنّه لم يكن يهمّني كثيراً الربح كربحِ عندما كنتُ أُقامر بكلّ شيء. حتى ولو على حساب التقليب في جيبِ جوديث كي أُصفّي ديوني. من حسن الحظّ أنّني لم أتحوّل إلى غشّاش، أو إلى أحدِ أولئك التافهين الذين يخرجون من الكازينوهات مترنحين ويخسرون ثروات في بلاّعةِ النقود، وذلك بفضل أنّني وقعتُ

في السابعة عشرة من عمري تقريباً على كُتيِّبِ *كيف تشتري أسهماً؟* لشخص يُدعى لويس إنجل، وانتزعتني صفحاته من ذلك القدر المشؤوم. فهو بالإضافة إلى أنّه يُجيب على أسئلة بسيطةٍ مثل: «كم يُكلّفُ السهم؟» أو «كيف تعمل تجارةً بلعبة بوكر؟». النصّ مقاربة يُصبحَ عالمُ البورصةِ الغامض، المسيطر عليه حتى ذلك الوقت من قبل نخبة خائرة وهرمة، ممارسةً عامّة في كلّ بيتٍ أمريكيّ. سرعان ما عرفت إلى أين أُوجّه قواي: ليس إلى لعبة *البلاكجاك* المنحطة أو الروليت، بل إلى عالم الأسهم.

كانت غزوتي الأولى في قاعة المزادات في بورصة نيويورك للأسواق المالية توازي رعشتي الأولى. ذلك الرواح والغدوّ المجنون، ذلك الجحيم من النداءات والأصوات الناشزة، ذلك الإحساس بالسرعة والجرأة، المضاربة والخطر، كان أجملَ مشهدٍ رأيته في حياتي. رقصة كونية. تقتُ لأن أراهن ببقيتي في خذْ واعطِ، أن أواجه السوق كما لو أنّه حيوان وحشي وأعيش تجربةَ انفعال قهره أو احتضار أن أرى نفسي مُمَزّقاً بمخالبه.

حتى الآن وأنا خامل في هذه الجزيرة الوعرة، يقفز قلبي عندما أتذكّر تلك الأزمنة بأرباحها الجميلة وخسائرها المدمية. معظمكم، أيّها القراء الحُلماء، لن يفهم أبداً ما معنى أن يستسلم المرء للخطر بجسده وروحه، إنّه مثل العودة إلى ما قبل التاريخ وانتظار حيوان مُفترس مجهول. السوق بهيمة مربكة وخطيرة: هذا العدوّ الشرس الذي لا يرحم. أعترفُ أنّني منذ الثامنة عشرة من عمري إلى أن أُجبرتُ على أن أترك حياتي كاملة خلفي، لم أتوقّف قط عن مصارعتي للسوق. أليس هذا في العمق ما يُميِّز التاجر الجشع المُغامر؟

عندما أبلغتها بأنّني قبلت في جامعة نيويورك وأنّ اهتمامي الرئيسي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سيكون الأموال، نظرت إليّ جوديت نظرة ماحقة، كما لو أنّني طعنتها في ظهرها. كيف يمكن لابنها الوحيد أن ينتقل إلى الفريق المعادي. لم يفدني إبهاجي لها بأفكاري السوقيّة عن يدي آدم الخفيَّتين، لأنّ أينْ هزمتها هزيمة ساحقة. منذ ذلك اليوم لم تعد أمّي تُكلّمني عن الاقتصاد أو السياسة، وبالكاد اهتمّت بدراستي. بالمقابل بقيت أينْ دليلي. فقد قادتني المنفيّةُ الروسيّة من يدي إلى حلفائها المزعجين، إلى هايك ـ الذي لم تستلطفه يوماً تماماً ـ وفريدمان ومدرسة شيكاغو. إذا كانت عشيقتي قد جعلتني أرى من خلال رواياتها ومقالاتها أنّ الدولة هي المشكلة فقد برهن لي هايك من خلال *الطريق إلى العبودية* أنّ الدولة لن تملك أبداً المعرفة بكلّ الأفراد وبالتالي فإنّ تدخلها في الاقتصاد سيشكّل دائماً تهديداً لحرياتنا. وأخيراً علّمني فريدمان ـ وهو شيطان صغير قادرٌ على إطلاق أسوأ اللعنات بصوتٍ مخمليّ ـ أنّ الميّزات العظيمة للحضارة، في العمارة أو الرسم، في العلوم أو الأدب، لم تنبثق قط عن حكومة مركزية وشجّعني على النضال ضدّ القيود التي يفرضها الديماغوجيون على الأسواق.

قادَني فريدمان بدوره نحو نظريات أحد تلامذته، يوجين فاما، وفرضيته حول كفاءة الأسواق: وهو موضوع أقرب إلى مصالحي العملية. يعكسُ سعرُ السهم، حسب نظريّته، وبكلمات دقيقة كفاية، قيمتَهُ الحقيقيّة. بكلمات أخرى، لن تتأخّر العواملُ الاقتصاديةُ في مجتمع حرٍّ في امتلاك المعلومات ذاتها (عن شركة ما مثلاً) والتي سيُعبر عنها في السوق عبر الطريق الوحيدة الممكنة، رفع أو خفض سعر الأسهم. إذا ما سُمِح للمعلومات أن تتدفّق بشفافية مُطلقة فإن الأسعار ستعكس قيمة الأسهم الحقيقيّة. شرعتُ، مُشَجّعاً بهذه الأفكار، من جديد باستثماراتي في البورصة بمراهناتٍ هي إلى هذه الحدّ أو ذاك مُحافَظَة في

موضوع القيم القصوى. بالكاد تخطّت فوائد أسهمي، كما كان مُتَوَقّعاً، التضخّم. بعدها ملتُ نحو بعض الشركات المُنطلقة وشركات أخرى واعدة، آملاً أن أعثر على دجاجةِ البيض الذهبي. حلم الشباب الأبله. لن أصل هكذا إلى مليوني الأوّل قبل الثلاثين.

بينما كنتُ أخطو في عام ١٩٧٣ خطواتي الأولى في البورصة، قام متعصبان لكفاءة الأسواق، وكلاهما مدرس في شيكاغو، الرياضي فيشر بلاك والاقتصادي ميرون سكولز (بمساعدة لاحقة من بوب ميرتون) بوضع صيغة سوف تزعزع إلى الأبد نظامنا الماليِ ـ وحياتي ذاتها.

الصيغة هي التالية:

$$\frac{\partial V}{\partial t}+\frac{1}{2}\sigma^2 S^2\frac{\partial^2 V}{\partial S^2}+rS\frac{\partial V}{\partial S}-rV=0.$$

وبما أنّني لا أصبو لأن تُغادروا قرّائي الأعزّاء، كتابي مُبَكّراً سأحاول ألا أشوّش عليكم باشتقاقتها الرياضية. اكتشف بلاك وسكولز وميرتون أنّ هذه الصيغة كانت تسمح بحساب سرعة تقلّب الخيارات[١]. أعرف أنّ لهذا كله وقعاً غير مفهوم في أسماعكم غير المطّلعة، لذلك أرجوكم أن تحتفظوا فقط بالنتائج الخارجية لهذه الفكرة. نظريّاً، صيغة بلاك ـ سكول تسمح بإزالة الخطر في العمليات المحققة بالخيارات. اسمحوا لي بأن ألغي *الخطر*. إنّه حلم أيّ مراهن ووهمُ كلّ مستثمر. كيف لمثلي ألا يبقى مفتوناً ببلاهة؟ في السنوات التالية لن أفعل شيئاً آخر غير أن أستبطنَ

(١) السهم قيمة حاضرة، قيمة مستقبلية. إذا اشتريتُ سهماً، أشتري جزءاً من قيمة شركة. إذا حصلتُ على خيار، أحصل على احتمال أن أشتري أو أبيع سهماً (أو سنداً أو عملة صعبة أو أصلاً كامناً) فيما بعد. الخيار يعطي الحقّ، وليس واجب شراء أو بيع شيء، ما دام الموعد المنصوص عليه في العقد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الإمكانيات العملية لهذه الصيغة. أينْ راند، حبّي الأوّل، الأرستقراطية الروسية التي كانت ترتاب بشراسة بالدولة، قادتني إلى حبّي الثاني والأكثر حسماً: الخيارات والمشتقات المالية.

جوقة المتظاهرين

كانت الأجساد تتمدّد في الجادة الخامسة مثل موجة، الأذرع في الهواء والظهور والأكتاف عارية، بنطلونات عاصفة، أفخاً محتدمة وأوراك متلوّية. كان المشهد يتخطّى كثيراً زحامَ ورائحةَ المترو الكريهة. تحذيرات أمّي، خوفها من أن أصادف أحداً معروفاً من جامعة نيويورك. طبعاً لم يكن يُحرّكني أيّ دافع إيديولوجيّ. أم ترى هناك من يتخيّلني هيبيّاً هستيريّاً أمام فظائع الحرب، منهاراً فجأة أمام أطفال فيتناميين يعلوهم النابلم. إذ كنتُ قد حضرتُ فذلك فقط لأنّ نورمان حثّني على السير إلى جانبه في الاحتجاج. هو المولع دائماً بالقضايا النبيلة وأنا لم أجرؤ على أن أُخَيّب ظنّه. بعد أن خسرتُ لارس، ذلك الصبيّ الساذج والوديع الذي ولد وترعرع مثلي في منطقة بروكلين، تحوّل إلى معبودي الجديد. كانت له، من دون أن يكون وسيماً، عينان عسليتان من المحال ألا يبقى الواحد مسحوراً أمامهما وبرأيي كان فيه عيب واحد فقط، على الأقل بالنسبة إلينا نحن الذي كنّا لا نعتقد أنّ الثروة عار: ذلك الالتزام الاجتماعيّ، التبجّحي قليلاً، تلك الإرادة بشجب حتى آخر ظلم خفيّ على الأرض. من حسن الحظّ أنّ إزعاجه التقدّمي عوّضه بحديثهِ الحار والماكر واهتمامه السريع بشخصي الذي كان يُحيّر زمرته كما كان يُحيّرني.

في اليوم الذي تعارفنا فيه دعاني نورمان إلى بعض البيرة مع فتية آخرين من الحيّ، مجموعة من مُهلْهَلي الثياب يمكن أن ينتهوا في

أحسن الأحوال حجّاباً أو موزّعي كوكاكولا. كان نورمان الوحيد الذي دخل الجامعة، وإن كان يجهد كي يخفي نجاحاته الأكاديمية كما لو أنّها وصمة عار في ملفّه العمالي. خروجه مع مجموعته لم يكن يشبه إطلاقاً الخروج للحديث مع رفاقي في جامعة نيويورك وأقول ذلك إيجاباً. ربّما ما من أحدٍ من أولئك النهمين يقارب سلمَ درجات فأر المسك وأعظم طموح لهم هو أن يذهبوا ليلتهموا الهوتدوغ في حديقة اليخوت، لكنّهم على الأقل لم يكونوا يتظاهرون بأناقة الموسيقيين أو الجامعيين. البدائيين في أعماقهم مثلهم.

بالمقابل لا بدأ أنّ سكان الكهوف كانوا يعتبرونني دعسوقة، وللطامة أنّني عازف كمان، أو بالأحرى كنتُ ـ كنتُ أُفضّل ألا أكشف عن هذا ـ. كان أولئك الوحوش ينظرون إليّ بمزيج من السخرية والشفقة لا يُخفف منه إلاّ الودّ الذي كان يُحيطني به زعيمهم. ما الذي كنتُ أكسبُهُ من عصابة خاسرين كتلك؟ بالطبع لا شيء. لكن غيابَ التوقّعات هذا كان يسمح لي بتخفيض الحذر بينما كان عليَّ في جامعة نيويورك أن أبقى دائماً متيقّظاً كي لا تتآكل صورةُ القسوة التي كنتُ أتوق لبنائها لنفسي. هناك لم أكن فقط مجبراً على أن أكونَ بارداً وقاسياً فقط بل وعلى أن أتظاهر بذلك بلا كَلَلٍ: سمكة قرش طوال الوقت. على العكس مع نورمان ورفاقه لن أقع في تفاهة أن أقول إنّني أستطيع أن أكون أنا نفسي، لكن على الأقل أستطيع أن أسترخي قليلاً، واثقاً من أنّه ما من أحد من أولئك الخاسرين سوف يتحوّل إلى منافس لي في تجارتي.

لا بد أنّ التظاهر ضدّ الحرب كان مستغرباً بالنسبة إليهم أكثر مما بالنسبة إلي، وإن كانوا لا يريدون أن يُخيّبوا نورمان ومستعدين لأن يقضوا وقتا طويلاً إلى جانبه، تماماً كما كانوا يستنفدون طاقتهم في كرة السلّة أو يَسمنون بالبشار أمام تفاهات جيري لويس. وهكذا سرعان ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأيتُ نفسي هناك، ليس فقط كجزء من ذلك العرض المُعَطَّر بالعرق والأمل بل كمترئِّس له، يقودني القدر على رأس أحدِ طوابيرهم. أعترف أنّ التجربة لم تزعجني، فحرارة الشباب في أناشيدهم وهتافاتهم، غير العملية في غالبيتها أو الوهمية، أصابتني طبيعيّاً بعدواها ولم أتأخر في ضمّ صوتي إلى الكورسِ الذي كان يحتجّ ضدّ الإمبريالية، والمركب الصناعي العسكري وتماديات المخابرات المركزية الأمريكية. كان نورمان يصيح إلى جانبي وينظر إليّ بطرف عينه راضياً عن التقدم الثوري لتلميذه.

مع أنّني قرّرت أن أتخصّصَ بالاقتصاد، إلاّ أنّني لم أكن قد قرأتُ سطراً واحداً لماركس أو أنجلز وأقل منهم لِلينين أو ماو، الوغد الدارج، لكنّني كنتُ مُقتنِعاً بأنّ أفكارهم هي في أحسن الحالات، أوهام. عندها كنتُ أُفكّر ـ بل وأفكّر الآن ـ بأنّ مجتمعاً تتطلّع فيه الدولةُ إلى التحكم بكلِّ شيء ومراقبة كلِّ نشاط اقتصادي محكوم بالبربرية والشلل. أقول هذا وأنا لم أعتبرْ نفسي قطّ مُدافعاً صنديداً عن ديمقراطيتنا، التي كان يبدو لي ـ وما زال ـ بأنّها بلوتوقراطية مُموَّهةً حيث يفرضُ في النهاية مَكرُ بضعةِ أشخاص المُرشَّحينَ والبرامج. فقط في ساعة الاختيار بين نظام وآخر لم أكن أشكّ في أنّ السوق الحرّةَ، على الأقل بالنسبة إليّ (لم أكن أعرف ما إذا كانت بالنسبة إلى البقيّة أيضاً، مثل رفاق نورمان، لكنّها كانت دون شكّ بالنسبة إليّ) كانت تُقدّم فُرَصاً أفضل، بينما لن تُقدّم أمّة مُمَرْكَزةٍ، برعاع بيروقراطييها وشرطتِها السرّيةِ، حياةً مريحة. باختصار، لم أكنْ أرى أيَّ تناقضٍ بين مرافقة نورمان في مسيرتهِ المعاديةِ للإمبريالية واحتقاره للرأسمالية واعتباري لنفسي رأسمالياً مقتنعاً.

كان رعبي كبيراً عندما اكتشفت في صباح اليوم التالي على الصفحة

الأولى للبوست تحت عنوانٍ يستهجنُ غيابَ الوطنية عند الشباب الأمريكي. لم يكن هناك شكٌّ أنّ ذلك الفتى الصغيرَ، حسنَ المظهر بقبضته المرفوعة وفمهِ المفتوح (كي يشتم شرطياً، بحسب ما أتذكّر) هو أنا. ماذا كان عليّ أن أفعل ساعتها؟ أن أطمرَ نفسي تحت السرير حتى يُنسى الحادث؟ ما إن دخلتُ إلى قاعة الدروس حتى بدا لي أنّني لاحظتُ ثرثرةً حول شخصي. حاولتُ أن أمرّ دون أن ألفت الانتباه وتفاديت المشاركة في النقاشات ـ كنتُ قد تميّزت بأسئلتي الوقحة ومزاحاتي القذرة ـ، لكنّ جيم أوكنور، وهو أيرلندي بطيء الكلام وعنيد، جمهوري مُلتزِم، لم يتأخّر في كشفه لي.

ربّما يستطيع رفيقنا أن يُنَوّرنا حول كيفية مواجهة الصراع الفيتنامي ـ قال فجأة.

لم أَكُلّ طوالَ الفصل الدراسي من التعبير عن وجهات نظري الواضحة حول حرب فيتنام، كنتُ قد قلت إنّها تدخّلٌ لا بدّ منه، ولم أوفّر شتائم ضدّ من كانوا يُطبّلون للحمر في مجتمع رفاهيتنا الخائف. كانت صورتي صورة المعادي المرّ للشيوعية. إذن بحقّ الشيطان ماذا كنتُ أفعل على رأس مسيرةٍ ضدّ ذلك «العمل البهيّ لقواتنا»، بحسب الصيغة ذاتها التي نطقتُ بها أنا نفسي، قبل أسابيع؟ حاولت أن أخرجَ من خطّ التماس، تمتمت بذريعتين أو ثلاث كانت إلى هذا الحدّ أو ذاك مُبتذلة وأدرجت ضربة خاطئة لمزاج الإيرلنديين ولزمت في النهاية الصمت، منتظراً أن يُخفّف ذلك التصحيح المرتبك من سخرياتهم منّي. كانت عينا جيم قد امتلأتا بالدم كما يحدث للزومبيين في الأفلام، بينما أنيابه تتجه نحو ودجي. تخيّلتُ أنّه سيُنكّل بارتباكي، سيسحق عدم الإقناع عندي وسوف يلقي علينا خطبة طنانة بالوطنية ضدّ النفاق. لا شيء من هذا. طلعت من فمه تهمة غير متوقّعة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكن، ـ ابتسمَ ـ ما الذي يمكن أن يُنتظر من ابن شيوعي؟

سارع الأستاذ غرايستون ليطلب منا الهدوء وأمر جيم بأن يطلبَ منّي الاعتذار. أطاع العفريت، لكنّ الأذيّة وقعت. شددتُ على يده أمام الجميع، كما يُطالب أيَّ كتيِّبٍ في السلوك، لكن وكما تشير أعرافُ أيِّ قاعة صفٍّ انتظرته عند المخرج. ما إن تبيّنتُ ملامِحَه القردية حتى انقضضت عليه صارخاً مثل هنديّ أحمر. جيم الأرشق منّي، تفادى الهجوم وانتهيت بوجهي على شجرة. مرّ القزم مرور الكرام ومضى مظهراً لي إصبعه الوسطى المشعرة.

في تلك الليلة لم أذعن لضغوط جوديت كي أحكي لها ما جرى. عاهدتُ نفسي أن أحتفظ بتلك الإهانة في سرّي إلى أن يكشف عنها الزمن ولا تعود تؤلمني. لماذا الصمت؟ جواب أوّلي: كان عمري عشرين سنة. في هذا العمر يشعر الإنسان بأنَّه هشٌّ ومُستَضعف أكثر من أيّ وقت مضى. وربّما لم أكن أريد أن أسمع ما كانت ستكشف لي عنه أمّي. ما من أحدٍ من رفاقي عادَ ليطرّق للموضوع. فقد طُمِر بين آلاف الشتائم التي يتبادلونها يوميّاً في سجن التأديب الطوعي ذاك واستعدتُ أنا السلام.

بعد سنتين من الحادث وبينما كنّا نلتهم الشولِنت اللذيذ تجرّأتُ على أن أسأل أمّي عما إذا كان نُوَا شيوعيّاً. وكان جوابها ـ أنتم تتكهنون به (يا قرّائي) ـ هستيرياً: لا!

من العبث أن أكتب الشجار التالي: كلّ الشجارات العائلية تبدو روتينية. تابعت جوديت نكرانها له بشراسة وأحياناً بقنوط. *أبوك لم يكن قطّ شيوعيّاً*. كرّرتْها مرّة بعد أخرى، كما لو أنّها تُصلّي. أصرّت أمّي على أنّ نوَا كان رجلاً طيّباً، وطنيّاً، إلى آخره. في النهاية وضّحت لي

شيئاً: كان أبي، متهماً بالشيوعية سواء أكان بريئاً أم غير بريء؛ وليس من قبل شخص قميء مثل جيم أوكونور، بل من قبل لجنة النشاطات المعادية لأمريكا في الكونغرس. وبين صيحات جوديت الهستيرية أفلت منها ـ أو ربّما أفلتته قصداً ـ أنّ أبي لم يتخلَّ عن صندوق النقد الدولي، كما قالت لي دائماً، بل إنّه طُرِد من هناك بسبب ماضيه الشيوعي المزعوم.

انقطعنا أنا وأمي عن تبادل الكلام حتى الاحتفال بتخرّجي، عندما اعتقدتُ أخيراً أنّني تفهّمتُ أسبابها. أنا أيضاً لم أكن أريد أن تقول لي إنّ نوَا كان شيوعيّاً ولا أنّه كان مُتّهماً بذلك (حتى ولو كان زيفاً). بالكاد كانت حياتي كمغامرٍ بالكاد بدأت؛ فلماذا سأثقل عليها بهذا العبء؟ أنا أيضاً أردتُ، مثل جوديت، أن أنسى أبي. أنسى إدانته أو براءته. شاغلي الوحيد، سبق وقلتُ، كان شيئاً آخر: أن أربح مليوني الأوّلَ قبل أن أُكمل الثلاثين.

بعد عقدين، بينما كنتُ أُساعدُ جوديت على نقل أشيائها إلى فيرمونت ـ المكان الكريه الذي أجبرتني على أن أشتري لها فيه بيتاً صغيراً ـ عاد شبحُ أبي ليُلاحقني. اكتشفتُ في أحدِ الصناديق دفاترَ عملِهِ، وقد أكلها العثّ والنسيان. ما إن فتحتُ أوّلَ دفترٍ منها ـ ١٩٣٧ ـ حتى عرفت أنّني لن أنجح في أن أتجاهل قصّتَهُ. ثم إنّه كان في قد صار في حسابي عدّة ملايين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الرابع
كيف ظهر واطسون بتنورةٍ هيبية واليهودي الوغد الذي اخترع صندوق النقد الدولي

ثنائي

ماذا أفعل بهذه الصفحات؟ تُراها كانت تركة أم تحذيراً؟ ما زلتُ أتساءل، بعد أن غصتُ لأوّل مرّة في يومياته، لماذا قرَّرتُ أن أتابعَ كيتيم وديع، بعيداً عن محن الرجل الذي رمى بنفسه من نافذة قبل شهر من وِلادتي وهُوِسْتُ بِنبشِ ذاكرته. إنّ مفارقة أنْ يكون مستثمر من وول ستريت قد تكوَّن بمساعدةِ عميل شيوعي هي بالمحصّلة مريعة بما يكفي، لكنّ شغفي المفاجئ بِنُوَا لم يكن من الممكن أن يُعزى إلى دافع الفضول الفكري المحض. لا أحاول أن أنبشَ هنا الآليات التي أجبرتني على الجري وراءه (أنتم تعرفون أكثر من اللازم مقتيَ للتحليل النفسي) ولذلك سأقتصر على أن أعترف بأنّ منظورَ ألاّ يكون والدي الشيطانَ البائسَ الذي رسمته جوديث، بل شخصية أكثرَ غموضاً وأكثرَ تعقيداً وأكثر إبهاماً، يبدو أنّه أغراني لا محالة. لم يكن التاريخُ، مع التشديد على الكلمة، قط نقطةً من نقاط قوّتي، فقد كنتُ دائماً مهتمّاً بالمستقبل ورهاناتهِ أكثر من اهتمامي بمزاحات الماضي، لذلك لم يكن أمامي غير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أن أتعاقدَ مع مؤرِّخةٍ شابّة، طالبة متخرّجة من جامعة نيويورك، كي تتعاون معي في «بحوثي» كما سمَّتْها هي بمسحة ساخرة.

منذ أوّل مقابلة لي مع ليْ لِفيت ـ عمرها سبعة وعشرون عاماً، بريئة وكثيرة القراءة، ديمقراطية، نباتية، يهودية لكن ليس عندها خيلاء أمّي ـ متعاونة مثالية. كان قد مضى عليها عدد من السنوات وهي تعمل على رسالة دكتوراه حول اتفاقيات بريتون وودز، وبحسب ما تتباهى في عرضها للدوافع، الذي أرسلته إليّ بأنّها كانت تعرف دهاليز وزارة الخزانة في الثلاثينيات والأربعينياتِ، كما تعرفُ راحةَ كفّها ـ توقّفت عند بلوزتها الفضفاضة، صندلها وبنطلونها الجينز ـ أريتُها يومياتِ نُوَا، كما لو أنها طَعْم.

هل ستُساعدينني إذن على فهم ما تعنيه؟ ـ سألتُها.

كان لِلي ابتسامةٌ من تلك الابتسامات الخجولة التي تغطي على بعض السَّلاطة. جعدت أنفها المغطى بالنمش والمُتَناقِض مع شفافية بشرتها.

سيسرّني ذلك ـ تراخت ـ لكنّني لا أعرف بعد ما إذا...

أنا واثق من أنّ هذه المادّة ستُفيدك في رسالتك، يا آنسة لِفيت. ومع أنّني لا أفهم تماماً محتوياتها، إلاّ أنّني أستطيع فعلاً أن أُلاحِظ أنّها تُقدّم نظرةً فريدة عن وزارة الخزانة، تماماً في المرحلة التي تهمّك.

كان نوَا فولبي مساعداً لِوايْت لسنوات عديدة ـ أكّدت لي هي ـ لا بدّ أن يومياته وثيقة أخّاذة.

لم أُضطرّ لأن أضغطَ عليها كثيراً كي تقبل عرضي: المبلغ الذي قدّمته لها يبدو أنّه أعلى بثلاثة أضعاف من المنحة التي كانت تتلقاها كطالبة متخرّجة.

عندما عدنا والتقينا في مكتبي، حضرت ليْ بتنورةٍ قصيرة متعدّدةِ

الألوان وصندل: شيء غريب بين اليوبيّين[١] الذين يفور بهم المكانُ من حولنا. أغلقتُ البابَ وطلبتُ من سكرتيرتي ألا يُقاطعنا أحد. صببتُ لنفسي كأسَ وسكي وآخر لِلي، لكنّها فضّلت كأسَ ماء. نشرتْ، دون مقدمات، يومياتِ والدي على الطاولة بأصابعها الناعمة وأظافرها غير المطلية (لاحظت في لحظة ما أنّها تقضمها).

١٥ أيار ١٩٣٧

كان هاري يترأس الأعمال. لاحظتُ منذ البداية أنّهُ سيّئُ المزاج. سرعان ما أسهبَ جيمس واتز في مديح تشامبرلين، الذي، بحسب الأخبار، تفادى الحرب توّاً بالتحالف مع هتلر.

«لقدّ تَمّ تفادي الصراع» أشار واتز بلامبالاة، «هذا هو الأهم، ألا تعتقدون ذلك؟».

نظرنا جميعاً إلى هاري: احمرَّ جبينُهُ وخداه. بدأ يتصبّب عرقاً. حاول خلال دقيقتين أن يُخفّف من غضبه، إلى أن انفجر: «أنت تنظر إلى تشامبرلين كبطل، وأنا أراه جباناً وخائناً!».

كيف تجرّأ هاري على أن يلفظ تلك المسبّة في اجتماع وزارات الدولة؟ واتز يُصدّق. وكان هذا البداية فقط. قال له إنّنا إذا لم نعمل فوراً سنتحوّل جميعنا إلى مشاركين في البربرية. وأنّ حلمنا سيرتدّ علينا نقمة. وأنّه وبسبب الببغاوات الانعزالية سرعان ما سيصبح هتلر مالكاً لنصف أوروبا.

---

(١) مصطلح أُطلق في الثمانينيات على مهنيّي الطبقة الوسطى الذين يعتنون بمظهرهم، وأستطيع أن أطلق عليهم مصطلح المُبرمَجين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن باستطاعة واتز أن يُصدّق أنّ معاون الوزير الأوّل سماه ببغاء. بعد لحظات من الشلل، نهض عن الطاولة.

«إلى أين تعتقد أنّك ذاهب؟» أوقفه هاري.

ردّ واتز بأنّ تلك المُعاملة تبدو له غير مقبولة، وأنّه ليس عنده ما يفعله هناك. أخذه هاري من ذراعه وأجبره على العودة إلى كرسيّه.

«لنتابع من حيث توقّفنا»، أكّد.

«هذا لن يُساعدنا على تحسين علاقتنا بوزارة الخارجية»، حذّره هاري في نهاية الاجتماع.

«سيّان عندي»، وبّخني. «لا بدَّ أن يكون هناك مَنْ يقولُ الحقيقة».

هذه هي أوّل مدوَّنة في اليوميات ـ لفتت لي انتباهي ـ. كان نُوَا فولبي قد وصل إلى وزارة الخزانة قبل بضعة أسابيع، في نهاية آذار من ١٩٣٧، بموافقة صريحة من هِنري مورجنتاو. قبلها كان والده قد شغلَ منصب المساعد المالي في إدارة تأمينات المزارع. وبحسب ما تحقّقتُ منه كان عمله هناك، كمُريدٍ شابٍّ ومتحمّسٍ لسياساتِ الاتفاق الجديد، قد لفت انتباهَ دوائر واشنطن التقدميّة وبفضل توصية جورج سيلفرمان، وهو موظف في صندوق تقاعد عمال السكك الحديدية القريب جدّاً من وايت، الذي لم يتردّد في التعاقد معه في وزارة الخزانة.

لم أكن أعرف شيئاً عن هذا ـ اعترفتُ.

لم أكتشف أيّ وثيقة مهمة موقّعة من قبل نُوَا خلال مرحلة وجوده في إدارة تأمينات المزارع ـ كشفت لي ليْ ـ. وإذا كانت المذكراتُ، والمحاضرُ، والاتفاقيات، والملاحظات المخطوطة تلفتُ الانتباهَ إلى شيءٍ فهو إلى خبرته البيروقراطية: أسعار القمح، الشعير أو الذرة أو

حوافز صغار المزارعين لا تُضيء النقاط الغامضة عنده. بالاستناد إلى هذه الرزمة من الأوراق فقط أجرؤ على أن أخلص إلى أنّ أباك كان موظّفاً مفرطاً في الدقة، ربّما بغيرة مفرطة تجاه جزئيات اللغة (هناك أحياناً ثلاثُ أو أربعُ مسوداتٍ لرسالةٍ واحدة مليئة بالدوائر الحمراء) بالمقابل لا يقتصر في يومياتِ وزارةِ الخزانة على وصفِ اجتماعاتِ عمله، بل يُضيف إليها عدداً من التعليقات حول سياسةِ الحكومةِ الداخليةِ وحالةِ الحرب ورؤسائِهِ وزملائِهِ ومنافسيهِ في مجالات أخرى. منذ أن انضمَّ نُوَا فولبي إلى فريق وايت، التحقَ بإحدى أكثر المهمّاتِ التي كانت تشغل رئيسَهُ في تلك الأشهر، المسألة الصينيّة. بينما كان هتلر يَظهرُ كتهديد للسلامِ في أوروبا، كانت اليابان تُناوِشُ شيانغ كاي - شيك انطلاقاً من منشوريا. وكان مجلسُ وزراء روزفلت منقسماً إلى فريقين: الانعزاليون، وعلى رأسهم وزير الخارجية، كورديل هول، المصرّ على الحفاظ على البلد خارج أيّ صراع أجنبيّ، وأنصار التدخُّلِ، برئاسة مورجنتاو ووايت، اللذين كانا يُؤيدان ردّاً صارماً على الاستفزازات اليابانية والألمانية. انظر هذه المدوّنات.

١٨ أيار ١٩٣٧

لم يكن الوزير مورجنتاو مستعدّاً لأن يُذعن لهول. كراهيتُه لألمانيا لم تفعل شيئاً آخر غير أنّها راحت تزداد، ويعود ذلك إلى حدّ لا بأس به إلى محادثاتِهِ مع هاري. أصرَّ مرّةً بعد أخرى على الحاجة لتطبيق عقوبات على المُعتدين. الرئيس يتردّد، يكبَحُهُ الرأيُ العامّ. لا أحد يريد أن يرى البلدَ متورِّطاً في مواجهة جديدة. يُفكّر الناسُ بأنّنا لسنا مُجبَرين على إنقاذِ العالم مرّةً بعد أخرى، وخاصة حين لا نكاد نبدأ بالخروج من الأزمة. الغالبيّة ترى أن ملاحقةَ اليهود شرٌّ خفيف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٨ حزيران ١٩٣٧

«أخبار جيّدة» أعلن لنا هاري هذا الصباح. «الوزير مورجنتاو يُريدنا أن نبحث عن طريقة لمنحِ قرض للصين دون أن نخرق قراراتِ الكونغرس. ماذا يحدث له؟».

«ألمحُ إمكانيّة» غامر هارولد غلاسير. «حكومتنا لم تعترف بحالةِ الحربِ بين الصين واليابان. منح قرض للصين، في هذه الظروف، لن يخرق قوانين الحياد».

«القروض يجب أن يُوافق عليها الكونغرس»، ردَّ فرانك كوي، «سيعترض الجمهوريون».

«وماذا لو عملنا تحت ظلّ قانون شراء الفضّة؟»، اقترحتُ.

«اعملْ عليه» حثّني هاري.

«كما تعلم القانون يسمح لنا بشراء الفضة إلى حدّ معين بهدف أن نُوازن احتياطاتنا. ربّما نستطيع أن نجد سعراً عادلاً ونُوقّع عقداً ندفعُ من خلاله مُقَدّماً بالدولار لحكومةِ الصين».

«قرضٌ مُقَنَّع»أشارَ كوي.

«تماماً ما نحتاجُهُ» تحمّسَ هاري.

١٨ حزيران ١٩٣٧

«أيضاً شيانغ دكتاتور، وإن كانت قوّته لا تُقارن بقوّة هتلر أو موسوليني» أسرَّ لي هاري خلال الغداء. «لكنّنا مُجبَرون على مساندته. القوات اليابانيّة بدأت تقدُّمَها نحو وسطِ البلاد وإذا لم يتلقّ مساعدة سيكون مصيرُ كلِّ الديمقراطياتِ على الأرض مُهَدّداً».

٨ أيلول ١٩٣٧

«وقّع الاتحادُ السوفييتيّ والصين توّاً معاهدةَ عدم اعتداء» أعْلَمَنا هاري. ولوحظ لأوّل مرّة منذ زمن طويل أنّ مزاجَهُ رائق. «هل تعلمون ماذا يعني هذا؟ أنّ المفاوضات بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا تترنّح. اليابان عدّونا الطبيعيّ، مثلها مثل الصين والسوفييت. إذا بقيت الأمور على هذا الحال ربّما يصبح من الممكن إنشاء تحالف كبير».

٥ تشرين الأوّل ١٩٣٧

فاجَأنا جميعاً الخطابُ الذي ألقاه روزفلت في شيكاغو تحت عنوان *الحَجْر على المعتدي*. وضّح الرئيس، المجبر على عدم مناقضة قوانين الحياد، الانعطافَ الذي ستشهده سياستنا الخارجية. كانت الرسالةُ حاسمة: ستعمل حكومَتُنا من الآن فصاعداً المستحيلَ كي تُساعِد حلفاءها. الصين في المقام الأوّل. على الرغم من بعض الصعوبات التقنية إلاّ أن شراء الفضّة يتعزّز مُسْبَقاً.

٢٥ أيّار ١٩٣٨

نشر اليوم الوزيرُ مورجنتاو تعيين هاري مديراً جديداً لقسم البحث المالي. صار الذراعَ الأيمن للوزير. حتى منافسوه يفهمونه بهذه الطريقة. بعد ساعات قليلة من الإعلان استدعاني هاري إلى مكتبه، واكتفى بأن قال لي بنبرة آمرة إنّه يعتمد عليّ.

٢٥ حزيران ١٩٣٨

حضر هاري لأوّل مرّةٍ هذا الصباح في التاسعة والنصف اجتماع مجلس حرب الوزير مورجنتاو. فقط دعا لقدس أقداسه المقربين إليه. الجميع بحسب هاري رحّبوا به ترحيباً حارّاً على الرغم من أنّه فضّل ألا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يلقي أيّ خطاب. في الحقيقة هم يحسدونه لأنّ قسم البحث المالي صار قلبَ وزارة الخزانة.

٣٠ أيلول ١٩٣٨

كان هاري على حقّ، تشامبرلين جبانٌ واتفاقيةُ ميونخ كانت عاراً، فتسليمُ جبال السوديت إلى هتلر بدلَ أن يكبحَ الحربَ لن يفعلَ شيئاً آخر غير أنّه سيزيد أطماعه. يعرفُ الدكتاتور الآن أنّه ما من أحد سيجرؤ على أن يضعَ له حدوداً.

بعدها ـ تُبَلّل لي إصبَعها بلعابِ لسانها كي تَقلب صفحات اليوميات ـ يُوَضّحُ والدُك الموقف الذي يشاطر به رئيسه: الكراهية التامّة لألمانيا النازيّة والحاجة لمساعدة الصين في حربها ضدّ اليابان:

٤ تشرين الثاني ١٩٣٨

طلب الوزيرُ مورجنتاو من هاري رسالةً كي يطلب من الرئيس الموافقةَ على مشروع شراء الفضّة الصينيّة. عملنا في المسودة حتى الفجر. الفكرة المركزية كانت تسفيه هول، المصرّ على توقيع اتفاقياتٍ تجاريةٍ مع بلدان أخرى، بالبرهانِ على أنّ أفضل طريقة للمساهمة في انتصار الديمقراطية هي في دعم الصين الواضح.

٧ كانون الأوّل ١٩٣٨

أخيراً أُعلنَ اليومَ عن شراءِ الفضّة الصينية بمبلغ ٢٥ مليون دولار. انتصارنا الصغير.

١٧ كانون الأوّل ١٩٣٨

ازدادت العداوة بين وزارة الخزانة ووزارة الخارجيّة بعد التصديق على قرض الصين. هول يتهمُ مورجنتاو بالتدخل في مسائل من اختصاصه، بينما هذا ليس مستعداً للتنازل في موضوعات السياسة

الاقتصادية الخارجية. لكنّ الأمرَ حُسِمَ، فالرئيس قرّرَ أن يعمل بنصائحِ وزارة الخزانة ـ أي نصائح هاري.

كما يُلاحظ في هذه الصفحات ـ خجلت لي ـ يفرحُ نُوَا فولبي بانتصار وزارة الخزانة على وزارة الخارجية، كما لو أنّه انتصار شخصيّ. موقف مورجنتاو وبالتالي موقف وايت وفريقه لم يطرأ عليه شيء آخر غير أنّه تعزّزَ في السنوات اللاحقة. بينما قطاعات كبيرة من البلد تبقى على الحياد، هم يُفكّرون بأنّ هتلر جوهرُ الشر. أعتقد أن قراره بالتقرّب من الاتحاد السوفييتي يأتي من هنا.

٢٢ آذار ١٩٣٩

يعمل هاري الآن على الملف السوفييتي. يريدُ أوّلاً أن يتعهدَ الاتحادُ السوفييتي بإيفاءِ ديونه الرسمية والخاصّة للولايات المتحدة، وهو ما سيكلفه بحدود ١٥ إلى ٢٠ مليار دولار سنويّاً، ثانياً أن ينصح بمنحه قرضاً بقيمة ٢٥٠ مليون دولار بمعدل فائدة ثمانية بالمائة يُدفع خلال عشر سنوات. يُستخدم القرض لشراء منتجات أمريكية: قطن، آلات، مصانع وجلود بقيمة ١٥٠ مليوناً. تأثير القرض بحسب هاري سيكون مفيداً جدّاً لاقتصادنا، كما أنّه سيُساهم في جذب السوفييت إلى فلكنا. للأسف أنّ هول ما زال يتخبّط.

هل يعني هذا أنّ فريق وزارة الخزانة كان لصالح تحالف مع الروس؟ ـ سألتُ.

لا، ليس تماماً ـ ـ كانت ابتسامةُ لي توحي ببعض الرضا ـ كان وايت يُريد أن يتفاوض مع الروس لأنّه كان يعتقد أنَّ من الضروري تشكيل جبهة مشتركة ضدّ المحور. لكنَّ معاهدةَ عدم الاعتداء الألمانية السوفييتية في آب ١٩٣٩ قلبت استراتيجيته رأساً على عقب. عندها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تركّزت كلُّ جهودِ وزارة الخزانة على مساعدةِ بريطانيا العظمى. في ١٩٤٠ سمح روزفلت بالبدء بتنفيذ اتفاقِ قرضٍ واستئجارٍ مع تشرشل. بحسب نُوَا ـ هنا تمهلت لي ـ ـ، لا يهمّك أن أَدعوه نُوَا، أليس كذلك؟

لا، طبعاً لا، تابعي.

بحسب نُوَا، ساد المفاوضات مع البريطانيين كلُّ شيءٍ ما عدا الصراحة، فينما كان البريطانيون ينتظرون مساعدة نزيهة، لم يكن مورجنتاو ووايت يريدان أن تُسلّم الأموالَ مقابلَ وعود. كلاهما كان يُفكّر أنّ الإمبراطوريّة البريطانية كانت قوّة عفا عليها الزمان تعمل كمنافس للولايات المتحدة وعدم ثقتها بها يظهر في كلّ لحظة. لا يُوفّر نُوَا في يومياته أحكاماً صارمة ضدّ الإنكليز:

٣ *كانون الأوّل* ١٩٤٠

يتطلعّ هاري لأن يصطاد عصفورين بحجر واحد: أن يدعم بريطانيا العظمى خلال الحرب ويَضمَن أن لا تعود قادرة بعدها على الحفاظ على تطلعاتها الاستعمارية.

١١ *آذار* ١٩٤١

بعد أشهر طويلة من رواحٍ وغدوٍّ بين وزارة الخزانة ووزارة الخارجية والبيت الأبيض، يُعلنُ الرئيسُ في هذا الصباح عن توقيع اتفاقيةِ الإعارة والتأخير مع الإنكليز. في الردّ على انتقادات الجمهوريين استفاد الرئيس روزفلت من مثل ريفي لشرح أدائه. «إذا ما أعرتُ جاري خرطومَ مائي كي يُطفئ الحريق في بيته، لن أنتظر بعد أن يُطفئ النار أن يدفع لي الخمسة عشر دولاراً قيمةَ الخرطوم، بل أن يُعيده إليّ كما هو.» وهو ما ردّ عليه روبرت تافت من أوهايو: «إنّ من يعير معدات عسكرية كمن يعير علكة تشكلِتس، ما من أحد ينتظرُ من الجارِ أن

يعيدها له بعد أن استخدمها» بعيداً عن النكات تمثّلُ الاتفاقية انتصاراً بالنسبة لوزارة الخزانة وإن كان على وزارة الخارجية الآن أن تأخذ على عاتقها تنفيذها.

عاد الغزو النازيُّ المُباغِت في حزيران ١٩٤١ ليُحوِّل الاتحادَ السوفييتي إلى قوّة حليفة ـ ذكَّرَتْني لي ـ عندها فقط استطاع وايت أن يأخذ من جديد بفكرة مساعدة الاتحاد السوفييتي من خلال اتفاقية إعارة وتأجير مشابهة للموقّعة مع بريطانيا العظمى.

ألم يكن إصراراً زائداً من ناحيته؟

يمكن من بعيد أن يبدو غريباً أن يُكرِّسَ فريق وايت كلَّ تلك الجهود لدعمِ السوفييت، لكن وبحسب دفاتر نُوَا، ما من لحظة يبدو فيها أنّ لقرارِه دافعاً آخر غير القتال ضدّ المحور. على أيّ حال والدك لم يُشارك قط في المفاوضات مع الروس، فقد كان مُنهمكاً بالمسرح الشرقي.

وماذا كان يفعل هناك؟

كان الوزير مورجنتاو مصمّماً على تكثيفِ دعمه الاقتصادي للصين، وإن كان من دون الدخول في صراع مع اليابانيين. تحت إصراره قدّم نُوَا إلى وايت مشروعاً لم يتضمّن توقيع عدد من المعاهدات التجارية مع اليابان وحسب بل واحتمال الاعتراف بسيطرتها على منشوريا مقابل وقف الاعتداء على الصين. لكن وزارة الخارجية وجّهت أمام تشدّد اليابان برقية لليابانِ مطالبةً بسحب قواتها. أمام هذا الإنذار أعلن رئيس الوزراء توجو الحربَ وهاجمت البحريةُ اليابانية الإمبراطورية في ٧ كانون الأوّل بيرل هاربور. في اليوم ذاته الذي أعلن فيه روزفلت الحرب على اليابان قام نُوَا بحركة مصيرية أخرى في وزارة الخزانة ـ انزلقت سبّابة لي على يوميات أبي سطراً فسطراً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

٨ كانون الأول ١٩٤١

بعد أحداث البارحة الوحشية يتراوح وضعي النفسي بين البكاء والغضب. لكن لا وقت للتوقّف. مورغنتاو استدعانا باكراً جدّاً لاجتماع عاجل.

«بهدف الحدّ من أيّ انقسام بيننا» نبّهنا، «ولكي أجعل حياتي أقل صعوبة في هذه الظروف قرّرتُ أن أمنحَ هاري وايت منصبَ نائب وزير. لا أستطيع أن أسميه معاون وزير في هذه اللحظة، لكنّني أريد أن أمنحه المنصب كما لو كان كذلك، وسيكون على رأس الشؤون الدولية باسمي».

كان الرضا أقرب إلى الإجماع. في هذه اللحظات القلقة ما من أحد أفضل من هاري لتنسيق جهودنا.

«أريد أن يتركَّز كلُّ شيء في عقل واحد» ختم مورجنتاو، «وأريدُ لهذا العقل أن يكون هاري».

١٥ كانون الأوّل ١٩٤١

ظهر اليوم خبر القرار ٤٣ الصادر عن وزارة الخزانة: «بدءاً من هذا التاريخ سيضطلع السيد هاري دكستر وايت بكلّ المسؤوليةِ في كلٍّ ما يتعلّق بالشؤون الخارجية في وزارة الخزانة. سيكون السيد وايت همزةَ وصلٍ بين وزارة الخزانة ووزارة الخارجية، وسيلعب دور مساعد وزير الخزانة في السياسة الخارجية وسيضطلع بمسؤولياتٍ في إدارةِ وعملِ صندوق تحقيق الاستقرار المالي دون تغيير في التعيينات السابقة. سيقدّم السيد وايت تقاريره للوزير مباشرة».

بالإضافة إلى استمراره في أعمال مديرية التحقيقِ المالي الخاصة ـ تابعتُ لي ـ، فقد صار الآن على وايت أن يُدير العلاقاتِ الاقتصادية مع

الأمم الحليفة ويُفَعِّل القروض لتمويلِ المجهود الحربي. بين ليلة وضحاها تحوّل إلى الرجل الثاني في وزارة الخزانة، وإلى أحد أقوى الموظفين في حكومة روزفلت. بعد أسبوع من بيرل هاربور، طلبَ مورجنتاو من وايت أن يُطلق صندوقِ استقرارِ بين الحلفاء يضع أُسسَ اتفاقيةٍ اقتصاديةٍ لما بعد الحرب. عندها شرع نائب الوزير بالعمل في أهمّ وثيقة في تاريخه، المسماة *خطة وايت* والتي ستصبحُ على المدى الطويل أساسَ نظام بريتون وودز. من المؤسف أنّ دفاتر نُوَا تتوقّف هنا. فآخر مُدوّنة له في ١٢ شباط ١٩٤٢ تظهر ناقِصةً، وهو ما يدلُّ على وجود دفترٍ لاحق.

كما قلتُ لك، ظهرت اليوميات مصادفة بين ممتلكات أُمّي وهي لا تعتقد أنّها احتفظت بأيّ دفتر آخر. ـ وضّحتُ لها.

مؤسف!

اعذريني لأنّني أسألك بهذه الطريقة، آنسة لِفيت، لكن من كان هاري دكستر وايت بالضبط؟

سؤال ممتاز ـ عضّت ليْ على شفتِها السفلى ـ. منذُ خمسِ سنوات وأنا أدرس اتفاقيات بريتون وودز وحتى الآن لا أستطيع أن أقولَ لك بالضبط من هو هاري دكستر وايت ـ أخرجت بعدها بعضَ الملاحظاتِ من حقيبةِ ظهرها ونشرتها أمامي ـ. وُلد وايت في بوسطن ١٨٩٢ وتوفّي في فيتزوليام، نيو هامشير في آب ١٩٤٨. تعلّم في بوسطن وخدم في فرنسا كضابط في جيش الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى. درس في ستانفورد وفي هارفورد، حيث حصل على الدكتوراه ودرَّس الاقتصاد. انضمَّ بعد فترةٍ قصيرة له في لورنس كوليج وفي وايكونسين، إلى وزارة الخزانة في عام ١٩٣٤. وسرعان ما كسب ثقةَ وزير الخزانة هنري

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مورجنتاو الابن، وكما صرتَ تعرفُ الآن حصل في كانون الأوّل عام ١٩٤١ على منصب معاون وزير الخزانة، بعدها بأشهر وفي بداية ١٩٤٢ لعب دوراً رئيسيّاً في صياغة سياسة الولايات المتحدة لاستباق النظام المالي الدولي لما بعد الحرب. كان إلى جانب جون مينارد كينز، الشخصية المهيمنة في مؤتمر بريتون وودز، حين أُنشئَ البنكُ الدولي لإعادة الإعمار والتنمية وصندوق النقد الدولي، الذي كان أوّل مدير تنفيذي له من وفد الولايات المتحدة. حين بدأ الصندوقُ أعماله في أيّار ١٩٤٦ترأس وايت الاجتماع الأوّل للجنة المدراء التنفيذيين.

هاري دكستر وايت في وزارة الخزانة.

لهذا الكلام وقع مدهش.

بعد أكثر من عام بقليل استقال وايت من الصندوق وغادر واشنطون وحصل على عمل في نيويورك كمستشار ماليّ ـ لم تستطع لي أن تمنع صوتها من أن يتهدّج ـ في أيلول ١٩٤٧ تعرّض وايت لنوبة قلبية قاسية ولسكتة قلبية تاجية ثانية تسبّبت بوفاته في آب ١٩٤٨.

يبدو أنّ الصورةَ التي قدّمْتِها لي تُبرّر إعجابَ أبي به ـ فوجِئْتُ ـ، ما الذي يمكن أن يكون مشرّفاً ومُحفِّزاً أكثرَ من التعاون مع المسؤول الذي صاغ النظام الاقتصادي، الذي ما زال يحكم بطريقة أو بأخرى حتى يومنا هذا؟

قامت لي بحركةٍ شبيهةٍ بحركة مراهق يكتشف خيانات أبيه.

للأسف يبدو أنّهُ ليس من السهل إصلاح دوره في التاريخ ـ اعترفتْ ـ في تشرين الثاني ١٩٥٣ بعد خمس سنوات من وفاتهِ تقريباً صرّح هربرت برونل، المُدّعي العام أنّ هاري دكستر وايت كان جاسوساً روسيّاً. كشف الرئيس السابق ترومان أنّ اتهامات جديّة بالتجسّس صيغت ضدّ وايت في أواخر ١٩٤٥ وبداية ١٩٤٦، لكن عمليّاً كان من المحال وقتها إثبات تلك التهم بالدليل الذي كان بين يديه وقتها. سمح، بانتظار نتائج تحقيق سرّي، بأن تُتابعَ تسميةُ وايت في الصندوق مسارها. لكن عندما وصلت الحاجة للحفاظ على السر إلى نهايتها فُصل وايت من منصبه من دون عوائق. في شهاداتٍ لاحقةٍ أمام الكونغرس اعتبر المُدّعي العامّ برونل أنّ هناك إثباتات قاطعة بتورّطِ وايت مع السوفييت.

اتُهِم وايت بأنّه جاسوس سوفييتي! ـ صحتُ.

هو كذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إذا كنت فهمت جيداً... يا لي...، فهذا يعني أنَّ مُبدعَ صندوقِ النقد الدولي والبنك الدولي كان جاسوساً شيوعيّاً!

اكتفيتُ أمام صمت الشابّة المندهشة بأن أطلقتُ قهقهة.

المشهد الخامس
حول طبيعة الجينات القاتلة
والحروب التي تدور في العائلة

ترتيل

بحثتْ راشيل عنّي. أقول ذلك دون غرور، وأنا أعرف أنّ هذا الفصلَ سوف يُسبّب لها استياء كبيراً. ولكي أرضيها سأعترفُ أنّه كان لها وقتذاك عينان سماويتان وبشرة زيتونية وساقان لا نهاية لهما. (اليوم تُميزها نظرتها البرّاقة وجلدها المخرّب بالبقع وساقاها اللتان لجثّة.) كانت راشيل قد بدأت مثلي ماجستيرَ إدارةِ الأعمال في بيتسبورغ، لكنّها بخلاف القسم الأعظم من رفاقنا لم تأتِ من مجال المال، بل من مجال الفيزياء وكانت قد أنهت رسالةَ دكتوراه في كورنل.

إحدى ميزات أو عيوب البروز في مدرسة إدارة الأعمال، حتى في مكان بائس مثل بيتسبورغ، هي الهالة الجنسية التي تصدر عن المال. أنا لا أُشكّك بأناقتي ولا بوسامتي في تلك السنين، لكنّني إذا كنتُ قد رأيتُ نفسي محاطاً أو ملاحَقاً بجوقة بائسة من الميناديات فهذا لم يكن لشخصيتي ولا لأخلاق الفروسية عندي بل لوضعيَ كنجمٍ صاعدٍ في عالم الخيارات.

راشيل، حمراء الشعر؛ غابرييل سمراء؛ تامارا شقراء. ملائكة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تشارلي، لو أنّ ملائكة تشارلي[1] بدل أن يخترن لثنياتهنّ تمّ اختيارهنّ لتلافيف قشرة أدمغتهن. إحداهنّ منبسطة وداهية، الأخرى ناشفة وغامضة، الثالثة أقرب إلى المملّة، مسحوقة من الأخريين.

بار في وسط بيتسبورغ.

بماذا كانوا يحتفلون؟ بعيد ميلادٍ ما، يوم العمل، بعيد الميلاد، ما أدراني. أربعة عشر طالباً في ماجستير إدارة الأعمال يستوحشون بكؤوس الفودكا في سباق كحوليّ ماراتوني.

ثماني نساء وستة رجال، هل تفهمون ما أقول؟ ثماني صديقات *يتنافسن* على ستة رجال. حتى الموت.

أي هراء كنتُ أفعل هناك؟ أحياناً لا يكون المرء قادراً على أن يقول لا في الوقت المناسب ويتأخّر بعدها كثيراً على الهرب. هكذا ترونني هناك محاولاً أن أهربَ من المسوخ، آملاً أن أكونَ أحدَ الفحلين اللذين سيخرجان سالِمَيْن من نوبات شبقهنّ، لم يكن الأمر بتلك البساطة، فراشيل وغابرييل وتامارا قرّرن أن أكون فريستهنّ. لماذا؟ لأنّني أعجبتُ واحدةً منهنّ وقرّرت الأخريان كصديقتين طيبّتين أن تجعلا حياتها مستحيلة.

يستطيع المرء أن يتفادى كلاليب الكبد إلى حدّ ما، بعدها حين يطفو الوعي فوق بقعة أغواردييبنت تَدخل الأفعال الانعكاسية في سبات وتُشلُّ الأعصاب ويضيع الذوقُ الجميل.

---

(١) مسلسل تلفزيوني أمريكي (١٩٧٦ ـ ١٩٨٠) وفيلم سينمائي قائم على هذا المسلسل (٢٠٠٠).

أولاً قبّلتني غابرييل، وراشيل لم تبغ أن تبقى في الخلف. أنا قبّلتُ تامارا فقط كي أزعج الأخريين. تسلية خطيرة.

كنتُ أريد أن أذهب إلى البيت بأسرع وقت.

لن تذهب حتى نقول لك، هدّدنني، وعدن ليُقَبّلنني.

واحدة منهن ـ احزروا من تكون ـ اقترحت علينا أن نذهب إلى شقّتها. شقة رحبة حلوة في غرينويش فيلاج. مزيد من الكحول وبورية[1] ماريجوانا.

بعد عدة جولات من الملاطفات فكّت غابرييل وتامارا أزرار بلوزتيهما ودغدغتا أثداءهما، ثديا الأولى هائلان وأسمران وثديا الثانية صغيران ووردیان. تراهما فعلتا هذا في مرات أخرى. مهارتهما تلفتُ الانتباه إل خبرتهما.

أفضل ما في الليل كان وجه راشيل، ربّما أقلهن سكراً، ولا يبدو أنّها كانت تجاري صديقتيها. وأستطيع أن أقول إنّها خافت ـ فتاة في السابعة والعشرين من عمرها في زمن أواسط السبعينيات، لم تكن تخاف من شيء، لكنّها فعلاً شلّت أكثر مما يجب. حين خلعت غابرييل وتامارا تنورتيهما وسرواليهما الداخليين وشابكتا سيقانهما على شكل مقصٍّ، داعيتين إيانا كي ننضمّ إليهما، كان قد مضى علينا أنا وراشيل وقتٌ متوقِّفَيْن عن القبل وينظر إلى الواحد منّا إلى الآخر، لا نعرف ماذا نفعل.

قلتُ عليّ أن أذهب.

قالت راشيل وهي أيضاً.

---

(١) لفافة الماريجوانا الغليظة كما تُسمى في بلاد الشام.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بين لهاثهما شكت غابرييل وتامارا بأنّ راشيل تريدني لها وحدها. وتابعتا عملهما.

رافقتُ راشيل إلى بيتها.

لم تَدْعُني للصعود. (أيضاً أنا لم أكن لأقبل.)

جنون نموذجي في ذلك العمر وتلك الحقبة. كان يكفي أن ننسى وللأبد ذلك الانزلاق ويبقى الجميع سعداء. وبدل هذا هتفتْ لي راشيل ودعتني لتناول قدح. فكّرت أنه ربّما استطعنا أن نُحوّل ذلك الفاصل الخلاعِيّ إلى علاقة مهنية: ذكاؤها الرياضي هو تماماً ما كان يحتاجه مشروعي الجديد. ربّما استطعنا أن نقيم تجارة.

في البار لخّصتُ لها خططي، هي تستطيع أن ترسم النماذج الرياضية التي كنت بحاجةٍ إليها وبالمقابل أحوّلها إلى شريكة لي. شمّرت أنفها خائبة. لكنّها قبلت.

شكّلنا خلال أكثر من عام فريقاً لا يُهزم. كانت أرقامها تعمل بنجاح وبدأنا نكسب على مستوى أحلامنا.

ماذا أستطيعُ أن أقولَ عن أدائي؟ في بداية ١٩٧٨، حين وقعتْ هذه الأحداث، كانت هي تكبرني بسنتين. كانت ذكية، لطيفة، تنحدر من أسرة جيدة من الغرب الأوسط، بل وكانت بحسب العرف جميلة. الجميع كانوا يقولون إنّنا نشكّل ثنائياً تامّاً.

حدث ما كان يجب أن يحدث. سكرة أخرى. وحدنا هذه المرّة. كانت الذريعة الاحتفال بصفقة جيدة. أخذتني إلى بيتها ونمنا. بحسبها من دون التزام: شابان ليبراليان إضافة إلى أنّهما شريكان.

بعد ستّة أسابيع اكتشفتْ أنّها حامل.

بتوأمين

توسّلت إليها أن تُجهض.

رفضت راشيل.

انقطعنا عن اللقاء زمناً. في البداية كرهتُها. ثم أردتُ، مُعْمِلاً عقلانيّتي أن أرى مخرجاً، المتراس التام للبقاء على قيد الحياة في مربع وول ستريت الذي لا يرحم، وتوسّلها أن تغفر لي.

لم تكد راشيل تتمنَّعُ الوقت الذي تحتاجه فتاةٌ من طبقتها. تزوّجنا في معبد باركوي إست الكبير، في المكان ذاته الذي تزوّجتْ فيه جوديث ونُوَا.

رفضت أمّي أن تحضر.

سيريناد[١]

كفين، يا حبّ حياتي، ونار وركيّ، كِفين الطويل[٢]، يا خطيئتي، وروحي... كان بودي أن أكتب، لكنّني لا أُريد أن أُضيف انتحالاً إلى لائحة الجرائم التي تُثقل عليّ. أصرّت راشيل أن تُقدّمني إلى أبويها السيدة والسيّد رينولدز: هو صاحبُ معملٍ لمعالجةِ المياه في كونّكتكت؛ وهي ربّة منزلٍ رهيفة ومُحِبّة للإحسان. قاومت حتى آخر لحظة، إلى أن أذعنت أخيراً، كما هو الأمر دائماً في تلك الحقبة. أخذنا السيارة واتجهنا إلى بيت الأسرةِ الأبيض الكبير، الذي كانت واجهته الخلفية تنفتح على بحيرة صغيرة.

استقبلني والداها بتملّق مفرط. لم أكن أتصوّرُ نفسي نموذجاً يروق

(١) Serenata الغناء واللحن الليليين.

(٢) يستخدم المؤلف الصفحة من كيلومتر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لهما، وإن لم تكن راشيل أيضاً صغيرة. عندما سألتها لماذا لم تلتزم من قبل، أجابتني بأنّ دراستها منعتها دائماً من أن تتعرّف على شخص يستحق المعاناة. عرفتُ بعدها أنّ خطيباً لها تركها في الثالثة والعشرين من عمرها، عشيّةَ العرس ـ شخص ألمعيّ! ـ ولم يتعافَ قلبُها بعد ذلك تماماً. في النهاية كان الزوجان رينولد يحتاجان لمن يكون قادراً على أن يهتمّ ببرعمهما.

قدّما لي قدح شمبانيا وانتقلنا إلى الصالون. كل شيء كان يلمع: اللوحات الطليعية، مقابض الأبواب، الزجاج، جلد الكراسي الكبيرة، كما لو أنّهما صقلا كلّ تفصيل من أجل زيارتي. استنطقاني حول أحلامي ـ كان ذلك بعد كلّ حساب امتحاناً ـ وأنا لم أبغِ أن أُخَيّب أملهما بتلك السرعة، حدّثتهما عن البورصة وسوقِ وول ستريت واهتمامي بالخيارات، عن الثنائي الذي سنشكله أنا وابنتهما في الحبّ والأعمال. ابتسم السيّد رينولدز. بينما أظهرت السيدة رينولدز اضطراباً وفظاظة (من تأثير المُهدّئات)، كما لو أنّها اكتشفت فيَّ منذ تلك اللحظة عيباً خفيّاً. في هذا الصبيّ شيء لا يعجبني، كانت ستردّد على راشيل حتى يوم العرس.

في غرفة الطعام كانت بانتظارنا طاولة طويلة من الطراز الفيكتوري وخادمان يرتديان زيَّ الخدمِ الرسمي ـ لم يكونا زنجيين، فقط تفادياً للنمطيّة، قدّما لنا حساءَ قريدَس وديكاً رومياً بالفرن، الأمر المعتاد عند عائلة أمريكية تقليدية. قاومتُ بصبر مدفعيّةَ أسئلته بفضل نبيذ البورغونيا الذي كان السيّد رينولدز يصبّه بورعٍ، تماماً حين انتهينا من تناول المشاوي ظهرَ كِفين متسخاً، أشعثَ الشعر، معتذراً عن تأخّره. وجّهتْ له أختُهُ نظرةَ عتاب وأمرته أمُّهُ أن يذهبَ ويغتسل، حين انضمّ المسكين إلى المائدة، كنّا بشمنا بالشوكولاتة بمخفوق القشدة، جمال راشيل

العامي وجمال السيّدة رينولدز الأبله كانا يتحوّلان إلى جمال سلس وحزين عند الفتى. لم أقاوم إغواء أن أسأله عن عمره: ثلاثة عشر، رقم عظيم.

ولكي أكسر الجليد سألته عن هواياته فردّ عليّ تادزيو ابن الضواحي بازدراء مرتبك: لا هواية عندي.

الشيء الوحيد الذي يهمّ كِفين هي ألعابه وقصصه المصورة ـ ناقضته راشيل.

حكيت له أنّني كنت صاحب مجموعات من القصص كبيرة وأنّ عندي سلسلة ليست قليلة الأهمية أبداً لأبطال جبارين وغزوات الفضاء الخارجي. نظر إليَّ السيدان رينولدز باندهاش وأختُهُ ببعض الاستنكار. سألني كِفين عما إذا كنتُ أُريد أن أرى بعضَ ما عنده. أصرّت راشيل على تناول القهوة في الشرفة وبقيت هناك ساعات تذكر ما لا نهاية لهم من مصممي الأزياء والبنائين، سلسلة من الأسماء اللامعة على شفتيها ـ، مُصرّة على قطع صداقتي المستجدة مع أخيها.

هل حقّاً عندك كلّ تلك القصص المصوّرة؟ ـ سأل كِفين.

إذا أردت تستطيع أن تذهب ذات يوم معنا كي تلقي عليها نظرة.

ودون أن أُضيف أكثر هبطتُ على غرفته، المزينة على طريقةِ حرب النجوم. على مفرش السرير والوسائد على مصباح الطاولة بل وعلى ورق الجدران كانت تفورُ أطياف دارث فادِر، لوك سكويلكِر، هان سولو و2R ـ 2D التي كانت موجودة بدورها بأحجام ووضعيات مختلفة، مثل دمى الدب والتماثيل البلاستيكية. ربّما لم تكن مجموعة قصصه المصوّرة لتقاس بمجموعتي، لكن شغفه بمأثرة جورج لوكاس أذهلتني. كان عنده نماذج بقياسات متنوعة لبضع عشرة سفينة فضاء، ونجم موت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عملاق وعلى طول الرفوف الأربعة تشكيلة واسعة من جيديس وستورمتوبيرز المصغرة[1].

ينقصني C3PO

جلستُ على السرير بجانبه، مُفحَماً أمام المجموعة المنشورة. لا أدري كم من الوقت بقيت بجانبه، نتحدث عن مصير لوك ولغة الووكيين (شوباكا كان واحداً آخر من شخصياته المفضّلة)، لكنّنا عندما سمعنا وقع كعبي راشيل العسكري عرفنا أن تواطُؤَنا وصل إلى نهايته. أمرتني أن أشرب آخر قدح مع أبويها وعادت لتوجِّه نظرةَ لوم لأخيها.

بعد أسبوعين تقريباً سافر كِفين أخيراً إلى نيويورك، ذهبنا إلى السينما وماكدولاند، ثمّ إلى محلّ بيعِ ألعاب حيث أصررتُ أن أشتري له صقراً ألفياً بثلاث قوائم طويلة. وما إن أصبحنا في مكتبي حتى أريته مجموعة قصصي المصوّرة (لا تكاد تشكّلُ الحدَّ الأدنى مما جمعته على مر السنين) قضينا بقية المساء ونحن نحفظ عن ظهر قلب جملاً من أفلام سينما الخيال.

لكن بعد العرس وراشيل منتفخة مثل فرس بحر زارنا أخوها لآخر مرّة. بعد أن استنفدنا السبت في البحث عن عربات وقماطات وخشخيشات ومصاصات وقمصان عدنا إلى البيت حيث أعددتُ مفاجأة لِكِفين فيديو ستار وورز. قالت راشيل إنّها مُنهكة وذهبت لتنام.

عند الرابعة فجراً وجدتنا راشيل متكاسلين أرقين مغطّيين ببطانية من

---

(١) Jedis شخصيات من عالم خيال حرب النجوم تملك قوّة جبارة ينتمون إلى القوّة الساطعة وstormtoopers الجنود الإمبرياليين في حرب النجوم، وهم مجهزون بدروع بيضاء ومهمتهم الحفاظ على النظام في عالم النجوم.

البرد. رمتني زوجتي بصرخة هستيرية، أمرت كِفين بأن يذهب لينام وطلبت مني أن أرافقها ـ بلى، حالاً ـ إلى الغرفة. في الصباح أيقظَتني بمزاجِ كلبٍ، تناولنا فطورنا بصمت رافقنا بعدها كِفين إلى القطار.

لم يُسْمَحْ لي بعدها بأن ألتقي أخاها على انفراد. تصادفنا أنا وكِفين بضع مرات في لقاءات عائلية، ودائماً تحت مراقبة أمّهِ الثعلبية واستطعنا أن نتبادل بعض الرسائل. فقط هذا. لم يحدث قط أنّني نسجتُ خطة لقتل الزوجين رينولدز وأحصل على حضانته، لم يحدث أن لمسته، لم يحدث أن لامسته بنعومة، ولا حتى في تلك الليلة تحت البطانية.

اليوم أعرف أنّ كِفين، عندما أكمل الثالثة والعشرين، كشف خلال عشاءِ إحسانٍ لوالديه أنّه كان يخرج عادة مع شاب في الرابعة والثلاثين من عمره، وأنّ السيد رينولدز قاطعه والسيّدة رينولدز تظاهرت بأنّها لم تفهم ما كان يقوله. أعرف أنّ راشيل وعدت مكرهة بأن تدعمه. وأعرف كبقية أعضاء قبيلته أنّ كافِين يلعن اسمي.

ثنائي

ولدا في اليوم ذاته، في الرابع والعشرين من شباط وفي الساعة ذاتها، بفارق لا يكاد يصل إلى ستّ دقائق. سوزان في الحادية عشرة وثلاث عشرة دقيقة وإسحاق في الحادية عشرة وتسع عشرة دقيقة (تحقّقت من أنّ سجلات المشفى دقيقة كي أُنهي خوف راشيل السخيف من استبدال الطفلين). محال التفريق بينهما، إلا من خلال الشقّ في عانة الطفلة والكتلة المتعرجة بين ساقي الذكر. الاثنان كانا مريعين. حين أصرّت الممرضة على أن أحملهما انتابني قرف جامح. ما كدت أحمل جسديهما الصغيرين الإسفنجيَّيْن والمجعدين الشبيهين بالمسوخ الشيطانية التي تتصدر الدعايات ضدّ الإجهاض، حتى أعدتهما إليها. كانت راشيل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعينيها المنتفختين وشعرها المُدهن وشفتيها الجافتين، تنظر إليهما من سريرها بالريبة ذاتها. ترى هل طبع هذا الرفضُ المزدوج مصيرهما؟ هل يستطيعان أن يعزيا إلى تلك الكراهية الأولى سبب الجراحِ والعقدِ والشياطين القابعة في الطبيعةِ الجبانة لابنتي وعدم الرضا الذي عانى منه ابني منذ كان رضيعاً؟ لا أدري ماذا أقولُ لصالحنا، إذ إذا كان الوليدُ يُقَدِّمُ صورةً هي بحدّ ذاتها غير مُحبّبَة كثيراً، فإنّهما ببياضهما وتشابههما الشديد، يبدوان مريعين، العيون شبه المطبقة ذاتها، الكرشان المنتفخان، الشعر الأجعد والوفير ذاته، الرائحة ذاتها. لم ترفض راشيل أن تأخذهما بين ذراعيها وحسب بل ورفضت إرضاعهما من ثدييها: بدت لها تغذية الثديات ـ ولمرّةٍ واحدة اتفقت معها ـ خاصيّة ريفية أوروبيّة. وضح لنا الطبيب المناوب أنّ ذلك الاشمئزاز طبيعيّ؛ صدمة إنجاب ابن وفي هذه الحالة توأمين، تتأخر أسابيع كي تزول، بل ولفظ كلمة الصبي الأزرق المشينة. أذْعَنّا أنا وراشيل، لكنّ اكتئابَنا المشترك التالي على الولادة لم يشهد في النهاية أي تحسّن. كانت بتي، المرضعة، تهتمّ بالطفلين، الموضوعين في مهديهما المماثلين، أبعد ما يمكن أن يكونا عن غرفتنا، بينما نحن نلوذ تحت ملاحفنا مُنتفخيْن بجبل من المسلسلات الهزلية وبرامج المسابقات.

كنت أتوقّف أحياناً لأراقبهما بمزيج من الفضول والنفور؛ أبقى إلى جانب مهديهما، متأكّداً من تنفّسهما العصبيّ والتلقائي، وإغمائهما معاً، ورواحهما وغدوهما غير المتزامن كما لو أنّ جلديهما صُبّا من مادة هلامية في قالب وراحا يأخذان شكله إلى أن يستيقظا، إلى أن يجعلني صراخهما ألوذ بالملاحف بينما بِتي الرمصاء تُحاول أن تهدّئهما (وراشيل ولو كانت مستيقظةً لا تجهد نفسها وتنهض). لم أتأخّر في التأكّد من أنّ التوأمين راحا يكسبان وزناً يوماً بعد يوم، وأنّ عظامهما وعضلاتهما

ودماغيهما راحت تتصلّب شيئاً فشيئاً، وهما في كلّ يوم أكثر تطلّباً ومقتاً. الملمح البشري الأوّل الذي ميّزتُهُ عند ذينك المخلوقين كان سعيهما القاسي للتنافس. كانت بيتي تضعهما أحياناً في مهدٍ واحد، أحياناً في مهد إسحاق الأزرق، وأخرى في مهد سوزان الورديّ، وكان صاحب الغطاء يهجم فوراً بغضب جديدٍ وأوّلي ليطرد الغازي، يبدو أنّ المُلكية الخاصّة ليست من اختراع العصر الحجري كما يجمع الماركسيون بل هي متلازمة فطرية عند نوعنا. ومهما كانا يبتسمان عذبين وبريئين بقمصان ديزني وخشخاشاتهما الملونة في ألبوم العائلة، فإنّ إسحاق وسوزان كانا دائماً في حالة حرب. كلاهما كان يصارع للدفاع عن مجاله وألعابه ولشدِّ انتباه الكبار إليه، كما لو أنّ وعيهما البدائيّ يُدرك بجلاء أنّ الوقت الذي يكسبه أحدهما يخسره الآخر حتماً.

متى يبدأ المرء بحبّ ابنه؟ الآباء الطبيعيون، أو أكثرهم نفاقاً، يجيبون دون تأخّر أنه منذ البداية، كما لو أنّ حمى لحمية تنبثق فجأة في خلايانا أمام صورة خدوده المكتنزة ورياله. كذب. طبعاً انتهينا أنا وراشيل إلى حبّ ولدينا، لكن فقط بعد مرحلة تأقلم بطيئة، عندما اعتدنا أخيراً على وجودهم المتوعّد، عندما تعلّمنا أن نقاوِمَ صراخَهما وابتزازهما، حين اكتشفنا أنّ أكبر عملية أنانية تتركّز في حب تلكما النسختين غير التامتين عنّا. قناع البراءة والعجز الذي يملكه الرُّضَّعُ، نعرف ذلك، ليس غير قناعٍ تطوّري، قناع يُجبروننا من خلاله على أن ننظر إليهم، نُضحّي لأجلهِم، نلبي رغباتهم الاستبدادية والفاشية: الرِّقّة هي الإجراء الساخر لانتصارهم. ومع ذلك ينتهي المرء بالحاجة إليهم وحبّهم، اعتقاداً منه بأنّهم الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُبرِّر وجودنا في الإفلاس.

بعد سنة من ولادتهما أظهر إسحاق وسوزان ملامحَ العريكة التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سوف تُمَيّزهما: هو: غضوب، غير متسامح، مستعد دائماً للوقوع في ثورة غضب وأخذ أخته من شعرها (دون ندم ظاهري) وهي، التي أيضاً لم تكن ملاكاً، كانت تملك ثقةً جوانيةً بجمالها تدفعها دائماً للحصول على ما تريد. الأخوة متواطئون وأعداء، وإن لم يعرفوا أو سكتوا عليه، رفاق سفر مكتوب عليهم أن يُقَلِّدوا ويُساعدوا بعضهم وأن يتصارعوا على عطف أو استحسان أبويهما. كان وضعهما كتوأمين يعزّز هذه اللعنة، متحدين برابط من المحال التعبير عنه بالكلمات، كما لو أنّهما قادران على التواصل بالتخاطر أو بواسطة لغة إشارات غامضة. وفي الوقت ذاته كان من الممكن ملاحظة وجود كراهية بينهما لا يمكن مقارنتها إلا بالكراهية التي نكنّها نحن البقية لأسوأ أعدائنا، كانا يحبان بعضهما حتى العبادة، ويحتقران بعضهما مثل شخصيتي ذلك الفيلم الذي على فارَّين فيهِ مُقَيَّدين الواحد للآخر أن يهربا معاً، على الرغم من أنّ الواحد منهما يمقتُ الآخر.

تراها تشابهات اختيارية؟ أعني، هل يختار الواحد أثيرَهُ انطلاقاً من تعريف عقلاني أم أنه نتيجة سوء فهم كيميائي أو نفسي؟ ومرّة أخرى سيُقسم أكثر الآباء طبيعية أو نفاقاً على الكتاب المقدّس أنّهم يُحبّون أبناءهم بالكثافة ذاتها وأنهم، بعيداً عن الدهاء أو الروابط التي تزداد مع نموّهم، وأنّهم لا يفرّقون بينهم. ربّما يحدث هذا عند أسر أخرى (أشكّ بذلك) لكن في حالتي، على الأقل منذ أن فكّرت أن أصبح أباً، عرفت أنّ سوزان ستكون مُدَلَّلَتي، أو ربّما كنتُ ساذجاً وكانت هي من اختارتني. بالمقابل لم نتصادق أنا وإسحاق قط. كيف سأتكلّم عن حبّي له إذا كان يتصرّف مثل أحمق سفيه وصاخب، دائماً غاضب من العالم وبخاصّة منّي. كان يكفي أن أحمله لحظة وأداعبَ رأسه أو أن أُدلّله حتى يبقى يئن ويرفس إلى أن تأتي بِتي أو أمّه لتنقذه من بين يديّ. على

العكس من سوزان، فقد كانت تبتسم لي بلا كلل، لن أقول إنّها خالية من الغنج وكانت تتمكن من جعلي أغمرها، من كان سيقول هذا، بكلّ أنواع الدلال. كان يبرز في علاقتنا هذا المكوّن المادي، فكلانا كان يحتاج لأنّ يُلمَس ويُعانَق.

العلاقاتُ العائلية كأسعار الأسهم، تبحث عن التوازن وأمام تواطئنا أنا وسوزان صبّت راشيل كلّ حبِّها على إسحاق، كما لو أنّه كان منذ تلك سنواتهِ الأولى ضحيّةَ ظلمٍ وأنّني مجرم لأنّني لا أعبده كما أعبد أخته. وهكذا تشكّل فريقان لا يتوافقان، ثنائيان متقابلان ومتخاصمان راشيل وإسحاق من جهة مجتمعان على الضغينة وأنا وسوزان، رزينان ومتحرران من الذنوب من جهة أخرى.

عندما بدأتْ العلاقةُ بيني وبين راشيل تتدهور، صارت المعارضة بين الفريقين أكثرَ فجاجة، وإن كان قطع علاقتي براشيل، إذا كان عليَّ أن أكونَ صريحاً، بدأت يوم الولادةِ ذاته. ما إن عانت من التشنجات الأولى حتى حمَّلَتْني مأساتَها، جعلتني أستدعي سيارةَ أجرة على وجه السرعة (لم أتعلّم قيادة السيارة قط)، وبينما كانت المشيمة تنفجرُ في القسم الخلفي من السيارة باغتتني بما لا أدري عن الطلاق. وعزوت ذلك لاضطراب حالتها ولم تتطرّق للموضوع في الأسابيع التالية، لكن ما إن استقرّ الوضعُ أو بدأنا نلمح ما سيصير إليه مستقبلنا حتى حوّلت الطلب إلى لازمةٍ لا تنتهي، تطلقها عند أدنى خلاف. إذا خرجتُ في رحلة كانت راشيل تُطالب بالطلاق، إذا نسيتُ عيد ميلاد أمِّها أو حفلةً مع صديقاتها، تُطالب بالطلاق، إذا تخادشَ إسحاق وسوزان، تُطالب بالطلاق، وإذا رددتُ على استفزازاتها بتفريغ شحنة ساخرة، تُطالب بالطلاق، وإذا ما تأمّلتها بصمتٍ، أيضاً تُطالب بالطلاق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأنا لم أكن ممّن يمكن أن يُسمّوا بالمستهترين، فقد كنتُ أعملُ من طلوع الشمس إلى غروبها، كنتُ أشتري لها مجوهراتٍ وملابسَ من دور أزياء، وكنتُ آخذها إلى أفضل مطاعم ونوادي مانهاتن وأُلبّي أدنى رغباتها، بل وكنتُ أبذلُ جهدي كي أُرضيها مرَّةً في الأسبوع، ماذا تستطيع أن تطلب منّي أكثر؟ كنتُ بحسبها أُخفي جانباً أسودَ يجعلُها تشعر بأنّها مهجورة. ربّما كانت على حقّ لكن لماذا كانت، بينما أنا أقوم بواجباتي، تحشر نفسها في آخر أثرٍ لخصوصيّة متبق لي؟ لم يكن يهمّ راشيل الوقت الذي كنتُ أقضيه مع العائلة، بل الذي كنت أستخلصه لنفسي. تراها كانت تقلقها خياناتي؟ الأسوأ إنّها إن وُجِدَت كنتُ أشعر بنفسي منهكاً إلى حدّ لم أكن حتى لأفوز بمُغامرات متفرقة. كنت أُفرغ من حين لآخر ودائماً في مكتبي شحناتي أمام صورةٍ داعرةٍ أو خطٍّ ساخن، تماماً كي أتحمل توتّرَ زوجةٍ هستيرية ومُتسلِّطة كما لكي أتَحَمَّل تقلبات البورصة في تلك الأشهر.

سرعان ما تركّز الاشتباك على ولدينا. كانت راشيل تؤنّبني على اهتمامي الزائد بسوزان، السهم الخاطئ مقابل لامبالاتي بإسحاق وبها.. تُدلّلها أكثر من اللازم، لا تبتعد عنك لحظة واحدة، أنت تُسيء تربيتها. لا أدري ما كان يوتّرها أيضاً، هل هو جهد الصغيرة للبقاء بجانبي، أم العدوانية التي كانت تبديها ابنتنا تجاهها وأنا لا أعرف ما الذي كان يُشوّشني أكثر، هل هي نوبات غضب راشيل، أم الإستراتيجية الحقيرة والباطنية التي كانت تستخدمها كي تحوّل إسحاق إلى حليف لها. إنّ تراكم الشتائم والمشاجرات وسوء المزاج والشتائم والابتزاز (مع ما يقابلها من اعتذارات باكية) أتَتْ على صبري ورأيت أنا نفسي الطلاق كمخرج وحيد.

حين طرحْتُهُ عليها حدثَ الطوفان، كما لو أنّها لم تلفظ قط الكلمةَ

الرهيبة. اتهمتني راشيل بأنّني أهرب دون أن أحاول إنقاذَ زواجنا، رجتني بعدها أن أصبرَ بضعة أسابيع ووعدتني بأن تبذلَ جهداً أخيراً كي نتصالح ـ (تعاقدتْ خلال ذلك مع رجلٍ تحرٍّ ومكتبِ محاماة، وعدَها أعضاؤه بأنه إذا أصررتُ على الطلاق، فسيكون بأغلى الأثمان. فقط هناك حرب أكثر وحشية من تلك التي بين الأخوة، حرب الآباء، الذين ينفصلون بقسوة. ما من حربٍ من بقية الحروب التي خضتُها مع رؤسائي السابقين، مع موظّفيَّ السابقين، مع هيئة الأوراق المالية والبورصات والصحافة والمحاكم يمكن أن تُقارن وحشيّتها بوحشية الحرب مع راشيل. لن أقولَ إنّها خائنة أو تافهة، أو أنّها المسؤولة الوحيدة عن مناوشاتنا، لأن الشرّ أو الضغينة بالنسبة إليها فورة خارجة عن السيطرة. وبما أنّني لا أملك عظمة النفس كي أغفر لها ـ ما زال سمّها يثير اشمئزازي ـ، سوف أقتصر على القول بأنّها تُثير عندي الشفقة أكثر من الاحتقار: على الرغم من أنّني خسرت كلّ شيء، فأنا على الأقل ما زلتُ هنا، محاولاً أن أبقى حيّاً وسط العالم، بينما فقدت حياة راشيل منذ زمن طويل كلّ معنى.

وفي محاموها الجهلة بكلمتهم وأسلَموها رأسي. لم أذعن لأن أدفع لها مرتباً هائلاً وحسب ـ مستقبلي المرهون ـ بل وغطّيتُ نفقاتِ القضاء، كل ذلك بينما راح رصيد استثماراتي ينهار بلا توقّف. لكنَّ أكثر ما كان يؤلمني كان أنّ عليّ أن أختارَ كل خمسة عشر يوماً بين أن أُهدّدها (عبثاً) وبين أن أركع أمامها كي تسمح لي بأن أرى ابنيّ. بنود الاتفاق لم تكن تعنيها: *واحد مثلك*، كانت تقول لي دون حياء، لن يكون تأثيره إيجابياً أبداً، وإذا لم أبغ أن أنشر هذا فهو كيلا أجعلَ هذه المسألة خانقة أكثر، لذلك افرحْ إذا تركتُكَ تبقى معهما بضعَ ساعات. ساعتين كلّ خمسة عشر يوماً، وهذا في أحسن الحالات، إذ كثيراً ما كنت أذهب في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طلبهما يومَ سبتٍ أو أحدٍ ولا أجدهما. لقد رفضت دائماً أن يقضي إسحاق وسوزان معي ليلة، هذا كيلا أتكلّم عن إجازات بسيطة.

أنت لا تعرف كيف تعتني بهما، يجب أن يعودا في التاسعة.

وماذا لو رفضت؟

عندها، يا عزيزي، سأقولُ للصحافة كلّ الذي أعرفه عنك.

كم كان مقلقاً غسيل الدماغ البطيء والدقيق الذي تعرّض له طفلاي! لم تضمن راشيل إخفاءهما عنّي خلال أصعب مراحل نموِّهما وحسب بل ولقّنتهما ما لا شفاء منه من عدم الثقة بي وبالرجال بعامّة. دائماً بقي إسحاق وسوزان ينظران إليّ كمجهول، مشدود دائماً إلى هاتفه ولا يجد شيئاً جذّاباً يحكيه لهما. على الرغم من أنّني كنتُ أغرقهما بالسكاكر والألعاب، التي سرعان ما فقد مخدّرُها مفعوله وصارت لقاءاتنا مُمِلّة حتى أنّني أنا نفسي فكّرتُ بأن أقطعها. لم يكن ضرورياً: ففي السادسة من عمره قال إسحاق لأمّه إنّه لا يُحب أن يكون معي، أو هذا ما قالته لي الماكرة.

تخلّيتُ لأشهر عن كلّ اتصال بهما، لكن هذا الانقطاع أفاد راشيل وحدها كي تملك ذريعة جديدة ضدّي. عندما صححتُ وعدتُ من أجل سوزان أيام الآحاد رأيت فيها رواسب الخيبةِ التي لن تختفي أبداً من عينيها. بعدها نجحت انتقاماتي الاقتصادية في جعل إسحاق ينضمّ إلى نزهاتنا، كان يتبعنا دون تذمّر، بوداعة لكنّه كان في أعمق أعماقه يكرهني لفرضي حضوري عليه وإبعاده، للحظات عن الحماية المرضيّة التي كانت توفّرها له أمّه. تخلّت راشيل بعد الطلاق عن عملها كمستشارة ثمّ وبعد بعض الإغراءات العقيمة قرّرت ألا تنضمّ إلى سوق العمل. فكون المرأة أمّاً له من المتطلبات ما لأيّ عملٍ آخر، كانت تُبرّر، وبالفعل عملت من الأمومة سجناً دائماً لسوء حظّ ابنيَّ.

مرعوبان وغرّان، ومع ذلك كانا أفضل طلاب صفهما، وكانت أمّهما تحتفل بتفوّقهما كما لو كان ذلك برهاناً على معرفتهما، في الوقت الذي لم يكادا يُقدّمان دليلاً على النقص في شخصيتهما. وقتها كانت سوزان قد صارت مراهقة جميلة، فارعة الطول، باردة قليلاً، ولديها منذ الثانية عشرة خطيب من عمرها، وهو رقم قياسي في محيطها عليها الاحتفاظ به حتى السابعة عشرة، كانت تمضي دائماً بحسب الموضة ببنطلونها الجينز وملابسها المتجانسة في الوقت الذي كانت تتباهى فيه بوصفها رئيسة لفريق كرة السلة. كان إسحاق نقيضها: عصبيّاً وساهياً، أرعن وهشّاً، دائماً محل سخرية من زملائه. عيناه الكبيرتان والداكنتان دامعتان دائماً. في أكثر من مرّة وجدتْهُ أمُّهُ يُحطّم مجموعة طائراته وسفنه الفضائيّة في ثورة غضب بسبب إحساسه بأنّ الكونَ ضدَّه.

هكذا خلقت حربُنا فتيين منغلقين وحزينين، تلميذين نموذجيين، عبدين؛ خروفين صغيرين في طريقهما إلى الذبح، لن ينجحا أن يعيشا في العراء خارج محيط أكاديميتهما الخاصّة الذي يحميهما. صعدت بهما في إحدى الإجازات إلى طائرة وسجّلتهما دون أن أُعلم أمّهما في معسكر في مونتانا. حين مررت كي آخذهما كان ذراعا سوزان مغطيين بالخدوش بينما قاوم إسحاق حتى النهاية ضغط المدربين، رافضاً المشاركة في أيّ نشاط جماعي. لا. لن يستطيعا أن يعيشا أبداً في الغابة.

إذن كيف جمع إسحاق في الرابعة عشرة من عمره القوّة كي يواجه أولاً أمّه، وبعدها أنا؟ ربما أخطانا في تقدير شحنة الحنق التي كان يُراكمها ابنُنا في داخله. كان الذنب، كما هو متوقّع، ذنب فتاة، سامانتا، ابنة سبعة عشر عاماً، عاشقة بشكل مجنون لابني. محكومة بتنافس النساء الأزلي، منعته راشيل من لقائها: ليستْ لك، هي أكبر من اللازم. انتهى. بدا أنَّ التكافلَ بين الأم وابنها يتهشم والفتى لم يستطع أن يعثر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على حليف أفضل من أبيه. هتف لي (أمر غير معهود)/ أقسمَ لي أن سامانتا تُحبّه، وإنّه بحاجة لي كي أغطي على لقاءاتهما. هل من فرصة أفضل من هذه كي أكسب ثقته؟ إذن لماذا فوّتُها؟ لماذا بدل أن أساعد إسحاق وخطيبته الصغيرة ختنتهما؟ ربّما لأنّني بدوري كنت أرى في فتاة في السابعة عشرة من عمرها مصاصة دماء، لأنّ الأعمال كانت تشغلني أو لأنّ حالة ابني الرومانسية الأولى لم تبدُ لي أكثر من هبّة عاطفية سرعان ما ستُنسى. تواعد إسحاق مع سامانتا في شقّتي وحين أصبحا هناك حضرنا أنا وراشيل فجأة. ضبطناهما عاريين، الواحد منهما فوق الآخر بشكل فاحش. هي بمشقة استطاعت أن تُغطّي نفسها، وهو بقي بلا حراك، كما لو أنّ رؤية عضوه المنتصب كان عقاباً لنا. سروري لخيبة راشيل تلاشت ما إن نظرتُ إلى وجهِ ابني، لم يكن مفاجأ ولا مطرباً، كان ذاهلاً، منقبضاً وشفافاً. هل خسرته في ذلك المساء؟ لم ينقطع إسحاق قط عن تأنيبي، أحياناً بالكلمات وأخرى بأفعاله الكاوية والخادشة، كما لو أنه لم يكن هناك تراجع بعد ذلك الجرح وأنَّ كلَّ حياته البالغة وتتالي نكباته وسقطاته تجمع في ذلك الحدث، في تلك الصفعة التي أنزلتها بِهِ. برأيي وحدها العقول الضيقة تبقى مُحَنطة في لحظة معينة ويعزون لها مصيبتهم المتواصلة. كلّ هذا حدث عندما كان إسحاق في الرابعة عشرة من عمره، كيف يمكن أن نُصَدِّق أنّ مصيره تشكّل في عدم التعاطف معه، في خطأ ذلك اليوم الذي لا شكّ أندم عليه؟

حافظت سوزان في تلك المرحلة على حياد ذكي. هي أيضاً كانت تشعر بنفسها مخنوقة بضغوط أمّها، لكنّها بعكس أخيها لم تكن مستعدّة لمواجهتها. حافظت على حكمتها، مشغولة فقط بخطيبها الخائر. بقيت الأولى على صفّها ولم تجد صعوبة في قبولها في جامعة كولومبيا.

ظاهرياً كانت حياتها سليمة، هادئة وعادية. عندما دخلت الجامعة قطعت علاقتها بخطيبها وحصلت على آخر ـ تيرّي المشؤوم ـ وبقيت مفتونة بالموضة والألعاب الرياضيّة (بالتنس الآن)، إلى أن جاء يومٌ بدأ فيه جسمها، الذي كان بحد ذاته رقيقاً وضعيفاً، ينكمشُ وتحوّلت سوزان إلى روح تنسلخ بشكل محزن عن لحمها. لماذا زهدت عن الطعام وبدأت تلتهم ذاتها؟ ما من طبيب نفسي استطاع أن يُجيب على ذلك، هي كانت تقول إنّها سعيدة إلى هذا الحدّ أو ذاك، أو إنّها على الأقل بسعادة أو شقاء غالبية صديقاتها، وأيضاً لم تكن تفهم هذا النقص المفاجئ في الوزن. جاء يوم صار ذراعاها مثل خرقتين وجلدها مثل رَقٍّ. لم أستطيع أن أكبح دموعي عندما رأيتها في المشفى. أردت أن أحمّل راشيل مسؤولية المأساة، أنت من أدخلت في رأسها تلك الأفكار عن نحول عارضات الأزياء وهول البدانة. كان ظلماً، فإذا كان هناك من أصابها بالعدوى فهو عصرها: جيل مأخوذ بمجلات العروض وصور عاهرات هوليوود الضامرات.

لا أدري حتى اليوم كيف نجت. تُصِرُّ راشيل على أنّ المشفى ورعايتها أنقذاها، أنا لا أصدّق ذلك. لم تعد سوزان لتقدر قيمة الغذاء كما في السابق ـ الدهن مماثل للخطيئة ـ، لكنّها على الأقلّ استطاعت أن تستعيد بعض المقاسات وحافظت حتى قبل طلاقها على نفسها سليمة نسبيّاً. لم تعترف سوزان لي ولا لأمّها قط بسبب عذاباتها ودوختها. بعد أن قُبلت في جامعة كولومبيا أنهت دراستها فيها ودرست بعدها ماجستير إدارة أعمال في شيكاغو، وبقيت تراكم ثيابَ وقمصانَ وأحذيةَ العلاماتِ التجارية. بقيت تلعب التنس وتزوّجت من الأبله، الذي أنجبت منه ـ اللعنة من جديد ـ توأماً: أودري وسارا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التضفير(١)

الكتاب المقدّس ذاته يعلن ذلك بوحشية: افعل ما يحلو لك، سبع بقرات سمان يليها سبع بقرات عجاف هزيلة. يودّ المرء لو أنّ ذلك لا يحدث، لنتصوّر أنّ الأمر سيكون مختلفاً هذه المرّة وأنَّ الكارثة لن تتكرَّر أو أنّها ستتحقّق بعد زمن طويل، لكن لا خلاص. أُلَخّص سنوات بقراتي السمان. أنشأتُ صندوق تَحَوُّطي الخاص؛ وبدأتُ أحصلُ على حصصٍ، إذا لم تكن عظيمة فهي على الأقل تتابع خطاً متصاعداً؛ تزوّجتُ من راشيل؛ انتقلنا إلى شقّة عالية ومضاءة في أوبّر ويست سايد: وُلِدت سوزان وإسحاق؛ أمضينا إجازتنا في بحيرة كومو، في سانتوريني، على الشاطئ اللازوردي، في أسبِن؛ في باريس، اشتريت شيفروليت كامارو كوب لي، وأخرى نيويورك لراشيل وأخرى رباعية الدفع لرحلاتنا العائلية؛ وبلغ حسابي المصرفي سبعة أرقام. بعدها وفي بداية الثمانينيات بدأ الركود وخسرتُ، أنا الذي كنتُ أظنّني ذكيّاً، ثمانمئة ألف دولا دفعةً واحدة. بعت الماكارو كوب ورباعية الدفع وتخليت عن إجازاتي في الفنادق الفاخرة. حطّمتني راشيل بطلاقها، أخذت الشقّة العالية والمضاءة في أوبر ويست سايد وسيارة نيويورك.

فجأة وجدتُ نفسي بلا دولار واحد، بلا عملٍ، بلا أسرة وفي الشارع. هذا مع أنّ أزمة الثمانينيات لم تكن ولا حتى سابقة ضعيفة للأزمة الحالية. ماذا يستطيع أن يفعل المرءُ حين يعتقد أنّ كلّ شيء ضاع؟ من حسنِ الحظّ أن الشبابَ يُقاوم، دائماً ما دام يحتفظ بروابطَ،

(١) Concertante أو concertato هو جزء من الأوبرا يُغني فيه كلٌ أو معظم الشخصيات إلى جانب الكورس، حيث يضفرون أصواتهم بطريقة طباقية.

ببعضِ الصداقات وبالقدرة على الوصول إلى بعض الدوائر، في هذا العمر يبقى ممكناً أن يُعيدَ اختراعه لنفسه، أن يَنْسى الفشلَ أو على الأقل أن يعزو مسؤولية الجائحة إلى سوء الحظّ، ويبدأ من جديد.

في بيتسبورغ لم يبرز بريان دونوفان قط ببعد نظره وثقافتهِ أو ذكائه. حصل على الماجستير في إدارة الأعمال بأفضل العلامات، لكنّني أعتبر أنّ هذا أقرب ما يكون للبرهان على البلاهة. وللطامة الكبرى لم تباركه الطبيعة بملمح جسدي واحد نبيل، ولا نقول استثنائيّاً: أنف نموذجي، شعر كستنائي داكن، عينانا كستنائيتان فاتحتان، شفتان رقيقتان، بنية جسدية متوسّطة، مؤخّرة نموذجية (وهنا أتوقّف) نموذج الإنسان العادي. هكذا كانت أذواقه: فريق يانكيس للتنس، رعاة البقر، همبورغر البكماك، فرقة دوران دوران، تشارلز برونسون، فرح فاوست وباستثناء واحد وبارز. أنا نفسي.

لماذا هُوِس بي هذا النيويوركيّ النموذجي؟ لا أعرفُ، فقط أتذكّر أنّ بريان وضع ذات ليلة يده في حفلة أحد الأصدقاء بين فخذيّ، وأبعدتها من هناك بكثير من اللطف، مُعزياً سوء الفهم إلى المسحوق الأبيض الذي كان يطفو في منخريه وتنحيت جانباً وحاولت في بقية الليلة أن أتفادى رفقته. هتف لي مرّتين أو ثلاثاً ـ لا أدري من أعطاه رقمي ـ واخترعت ذريعة بعد أخرى كي لا ألتقي به، لكن بريان لم يتوقّف عن الإصرار. أعترف أنّه كان يُقَدِّمُ بعضاً من أناقةٍ بلعبهِ لعبةَ الفحل دون أن يكون لاقتراحاته وقع مفرط في وقاحته. حين تخرّجنا، عثر على عمل في بنكِ الاستثمار الكبير ـ بعكس ما كنتُ أبحث عنه: المجازفة والاستقلالية ـ ولم أعرف بعدها عنه شيئاً.

بعد الطلاق بوقت قليل صادفت بريان في كوخ على مقربة من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واشنطن سكوير. وجدت صعوبة في التعرّف على ملامحه الطبيعية وعينيه الطبيعيتين وصورته الطبيعية خلف تسريحةِ المئتي٢٠٠ دولار ونظارته علامة أرماني وطقمه ماركة زيغنا وساعة الرولِكس. دعاني لتناول قدح وتباهى أمامي بأنّه رُفِّع توّاً في بنكه، بنك الاستثمار الكبير. وقبل أن يستجوبني حول وضع ثروتي العملية اقتربت من إذنه وهمست ما أراد دائماً أن يسمعه منّي. كانت شقّته في برودوي في زاوية الشارع ٨٢ كانت بالنتيجة مبتذلة مثل صاحبها تماماً.

بعد أسبوعين بدأتُ عملي في جي. بي. مورغان.

المشهد السادس
حول كيف تنظّف اسمَك من العار وانقراضِ الأنبياء

أريا هاري دكستر وايت (وجوقة الكونغرس)

بينما هو يمشي باتجاه صالة الاجتماعات بخطوات عسكرية فاجأته، هو نفسه، تعميه ضربات الضوء، الفلاشات التي تقفز من هنا إلى هناك بينما دوّامة من الأصوات، أو ربما الصوت ذاته يتكرّر إلى ما لانهاية، تطلب منه أن يوجّه نظرته يميناً ويساراً كما لو أنّ ما يهمّه هو أيّ زاويةٍ من وجهه سوف تنشرُ الصحفُ في صباح اليوم التالي. يتظاهر هاري دكستر وايت بأنّه لا يرى ولا يسمعُ ملاحقيه، يشقّ طريقَهُ بين الحشد ويتوغّل في ممراتِ الكونغرس حتى المكان الذي حجزوه له في الصف الأوّل. إنّه الثالث عشر من آب ١٩٤٨، وهواء المكيّفِ لا يكاد يقشعُ حرَّ الصباح الدبق. يرتدي وايت طقماً مُخطّطاً، وصدرية سوداء وربطة عنق متجانسة، رغم أنّه كان يودُّ لو يرخي القميصَ وينتهي ضارباً عرض الحائط بالقواعد المتبعة التي احترمها دائماً. يشغل روسلاندو مكانه ويُحدّق في نظرة جورج بارنِل توماس، الذي يرأس أعمال الجلسة[١].

---

(١) بحسب لي بعد مروره بلجنة النشاطات المعادية لأمريكا سوف يُدان ج. بارنِل توماس (١٨٩٥ ـ ١٩٧٠) بالفساد ويُسجن ثمانية عشر شهراً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يمضِ عام واحد على الهجوم الذي ألزمهما الفراش ثلاثة أشهر ـ وما لا يتجاوز العام والنصف على استقالته من صندوق النقد الدولي ـ، لكنّ وايت يشعرُ بأنّه بدأ يستعيد حيويّته. بدأت الجلجلة حين كان ما يزال يتعافى: في ١٢ تشرين الأوّل ١٩٤٧ هتف له إلى منزله ضابط تحقيق فيدرالي واستدعاه دون أيّ لطف للمثول أمام لجنة محكمين كبيرة؟ السبب؟ الردّ على اتهاماتِ امرأةٍ مغفلةِ الاسم ـ سمتها الورد تليغرام «ملكة الجواسيس الحمر» ـ ومخبرٍ شيوعيٍّ سابق، وجهاها ضدّه. استطاعت السيّدة وايت أن تؤجّل الموعدَ مبينة مرض زوجها وإن نفّذ ذلك في النهاية يوم ٢٥ آذار. كذّب هاري الأقاويل ضدّه، مقتنعاً بأنّ هذا يكفي. متى أُزعجَ صاحبُ منصب عال في الحكومة انطلاقاً من افتراءات معتوهة أو خائن؟

«ملكة الجواسيس الحمر» التي صوّرتها الصحفُ الصفراء بأنّها ماتا هاري، ظهر لاحقاً أنّها قبيحة ريفيّة الوجهَ وفوضويّة التسريحة، ليس فيها شيءٌ من الجاذبية الجنسية وبدينة إلى حدّ ما، وأن اسمها إليزابيث بِنتلي غير الجذّاب كثيراً وأنّ الواشي ويتكِر تشامبِرز، كاتبُ عمودٍ في التايم، شكس وبدين، مثله مثل أيّ فارّ كان يصبّ حقدَهُ المعادي للشيوعية في كلّ مقالاته. خلال مثولها أمام لجنة تحقيق مجلس الشيوخ الفرعية كانت هي أوّل من اتهم وايت بأنّه شكّل جزءاً من اتصالاتها. أكّدت السمينةُ أنّه أحد أهمّ الحلقات في نسيج الجاسوسية التي كانت تراقبها ولم تتردّ بربطه بالدائرة السرّية المعقودة حول غريغوري سيلفرماستر، الرئيس الاقتصادي القديم لقسم التحليل الاقتصادي في وزارة التجارة.

عندما أكّد ويتكِر تشامبِرز دسائسها، لم يَبقَ أمام وايت غير

المواجهة. أصرّ هو نفسه أن يمثل أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا كي ينهي دفعة واحدة تلك التقولات. ربّما لهذا السبب كان وجهه يشعّ ببريق غير معهود. أمضى وايت الليلَ بطوله وهو يُشذّب الإعلان الذي سيقرؤه خلال لحظات: ملخص حياة مكرّسة لجهد وحيد، خدمة قضية السلام والعدالة التي كانت بالنسبة إليه دائماً قضية وطنه.

النوافذ الطولية تُسرب وهجاً مائياً يلونُ وجهَ وايت بهالة لطيفة وحربيّة. ما إن طلب منه الضابط أن يقف ويُقسم بأن يقول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، حتى راح مؤسّسُ صندوقِ النقد الدولي يلفظ مشدِّداً على كلّ جملة، برهاناً على تفوّقه المعنوي الذي يُساعده أمام المفترين عليه. يطلب منه الضابط بعد أن يُردّدَ اسمَهُ ومعلوماتِهِ العامّة، أن يوضّح موقفه الحالي.

ـ الآن أنا شيء يشبه المستشار الاقتصادي والماليّ.

كان وايت، منذ أن وجدَ نفسه مُجبراً على ترك الصندوق، يُساعد عدداً من الشركات الخاصّة والحكومات الأجنبية، من بينها بنك المكسيك. بعد أن تمّ هذا الإجراء الأوّل يستأذنُ وايت الرئيسَ كي يقرأ الإعلان الذي جاء به معه في جيبه، يحني هذا رأسه ويُمسِكُ مهندسُ بريتون وودز بالورقة بيدين مرتجفتين. بالمقابل لا يتهدّج صوته، الحلقي قليلاً، أبداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هاري دكستر وايت يمثل أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا في الكونغرس.

ـ أنا نفسي طلبتُ أن أمثلَ أمام هذه اللجنة، واستجابت اللجنة بلطف لطلبي ـ يبدأ ـ قرأت في الصحف، الاتهامات المصاغة ضدّي من قبل آنسة تُدعى بنتلي وسيّدٍ يُدعى ويتكِر تشامبِرز، مثلتُ أمامكم لأنّ من المهمّ أن تعرف هذه اللجنة والجمهورُ الحقيقة، وأنا جاهز للإجابة بأفضل طريقة على الأسئلة التي ستصوغها اللجنة رسمياً.

يأخذُ وايت كأسَ ماءٍ، يتناولُ جرعة سريعة ويتابع خطابَهُ بصوت في كلّ مرّة أكثر ارتعاشاً.

- بودّي أن أُصرّح، مبدئيّاً، أنّني لستُ ولم أكن يوماً شيوعيّاً ولا حتى أوشكتُ أن أكون، وأنّني لا أتذكّر أبداً أنّني عرفتُ آنسةً تُدعى بِنتلي أو سيّداً يُدعى ويتكر تشامبِرز، ولا حتى في الصور التي عُرِضت عليّ ولا أنّني التقيتُ بهما في الماضي. بحسب الصحافة يؤكِّدُ هذان الشاهدان أنّني ساعدتُ في الحصولِ على مناصبَ مفصلية أشخاصاً كنتُ أعرفُ أنّهم متورطون في نشاطات جاسوسية بهدف مساعدتهم في عملهم. هذا الاتهام زائف قطعاً. لا يوجد ولم يوجد قط أيّ أساس له. المبادئ التي أومن بها والتي عشتُ لأجلها تجعل من المستحيل عليَّ أن أخون أو أعملَ ضدّ مصالح بلدنا، ولذلك أريد أن أُعلم اللجنة ما هي معتقداتي.

بعد وقفة مأساوية، يُدخل وايت القلبَ في دفاعه.

معتقدي هو المعتقدُ الأمريكي. أؤمن بحرّيةِ الدين، حريةِ التعبير، حرّيةِ التفكير، حرّيةِ الصحافة، حرّيةِ النقد وحرّية الحركة. أومن بالمساواةِ في الفُرص وبحقِّ كلِّ فردٍ بتطويرِ قدراته بأفضل طريقة. أومن بحقّ وواجب كلِّ مواطنٍ بالعمل للوصول إلى مستوى من الأمان السياسي والاقتصاديّ والعاطفي هو في كلّ مرّة أكبر للجميع. أنا أُعارضُ التمييزَ العنصري بكلّ أنواعهِ، بالعرق واللون والدين، بالقناعات السياسية أو الحالة الاقتصادية. أُومن بحريةِ اختيارِ ممثلينا في الحكومةِ دون أن يتدخّل العسكرُ، الشرطة السرّية أو شرطة الدولة. وأعارض الاستخدامَ الاعتباطي ودون قيودٍ للقوةِ أو السلطةِ ضدَّ أيِّ فردٍ أو مجموعة. أومن بحكم القانون، وليس بحكم الرجال وبأنّ القانونَ فوقَ الأشخاص ولا يجب أن يكون هناك شخص فوق القانون.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُصَفِّق الجمهورُ لصراحة هذا الموظف السابق الهزيل، الذي بدفاعه عن القيم الديمقراطية بتلك الرجولة يُبرهن عن إرادة الجمهوريين بالتقليل من شأن خصومهم.

ـ هذه المبادئ بالنسبة إليّ مقدّسة ـ يؤكّد وايت ـ أراها كخلاصةٍ جوهريةٍ لنظامِ حياتنا الأمريكي وأومن بأنّها وقائع حيّة وليست مجرّد كلماتٍ على الورق. هذا هو معتقدي. هذه هي مبادئي التي عملتُ لأجلها. إنّها بمجموعها المبادئ التي كنتُ مستعدّاً للنضال لأجلها في الماضي وما زلت مستعداً للدفاع عنها في كلّ لحظة، حتى بحياتي إذا تطلّبَ الأمر. هذا كلُّ ما عليّ أن أقوله. أنا جاهز لأسئلتكم.

يعلو التصفيق في القاعة يدعو ج. بارنِل توماس، الذي هو في كلّ مرّة أكثر شبهاً بالدرواس، للنظام.

بعد استعادة الصمت يطلبُ عضوٌ آخر في اللجنة من وايت أن يشيرَ إلى من المتهمين من قبل الآنسة بِنتلي بالتجسس تعاونَ معه في قسم التحقيقات المالية في وزارة الخزانة.

ـ كوي، غلاسِر، أولمان أدلِر، فولبي والسيّدة سونيا غولد عملوا لصالحي في وقت وآخر ـ يجيب وايت ـ. كوري وسيلفرمان وسيلفرماستر أصدقاء جيدون وقدماء.

هناك يظهر فجأةً اسمُ أبي: كنية أخرى في لائحة الأشخاص الذين يثق بهم هاري دِكستِر وايت، والذين يشكلون، بحسب بنتلي وتشامبِرز، شبكةً سرّية في خدمة الاتحاد السوفييتي.

ـ ألا يبدو لك غريباً أن ثمانية أو تسعة أشخاص جميعهم مشتبه بهم بالتجسّس عملوا لصالحك أو أنّهم أصدقاؤك؟

- يبدو لي مربكاً - دافع وايت عن نفسه -، لكنّه ليس مُستغرباً، فوزارة الخزانة واحدة من أكبر الوزارات في حكومتنا وتحتاج إلى ناس موهوبين. كنّا نحتاج إلى أفضل المهنيين، وأعتقدُ أنّني حَكَمٌ جيد كي أُقَدِّر أهليتَهم في هذا المجال.

يطلبُ وايت نظراً لضعفِ صحته استراحةً، وبانتهائها يعود بارنِل توماس ورفاق السوء إلى الحملة. يُحاصره القميئون من علياء منصتهم محميِّين بصفتهم ممثلين شعبيين، دون أن يحترموه الاحترام الذي يستحقّه مبدعُ المؤسسات ودون أن يرحموه الرحمة التي يستحقّها مريض. يعترف وايت أنّه يعرف المدانين الآخرين عن قربٍ ويؤكّد أنه يلعبُ عادةً كرةَ الطاولة مع سيلفرماستر وأنّ زوجته والسيدة سيلفرمان تخرجان أحياناً معاً للتسوّق. لا يتنصّل أبداً من أصدقائه ويشيد بفضائل كلّ واحدٍ ويؤكّد أنّه لم يشكّ قط بأنّهم يُضمرون تعاطفاً شيوعياً. عندئذ يسأله بارنِل توماس كيف يمكن لرجلٍ يشكو من مرض في القلب أن يكون مولهاً بالرياضات. وبابتسامة يردّ وايت بأنّ السكتة القلبية بالكاد أصابته في العام الماضي وأنّه قبل ذلك كسب مباريات عديدة. يُثير ردُّهُ جلبةً عامّة فيحمرّ بانِل ويتململ في مقعده. وعلى سؤال لو كان على معرفة بميولِ معاونيه الشيوعية هل كان سيتعاقد معهم في وزارة الخزانة أطلق وايت كلمةَ لا جازمة.

- أستطيع أن أفهم وأتعاطف، إذا وجد أدنى شك بأنّ أحداً ما شيوعي، مع فكرة ألا يشغل منصباً في الحكومة ولا أيّ مسؤولية يمكن أن يحصل من خلالها على معلوماتٍ سرّية، حتى ولو لم توجد معلومات قاطعة، مجرّد الشك يكفي.

لا بدّ أن يكون وايت كلبيّاً من الطراز الأول كي يلفظ هذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكلمات، هذا إذا كان حقيقة شيوعياً... وبالطبع فإنّ مبدعَ النظام الرأسمالي بعد الحربِ ليس كذلك. لا يمكن *أن* يكون.

لون كان مثول وايت أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا مباراة بالبيسبول في الشوط التاسع لفريقه لكان فاز بـ ٧ ـ ١ على الممثلين الشعبيين. عباراته المشحوذة لا تُجرِّدُ أعضاءَ الكونغرس من سلاحهم وحسب بل تجعلهم محطّ سخرية. في كلّ مرّة ينهي فيها وايت مرافعة يُصفِّقُ له الجمهور ولا يبقى غير القليل كي يصفر ضدّ رئيسٍ وأعضاء فريق الكونغرس، الذين يودون أن يهبطوا بكلّ سرعة إلى المشالِح... على الأقل حتى يأخذ أصغرهم، رامي كرةٍ بديل، مزود بأنف هائل، المضربَ ويُركّز تسديده على مسألة أصعب بدل أن يطعنوا بقناعات وايت الشيوعية المفترضة:

ـ هل أنتَ متأكّد، يا سيّد وايت من أنّك لا تعرف السيّد ويتكر تشامبِرز؟ ـ يسأل ريتشارد نيكسون.

ـ سبق وقلت إنّني لا أتذَكَّره ـ يُدافع هذا عن نفسه ـ كان هذا قبل اثني عشر أو خمسة عشر عاماً. لا بدّ أنّني التقيتُ بخمسة أو عشرة آلاف شخص في السنوات الخمس عشرة الأخيرة، لكّني لا أتذكّر هذا. من المحتمل أن نكون قد التقينا وتكلّمت معه لبضع ثوان.

ـ في حال أنك التقيتَ بهذا الشخص، يا سيّد وايت، لنقل ثلاث أو أربع مرّات، هل ستتذكّره؟

ـ كلّما كانت المرات التي رأيته فيها أكثر كان احتمال أن أتذكّره. يتعلّق هذا بالمكان الذي حدث فيه اللقاء وبنوع الحديث الذي تمّ بيننا. عليّ أنّ أُفكّر بذلك. ثلاث أو أربع مرّات لا أدري.

ـ لو قلنا أنّكما التقيتما ثلاث أو أربع مراتٍ هل ستبقى شهادتك أنّك لا تتذكّره؟

ـ شهادتي ستكون ذاتها. لا *أتذكّره*. من المحتمل أن أكون قد صادفته ذات مرّة في واحدة من عشرات المحاضرات ودعوات الكوكتيل أو الحفلات التي حضرتها.

ـ افترِضْ أنّك التقيتَ بهذا الشخص في أربع مناسبات وأنّك تكلّمتَ معه. هل ستتذكّره؟

ـ أفترض ذلك، يجب أن أفترض ذلك، لكنّني لستُ واثقاً.

ـ إذن أنت لا تريد أن تؤكّد أنّك قادرٌ، في حال أنّكَ التقيت به في ثلاث أو أربع مناسبات، على تذكّره؟

ـ لا أتذكّر أنّني التقيتُ به.

ـ ألا تتذكّر أحداً من تلك المرحلة يُدعى كارل؟

ـ لا، لا أتذكّر. بالمقابل ما أتذكّره فعلاً هو أنّ هذا السيّد قال إنّه يعرفني وإنّه أقنعني أو حاول أن يقنعني بالدخول أو بترك (لا أتذكّر بدقّة) الحزب الشيوعي أو حلقة شيوعيين. هذا لا شكّ أتذكّره. وأستطيع أن أؤكّد دون أدنى شكّ، أنَّ هذا لا يمكن أن يكون بهذا الشكل.

ـ بحسب شهادته هذا الذي نفيه حدث بين عامي ١٩٣٥ و١٩٣٧.

ـ لا أتذكّر إطلاقاً أنّني التقيتُ بهذا الشخص.

ـ آسف لم أسمع ـ يُهَوّي نيكسون ـ، وأنت؟

ـ قلتُ إنّني لا أتذكّر إطلاقاً أنّني التقيت بهذا الشخص. فقط أكرّر ما قلتُه من قبل...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ بكلماتٍ أخرى، النقطة التي أريد أن أستوضحها هي أنه إذا كنتَ تُصَرّحُ، كي يُثبِّتَ هذا في المحاضر، بأنّ ما من رجل يُدعى كارل ناقش معك في أيّ لحظةٍ مسألةَ أنّه كان يستعد لتركِ الحزب الشيوعي وأنّه اقترح عليك، لنقل مثلاً، أن تتخلى عن أن تكون صديقاً للحزب الشيوعي. هل نستطيع أن نصوغها بهذه الكلمات؟

ـ أوّلاً حقيقةَ إنّني لا أتذكّر. ثانياً تأكيد أنّني سأتذكّره، الجواب لا.

يبدو أنّ الحوار مستخرجٌ من مسرحية لبيكت أو يونسكو. الجمهور المجتمع في ذلك الرابع عشر من آب ١٩٤٨ بما في ذلك غالبية الصحف خرج بانطباع أنّ وايت دافع عن نفسه بمهارة، مبرهناً عن براءته «بحكمة أستاذ عجوز» ـ كما يكتب كاتب تحقيق في البوسطن ترافيلير وبعد أن هزم أعضاء لجنة المحلفين الكبيرة، يهزم الآن بطريقة أكثر إقناعاً صقور لجنة النشاطات المعادية لأمريكا، بمن فيهم نيكسون.

تنتهي الجلسة في الساعة الواحدة وخمس وعشرين دقيقة مساءً ويركب وايت المتوتّر والمنهك القطار عائداً إلى نيويورك. يُخرج من حمالة أوراقه نسخته القديمة من كتاب *المجتمع والعزلة* لرالف والدو إميرسون، لكن دون أن يستطيع أن يُركّز، يُفضّل أن يتصفّح التايمز المرتاحة على المقعد المجاور. ألم حادٌّ في صدره، أقرب إلى الفراغ منه إلى دقّات القلب، يُجبره على أن ينطوي على نفسه مثل طفلٍ في حضن. يَعدُّ بعقله: واحد، اثنان، ثلاثة... حتى الثمانية عشر فيختفي الألم أخيراً. اليوم لا، يقولُ لنفسه. سيارة أجرة توصله إلى شقّته. يُفضّل ألا يُخيف زوجتَهُ ويكتفي بأن يقدم لها ملخصاً صغيراً عن الجلسة وتُحضّر هي له عشاءً خفيفاً ويذهب وايت إلى السرير رغم أنّه لا يُصالح النومَ حتى الفجر.

في الصباح يشربُ فنجانَ شاي ويمضغ قطعة حلوى مجدلينا قبل أن يتوجّه إلى عيادةِ طبيبه برفقة زوجته. يُوَجِّه له الطبيبُ الأسئلة الروتينية، يفحصه ويخلص إلى أنّه لا بدَّ أن توتّر اليوم السابق أتعب قلبه. ينصحه باستراحة طويلة وبحميةٍ صحية وكثيرٍ من الهدوء. يودّعه العجوز منزعجاً، لأنه فقط يؤكّد له ما يعرفه، شادّاً على يده. عندها يتوجّه الزوجان وايت عصراً إلى محطّة بِّنْ على أساس أن يذهبا إلى بيتهما في بلوبري هيل. في العربة وبينما هو يتحدّث مع زوجته عن كتاب إمرسون يعود الفراغ لينفتحَ في صدره. واحد اثنان، ثلاثة، أربعة...، عشرون، واحد وعشرون، اثنان وعشرون.

ـ اللعنة على الأطباء ـ يتمتم وايت.

تعطيه زوجتُهُ الحبوبَ وتُحاول أن تُريحَهُ.

كان الطريق إلى البيت الريفيّ سيّئاً، وايت يتلوّى، يختنق، لا يكاد يستطيع الوقوف. يا للشياطين! مزاجه أسوأ من صحته. تتصل السيدة وايت بالطبيب إمرسون ـ مصادفة بالاسم ـ، الذي لا يتأخر في الحضور أمام سريره. يُطمئنه الطبيبُ العجوز، بل ويُضحكه بواحدة من نكاته اللاذعة (عالج نصفَ فيتزويليام) وينصحه بألا ينهض طوال اليوم.

ـ كيف وجدته، يا دكتور؟

يُفضّل إمرسون ألا يُخيف السيّدة وايت، ويشرح لها أنّ زوجها يحتاجُ لأن يتعافى من تجربته في الكونغرس. بعد أربع ساعات يعود الدوارُ ليظهر. واحد اثنان، ثلاثة... ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون، ثلاثون. تأخذ رعشة وايت، يصبح رهينةَ أعصابه. يظهر الدكتور إمرسون من جديد، يصف له حبوباً أخرى ويعود لينصحه بالهدوء، بالهدوء والصبر لكنّ نكاته الأخيرة لا تنتزع منه ولا حتى ابتسامة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أخبريني إذا حدث شيء ـ يُنَبّه السيّدة وايت هامساً.

عندما تدخل هذهِ إلى غرفة زوجها بعد ساعات قليلة، تجدُ أنّ هاري دكستر وايت ما عاد يتنفّس. يبقى هناك شاحباً ورزيناً بعينين شبه مفتوحتين ويداه على صدره تماماً مثل مومياءٍ أو نبيّ.

المشهد السابع
حول كيف جعل بعض السباحين
مؤسسة كوكب الأرض تفلس، وعناد الفيروسات

ترتيل

هل كنّا نحن؟ حقيقة؟ ليست المسألة أنّني طرحتُ السؤالَ بإصرار شديد ولا أنّني أخاف نوبة أعصاب في حال أنّ حدسي صدق ـ عند هذا المستوى يجب أن تعرفوا احتقاري للخطيئة ـ، لكنّني حين أتوقّف لأفكّر بها، مثلاً بينما أتلقى رسالة تايلاندية أو أخطُّ هذه الأسطر في ظلّ شجرة جوز هند لا أستطيع إلاّ أن أُدهش بما له وقعُ قصةٍ خيالية أو، بالأحرى، قصّةِ خيالٍ علميّ. إذا كان أرسطو الشيخ يُصاب (وصدقوني أنّه دائماً يُصيب) وسبب السبّب هو سببُ المُسبَّب، فعليّ أن أعترف، مهما بدا بعيدَ الاحتمال، أنّنا كنّا المسؤولين، طبعاً لم نفعل ذلك وحدنا، احتاج للمنافسةِ الطويلة، لآلافِ، وربّما لملايينِ الإرادات المتواطئة ـ أو الطامعة والمتعطّشة، أو العمياء والبلهاء ـ على امتداد عقدٍ ونصفِ العقد، احتاجَ لِسياسيين غير مسؤولين، مصرفيين خسيسين، بيروقراطيين دوليين بلا حياء، أكاديميين ومستثمرين قسّا قلوبهم هايك وفريدمان وأنا طبعاً وعدد لا يُحصى من المواطنين المجهولين السذّج بقدر ما هم جشعون (من المحتمل جدّاً، عزيزي القارئ، أن تكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واحداً منهم) لكن على كلّ الأحول تعود لنا الفكرة الأصلية، البذرة أو مُطْلِقُ عنان الكارثة. مثل العلماء المجانين في فيلم للمراهقين، كنّا نحن من ابتكر عامل المرض ـ فخ القصور الكلوي الحادّ والقاتل، أي تقاسم الخطر مع عجوز الأربعة ـ الذي لن تتأخر في الفرار من مخبرنا ليتحوّل إلى وباء ويحوّل عدداً لا يصدّق من الضحايا في الشمال وفي الجنوب، في البلدان المتطوّرة والعالم الثالث إلى زومبيات، تلك الآفة التي كانت ستفترس من المصائر بقدر ما يفترسُ الوباءُ الأسود. بلى، كنّا نحن. ولكي نتنصّل من اختراعنا لا يكفي أن ندّعي أنّنا كنّا أكثر حكمةً من بنوك أخرى، وأنّنا رفضنا بعد اختراع المسخ أن نستخدمه لصالحنا، بل وأردنا أن نُحذّر، هكذا تمّ باستحياء ـ باستحياء، يا لها من عبارة ملطفة! ـ من خطر مخلوقنا، من الجوع الجامح أو الحنق الهدام الذي كان مكتوباً في جيناتهم. لا يكفي أن نحدّد الأضرار اللاحقة: فنحن نملك حقوق الملكية للكارثة. بحسب ما تحكي الأسطورة عندما علم ج. روبرت أوبنهايمر بأنَّ وليده حطّ أخيراً في هيروشيما تمتم: «أنا الموت» ولكي أُقلّده بنبرة أقل ترويعاً عليّ أن أُضيف: «ونحن الأزمة».

جوقة المصرفيين

كانت شمس فلوريدا الملتهبة قد أفسحت الطريق إلى مساءٍ منعش، مضاف إليه بضعة لترات من الأناناس المصفّى والموخيتو، التي كانت تنفد، كما لو أنَّ الجرعة منها لا تُكَلّف خمسة وعشرين دولاراً (بعد كلّ حساب تُحَمَّلُ على البنك). لو أنّ أحداً درس المُصطافين بروح حيوانية ـ متوسّط العمر لا يتجاوز الثامنة والعشرين ـ، ما كان ليتكهّن أبَداً بعملهم الحقيقي وأقلّ من ذلك بأنَّهم هناك بطريقة رسمية، في اجتماع عمل. ما إن وصلنا إلى فندق بوكا راتون الفرعوني وهو مول وردي اللَون منتشر

على امتداد مائة وخمسين هكتاراً ـ الغالبية اختاروا أجنحةَ شبابٍ بثلاثمائة وخمسين دولار لليلة الواحدة ـ، سارع أولئك الفتيةُ، بعد ساعات مضنية من السفر في درجة رجال الأعمال من نيويورك، لندن أو من طوكيو، إلى خلعِ أحذيتهم ماركة هرمس وملابسهم ماركة هرماني وحشروا أنفسهم في ثيابِ السباحة الملونة وكانوا قد رشوا أجسامهم بالبلانكوم لاكتساب اللون البرونزي (عضلات بطونهم تُبرر ذلك) وغطسوا في المسبح أو أسلموا أنفسهم للأرائك الواسعة كي يُحَمِّصوا لحومهم الشاحبة. عمل؟ بالفعل عمّال العالم الخشنون: *عمل*. مصوّر متطفل بلا حياء أو ممتعض من النظام يمكن أن يعتقد أنّهم يتمتّعون بإجازات أو رحلةِ يوم أحدٍ قصيرة، لكنّ الشباب المدهشين لم يكونوا يفعلون شيئاً آخر غير شحن أنفسهم بالطاقة كي يتفرّغوا للمهمات المحفوظة لهم والتي سيتلقون مقابلها ليس أقّل من ربع مليون دولاراً سنوياً.

كنتُ قد أتممتُ الأربعين من عمري وكنتُ بعد بِيتي فويك، الألماني العنيد الذي كان يدير قسم الأسواق العالمية، أقدمَ خبير في الفريق. منذُ أن صارت المشتقات المالية مشتهاة في بداية التسعينيات وحتى وصلت إلى ١، ٧ تريليون في عام ١٩٩٤كان جي.بي مورغان قد لاحق كلَّ من تخرّج ونال الماجستير في إدارة الأعمال في شيكاغو أو هارفارد وصادفهم في طريقه بهدف استغلالهم في تجارة ما إلى أقصى الحدود، على الرغم من التوقعات الممتازة، بالكاد كان يخطو خطواته الأولى.

باختصار كنتُ وفويك، بِتهانكوك ـ الإنكليزي الممشوق، الذي كان يرأس قسم التبادلات، وأنا الأربعينِيّيْن الوحيدين وبالتالي كان ينطبق علينا دور مربيات الأطفال. وكم كان أعضاء الفريق بحاجة إلينا: كما لو كانوا سبرينغ بيكرز، كان قصدهم أن يعصروا في مساء واحد كلّ المتع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي تمنعهم منها مراقبتهم الذاتية كلٌّ في مقرّه. وللبدء استأجرَ أحدُهم حافلةً كي يأخذهم إلى أكثر نوادي التعرّي فحشاً في الولاية، إلى واحدِ من النوادي القليلة حيث تتغاضى الفتيات حين تزلُقُ سبّابتَكَ هناك في الأسفل.

لا مبال بتلك الجاذبيات اللذيذة بقيتُ في سريري المعلق مع لا أعرف كم من كؤوسِ مرغريتا المساء، متفرّغاً لتأمّل حركاتِ أذرع مَنْ فضّلَ رطوبةَ المسبح على تلك الرطوبة السامرية الماجنة.

ـ حذائي!

أخرجني العواء الحيواني من سباتي. مجموعة من الفتيان، بُشِمُوا بالتكيلا والتستوسترون يحتفلون بمأثرتهم بأغان حربية. بينما بِّت الذي كان في طورِ مسخِ البحيرةِ الخضراء، يطفو بصعوبة في الماء متشابكَ الشعر، محمرَّ العينين، وجهه لا يكاد يُخفي حنقَهُ وقميصه الأبيض ملتصق بصدره، يسخر أكثرهم فسقاً من ثدييه الصغيرين المشعرين، ربطة عنقه صارت خرقة بنطلونه منتفخ ونعلا السبعمائة دولار صارا مجرّد قطعتي جلد منتنتين. لا بدّ أن الضحكات سمعت على بعد أميال.

الأشخاص الذين لم يألفوا عادات عمالقة المال ـ كما هو حال غالبيتكم أيّها القرّاء الذين في طور النموّ ـ يمكن أن يروّعكم ليس فقط سلوك موظفينا الصبياني بل وقاحتهم إذا ما مزحوا مزحة سوقيّة مع رئيسهم. هذا فقط يعني أنّهم يجهلون قواعد المدينة التي تسود المخيمات المهنية. إذا كان المزاج الأمريكي يميل بحدٍّ ذاته إلى محو معالم المراتب بلغة ودية وحميمة ـ وهو ما لا يمنع من بيده السلطة من أن يمارسها بلا رحمة ـ، تلك الرحلات الصيفية القصيرة كانت تعيد إحياء كرنفالات العصر الوسيط، الزمن الوحيد الذي تنمحي فيه الحدود

ويُسمَحُ فيه بكلّ شيء بما في ذلك رمي الرئيس في المسبح. بهذه الروح الرياضية عرض فويك أفضلَ ابتسامة عنده وقام بحركة بذيئة تجاه مهاجميه وتوجّه إلى جناحه كي يبدّل ثيابه.

لم تكن قد مضت خمس دقائق على الهجوم حين اختار أولئك المحاربون الأبطال المزيتون والمتصببون عرقاً مثل أخيل، ضحيّتهم التالية، فيكرام كوريشي، محلّل مالي وسيم في الثامنة والعشرين من عمره. مع فارق واحد مع بِيتي هو أنّ خبير الأخطار حاول أن يُقاوم عدوانَ القطيعِ الهائج. نجح في ذلك لعشر ثوانٍ. بعدها أطلق الشجاعُ صرخة مثيرة للشفقة وراح يجهش مثل رضيع. لم يتوقّف البقيّة عن السخرية من الشابّ إلا عندما رأوا نهرَ الدم الذي كان يسيل من أنفه المعوجّ. أصرُّ: تشير القاعدة إلى وجوب الاحتفاظ برباطة الجأش في كلّ الظروف ورفع شأن الرفاقية أمام أي عائق، هكذا وبعد وقفة حرجة ـ أنا نفسي تبينت اعوجاج أنفه ـ، غطّى فيكرام جرحه بمنديل ورقي وتمتم بعبارة باهتة: *سيدفعون الثمن* قبل أن يتوجّه إلى العيادة الطبية.

ما لا يُصدّق هو أن هذا التصرف ينجحُ تماماً كما كان يتوقّع خبراؤنا في الموارد البشرية، كانت الفوضى تُوَلّد جوّاً تعاونياً من المحال بلوغه في غُرَف جي.بي. مورغان. كان يكفي منح الفتية قليلاً من الحرّية، جعلهم يعتقدون أنّهم أصحاب العالم ليوم واحد (ربّما هم كذلك)، وإقناعهم بأنّهم ينتمون إلى فريق كرة قدمٍ أكثر مما إلى أقوى بنكِ استثماراتٍ في العالم، كي تَظهر عندهم رقّةٌ لا يعتريها الشكّ ـ في لندن أو نيويورك، كيلا نتكلّم عن طوكيو، سوف يستميتون من أجل ترفيعةٍ ـ ويبدون مستعدين لمشاركة أفكارهم وتوظيف مدخرات منافسيهم الخصبة. ماذا كان يهمّ بضعة آلاف من الدولارات مرمية في البالوعة وأنفٍ مكسور، ونصف طن من عظام الفراريج المكومة في الغرف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وثلاثة آلاف دولار تصرف على الهمبورغر وتُحَمّل على حسابي ـ ما أبرعهم! ـ ثلاث آنسات منزعجات من لمس الشباب لهم، عربتا غولف محصورتان في مغسل الثياب وبار صغير مرمي من الطابق الثالث فقط إرضاء لجيش من العباقرة المستعدين لاحتلال العالم بأمرة جي. بي. مورغان؟

عند التأكّد من الوجوه المحلوقة جيّداً والنظرات البراقة وجوّ الترقّب الذي كان يُشمّ في صباح اليوم التالي في واحدة من قاعات المحاضرات في فندق بوكا دِ راتون، لم يكن باستطاعة المرء أن يفترض أنّ الفتية زحفوا قبل ساعات على السجاد ليذوبوا بين ذراعي سحلية ماكرة. جلستُ بجانب فيكرام ـ كان أنفه مغطى بضمادٍ لاصق ـ وتركتُ، كما هي العادة، بيتي هانكوك يُدير الأعمال. عندما رأيته عن قرب تبيّنتُ أنّه سيصاب بالصلع قبلي بكثير.

بنبرة بريطانية لا تكاد تكون مُخفّفة، بدأَ الجلسةَ بشلال من الأسئلة كان يُعذّبه منذ بضعة أسابيع.

ـ كيف نُطلق موجة جديدة من التجديد في المشتقات المالية؟ هل نستطيع أن نُطَبّق مبادئها على مجالات تجارية أخرى؟ ما رأيكم بالتأمينات؟ وبالقروض والائتمان؟

كان بِت هانكوك وهو في الحادية والثلاثين من عمره واحداً من أعظم أفذاذ المشتقات المالية في وول ستريت، محاكماته لم تكن بلاغية، إذا كان هناك من شخص قادر على المساهمة بطريقة حاسمة في أن تحوم فوائد المشتقات المالية حول اثني عشر مليار دولار في العام ـ كي تكوّنوا فكرة، هذا أكبر من مجموع الاقتصاد الأمريكي ـ كان يتجرأ على أن يقترح أنَّ ساعة ملاحقة الشيء العظيم الجديد، يعني أنّ البساط

كان ينسحب من تحت أرجلنا. ونظراً لمعرفتي ببِت لم نكن لنخرج من هناك حتى يُعطي أحدهم جواباً ذكياً على أسئلته.

فاصل

أعزّائي الفانون البسطاء: بما أنّني أتكهّنُ بأنّ عيونكم محمرّة ومفتوحة بشكل مريع: أعراض الخيبة والارتباك التي لا تُخطئ، أجد نفسي مُجبراً على أن أفتح قوسين كي أُحاوِل أن أُوَضّح لكم في بضع فقرات ـ أستبق عدم خبرتكم بالرياضيات ـ، ما هي المُشتقّات المالية. وإن كان سيؤلمكم رأسكم قليلاً في النهاية، إلاّ أنّني أعرف أنكم ستشكرونني مدى الحياة. [إذا كنتَ تعرف بالمصادفة، عزيزي القارئ الصعوبات التي تطرحها الأدوات المالية، فهذا يعني أنّك فعلاً شبيهي، أحَدُ المسؤولين عن انهيار مؤسّسة كوكب الأرض للحلول البيئية.، وبالتالي فأنت مُخوّل بأن تتجاوز بحصانة هذه الفقرة.]

تصوّر، قارئي الفضولي، أنّك صاحب محلّ للجنس في لحظة يبدو لك فيها أنّ منظور التجارة ليس مريحاً كثيراً. ولنفترض أنّني أنا صاحبُ ملهى ويغمرني أيضاً التشاؤم. لسبب ما أعتقد أنّ محلات الجنس لها آفاق أفضل للازدهار من نوادي المجون. أنت تُفَكّر عكسَ ذلك. في هذه الحالة أقترحُ عليك اتفاقاً: نتبادل دخولنا، لِنَقُلْ خلالَ عام، أتحمّلُ أنا فيه أرباح أو خسائر محل الجنس وأنت أرباح وخسائر جحري. المحلان يبدلان صاحبيهما. هذا التبادل يُعرف في لغتنا بالمقايضة. أوّلُ وأبسطُ قواعد المُشتقات المالية.

هل توضّح الأمر، أيّها القارئ؟ آمل أن يكون كذلك، اللعبة تتعقّد.

الآن تصوّر أنّ التبادلَ لا يتمّ بأرباح مَقامِرنا، بل بكلّ أنواع الأموال (بدءاً من سعر الصويا وحتى سعر برميل النفط) أو بسندات خاضعة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لفوائد متغيرة، بل وبالعملة الصعبة أيضاً. بين ليلة وضحاها ركّزت كلّ بنوك الاستثمار الكبرى وعلى رأسها جي. بي. مورغان، على تطبيق المبدأ ذاته على كلّ أنواع العمليات. صار التنافس وحشياً. عندما أَصْرَرْنا على أن نُقَدّم منتجات هي في كلّ مرّة أكثر ربحاً، صارت هذه في كلّ مرّة أكثر تجريداً وتعقيداً. بدأت التبادلاتُ تُنتج انطلاقاً من أشياء غير ملموسة كالهواء، تتعلّق بمصيرها مبالغُ هائلة من الأموال.

وبفضل المشتقات المالية تحوّلت عملياتُ التمويل إلى علم فضاء. ولتقدير الصيغ المطلوبة لكلّ واحد منها اضطر أصحاب البنوك لأن يتعاقدوا مع علماء رياضيات محضة، مُهندسين بحريين وعلماء فيزياء فلكيّة، كثيرون منهم كانوا قد وصلوا للتوّ من روسيا والصين والهند، (مثل فيكرام) الوحيدون الذين يملكون المعرفة الضرورية لفهم مخرماتهم الرياضية. جميع هؤلاء الشراغف الذين كانوا يرتاحون إلى جانبي في مسبح بوكا راتون ينتمون إلى هذا النوع. لكي نسخر منهم أسميناهم الكمّيين، على الرغم من أنّهم في النهاية طالبوا باللقب باعتزاز، فبعد كلّ حساب تتعلّق أرباحنا ببياناتهم التي لا يمكن ترجمتها. من المؤسف أنّ حقل الأموال ليس مشمولاً بقوانين الملكية الفكرية وأنَّ تجديدات العباقرة من أمثال هانكوك وجماعته يتم السطو عليها من قبل حواسيبنا، مع تخفيض الأرباح التالي بالنسبة لـ جي. بي. مورغان. من هنا تأتي أهمّية العثور على **الشيء الجديد العظيم** الذي يُعطينا، نحن طليعة التجديد المالي، دفعاً جديداً.

ترتيل

ـ أهلاً بكم في بلوتون.

ـ بهذه الجملة استدعانا بيتي كي نتصوّر موجةَ مشتقات مالية جديدة.

إن وصفاً بترتيب زمني ممكن الفهمِ وسطياً لما جرى وقتذاك حول الطاولة المستديرة في فندق بوكا راتونَ يتجاوز مهاراتي الروائية. كان تلهّف بيتي وطاقته يسرعان خُمار وحماسَ الفتية الزائدَين أحياناً. إذا ما تجرأ أحدهم على التلعثم باقتراح ليس مُحكَماً، كان بِيتي يسخر منه، فهو غير قادر على إضاعة الوقت بترهات. عندها كان المحلّلون الماليون يعودون ليغوصوا في خوارزمياتهم ونظرياتهم دون أن يكادوا يرفعون رؤوسهم. كان بيتي يحاول أن يُشجّعهم بفاصلٍ قصير أو مديحٍ لذكائهم الفلكيّ، يضع النقاطَ على الحروف ويلخّص الطرق المفتوحةَ، فيلتقط الشباب الرسالة وهم يشربون قهوة حتى ترتعش أيديهم ويشيرون إلى مخرج محتملٍ هنا وآخر هناك عقدة يجب أن تُرخّى أو درباً لم نأخذه بالاعتبار. كانت تلك الدوامة من الحجج والحجج المضادّة تفسح المجالَ لمولودٍ أو معركة، كما لو أنّ تلك العقول الجماعية توحّدتْ بعدَ كلّ هذا الذهاب وهذا الإياب في دماغٍ واحد.

بفضل هذا الجمع من العبقريات والأساليب والشخصيات، شقّت أخيراً **فكرةٌ صغيرةٌ** طريقها بيننا. نتأملها بداية بارتيابٍ وحذر، تماماً كما يحدث عندما يلمحُ صيّادٌ زعنفةً ويتصوّرُ سمكةَ فريدي ضخمةَ الحجم تحت الماء. ثم يرتفع صوت وآخر يتجرّأ على التعبير بصوت عالٍ عن حماسه، المعتدل بسبب أكثرهم ارتياباً إلى أن نصل إلى إجماع غير إرادي: بلى، أنتَ لا تُخطئ، بلى، إنّها فكرة جيّدة، تقول جيّدة! ممتازة! هل أنت متأكّد؟ بلى، انظر إليها من هذه الزاوية ومن الزاوية المقابلة، معك حق، وماذا لو أخطأنا وماذا لو كانت غير قابلة للتنفيذ وأنّ المُنظِمات لا تقبلها؟، لا، انظرْ إليها جيّداً، لا تَخَفْهَا، معك حقّ، بلى دائماً معك حق. إنّها فِكرة لامعة. لامعة جدّاً، قلت لكم ذلك،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والآن لا تتركوها تفلتُ منكم، أمسكوا بها اغرزوا فيها خطّافاتِكم، رجاء لا تُفلتوها، اقبضوا عليها.

ـ بينغو! ـ صاح بِيتي وعيناه خارج مدارهما وصلعته لامعة من العرق.

يجب أن يُفهمَ تأكيدُهُ، الإنكليزي تماماً، بطريقة أخرى: بلى، يا سادة، هذه هي **الفكرة العظيمة الجديدة**:

لماذا لا نستخدم المشتقات للتفاوض على المخاطرة المرافقة للسندات وقروض الشركات؟

هذا ما كان قد اقترحه أحدهم. باللغة العامّة: لماذا لا نقايضُ المُخاطرة الكامنة في أيِّ دَيْن؟

إنّ أي شخص يعرفُ أنّ أحد أكبر مخاطرِ نظامنا يقوم على أنّ الدائنين لا يفون بواجباتهم. إذا كانت البنوك هي محركات الاقتصاد فهذا لأنّها تتلقى المال على شكل إيداعات تُصرف فيما بعد في قروض مستخدمة لكل أنواع الأشياء بدءاً من شراء بيت صغير (في الحقيقة قرض عقاري) وحتى بناء مركز تجاري أو تأسيس دوت ـ كوم. لكن دائماً هناك خطر أن يكون من يتلقون المال غير قادرين على تعويضها، مع فوائدها المستحقة في نهاية المدة المتفق عليها مسبقاً. كانت **الفكرة الكبرى** الجديدة تقوم على خلق نوعٍ جديد من المقايضة تُقلّص أو تزيل مخاطرَ عدم الدفع تماماً.

كيف؟ بالاعتماد من جديد على مبدأ المقايضة العام. بخلق أداة تحمي من هذا الخطر ثم مبادلته في سوق المشتقات المالية. كان وقع الاقتراح من الجنون ومن الجمال بحيث أنّه بدا لنا جميعاً وكأنّنا ننظر إلى الشمس مواجهةً.

جوقة المصرفيين

بعد أسابيع من تعايشنا في بوكا راتون، عثرت بلايْز ماستِرز، وهي فتاة إنكليزية حيوية ولماحة كانت تشكل جزءاً من فريق بِت، على الطريقة لتطبيق **الفكرة الكبرى** الجديدة، مُحولة إياها إلى دجاجة البيض الذهبي.

كانت شركة البترول العملاقة إيكسون أحد أفضل زبائن جي. بي. مورغان. كما يمكن أن تتذكّروا إحدى ناقلاتها: إيكسون فالديز سيئة السمعة، التي جنحت في ألاسكا عام ١٩٩٠ محدثة كارثة بيئية مريعة (وغضب منظمة السلام الأخضر المتوقّع). ولكي تُصلح الأضرارَ الهائلة كانت إيكسون بحاجة لأن يمنحها جي. بي. مورغان خطَّ اعتمادٍ بقيمة خمسة مليارات دولار. لم يكن أمامنا خيار، لن نخاطر بأن نخسر حسابَه الشهيّ، لكن هذا كان يعني فجوة هائلة ـ ليس هناك تعبير أفضل ـ في دفاتر حساباتنا. عندها جاءت لنجدتنا **الفكرةُ الكبرى الجديدة** التي تصورناها في فندق بوكا راتون.

ـ وماذا لو عثرنا على أحدٍ يُريد أن يشتري خطّ اعتمادِ إيكسون مقابل عمولة؟ ـ طرحت بلايز.

فكرة لامعة، لامعة جدّاً!

عثرنا في النهاية على هذا الشريك: البنك الأوروبي لإعادة الإعمار والتنمية (بيرد). فجأة صار باستطاعتنا جميعاً أن نربح إذا ما نجحنا في منح الحياة لأوّل مقايضة ديون في التاريخ.

إذا ما وقّعنا الاتفاق، ستحصل إيكسون على قرض بقيمة خمسة مليارات دولار. والبنك الأوروبي لإعادة الإعمار والتنمية سيحصل على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عمولة شهية. ونحن، ممثلين بـ جي. بي. مورغان لن يكون علينا أن ندفع هذا المبلغ الهائل، الذي نستطيع الآن أن نوجهه لأهداف أخرى.

هل هضمتم الأعجوبة؟

نجحنا في إزالة الخطر. أو على الأقل وبحسب أكثرنا شكّاً وزّعناه بين المشاركين الثلاثة في الاتفاق.

وكانت العملية في النتيجة من الأصالة والجدّة بحيث أنّه لم يكن يوجد حتى اسم كي يُحدّدها. نحن اخترعناه. مقايضة نكوص ائتمان أو [ائتمان تبادلي افتراضي].

بؤبؤ عيوننا

ائتمان تبادلي افتراضي

فيروسنا القاتل.

ائتمان تبادلي افتراضي

لأنّه بعد سنوات قليلة ستتزاوج الائتمانات التبادلية الافتراضية مع قروض الرهن العقاري، سينتهي اختراعنا لأن يتحوّل إلى سلاح تدمير شامل. لكنّ هذا لم يكن يهمّ وقتذاك.

ـ ما أعظمها من حفلةٍ، حفلة بوكا راتون! ـ كانت تلك آخرَ كلمات همستُ بها لِبِثْ خلال احتفالنا بالاتفاقية مع البنك الأوروبي لإعادة الإعمار والتنمية ـ علينا أن نُكرّرها في العام القادم.

المشهد الثامن
حول الحيوات الكثيرة للجثث
وكيفية تشكيل فريق تنس من الشيوعيين

ثنائي

الموت المفاجئ لِوايت بعد ما لا يتجاوز اليومين من مثوله أم لجنة النشاطات المعادية لأمريكا بعث الريبة الفورية عند المتعصّبين لنظرياتِ المؤامرة. بحسبِ القصاصات التي جمعتْها لي كان هناك من يشكّ بأنّ وايت قَتَلهُ السوفييت تفادياً لتجريم المتواطئين معهم؛ بينما رأى آخرون أنّ مكتب جون إدغار هوفِر الفيدرالي للتحقيقات يمكن أن يكون المسؤول عن موته: أمام الفضيحة التي تفترضها محاكمة شخصية بمثل تلك المكانة في الحكومة كانت تصفيتُهُ مرّةً واحدة وللأبد بالنتيجة أفضل.

- لتكذيب هذه الشائعات قام صحفيٌّ من البوسطن، هو تشارلز إ. وايبل بإجراء مقابلة مع الطبيب العجوز إمرسون، الذي أكّد أنّ «وايت مات دون أدنى شكّ بسبب سكتة قلبية» - وضّحت ليَ لِي -. تمّت مراسم جنازة وايت في التاسع عشر من آب في معبد جي. إس. وترمان وأولاده، برئاسة الحاخام إيرفينغ ماندِل (وليس ماندِلّ كما تكتب الواشنطن بوست)والتي حضرها قرابة الثلاثين شخصاً. أُحرقت جثّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وايت في مقبرة فورِست هيلز، في جامايكا بلين، إلى الجنوب من بوسطن، غير البعيدة كثيراً عن مكان ولادته.

كان وايت ـ دون شكّ ـ رئيس الفريق. كانت قد حانت الساعة لمعرفة لاعبيه. سلّمتني لي المُنظَّمَة والدقيقةُ لائحةً بأسماء فريق وايت في وزارة الخزانة: لائحة مفيدة بأسماء شخصيات المأساة. في كثير من الحالات كان يوجدُ نقصٌ في المعلومات هنا وهناك وكان هناك فجوات ربّما لن لم تُملأ أبداً، لكنّها كانت أقربُ ما تكون إلى حكاية أسرةٍ أستطيع أن أعتمد عليها.

ناثان جيورجي سيلفرماستر. وُلد في أوديسا ١٨٩٨، تربى في الصين، ثمّ هاجر إلى الولايات المتحدة. درس في جامعة واشنطن الأمريكية وحصل على الدكتوراه من بركلي برسالة: «الفكر الاقتصادي عند لينين قبل ثورة أكتوبر». انضمّ في عام ١٩٣٥ إلى إدارة تأمينات المزارع وإن تمتَّعَ بدءاً من ١٩٤٢ بإذن للتعاون مع لجنة اقتصاد الحرب. اعتاد أن يلعب مع هاري وايت بكرة الطاولة والتنس. غادرَ، بعد الاتهامات التي وجّهت إليه، واشنطن برفقة زوجته هيلين وأسس مع لودويج (لود) أولمان شركة بناء في هارفي سيدارز، في نيوجرسي، توفي في عام ١٩٦٤ دون أن تُثْبَتَ عليه أيّ تهمة.

أبراهام جورج سيلفرمان. ولد في بولونيا عام ١٩٠٠. هاجر إلى الولايات المتحدة وحصل على المواطنة عام ١٩٢٠. درس في بوسطن وستنافورد وهارفارد. شغل بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٥ عدة وظائف عامّة وتحوّل في عام ١٩٣٦ إلى مدير مكتب التحقيق والمعلومات في لجنة المعاشات في السكك الحديدية وعمل بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥ مديراً مُساعداً لفريق المواد والخدمات في القوى الجوّية. عاد بعد انتهاء

الحرب إلى وزارة الخزانة كي يأخذ على عاتقه لجنةَ لاجئي الحرب. اتُّهِمَ بالعمل كساعٍ بين مجموعتي تجسّس ناشطتين في إدارة روزفلت، مَثُلَ عدّةَ مراتٍ أمامَ لجنة النشاطات المعادية لأمريكا. صرّح يوم ١٢ آب ١٩٤٨، قبل يومٍ من شهادة وايت تحت القسم: «لم يحصل قطُّ أنّني سلّمتُ وثائق سرّيّة لأيّ شخص غير مخوّل». توفي عام ١٩٧٤ دون أن تُثبَتَ عليّه أيّ تهمة.

هارولد غلاسير. ولد في شيكاغو عام ١٩٠٥، ابنُ مهاجِرَيْن يهوديين من ليتوانيا. درس في جامعة شيكاغو. عمل في القطّاع الخاصّ وفي الأكاديمية قبل أن يدخل إلى وزارة الخزانة في عام ١٩٣٦. وُضِع في عام ١٩٣٨ تحت تصرّف وايت، الذي لم يتأخر في ترقيته إلى مساعد مدير لقسم التحقيق المالي. صار بعد انتهاء الحرب مساعدَ مديرِ مكتبِ التمويلات الدولية في وزارة الخزانة ومساعد سكرتير لجنة حكّام البنك الدولي. عاد بعد الاتهامات التي وُجِّهَت ضدّه إلى المبادرة الخاصّة. يعيش الآن في دارٍ للعجزة بالقرب من شيكاغو.

فيرجينيوس (فرانك) كوي. وُلد في ريتشموند، فيرجينيا عام ١٩٠٧. درس في جامعة شيكاغو. دخل وزارة الخزانة عام ١٩٣٩ وعمل بين عامي ١٩٤٠و١٩٤٢ مساعداً لمدير قسم التحقيق المالي وايت. رُفِّع عندما عُيّن رئيسُهُ مساعدَ وزير في عام ١٩٤٥ إلى مدير. في بريتون وودز كان مساعداً إدارياً لوايت. سُحِبَ منه جواز سفره في نهاية ١٩٤٩ ومُنِع من السفر في عام ١٩٥٣. على الرغم من أنّه لم يعترف أبداً بأنّه عملَ جاسوساً انتقل ليعيش في الصين بدعوة من حكومتها. رجل آخر من رجالات وايت هو سولومون أدلر، لحق به بعد وقت قصير. مات في بكّين عام ١٩٨٠.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سولومون أدلِر. وُلِد في ليدز في عام ١٩٠٩، درس في أكسفورد ثمّ انتقل إلى الولايات المتحدة. انضمّ في عام ١٩٣٦ إلى قسم التحقيق المالي في وزارة الخزانة، حيث حافظ على علاقة وطيدة مع وايت، وتحوّل إلى واحدٍ من مساعديه خلال اجتماع بريتون وودز. اتهمته إليزابيث بِنتلي بأنّه المسؤول عن تصوير الوثائق السرّية التي كانت تُرسلُها هي إلى السوفييت. في عام ١٩٥٠شهد أمام لجنةِ النشاطات المعادية لأمريكا (هواك). بعدها بقليل سُحب منه جواز سفره وانتقل إلى إنكلترا واجتمع بعدها مع فرانك كوي في الصين، حيث عملَ مستشاراً اقتصاديّاً للحكومة، ساعد في ترجمة أعمال ماو إلى الإنكليزية وكتب *الاقتصاد الصيني*. يعيش الآن في بكين مع زوجته الثانية.

وليم لودفيك (لود) أولمان. ولِدَ في سبرينغفيلد، ميسوري، عام ١٩٠٨ وتخرّج من هارفارد. انضمّ في ١٩٣٧ إلى إدارة تأمينات المزارع. صديق آل سيلفرمان، اشترى معهم بيتاً في العاصمة. انضمّ إلى قسم التحقيق المالي في عام ١٩٣٩. اعتاد أن يلعب التنس مع وايت. عمل في بداية الحرب لصالح البنتاغون وعاد في عام ١٩٤٣ إلى وزارة الخزانة. رافق وايت إلى اجتماع بريتون ووزد. أسّس مع سيلفرماستر، بعد الاتهامات التي وُجِّهت إليه، شركةً عقارية. يعيش الآن في بيت هيفن، نيوجرسي. تُقدّر ثروته بثمانية ملايين دولار.

بعدها سلّمتني لي بطاقةَ حول نُوَا فولبي. على الرغم من فقر معلوماتها إلاّ أنّها كشفت لي عن جوانب أكيدة عند أبي. أكثر جدة هو أنّه: أيضاً اعتاد أن يلعب التنس مع وايت وأصدقائه.

أبي يتناول العشاء مع رفاقه في وزارة الخزانة (١٩٤٥)

ـ بعد أن اتُهِم من قبل إليزابيث بنتلي وويتكر تشامبرز بأنّه كان جاسوساً شيوعيّاً ـ لخّصت لي صديقتي الشابّة ـ وجدَ أبوك نفسَهُ مُجبراً على المثول أمام لجنة التحقيق بالنشاطات المعادية لأمريكا يوم ٢٨ آب ١٩٤٨، بعد أيام قليلة من وفاة وايت. وأنكرَ، مثلَ الكثيرين من رفاقه، كلَّ الاتهامات واستعان بالتعديل الخامس كيلا يدين نفسه. عمل بعد أن ترك منصبَهُ في الحكومة مستشاراً مالياً في شركة صغيرة في نيويورك. جُرّد في عام ١٩٥٣ من جواز سفره بعد وقت قصير من عودة المدعي برونويل لربط وايت بالتجسس السوفييتي، سقط من طابق تاسع ـ هذا ما أكّدته لي لِيْ: تاسع وليس حادي عشر ـ ويبدو أنه مات في لحظتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تظهر مرفقةً بالبطاقات حول فريق وايت في وزارة الخزانة، صورة أخرى ربما أكثرهم إقلاقاً لأنّها تتعلّق بشخصية من الدرجة الأولى في إدارة روزفلت. على الرغم من أنّني سمعتهم في إحدى المناسبات يتكلّمون عن ألجير هيس، إلاّ أنّني لم أنتبه إلى حالته إلا بعد أن روت لي لي قصَّتَهُ، تناولته عشرات الكتب والوثائق، كان شديد الارتباط بوايت وبأبي.

ألجير هيس. ولِدَ في بالتيمور عام ١٩٠٤. درس في جونز هوبكنز وحصل على شهادة محامٍ من هارفارد. انضمّ في عام ١٩٣٣ إلى وزارة العدل وكان عضواً في فريق وكالة الضبط الزراعي، إحدى المؤسسات الأساسية في الصفقة الجديدة (نيو ديل) انتقل في عام ١٩٣٦ إلى وزارة الخارجية مع أخيه الأصغر دونالد. عيّن في عام ١٩٤٤ مديراً لمكتب الشؤون السياسية الخاصّة وسكرتيراً تنفيذياً لمؤتمر دومبارتون أوكس. شارك في مؤتمر يالطا وعمل كسكرتير عام لمؤتمر الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو. ترك الحكومة في عام ١٩٤٦ وسُمّي رئيساً لمؤسّسة كارنيجي للسلام الدولي. مَثُلَ، بعد اتهاماتِ تشامبرز له، أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا في الخامس من آب ١٩٤٨، لكنّه وبخلاف المُتهمين الآخرين أنكر كلّ الاتهامات وقدّم شكوى بالتشهير ضدّ تشامبرز. اتُهم هيس بشهادة زور وأُدينَ بعدَ خضوعه لمحاكمتين بالسجن خمس سنين. أمضى ثلاث سنوات في سجن لويسبورغ الفيدرالي. جُرِّدَ بعد خروجه من السجن من ترخيص المحاماة. يعيش هيس في ضواحي بوسطن وما يزال مُحافظاً على براءته.

ـ إذن جمعيهم جواسيس ـ ختمتُ منهكاً.

ـ ليس علينا أن نخرج باستنتاجات مستعجلة ـ كنا وقتها قد أصبحنا

نتخاطب بلا تكلّف وحاولت لي أن تُهَدّئني ـ وحده هيس من بين المتهمين الثمانية أُدين، وليس بالخيانة بل بشهادة الزور. مضى على ذلك أربعون سنة تقريباً ولم يُعْثَر على براهين جازمة ضدّ أيّ من الآخرين. بعضهم هرب من البلد، لكنّهم عاشوا في غالبيتهم حياةً عاديّة إلى هذا الحدّ أو ذاك، بل وهناك واحد منهم هو غلاسّر تحوّل إلى رجل أعمال ثريّ. كان الجمهوريون يعتقدون في تلك المرحلة أنّهم يرون جواسيسَ في كلّ مكان. تذكّر أنّه كان عصر مكارثي والرعب الأحمر. لا شيء من هذا يُثبت أنّ أباك كان جاسوساً.

ـ ألا يبدو لك مُريباً أنّ شاهدين اثنين اتهما كل أولئك الأعضاء في وزارة الخزانة؟ ـ اضطلعتُ بدور محامي الشيطان ـ مجموعة من الأفراد متهمين بالجاسوسية، لم يكونوا يعملون معاً وحسب، بل وكانوا يلتقون اجتماعياً.

اكتشفتُ بعض الرقة في نظرة لي.

ـ أنتِ نفسك قلت ذلك قبل وقت قصير. هل حقيقة تعتقدين أنّ بَنّائي نظامنا الرأسمالي كانوا جواسيسَ روساً؟

ـ يبدو غير معقول، لكن ما مصلحة بِنتلي وتشامبرز في اتهامهم إذا لم يكن صحيحاً؟

ـ سؤال وجيه ـ بريقٌ مقلقٌ شقَّ فيروزَ عينيها ـ لذلك علينا الآن أن نتأكّد مَنْ كان هذان الماكران.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد التاسع
حول كيف تركّب قنبلة هيدروجينية من سندات القمامة وكيف تغني ثلاثياً غناءً ثنائياً من بوهيميا[1]

جوقة المصرفيين

كانت الحرب

من خنادقنا في جي بي مورغان واجهنا العدوَّ دونَ خوف، صددنا هجماته وفكّكنا المقاومة وفي النهاية لم نترك حجراً على حجر.

بالطبع كان منظمو لجنة الأوراق المالية والبورصات (سيك) هم الأوغاد.

كان هؤلاء بالنسبةِ لأيِّ مستثمِرٍ - وأيِّ مدافعٍ قويّ عن الليبرالية - أقلَّ قليلاً من لصوصٍ أو نهابين، أجلافاً وبدائيين، محشوّين في أطقمهم من ماسيز (ربّما ٣ × ١) وربطات أعناقهم من تي راك ومتجمّدين في كهوفهم البيروقراطية، لا عمل لهم غير اجترار سخطِهم وتصوِّر كيف سيسوّدون عيشنا.

---

(١) أوبرا هوهيميا لجياكومو بوتشيني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكاريكاتير لا يُجافي جرعاتٍ كبيرة من الحقيقة، إذ بينما كانوا هم يُعانونَ في نهاية كلّ شهرٍ من دفعِ فواتير الكهرباء والهاتف، كنّا نحنُ نبذّرُ الأموالَ على المجوهراتِ والعطورِ والشمبانيا، وبينما كانوا هم يتزوّجون خطيباتهم من الوسط الغربي كنّا ندخل نحن حريم الترف واللهو، بينما كانوا هم يقودون سيارات الرامبلر المخلّعة كنّا نحن نطير في طائرات المسايراتيس. وبينما كان أبناؤهم يَتَوَحّشون في مدارسِ العيون الرمصاء العامة كان أبناؤنا يتدرّبون على التنافس بألعاب الصولجان وسباق الخيل في الحدائق أو في ساحات التزلج على الجليد في مدارسهم الخاصّة. كيف لن يكرهونا؟

لقد وضعتنا طبيعةُ السوقِ الحرّة على طرفي سلسلة التطور: هنا، لسنا الأفضل بقدر ما نحن الأكثر جدارة، نحن مَنْ نعرفُ كيف نزدهر، نتحدّى الاتفاقيات وننهض كسادة للعالم؛ وهناك، على الجانب الآخر، هؤلاء البؤساء، الذين يرضون بضحكاتهم ومنغصاتهم اليومية أن يتسوّلوا رواتبَ الخراء البائسة والتنقل اليومي وإلى الضواحي الفقيرة ومن هناك يشكلون قواعد وحواجز فقط كي يُنغِّصوا عيشنا.

غربان بينٍ، حَسَدَة. شيوعيون!

في بداية التسعينيات شهدتْ مشتقاتُ المال أوّلَ انفجار لها: بنوك صغيرة، صناديق تقاعد بل وشركات متوسّطة انطلقت بشكلٍ جماعيّ خلف تلك المنتجات المالية الجديدة التي كانت تؤمّن أرباحاً فائقة. كان ج. بي. مورغان قد أبدعها للتخفيف من الأخطار، لكنّ مقلّدينا راحوا يستخدمونها مثل فيشِ الكازينو، يُحَرِّكون استثماراتهم على مستويات لم تُعْهَد من قبل. إلى أن غيّرت الريحُ اتجاهها. في الرابع من شباط ١٩٩٤ أفاق غرينسبان، المعلّم العظيم، الكاهن الأعظم للاحتياطي الفيدرالي

على فكرة رفع معدلات الفائدة من ٣ إلى ٣,٢٥٪، كي يُخفّض من حمّى الاقتصاد الأمريكي العالية.

تهانينا يا سيّد غرينسبان ففي رفّةِ عين نجحت في أن تسقط السنداتِ على رؤوسها وأن تجعل المشتقات تكاد تذهب إلى القمامة. عشرات البنوك والشركات وصناديق الاستثمار لامست الإفلاس، جيبسون، غريتينغز بروكتر & غامبل، ميدكو. أسكين كابيتال منجمنت، بايْن ويبر وسلسلة طويلة من إلى آخره. فجأة كان هناك ناس كثيرون غاضبون، غاضبون حقيقةً.

هنا درس (باهت) في التاريخ: كلّما حلّت أزمة التقطَ النسورُ رائحة الجيفة، غادروا أعشاشهم فردوا أجنحتهم السوداء وفتحوا مناقيرهم: «لقد حذّرنا من ذلك منذ البداية ويتكلّمون ويتكلّمون، المشتقات المالية مضرة، لا يكفون عن الكلام. يجب وضع حدّ لها» كان المُنَظِّمون بحاجة لكبش فداء ومكتب الحسابات العامّ نشر دراسة من ١٩٦ صفحة تطالب بالتدخل فيها.

وعلى الفور بدأ هؤلاء التافهون الذي لا يشيرون إلى الإسراع بتغطية فم البئر إلا بعد غرق عددٍ من الأطفال: السياسيون. ديمقراطيون وجمهوريون في الكونغرس أفعى برأسين، لا شكل لهم، قدموا أربع مبادرات مختلفة لتنظيم المشتقات المالية. إذا ما نجحت واحدة خسرنا نحن في بنوك الاستثمار مليارات. من حسن الحظ أنّ أقدم ديمقراطية على ظهر الكوكب لديها أدوات ليُدافع بها الجبارون عن مصالحهم (لا تسيئوا فهمي، إنّها مصالح الأمّة الحقيقيّة): مجموعات الضغط. نَدَبَنا جي. بي مورغان أنا ومارك بريكل كي نُشْعِرَ أعضاءَ مجلسي الشيوخ والكونغرِس بأهمّية ألا يلجموا هذا السوق الجديد المندفع. قلنا لكلّ من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أراد أن يستمع إلينا: إنّ اقتراح تنظيم المشتقات المالية يبدو لنا اعتداءً صارخاً على الحرّية.

لا أدري بكم من المكالمات والفطورات والغداءات والقهوة وزيارات المجاملة قمنا في واشنطن على امتداد تلك الأسابيع العصيبة. صحفيون مُتملّقون، سياسيون مراوغون، كتبةُ أعمدة نقابيون، سائقو أخبارٍ بُدُن، وكلاءُ حكومة رعاديد، أصحاب محطات إذاعية وتلفزيونية أخسّاء، كان عليهم أن يفهموا أنّه إذا ما كُبح سوقُ المشتقات المالية بقوانين غير مناسبة، سوف يعاني الاقتصادُ من كبح حادّ. لا شكَّ ارتكبت أخطاء، لكنّ سوق المشتقات كان قادراً على أن ينظم نفسَهُ بنفسِهِ.

بعد سلسلة لا نهاية لها من السفر إلى واشنطون، نيويورك، لندن وطوكيو، بدأت كفّة الميزان تميل إلى جانبنا. حدثت نقطة الانعطاف عندما صرّح لويد بنتسين، وزير خزانة كلينتون (هذا الحاوي الداعر، الاشتراكيّ نظريّاً)، في أيّار ١٩٩٤، باتفاق مسبق مع رئيسه:

- المشتقات المالية أدوات مشروعة تماماً للتعامل مع المخاطر - *مشتقات* ليست كلمة سيّئة. علينا أن نكون حذرين جدّاً في عدم التدخل في السوق بطريقة فجّة.

بعدها بقليل تبعه المعلّم العظيم غرينسبان:

- إنَّ التشريعَ الموجّهَ لتنظيمِ المشتقات لا يمكن أن يحلّ محلّ إصلاحٍ أوسع، لكن في غياب هذا الإصلاح يمكن عندما يُنشَأ نظامٌ ناظمٌ غيرُ فاعلٍ يُضعفُ انضباطَ السوق أن تزداد المخاطر في نظامنا المالي.

ترجمة: التنظيم كان أسوأ من عدم تنظيم

في نهاية العام رُفِضَت المبادراتُ الأربعةُ المقدّمةُ إلى الكونغرس.

منظمون، ٠ ـ جي. بي. مورغان، ٤.

فاصل

هدفنا التالي: تلغيم اتفاقيات بازل.

سأوضّح. بعد جولة مضنية من المداولات ـ كما لامس القالبُ الصحفيّ ـ، في عام ١٩٨٨نشرت لجنة بازل القواعد حول الحد الأدنى للرأسمال الذي على بنوك الاستثمار أن تُخزنه في احتياطيّاتها. بعد أربع سنوات قبلت مجموعة العشر هذه المطالب المشينة وتلتها مئة دولة.

بازل ١ (سليه بازل ٢ خاطئ، لكن هذا لا يخصّني) كان يصنّف الأصول المالية للبنوك بحسب مستوى الخطر، بدءاً من أكثرها أماناً ـ سندات الديون السيادية للولايات المتحدة ـ وحتى ما يُسمى بسندات القمامة. ويضع قاعدة ذهبيّة: كانت بنوك الاستثمار، مثل جي. بي. مورغان، مجبرة على أن تحتفظ بـ ٨٪ من أصول المخاطر في احتياطياتها.

تماماً كما أشار مُديرُنا التنفيذي، دنيس ويترستون، وهو بريطاني دقيق وناعم كالمخمل، كان يعني بالنسبة لجي. بي مورغان تجميدَ مبالغ غير مسبوقة: ٨٪ من رأسمال المخاطر، مبلغاً هائلاً سيبقى بسبب بازل مُعطّل.

ـ تصوّروا ما يمكن أن نفعل لو كانت هناك طريقة أخرى لتقييد حسابات المخاطر ـ قال لنا ذات صباح.

كان ويترستون مزيجاً من ثعلب وسنجاب، مراوغاً كالأوّل وطمّاعاً كالثاني. كان يجبرنا في كلّ يوم في الرابعة والربع بالضبط على أن نرسل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إليه تقريراً مسهباً عن مستوى المخاطر في كلّ مجال من مجالات البنك. سرعان ما بدا له ذلك التقريرُ غيرَ كافٍ فشكّل مجموعةَ عملٍ مُكرّسة لقياس المخاطر التي يمرّ بها البنك يومياً، بعد أشهر شاقّة من العمل عثر المُحَلّلون الماليون على طريقةٍ لقياس هذا الخطر برقم واحد؟

- قم.

اختزال لِـ«قيمة المخاطر».

تقدير بنسبة ٩٥٪ مؤكّدة للمبالغ التي يمكن للبنك أن يخسرها في كلّ يوم.

- ولماذا ليس ١٠٠٪ - ستسألون أنتم؟

- لأنه لا يستحق أن يوجع المرءُ رأسَهُ من أجل الـ٥٪ التافهة الباقية، المقبولة من مسارح الكارثة غير المسبوقة فقط. - كان جواب المُحلّلين.

كان النظام يرتكز على مراقبة سلوكِ المصرف في السنواتِ السابقة والتكهن بالمبالغ التي سيخسرها إذا ما أصابت السوقَ هزّةٌ فجائية. ولكي نتأكّد من أنّ هذه المعلومة لم تستخدم باستخفاف كنّا وحدنا نحنُ كبار الموظفين في جي بي مورغان نستطيع الوصولَ إلى الرقم السحريّ. لم نحسب حسابَ أنَّ قيمةَ المخاطر سوف تُكْتَشَف على المدى الطويل كاختراعٍ هو من الفعالية بحيث أن كلّ العالم سينسى أنّها كانت مجرّد مُقاربة من المستقبل وليست نبوءة حتميّة.

بفضل أعاجيب قيمة المخاطر كنّا نحن ممثلي وول ستريت قادرين على أنّ نَستشفّ سلوكَ المشتقات دون الحاجة لأنّ تقلق الحكومةُ علينا. التقدير كان، فعلاً ٩٥٪، لكن من كان يستطيع في تلك المرحلة من الانتعاش والآمال الكبيرة أن يتكهّن بأنّ هذه الـ ٥٪ التعيسة يمكن أن

تصبح حقيقة؟ كانت احتمالات حدوث كارثة أقل من احتمال أن يسقط شهاب على رأسك ثم تقصمك صاعقة وتمزّقك إلى ألف مزقة!

ـ عند الجمع بين قيمة المخاطر وبين آخر تجديداتنا المالية، حصلنا على أمضى سلاح اخترعه وول ستريت في حياته.

ـ بيسترو؟

ـ اختزال لـ... ماذا يهمّ؟

طالبنا ويترستون بإيجادِ طريقة لإغراقِ السوقِ بالمشتقاتِ ودفعها حتى القمر.

بيسترو، كان الجواب.

خطر لنا نحن أعضاء مجموعة مشتقات جي بي مورغان التي كان يرأسها وقتذاك بيل دِمشك، أن نفاوض على عشرات عمليات المخاطر في وقت واحد من خلال إحداث مشتقات انطلاقاً من مجموعها.

إذا ما عملنا صفقات تجمع قروضاً عالية الخطورة مع أخرى أكثر أماناً ـ اقترح بيل ـ ستوازنُ الثانيةُ الأولى.

وستظهر الصفقة مُشتهاةً أكثر من أيّ وقت مضى ـ أكملتُ.

كان هذا هو **بيسترو**.

فكّر، أيّها القارئ المشوّش في حلوى عيد ميلادٍ مقطّعةٍ إلى قطع، بحيث أنَّ كلَّ قطعةٍ تحتوي على عدد من القروض العقارية من مختلف مستويات المخاطر (لنقل طبقات مختلفة من المربيات) عدم دفع مربى التوت المحتمل سوف يعوضه مربى الدراق الأكيد. فَكِّرْ بعدها، أيّها القارئ المذهول، أنّ باستطاعة جي. بي. مورغان أن يحصل على أرباح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هائلة من بيع المخاطر الحاضرة في كلّ قطعة من قطع الحلوى من خلال أحد المشتقات المالية.

بينغو!

كانت الفكرةُ أن نبيعَ قطعَ الحلوى مع مستويات مختلفة من المخاطر. المستوى الأعلى، الذي سيولّد الفوائد ونسميه جونيور (الشباب)، ونسمي الأوسّط مِزانين، والأدنى سنيور.

إذا ما نتجت خسارة لعدم تسديد عددٍ من القروض العقارية تبدأ هذه بالتعويض من السنيور ثمّ من المِزانين وفي حالات الحقيقة غير المتخيّلة من الجونيور.

بحسب هذا الجدول، يستطيع جي. بي. مورغان أن يبيع مخاطر كلّ عمليّة بحيث أن من يشتري صفقةً من المشتقات (**مشتقات الائتمان الافتراضي**) من مستوى جونيور ستكون مخاطره وأرباحه أيضاً أكبر؛ إذا ما اختار الميزانين فإنّ هذه المخاطر والمرابح ستكون متوسّطة، أما إذا ما استقرّت على سنيور فإنّ مرابحه ستكون في حدودها الدنيا وإن كانت آمنة (على الأقل نظرياً)

أخيراً اقترحنا إنشاء شركات مكرّسة لشراء هذه الرزم من القروض العقارية المعروفة في لغة أهل المال بوسائل الأهداف الخاصّة (إس بي في) الموجودة في أماكن ساحرة مثل جزر كايمان. مقابل رسم صغير فإنّ كلَّ وسيلةِ أهدافٍ خاصة ستؤمّن جي بي مورغان من مخاطر رزمة قروض ومن جهتها فإن وسائل الأهداف الخاصّة ستغطي مورغان في حال عدم الدفع. وخلال ذلك ستبيع وسائل الأهداف الخاصّة (إس بي في) قطعاً صغيرة من حلوى المُخاطر للمستثمرين لتمويل كامل المسألة.

أعرف أنّ لهذا وقع هندسة فضائية، والمسألة أنّه كان كذلك.

ما إن وُضِعت النظريّةُ حتى انتقلنا إلى التطبيق.

ـ وماذا لو بدأنا بمبلغٍ متواضِع؟ ـ سأل بيل.

ـ لنقلْ بما يُقارب... عشرة مليار دولار في استثمارات عالية المخاطر ـ اقترحتُ.

ـ مبلغ جميل. يا فولبّي

ـ بحسب تقديراتنا، إذا كان جي بي مورغان يستخدم نظام بيسترو فإنّه لن يحتاج لأكثر من سبعمئة مليون دولار لتغطية هذه الكمية الهائلة. عشرة مليارات اختُزِلت إلى سبعمئة مليون دولار، ألا تلاحظ؟

لم يكن سهلاً إقناع وكالات التصنيف، لكن وكالة موديز لمحت لاحقاً مزايا العملية وحصل ثلثا الصفقة على تصنيف أ أ أ الخرافي، بينما استحقّ الثلث الآخر تصنيف ب أ ٢[١] التافه.

في أيلول ١٩٩٧، أعلن جي. بي. مورغان في مؤتمر صحفي للعالم اختراعه الجديد الذي سيهزّ أساسات النظام المالي العالمي. كان الطقس في نيويورك بارداً وعاصفاً ولا يكاد يوجد في السماء ومضات فضية قليلة.

ـ معكم يا أصدقاء الصحافة البيسترو العظيم والرائع، الذي لا يُهزم ـ أعلن بيل دِمشك.

ـ في أقل من أسبوع جمع البنك السبعمئة مليون دولار للانطلاق بالأعجوبة.

ـ لقد فزنا!

---

(١) أعلى درجة ممنوحة من قبل وكالة موديز هي أأأ؛ ب أ تدخل في مجال السندات الرديئة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ بماذا بالضبط؟

لقد أزلنا بجرّةِ قلم كمياتٍ هائلةً من المخاطر من سجلاتِ حساباتنا.

اتفاقيات بازل، ٠ ـ جي. بي، ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكي.

ثنائي

لم يتأخّر فيروسنا في الانتشار.

في نهاية التسعينيات تمّ تبني سندات الائتمان الافتراضي المشكّلة حسب النموذج بيسترو من قبل مئات البنوك على طول وعرض الكوكب، راغبة دائماً بتحرير كميات كبيرة من المخاطر ـ ورأسمال ـ من سجلات حساباتها. في جي. بي. مورغان حصلنا على اتفاقيات لا تُحصى لمؤسسات ائتمانية يابانية وأمريكية، وبسرعة كبيرة أعلن مصرفان عملاقان، كريديت سويس وباريباس عن مشتقاتهما الخاصّة على طريقة بيسترو. ومذّاك خرج الوباء عن السيطرة. كنّا نحن أعضاء فريق المشتقات مصعوقين تنبّأنا بسحر مخلوقنا، لكنّنا لم نتوقّع قط أن يتضاعف بتلك السرعة.

أيّ بنك آخر كان سيكافئنا بسندات مليونية، لكن لم تكن هذه ثقافة جي. بي. مورغان الماليّة. لم نكن بالنسبة لرؤسائنا ملوك المامبو[1]، بل مستخدمين يستحقون مُكافأة متواضعةً ومعقولةً من البنك. عُيّن بيت مديراً ماليّاً ورئيساً لإدارة المخاطر في البنك، لا يكاد يبعد بضع خطوات عن المدير التنفيذي الجديد، ساندي وارنر؛ وأصبح بليت

(١) بالإسبانية في الأصل (ملاحظة المترجم) والممابو موسيقى ورقصة كوبيتان ظهرتا في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي.

رئيساً لسوق مشتقات الائتمان وأنا تحملت مسؤولية القروضِ عاليةِ المستوى. لا أعرف كم سيكسبون، لكنّ أعضاء فريقي كريشنا وفيكرام وتيد وأنا إلى جانب كثيرين آخرين من الوسطاء والمحللين الماليين الذين ساهموا بعزمٍ وحماس في اختراع البيسترو، بالكاد أدخلنا في حساباتنا نصف مليوِن دولار. سيبدو لكم هذا رقماً بعيد المنال، قرّائي المعوزين، لكن لو أنّ المبلغ في مكانٍ آخر لتضاعف أربع مرّات.

مثل أيّ عاهرة لم أتأخّر في أن تغويني عروض تنافسٍ معيبة من ليمان براذرز وغولدمان ساتشز. على الرغم من أنّني استطبتُ من المُداهنة إلاّ أنني رفضتها في النهاية ليس بسبب وفاء سخيفٍ للمؤسّسة، التي لم أؤمن بها قط، بل بسبب فرصة أن أنتمي إلى مجموعة مشتقات جي. بي. مورغان. كنّا نحن من يرأس الثورة المالية في وول ستريت. بعيداً عن غايات ومِزاج كلّ واحد منّاً فإنّ الإحساس بتحويل السوق كان يحوّلنا إلى عصابة متماسكة ومتراصّة، مستعدة لأن تمضي بطروحات النموذج بيسترو إلى آخر نتائجه. لا أبالغ: كنّا نقضي اليومَ كاملاً معاً، ثماني ساعات في مكاتبنا ومثلها في المطاعم والبارات والنوادي أو على طاولات القمار في أتلانتيك سيتي، التي كنّا ننطلق إليها سريعاً أيّامَ الجمعة ليلاً.

فصل أخير أغلق ذلك العصرَ، عصر الاكتشافات المالية الكبرى. في نهاية ١٩٩٨ طلب منا بنك بايرش لاندسبانك نوعاً جديداً من العمليات من نوع بيسترو: كان الألمان يريدون أن يتخلّصوا من الخطر المزعج الذي كانت تمثله الأربعة عشر مليار دولار قيمة القروض العقارية الموجودة في سجلاتها. بدا لي الاقتراح عبقرياً، لكنّ كريشنا لم يتأخّر في التعبير عن شكوكه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ حتى الآن عَرَفنا وضعَ الديون التي رتبناها وبعناها ـ أعطانا درساً ـ والرابطَ المشترك بينها: نستطيع أن نحسب احتمالات تأثير عدمِ دفعِ بعضِها على أخرى، وتوليده لسلسلة من الاهتزازات أوَ الإعصار. احتمال حدوث كارثة ضعيف جدّاً لكنه موجود. المشكلة أنّنا لا نملك في سوق الرهن العقاري أدنى فكرة عن مستوى الرابط المشترك.

ـ لا بد أنه تافه. أليس صحيحاً؟ ـ تدخّلتُ.

ـ يكفي أن يكون أعلى قليلاً مما نُفَكّر ـ نظر كريشنا إليّ بقسوة ـ كي تزداد المخاطر بتتال رياضيّ.

كان كريشنا وفاريكوتي العبقريين الهنديين في مجالنا، كانا قد حطّا في الولايات المتحدة كي يدرسا الدكتوراه في الرياضيات، لكن وبدل أن يتحوّلا إلى عالمين ذرّيين، تنازعت عدّة مؤسّسات مالية للتعاقد معهما، كما لو أنّهما نجما كرة قدم. بينما كان كريشنا أنوفاً وصعباً ولا يضيع فرصة يتفاخر فيها بسعة معرفته الإحصائية. كان فيكرام ناعماً وصموتاً، وهذا لا يلغي عنده طموحاً بارزاً كطموح ابن بلده. اصطدمنا أنا وكريشنا منذ البداية، ربّما لأنّني سرعان ما اكتشفتُ أنّ «صديقه» لا يلفتُ انتباهي بنبوغه الحسابي فقط.

قسمتْ مسألةُ الرهونات العقارية مجموعةَ مشتقاتِ جي. بي. مورغان إلى عصبتين، عصبة من كنا نعتقد أننا استمراريةٌ طبيعية لنموذج بيسترو وعصبة من كانوا يرفضون أن يُخاطروا بها.

ـ من المحال تحديد الرابط المشترك بينها ـ كرّر كريشنا بِنَفَسِهِ الذي تفوح منه رائحة الكورّي والكزبرة ـ هل تفهم ما أقول؟ لا نستطيع أن نعرف ما قد يجري إذا ما انهارت مجموعة رهونات عقارية،

كم منها سيجرّ معه رهونات أخرى، تأمينات، سندات ومشتقات؟ من المحال حسابها من دون هامش هائل من الخطأ.

- بقيت السوق العقارية في أمريكا مستقرّةً منذ بداية القرن - كرّرتُ الاسطوانةَ التي كنّا جميعاً نعرفها - لماذا ستنهارُ بين ليلة وضحاها؟ وماذا لو تعرّضنا قبلها لغزوٍ من الفضاء الخارجي؟

نهضَ بيل، الذي حافظ حتى تلك اللحظة على حياديته، عن مقعده وأخذ الكلمة. ساحرُ المشتقاتِ سيدعمُ بالتأكيد موقفي.

- هذه المرّة أنا مع كريشنا - حسم - لا أُريد أن أبقى جالساً فوق قنبلة موقوتة.

وحده فيكرام من بين كلّ الحاضرين من دعم موقفي. من حسن الحظ أنّ تيوتونيي بايرش لاندسبانك المعمى على قلوبهم، لم يسمحوا بأن تُلوى ذراعهم وحذرونا من أنّه إذا لم نساعدهم سيبحثون عن شريك أكثر مرونة. وافق بيل بشقّ النفس على العملية.

على الرغم من الصدوع التي ولّدتها العملية بيننا قرّرنا أن نحتفل بالاتفاق، طبعاً باستثناء كريشنا، الذي شكا من انزعاج معوي. ما إن توغّلتُ في ظلالِ بول أند بير، أحدِ باراتنا المفضّلة حتى كان فيكرام هناك متمدداً في كرسيّ كبير. جلستُ بجانبه وطلبنا كأسي تكيلا. توقّفنا عن الشرب والدردشة، دون أن يرفع أحدنا عينيه عن الآخر (أو هذا ما أريدُ أن أتذكّره الآن). كنّا نتشارك في خيبتنا: لقد فقد جي. بي. مورغان الزخمَ الذي حوّله إلى مفاعل نوويّ في وول ستريت. فجأة صار بيل هيّاباً ورعديداً. لم يكن باستطاعتنا أن نقبل أن يتراجع ملكُ المشتقات ومبدعُ مقايضات الائتمان الافتراضي بمثل تلك الطريقة السوقية. كان كما لو أنّنا وبعد أن قدنا سفينتنا الفضائية إلى ما وراء النجوم نُجْبَرُ على أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نرجع إلى الخلف. لم يحدث في تلك الليلة شيءٌ بين فيكرام وبيني ـ أعني لا شيء مادّياً ـ لكن انبثق بيننا ترابط لن يتأخر في تغيير مسار حياتنا.

بعد توقيع الاتفاق مع بايرش لاندسبانك لم يأذن بيل إلا بتوقيع اتفاقٍ آخر يتضمن مشتقات رهونات عقارية. بعد أن اخترع جي. بي مورغان هذه السوق الجديدة رفض رفضاً باتّاً أن يتدخّل فيها. لم أستطع أن أهضم هذه الهزيمة. بينما كان جي. بي. مورغان يتراجعُ راحت البنوكُ المنافسةُ لنا طوال حياتها، غولدمان ساتشز، ليمان براذرز، ميريل لينش وبير ستِرنز، الأقل تمسّكاً بأحكام أخلاقية مسبقة وزائفة، تُكدّسُ الملايين.

تلقيت في كانون الثاني ١٩٩٩ مكالمة من جون مريوزر، مستثمر وول ستريت الأسطوري. كانت قد وصلت إلى مسمعه شائعات بأنّني ما عدتُ أشعر بالراحة في جي. بي. مورغان ودعاني للعمل في لونغ تيرم كابيتال منجمنت، صندوق التحوّط، الذي كان قد أسّسه مع بوب مرتون وميرون سكولز، الذي كان قد حصل توّاً على جائزة نوبل للاقتصاد.

لم أتردّد.

كان صندوق العباقرة، المؤسّس عام ١٩٩٤، قد حقّق أرباحاً خيالية خلال السنوات الخمس الأولى من عمله وإذا كان فعلاً يمرّ في تلك اللحظات بهزّةٍ ناتجةٍ عن الأزمة الآسيوية ـ لذلك بدت لهم تجربتي في المشتقات مغرية جدّاً ـ، فإنّ تعاوني معهم كان واحدة من الفرص التي تحدث مرّة واحدة في الحياة. وضعت لِجون مريوزر شرطاً واحداً، آن آخذ معي رجلاً واحداً من رجالي الموثوقين. في تلك الليلة ذاتها دعوتُ فيكرام إلى العشاء، واثقاً من أنّ جوابَهُ سيكون إيجابيّاً. ما من أحد منّا نحن الاثنين كان يتكهّن بالروابط التي ستؤاخي بيننا منذ تلك اللحظ، ة وأقل من ذلك أنّنا كنّا نستعد لنأخذ على عاتقنا باخرة مشتعلة.

المشهد العاشر
حول كيف تؤثّر في الناس وتخون أصدقاءك والغربان التي تعشّش في القلب

ترتيل

اليوم كان يوماً عظيماً. أخيراً صار فيكرام بجانبي. (في الحقيقة يرتاح في الغرفة، مسحوقاً من اضطرابات الرحلة الطويلة والجنس الفجائي) وبينما هو نائم أجترع أنا كأسَ جين ـ تونيك جديداً وأنا أتأمّل سواد المحيط. دائماً كرهتُ البحر وأطرافه، ذلك السطح الوادع أو الهائج الذي تترصدُنا قيعانه. في طفولتي كانت أمّي تجرّني إلى الشواطئ الوعرة في لونغ ايلاند وأنا لم أكن أجرؤ حتى على أن أبلّل قدميّ خوفاً من أسماك البيرانا وأسنان التي لا شكّ كانت تنساب هناك على بعد سنتيمترات من قدمي ومن خوفي. كم من التناقض في أن يبقى الإنسان يعيش على ضفافه!

بحسب تقاليد السكان الأصليين المحلّيين ـ هؤلاء الوسيمون السمرُ، بابتساماتهم المُغفَلة، وعضلاتِهم التي تشبه شرائحَ التشريح ـ عندما يحدث خلافٌ بين رجلين، البحرُ هو من يجب أن يحلّ هذا النزاع، يذهب المتقاتلان نحو الشاطئ الشمالي، المشهور بتوالد أسماك القرش وعلى الاثنين أن يدخلا في الماء حتى لا يظهر غير رأسيهما كعوّامتين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في مهب الماء. يؤكد الشامان أنّ الأبرياء لا يُعَضّون أبداً. ما إن تصطبغ الأمواج بالأحمر حتى يُكْتَشَف من منهما يكذب ومن يقول الحقيقة، أعتقد أنّ الآلهة البحرية الجائعة تلتهم البائسَيْن معاً.

أعتقد أنّ هذه المحاكمة الموحية ليست بعيدةً جدّاً عن محاكماتِ الله في عصورنا الوسطى وعن محاكماتنا ذات الصبغة الإجرامية، تلخّص واحداً من تهافتاتنا العلمانية، كيف نتحقّق مما تخفيه النظرات الصافية أو العكرة لأقربائنا وأصدقائنا وجيراننا، لَمَصَاتهم المهذّبة أو الحانقة، مدائحهم الغامضة أو انفجاراتهم البذيئة. أنت تؤكّد أنّك بريء. أنا أقول العكس. وعندها يبدأ اللعب أو التحدّي..

تقاضيات وإجراءات، مُحاكم ومواجهات، تقديم أدلّة ومثول شهود، مركّب شرعي متداخل، برأيي هو أقلّ دقّة من حكم أسماك القرش.

في هذه وتلك الحالة ينهشنا في النهاية يقين موجع، يقين أنّ من الممكن ألاّ نصلَ أبداً إلى معرفة من الذي يقول الحقيقة. هذه الحقيقة، التي وكما يؤكّد الفلاسفةُ ـ وأمّي ـ ممنوعة علينا مُقَدّماً. أكثر ما نستطيعه هو أن نكتفي بهذا البديل الذي يُسمّيهِ مُدّعو المعرفة بالقانون «الحقيقة القضائيّة» هذه الحقيقة الموصوفة، التي إذا كنّا صادقين لا تتميّز عن التخمين المحض.

بحقّ أيّ شياطين كيف سنعرف إذا كان أحدٌ يكذب؟

بحقّ أيّ شياطين كيف سنعرف ما الطيور التي تعشّش في قلب أمثالنا؟

نحن محكومون بالرمادي، بكتامةِ المحيطاتِ المثيرةِ للأعصاب؛

بالذهابِ إلى الفراش، كما أستعد لأن أفعل الآنَ، متلهفاً لأحتمي بدفء جسدِ صديقي وفي معدتي حرقة.

طقطوقة إليزابيث بنتلي

من الجانب الآخر من الرصيف، محتمية تحتَ شفٍّ من شمس صيفٍ قاسية، مضى عليها أكثر من ساعة تتفحص وجوهَ من يدخلون ويخرجون من البناء. غالبيتهم رجال وحدهم، ما بين الثلاثين والخمسين من العمر، برباطة جأش من يعرف ما يبحث عنه، ثنائي يحمل حزماً كبيرة في يده؛ أسرة مع طفلين، واحد منهم مُغطى بالوحل (وبالدموع)، زوج من العجائز، وما لا يتجاوز ثلاث نساء بعمرها تقريباً على الأقل فيما انقضى من الصباح. تنظر إليزابيث يمنةً ويسرةً، ينزلقُ بضع خطوات وتُبَدّلُ نقطةَ مراقبتها. جهدت في أن تتخذ حذرها ـ حافلتان باتجاهين معاكسين، مغازلة وسط الحديقة العامّة، التفاف عبر مخزن ومقهى، ودورات لا تُحصى حول كتلة الأبنية، هذا كيلا أذكرَ القبّعةَ والنظارةَ الداكنة ـ، لكنّها تعترف *أنّهم* أذكياء جدّاً، ولا تستطيع أن تُقسِم بأنّ أحداً لم يتبعها. أليس من الأفضل أن تعود إلى البيت وتنتظر، فقط تنتظر، ألاّ يحدثَ شيء؟. ليس أمامها خيار. إذا ما ندمت الآن، فسيأتون غداً في طلبها.

ماذا سيقول ياشا إذا ما اكتشفها هناك، على وشك أن ترتدّ عن الإيمان الذي جمع بينهما؟ هل سيخجل أم سيُشَجّعها على أن تتابع؟ هو دائماً شغَلَهُ مستقبلُها، رعاها، أعدّها كي تتغلّب على الحياة حتى في الظروف المناوئة. قد يظهر في البداية خائباً، لكنّه سينتهي بأن يستحسن اندفاعها: لم يحدث قط أن تمنى لها حظّاً كحظّ جولييت المسكينة، التي بقيت شقتُها فارغة مع بقية عشائها على الطاولة. إليزابيث مُجبرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على أن تعبر عتبةَ ذلك البناء، حتى ولو فقط كي تنتهي من كابوسها. ليلة أمس عادت لتحلمَ بالمشهد ذاته، حزينةً ومهجورةً أمام فصيلةِ الإعدام، تميّز امرأةً معصوبةَ العينين. جولييت أم هي؟ ربما مزيج من الاثنتين. مزيج يتلاشى عندما وجّهتْ، قبل أن تسقطَ الضحيّةُ مثقبة، سبّابَتَها نحو إليزابيث، والآن تكوّمت على المنصّة وتنهرها بصوت كهفيّ: أموت بسببك، كفى! كفى! إنّها أشهرٌ من التوجّسِ والتهديدِ والابتزازِ وتصوّرِ هذا اليوم. اليوم الذي ستُغادر فيه أخيراً الحياةَ المزدوجة التي تعذّبها منذ خمس سنوات، الرهان الذي قادها لتخدم الله والشيطان في آن معاً. ولماذا؟ حبّاً برجل ما عاد الآن غير جثّة تتفسّخ تحت الأرض؟

أخذت إليزابيث نَفَساً وتقدّمت باتجاه البناء وقلبها يدوّي مثل موكبِ جنائزي مدوّ. تُحاول أن تتأكّد من أنّ أحداً لن يتفحّصها. تسرّع خطوَها، تشدّ على حقيبةِ يدها فوق صدرها، تأخذ شهيقاً وتتوغّل في ظلمات البهو. تتعثّر مبهورةً بأحد المارّة. عندئذ تسير باتجاه المصعد وتقف بين شخص متعرّق وامرأة بدينة ترتدي الأصفر. حدَّدت إليزابيث لعبتَها القادمة، ستصعدُ إلى الطابق السابع، حيث عثرت على وكالة عقارية، وستهبط بعدها طابقين على درج الخدمة.

تُقلقها، بينما هي تصعد، لامبالاةُ هذين المجهولين المحسوبة - ينغرز وجهُ بيتر المستديرُ في ذاكرتها. كيف حدث أنّها بهذا الغباء؟ تبريرها الوحيد: في هذا الأسبوع الرطب من نيسان كانت هي حيواناً محاصراً فاستغلّ بيتر ضعفها. انتقلت إليزابيث توّاً إلى فندقِ سان جورج في بروكلين هايتز، مُجبرة على إخلاء شقتِها لأنّ *أولئك* كانوا يُفكرون أنّها لم تعد مكاناً آمناً، ثمّ إنّهم طلبوا منها أن تُسَلّم كلّ عناوين اتصالاتها إلى رئيس المحطّة الجديد وأن تتخلّى عن عملها في الولايات المتحدة للخدمة والشحن، الشركة التي أسّستها هي وياشا بكثيرِ من الحماس.

يبدو أنّ بيتر أحسّ بخذلانها عندما التقت نظرتاهما في لوبي سان جورج، وبدورها بقيت إليزابيث مشدودةً إلى عينيه الزرقاوين وأطراف سالفيه الحمراء وقفص صدره الذي لغوريلا. اقترب هو منها بعزيمة ونجح في أن ينتزع منها ابتسامة بعد أسابيع. بيتر ـ بيتر هلِّرْ ـ قال إنّه يُدعى ـ وصل توّاً من نيويورك من أجل مسائل تتعلق بالأعمال، وربّما تستطيع هي أن تنصحه بمكان يتناول فيه عشاءه، نجح الطعمُ. قالت له إليزابيث إنّها تعرف مطعماً إيطاليّاً على بعد كتلٍ قليلة من الأبنيةِ، دعاها بيتر لمرافقته ـ إذا لم يكن عندك، يا سيّدة التزام آخر ـ، وهي لم تتردّد. أيضاً لم تتردّد وهي حزينة وسكرانة في أن تفتح له باب غرفتها. والآن لا تتذكّر حتى ما جرى بعدها! حكى لها بيتر أثناء تناول الفطور أنّه كان محامياً وملازماً في الحرس الوطني. مرّ أسبوع لم ينفصلا فيه، هي أرادت أن تكتشف في المسافر الغامضِ علامة. ستترك خلفها عملها في وورلد توريستز وفي الولايات المتحدة للخدمة والشحن، ستقطع كلّ اتصال بهم وستتزوّج من بيتر هلِّر الوسيم وستنتقل معه إلى ماين أو كاليفورنيا.

كانت حياتها على وشك أن تسترجع طبيعتها حين تبخّر خطيبها المتخيّل. في سان جورج قالوا لها إن السيّد هلِّر قد سدّد حسابها ورحل دون أن يترك أيّ رسالة. طالبت إليزابيث بأن يُفتِّشوا غرفته ـ رشت خادماً فوجدتها فارغةً ومرتّبة ـ، عادت إلى المطاعم والبارات والمتاجر التي ذهبت إليها معه، انتظرت مكالمة منه حتى منتصف الليل، بحثت في دليل الهاتف بحثاً عن اسمه. كان هناك بيتر ف. هِلِّر واحداً. أغلق صوتٌ مُنزعجٌ الهاتفَ بعد أن سألها كيف عثرت على ذلك الرقم.

حضر بيتر إلى الفندق بعد ثلاثة أيّام ووضّح لها دون أن يعتذر تقريباً، أنَّه تعرّضَ لحادثٍ وأُدْخِلَ إلى مشفى البحرية، حيث عالجوه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بشكل رائع نظراً لمهنته. «أيّ مهنة؟» سألت هي، مرتبكةً. «عليّ ألا أقولها لك»، أجاب هو بنبرة غامضة، «أنا جاسوس عند الحكومة». أي لعب هذا؟ اقشعر بدن إليزابيث. الاحتمال الأكبر هو أن يكون بيتر واحداً منهم ـ لن تكون المرّة الأولى التي يحيكون فيها مؤامرة ـ مُوَجَّهاً كي يستخلص منها معلومات. جهدت في أن تتابعَ كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، حتى اعترفت له ذات فجرٍ بأنّها جاسوسة روسية وتخاف على حياتها. وسُرَّ عندما هدّأها.

لم يبق أمام إليزابيث من خيار غير أن تروي الحادث لرابطها الروسي. نصحها ألبرت أن تنهي علاقتها بهِلَّر بطريقة ناعمة وسلسة ـ لا نستطيع أن نخاطر فقد يكون حقيقة من رجال هوفر ـ ونصحها أن تُحضّر نفسها لتسافر إلى موسكو. لم تكن إليزابيث مستعدة للهرب من دون أوراق نظامية. حذّرها ياشا من مصير العملاء المطلوبين من موسكو. كانت خياراتها تنضب، إذا كانت ترفض السفر معهم من حيث المبدأ فهم لن يتأخّروا في اعتبارها خطيرة وإذا كان بيتر فعلاً عميلاً لمكتب التحقيق الفيدرالي، فالحكومة أصبحت على علم بنشاطاتها ولن تتأخّر دورية في الحضور إلى سان جورج لاعتقالها. فضّلت إليزابيث أن تُبادرَ، أن تمثلَ في قسم الشرطة بإرادتها وتحاول أن تتحقّق من مقاصد بيتر.

بينما هي تنزل الدرجات في طريقها إلى مكتب التحقيق الفيدرالي في نيو هافن ـ بدا لها أن من الحكمة أكثر أن تذهب إلى ذلك القسم الصغير في مدينة مسقط رأسها وليس إلى المكتب المركزي في نيويورك ـ، تشعر إليزابيث بأن شعاعاً إلهياً يقود خطواتها، أو على الأقل هذا ما ستقوله لنسور الصحافة: «فجأة وجدت نفسي غارقةً في العار وأنّه ما من شيء يُبرِّرُ الخديعةَ والازدواجية». تُسوّي إليزابيث طياتِ قميصها وتدير مزلاجَ الباب. لم يعد هناك عودة إلى الوراء.

ـ أودّ أن أقابل الشرطي المناوب ـ تتداخل الكلمات في حنجرتها.

تقيسها فتاةُ الاستقبال من عاليها إلى سافلها ـ ترتدي إليزابيث ثوباً أزرقَ مزركشاً بالبتونيا البيضاء والوردية، طوقاً من فضة والقبّعة الصغيرة المباركة ـ، وتشير إلى قاعة الانتظار. تُفكّر إليزابيث بياشا وتنتصب؛ بعدها تتذكَّرُ شَعْرَ بيتر الأحمر وتعود إلى مكانها.

ـ دورك، يا سيّدة ـ تقول لها الشابّة.

تتوغّل إليزابيث في مكتب الشرطي إدوارد كودي. في البداية بدا لها شخصاً مكوناً من قطعة واحدة، له نظرة عنبرية وفجاجة حارس القانون. يُشير هذا إليها كي تجلس ويُقَدّم لها سيجارة. تقبلها إليزابيث وتدرسُ محدّثَها متمترسةً خلف الدخان.

ـ اسمي إليزابيث بنتلي من نيو هافن وجئت أقُدم شكوى ضدّ الملازم بيتر هِلّر، من الحرس الوطني في نيويورك. يؤكّد السيّد هلّر أنّه جاسوس للحكومة. عندما سألني هو عما إذا كنتُ أنا أيضاً جاسوسة قرَّرتُ أن آتي إلى مكتب التحقيق الفيدرالي؟

فكّر كودي بأنّها ربّة أخرى من ربات بيوت، يتصوّرن أنفسهنّ، كي يخرجن من خمول الضواحي، أنّهنّ بطلات فيلم من أفلام العصابات.

ـ أنا نائبة رئيس شركة الولايات المتحدة للخدمة والشحن، شركة بريدية تقوم بإرسال الرسائل والطرود إلى روسيا ـ تتابع المرأة ـ. يؤكّد لي السيّد هِلّر أن منصبي يمكن أن يفيد الحكومة. إذا أردتني أن أقول لك الحقيقة أيّها الشرطيّ كودي، لست واثقة من أن يكون هو جاسوساً، هذا ما يقلقني ولذلك تجرّأت وجئت إليك.

هناك شيء لا يركب، يقول كودي لنفسه، الأمر لا يتعلّق بتلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المصابة بنوبات صرع المعتادة، المجلودة بهذيانات العظمة، والمستعدّة لأن تخترع أيّ هراء كي تلفت الانتباه. كذلك لا يُصدّق أن دافع الزيارة هو الإبلاغ عن المدعو هِلّر. لم يسمع قط بهذا الاسم، ولا يتذكّرُ أيّ تحقيق حول آنسة تُدعى إليزابيث بِنتلي.

تحكي له، حذرة من أن تكشف معلوماتٍ أخرى، كيف تعرّفت على بيتر (دون أن تذكر المضاجعة الأولى)، تصف مظهرَهُ (عينان سماويتان رائعتان، سالفان وذؤابة حمراء، جسد أسد). تُلخّص أحاديثهما وتُصرّ على أنّه ليس لديها ما تُخفيه، وأنّها مجرّد مواطنة يُقلقها أن يكون هناك من يمرّ على أنّه شرطي سرّي فيدرالي وهذا شيء بالتأكيد يشكّل جريمة أو خطأ، أليس كذلك، أيها الشرطيّ كودي؟

- هل على الأقل أن تؤكّد لي أن هلّر يعمل لصالحكم؟

- أخشى أن لا أكون مخوّلاً بمشاركتك هذه المعلومة، يا آنسة بنتلي. لكنّنا سنبقيك على اطلاع على مجريات القضية.

بالكاد تكبح إليزابيث خيبتها، فهي بعد أن خاطرت بالمجيء إلى هنا لم تحصل ولا حتى على بريق أمل. الموقف المتحفّظ للشرطيّ كودي يجعلها تحسّ في كل الأحوال، بأنّ هلّر ليس واحداً منهم. تعود إليزابيث إلى بيتها، سالكة طريقاً مختلفاً عن الذي سلكته كي تصل، مستعدة لأن تمضي نهاية الأسبوع في نيو هافن.

يكتب الشرطيّ كودي تقريره دون رغبة: الموضوع: **ملازم بيتر هِلّر؛ هوية مزيفة، تجسّس،** ويرسلها إلى مكاتب نيويورك، هناك يُراجع الشرطيّ الخاص فرانك ألدريتش الأرشيفات ويتبين أنّه وكما توقّع زميله ما من عميل لمكتب التحقيق الفدرالي ينطبق على اسم بيتر ف. هِلّر: لا

بدّ أن الأمر يتعلّق بقضية انتحال شخصية. ينصح ألدريتش في استنتاجاته بمتابعة الموضوع وإن لم يُشدِّد على ذلك(١).

تعودُ إليزابيث إلى نيويورك عاصيةً تعليمات **أل** وتَمْثُلُ في الولايات المتحدة للخدمة والشحن كما في كلّ صباح. يستقبلها مديرها بذراعين مفتوحين، فهو لم يتحمل بديلتها، التي اختاروها هم. تتأخّر إليزابيث في المكتب، المكان الوحيد في العالم الذي تشعر فيه بالأمان. ليالي سان جورج باردة وصماء منذ أن لم يعد هِلّر يُرافقها، من أجل ماذا كانت تريد أن تعودَ إلى غرفتها المقشّرة؟

تحضرُ إليزابيث إلى الاجتماع مع **أل** متأخرة عشرين دقيقة. تحمل معها ثلاثَ زجاجاتِ مارتيني مزّ، كافية كي تشعر بنفسها منعتقة وكافية تماماً كيلا تترنّح أمامه. **أل** روسيّ مُنافق وبذيء، مثل الجميع؛ أوّلاً هو يتظاهر بالتهذيب، يهتمّ بصحتها ويثني على قبعتها، ويؤنّبها دون توقّف. يصرّ على معرفة كلّ تفاصيل علاقتِها مع هِلّر ويسألها عما إذا نجحت في التخلّص منه.

ـ عليك أن تتركي عملك وتختفي لبعضِ الوقت ـ يشدّ أل على ساعدها ـ. بقاؤك هنا خطير جدّاً. علينا أن نستوضح من يكون هِلّر.

إليزابيث ترفض.

ـ نستطيع أن نسلفك مبلغاً كي تقيمي تجارةً صغيرةً في مكان آخر ـ يصرّ أل ـ ربّما حانوت لبيع قبعات...

---

(١) وضّحت لِي لي أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي اكتشف بعد بضعة أسابيع أنّ هِلّر كان زير نساءٍ ريفياً، يخترع قصص تجسّس كي يخفي زواجه ويغري نساءً راغباتٍ بالمغامرات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعود هي وترفض.

- تستطيعين بعد بعض الوقت أن تعودي وتعملي. وعندها سنُعَيّن لك ثلاث أو أربع جهات اتصال. كي تُديريهم. وسيكون كلّ شيء كما في السابق.

تفقد إليزابيث رباطة جأشها وتتأفّف.

- سئمت من لعبةِ الاختباء - تطلق فُواقاً.

- ممتاز، ممتاز. قد نستطيع أن نؤمّن لك عملاً في مدرسة روسية في واشنطن.

سيّان عند إليزابيث أن تظهر جثّتها بعد بضعة أيّامٍ في مجرى الصرف، فاليوم لن تسمح بأن تُهزم. لا يا سيّد.

- أريد أن أستمرّ في الشركة.

- هذا خارج النقاش - يرعدُ أل.

- كلّ الروس أولاد عاهرة - تزمجر إليزابيث فتخاف هي نفسها من كلماتها - وأنت لستَ الاستثناء، تريد أن تستخدمني كما لو أنّني دُمية، كما لو أنّه لا قيمة لي، لكنّكم لن تنجحوا. أنا مواطنة أمريكية ولن أسمح بأن يتلاعب بي تافهٌ مثلك تفوح منه نتانة الفودكا.

يطلب منها أل أن تخفّض صوتها فكون المرأة سكرانة لا يجعلها أقل خطراً. الآن سيكون عليه أن يُعْلِم موسكو بسلوكها.

- أنتم فقط يهمّكم ما يحدث في روسياكم البائسة - هي إعصار - حذّرني ياشا. هو أيضاً لم يكن سعيداً معكم. لا أدري ماذا كان

سيفعل لو لم يمت. هِلِّر طلب منّي أن أتعاون معه وأنا لم أقرّر بعد ما سأفعل...

ـ يجب ألا نصل إلى هذا ـ يُلطِّف ألْ صوتَه.

ما إن تصبح إليزابيث لوحدها حتى تستعيد وقارها ورزانتها. كيف حدث وهدّدَتْهُ. ترتجف ساقاها ويتعرّق ظهرها. والآن، ماذا ستفعل؟ هل تأخذُ قطاراً إلى نهاية العالم؟ تعود إلى غرفتها مترنّحة، تتقيّأ في الحمّام وتستسلم للنوم دون أن تخلع ثيابها.

صورة إليزابيث بنتلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بينما هي في طريقها إلى مؤسّسة الولايات المتحدة للخدمة والشحن تصطدم بخبر رهيب في الصفحات الأولى من الصحف الصباحية، لويس بودنز، رئيس تحرير ديلي وركر حتى تلك اللحظة ـ والعميل المُقنّع مثلها ـ ترك الشيوعية وتحول إلى العقيدة الكاثوليكية. الشقيّ يعرف من تكون هي وماذا كان دورها خلال السنوات الأخيرة، إذا كان يتعاون مع مكتب التحقيق الفيدرالي سرعان ما ستجد نفسها خلف القضبان.

تذهب إليزابيث يوم ١٦ تشرين الأوّل إلى موعد لها مع الشرطيّ الخاص ألدريتش كي تؤكّد على شكواها ضد هِلّر. وبدل أن تنسلّ إلى بناء مكتب التحقيق الفيدرالي في نيو هافن. تأخذ المترو في طريقها إلى مول كورت فيدرال الهائل في مانهاتن. تصعد الدرج بكلّ سرعة وتمثل في مكتب ألدريتش لاهثة.

تُناقض إليزابيث في تصريحها الجديد كلّ ما صرّحت به أمام الشرطيّ كودي.

- بيتر رجل بلا أيّ رادع. أشكّ بأن يكون عميلاً روسياً. أمرني أن ألزم الصمت وألاّ أكشف عمّا أعرفه من خلال عملي في الولايات المتحدة للخدمة والشحن، أيها الضابط ألدريتش، لا أشعر أنني في أمان. أحتاج للحماية.

الضابط الخاص، ابن الستين يكاد يضحك، ليس عنده صبر سلفِهِ.

- بفضل عملي، أيّها الشرطيّ ألدريتش ـ تتابع إليزابيث ـ سنحت لي الفرصة لأن أعرف العشرات من الشيوعيين الروس والأمريكان. ونسجت علاقاتٍ مع أشخاص ممن أشّك، بلى، أيّها الشرطيّ ألدريتش، ممن أشكّ بأنّهم يعملون مع السوفييت.

ـ صحيح؟ هل تستطيعين أن تقولي لي بعضَ الأسماء، يا آنسة بنتلي؟ ـ يسأل هو غير مصدِّق.

تُقلّب هي خياراتها. لا تفكّر بأن تخون أحداً. ليس بعد.

ـ إيرل وليام برودير وجاكوب غولوز.

آل بروديز قادة تاريخيون في الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة. حتى ضابط على وشك أن يتقاعد يعرف من يكونون. لكنّها عندما ذكرت ياشا، عشيقها السابق، وزوجها المتوفّى، اعتبرت إليزابيث أنّها تخطّت حدود الرجعة.

ـ وكذلك لويس بودنز ـ تُضيفُ كاشفةً عن ورقة الأس التي تخبئها في كمّها ـ لكنّني لا أعرف لماذا أحكي لك هذا، أيّها الشرطيّ ألدريتش، لأنّني واثقة من أنّك على معرفة بكلّ شيء. أعرف جيّداً أن مكتب التحقيق الفيدرالي يلاحقني منذ ١٩٤١.

يقتنع ألدريتش بأنّها معتوهة، فاسم إليزابيث بنتلي لا يرد في أيّ إضبارة من أضابير مكتب التحقيقات الفيدرالي.

ـ هل لديك أيّ دليل، يا آنسة بنتلي؟

ـ أخشى أن لا يكون لديّ.

يؤكّد لها ألدريتش أنّه سيقوم بالإجراءات المتعلقة بشكواها ويعدها بأن يتصل بها في أقصر وقت. الحقيقة أنّ لديه خططاً أخرى، أن يتقاعد ويغادر عمل المجانين هذا إلى الأبد.

قبل قليل من تسليم ألدريتش لوحته بقليل وجد أخيراً لحظةً كي يكتب تقريره. يتصلُ قبل أن يرسلَهُ مع الشرطيّ الخاص إدوارد بوكلي، المسؤول الجديد عن القضية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ إذا لم تكن هذه المرأة مجنونة ـ ينبهه ـ ربّما يمكن أن تصبح مخبرة جيّدة.

يَخرج ألدريتش، يَدخل بوكلي: وهو رجل ضخم يملك صبراً وفطنة يفتقر إليها سابقوه. لم يتوقّف منذ أن استلم الملفّ عن دقّ رقم إليزابيث. ترفض مذعورة أن تردّ، إلى أن جعلها حادث أخير تغيّر رأيها: الآن هم لا يضايقونها ويُهدّدونها وحسب بل يريدون أن يستنزفوها.

بعد فحص سجلات مؤسّسة الولايات المتحدة للخدمة والشحن، اكتشفوا نقصاً قدره خمسة عشر ألف دولار ويريدون منها أن تعيدها. جنون! إليزابيث لا تملك هذا المبلغ، هي لم تقم بأية عملية مُريبة، هذه مناورة أخرى كي يحاصروها.. أمام هذه العجرفة هم لا يتردّدون في أن يجعلوها ترى هذه المرّة دون مواربة أنّ حياتها مُعَلّقة بخيط.

يوم السادس من تشرين الثاني يعود الهاتف ليرنّ في غرفة إليزابيث. ترفع السماعة. يطلب منها الشرطيّ بوكلي بعد أن استمع إلى حججها نصفَ ساعة أن تجتمع به في محطة مترو فولي سكوار في الرابعة والنصف؛ عليها هي أن ترتدي سترة سوداء وتحمل نسخة من التايم تحت إبطها. أخيراً هناك من أخذ موضوعها بجدّية! تتبع إليزابيث التعليمات ويقودها بوكلي عبر متاهةٍ من الأدراج والمصاعدِ حتى مكتبه في الطابق الثالث من بناء مكتب التحقيق الفيدرالي.

في الثامن من تشرين الثاني يُرسل مكتبُ التحقيق الفدرالي تلكساً مستعجلاً إلى ج. إدغار هوفر في واشنطن:

إلى المدير، عاجل. الموضوع: إليزابيث تِرّيل بنتلي. في السابع من تشرين الثاني من عام ألف وتسعمئة وخمسة وأربعين ذهبت المذكورة طواعية إلى قسم ريف نيويورك حيث يه (هي) (كذا) قدّمت معلومة

متعلّقة بحلقة تجسُّسٍ روسية كانت تنتمي إليها وهي تعمل الآن في باريس.

تحكي إليزابيث أمام الشرطيّ الخاص ورفيقه دون جاردين، إن لم يكن كلّ القصّة ـ كلاعبة بوكر جيدة تحتفظ بعددٍ من المفاجآت للمستقبل ـ، فعلى الأقل جزءاً جيّداً منها. استطال إقرارُها ثماني ساعات وملأت تقريراً من ثلاثين صفحة. منذ ذلك الوقت وهي تحضر يوميّاً إلى المكتب ذاته يحرسها شرطي سرّي رابط الجأش، بلباس ابن البلد، إلى أن أكملت تصريحاً بلغ مائة وسبع ورقات. لا تُوفِّر إليزابيث أسماء من التقت بهم على امتداد سنوات عملها كجاسوسة. بالإضافة إلى اتصالاتها المباشرة، الذين لا تعرفهم إلا بلقبهم ـ أل أو بيل ـ، تذكر بين كثيرين سيلفرماستر وسيلفرمان وغلاسّر، أولمان، كورّي، ووايت. ثمانون جاسوساً سوفييتيّاً مزروعون في أعلى درجات الحكومة.

طقطوقة ويتكر تشامبِرز

متى بدأ يشكّ؟ أم أنّه دائماً شكَّ وحاول أن يخُرس شكوكه وينوّم ضميره؟ إذا كان هناك شيء لا يمكن توضيحه هو كيف بقي كلَّ ذلك الوقت بينهم، كيف لم يبخس التنافر والتناقض حقّهما، وأصرّ على التصديق دون تبصّر. كان هناك عشرات المؤشرات، الأشياء اللافتة للانتباه، والتحذيرات والألغاز والولاء المثبتة وإدانات المنشقين والاعترافات المشينة وعبادة الشخص، لكنّه لم يعرفْ أو لم يبغِ أن يراها. اليوم وقد خلّفَ ويتكر تشامبِرز وراءَه ذلك الكمّ من التصنّع والأكاذيب، ما زال يتعذّب. يعرف أنّ أخطر ما في الشيوعيّة هو قدرتها على الإغواء، ثرثراتها حول المساواة والعدالة، تلك الخطب الثورية التي تشدّ إليها أنبل الأنفس وأبسطها، أو من يشعرون ـ مثله ـ بأنفسهم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مُشْبَعين بالإنسانية والمغامرة ويقنعونهم بتغيير العالم بالقوّة ويسجدون لعقائد عدد قليل. فقط بعد أن غرق في مستنقع الماركسية، فقط بعد أن استمال أصدقاءه سجن نفسه في تلك القناعات المُشوّشة، فقط بعد أن عبر هذا المطهرَ الإيديولوجي، نجح في أن يضع نفسه في جانب النور. اليوم لا يشكّ بأنّ الشرّ يتحصّن هناك، الشرُّ المّطلق، أسوأ الأخطار على أمريكا.

لا ينفي تشامبِرز مسؤوليته في المناورة، هو نفسه كان جزءاً من الخطّة، ممثلاً ثانويّاً، لكنّه بارز، حلقة لا غنى عنها ساعةَ تحاك تلك المؤامرة الواسعة ضدّ الديمقراطية والحكومة. من المحال محو هذا الماضي. حتى ولو حاول أن يُنظّف اسمَهُ ويتخلّص من الخراء، أن يكون مخلصاً لمبادئه الجديدة وأخلاقه الجديدة، إلا أنّه كان مجرماً وما من شيء سيُلغي بضربة واحدة جرائمه. في حال مثل أمام لجنة تحكيم، فإنّ متهميه لن يتردّدوا في أن يرموه بها في وجهه. يريحه الاعتقاد بأنّه إذا ما أصرّ على أن يكون حكيماً، فالسبب ليس فقط الذعر؛ إذا كان قد خان وطنه، فهو لا يريد أن يخون أيضاً رفاقه القدامى، رفاق أسفاره البريئين. لا شكّ أنّهم مخطئون وسيعمل المستحيل كي يُبرهن على مُغالطاتهم، لكنّه ليس مستعدّاً لأن يلاحقوه ويسجنوه، يُفضّل أن يدفع هو نفسه النتائج، أن يُواجِه الإدانة المُتوَقّعة نتيجة صمته.

إذا كان الندم لا يكفي، فإنّ مصير أستير والصغار يقلقه. إذا كان قد خطّطَ بكثير من الحذرِ لهروبه من الشيوعيّة، إذا كان قد تخفّى لأسابيع في المزرعة وكان مستعدّاً لأن يعاني من البرد والجوع والبؤس، إذا كان القطع مع الجهاز السرّيّ لم يكد يُحس به حتى عثر على وظيفة قادرة على حمايته بفضل ظهور هنري لوس ـ، فذلك كيلا يعرِّضهم للانتقام ولا للعار، كيلا يوسّخهم بوحله.

كان إعلان معاهدة عدم الاعتداء الألمانية ـ السوفييتية أمرَّ تأكيدٍ لأفكاره. لقد كشف ستالين أخيراً عن تشوّه طبيعته، سامحاً لهتلر أن يستولي على بولونيا مقابل قطعة من الحلوى. أهذا هو أبو الشعوب؟ حامي المستضعفين؟ المرشد الذي سيقود العمالَ نحو مستقبل مشرق؟ دجّال! مستبدّ! لا يريحه أن يكون على صواب، فاحتمالات أن يخرج الدكتاتوريان بما يريدان هي الآن أقرب من أي وقت مضى. على أمريكا أن تكون مستنفرة، مستنفرة جدّاً.

ـ الخطر ليس فقط على البلد، بل عليكَ نفسك ـ يحذّره دون ـ ما إن يتبادل الروس المعلومات مع حلفائهما الجدد، حتى يعرف النازيون بحلقةِ التجسّس التي أنتَ نفسك تُساهِمُ فيها. تصوّر لو كشفوا عنها للعلن. يمكن أن تنتهي إلى السجن.

لا يُنكِرُ تشامبرز قلقَهُ، يُعاني من تسرّعٍ في القلب وتحوّلَ جسدُهُ إلى كتلة خامِدة.

سوف أبحث لكَ عن لقاءٍ مع روزفلت ـ يصّرّ صديقُهُ ـ عليك أن تحكي له ما تعرف، ربّما استطاع أن يمنحك نوعاً من الحصانة.

ربّما كان إسحاق دون لفين، الذي التقى به تشامبِرز، الشخصَ المعادي للشيوعية الأكثر صفراوية، يعرف نصفَ العالم في واشنطن، وهو صديق شخصيّ لسكرتير الرئيس. يزور دون صديقَه في العاصمة، ملتزماً بشرف كلمته، وينجحُ في جعله يهتمّ بالموضوع. لكن الأسابيعَ تمرُّ ولا شيء يحدث.

يستمرّ تشامبرز بكتابة مقالاته للتايم ـ طلبات لوس هي في كلّ مرّة أكثر لفتاً للانتباه وعاد هو ليقيس نبض الصحافة ـ إلى أن أعلن له صديقه دون، ذات مساء، أنّ الرئيس ونظراً للحالة الطارئة التي تسبّبت بها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المعاهدة، لا يستطيع أن يستقبله، وسيستقبله بدلاً عنه نائب وزير الخارجيّة، أدولف بريل، وهو رجل مستقيم، يثق به كلَّ الثقة. ومع أنّ تشامبِرز كان يُفضّل أن يُقابلَ الرئيس، إلاّ أنّ لقاء بريل لا يُزعجه. كراهيته للحمر معروفة جيّداً.

في الطريق إلى واشنطن يستمرُّ تشامبِرز في عذابه. ومع أنّه يَكره أن يصبح واشياً إلاّ أنّ الخطر الذي يُمثّله التجسّس السوفييتي على بلده لا يترك له مخرجاً آخر: البارحة تقريباً عبرت قوات هتلر الحدودَ البولونية وطائرات اللوفتواف لم تتوقّف عن قصف المدن الرئيسية في البلد السلافي. يأخذ تشامبِرز بأصابع متعرّقة، هي في كلّ يوم أشبه بالنقانق، قبضةً من الفستق ويحملها إلى فمه: على الرغم من أنّ الطبيب منعه من الدهون وهيدرات الكربون إلاّ أنّه غير قادر على التحكّم بنفسه. يرمي، بعد أن بُشم، بالكيس الفارغ في سلة القمامة وينزل إلى الرصيف.

قام قبل موعده بمشوار في المول: لم يبدُ له البيتُ الأبيض قط بمثل ذلك الإشراق. إذا كان قد مثّل له في الماضي رمزَ الإمبريالية، فإنّه اليوم يتأمّله بنوع من الورع. في بهو هاي أدامز يستقبله دون معانقاً ويأخذ كلّ منهما سيارة أجرة في الطريق إلى بيت بِريل في وودلي أوكس على بعد خطوات من الكاتدرائية الوطنية.

يستقبلهما بِريل في الثامنة تماماً؛ تحيط بعينيه بقعتان أرجوانيتان، ؛ منذ إعلان المعاهدة الألمانية ـ السوفييتية لم يكد ينام ساعتين أو ثلاث ساعات يومياً. تدعوهم زوجته بياتريث، لتناول المقبلات وتقودهم بعدها إلى قاعة الطعام الهائلة، ذات الطراز الفرنسي. يتركز الحديث حول اقتراب الحرب، وقاحة هتلر وحماقة ستالين، الدور الذي على أمريكا أن تلعبه في الصراع. بينما ينهمكُ دون وبريل في حديث حام وحماسي ـ هل علينا أن نكون مُحكّمينَ أم مُشاركين؟ ـ، يلتهم تشامبرزَ

لحمَ الأيل دون أن ينبس ببنت شفه. بعد نفاد حلوى البودين قادتهم السيّدة بريل إلى الظلّة التي تتصدّر الحديقة الخلفية الواسعة (سَكَنَ البيتَ الكبير في الماضي رئيسان) وتنسحبُ إلى غرفها. يرفض تشامبرز القهوة التي يُقدّمها له خادم ويطلب وسكي مع الصودا.

- كما سبق وحكيتُ لك، يا أدولف - يكسر دون الجليد - انتمى ويت إلى مجموعة مناصرة للشيوعية انتهى بالابتعاد عنها. في هذا الظرف يحتاج أن يشاركَه الرئيس، من خلالك، معلوماتٍ لا أستطيع إلا أن أعتبرها عاجلة وخاصّة.

في الرابعة والأربعين من عمره، بريل يبدو في الستين. لقد أحدث الضغط خراباً في نضارة جلده.

- تستطيع الولايات المتحدة أن تدخل الحرب في أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة، يا سادة - يتأسّف. يجب أن تكون جميع إدارات الحكومة نظيفةً تماماً.

بالكاد حرّر الكحول تشامبرز من قلقه؛ الآن وهو يريد أن يتكلّم يختنق. يتلعثم ويهبط خيطٌ مزعج من العرق على ظهره. يعرف أنّ عليه أن يذهب إلى الجوهر، لكنّه لا يتفادى الإسهاب حول الطبيعة الخبيثة للشيوعية، الأخطار التي تحملها للروح، بنية الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة، المجموعات السرّية، التي نشأت في الظل (يذكر اختزالات غير مفهومة) ومختلف التنظيمات الجاسوسية السوفييتية الموجودة في البلد.

على الرغم من الرواية الملتوية يتمكّن بريل بالجمع ين القطع ويلمحُ حجمَ التهديد. الأسماء التي يفرطها تشامبرز أمامه ليست غريبة عليه. الأخوان ألجير ودونالد هيس ولورانس دوغان، من وزارة الخارجية،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المساعد الخاصّ للرئيس لوكلين كوري، أو الدبلوماسي الرفيع نويل فيلد، الموجود الآن في عصبة الأمم. ذكر تشامبِرز أيضاً مجموعة متسربة إلى وزارة الدفاع وأخرى إلى وزارة الخزانة وإن لم ينطق بكنى محدّدة بعد.

بعد ساعتين من الدردشة، يقود بريل ضيفيه إلى المكتبة، حيث بقي يسجل ملاحظات حتى منتصف الليل.

ـ لا تنتظرا نتائج فورية ـ وضّح لِلفين وتشامبرز بينما كان يُرافقهما إلى المخرج. ـ القضيّة حساسة ويجب الحافظ عليها في سريّة مطلقة.

في الطريق إلى هاي أدامز لم يكن تشامبرز واثقاً من أنّ بريل صدّقه، أو أنّه صدّقه تصديقاً كاملاً. موهبته في الحكم على الأشخاص ـ واحدة من المهارات الرئيسية لأيّ جاسوس محترم ـ لا تُخطئ فنائب الوزير يُفكّر أنَّ اللوحة التي رسمها كاتب العمود في التايم لا بدّ أنّها تحتوي على جرعة جيّدة من الحقيقة، وإن أبى أن يُصَدّق أنّ كلّ أولئك الرجال، بعضهم من أذكى وأكثر الموظفين دأباً بين أبناء جيلهم، ينتمون إلى شبكة تجسّس روسيّة.

من جهته حرص كاتب العمود على عدم الكشف عن أنّه يملك براهين مثبتة تسمح بإدانة الخونة. لم يبغِ حتى أن يذكرها، أوّلا لأنّه ليس مستعدّاً لأن يُتَّهم رفاقه القدامى بالإجرام ـ الشيء الوحيد الذي يبحث عنه هو أن يُبْعَدوا عن مناصبهم ـ ثانياً لأنّ تلك الوثائق، التي تحرسها أمّه في بروكلين تشكّل الورقة الوحيدة التي يستطيع أن يتفاوض عليها في حال اشتُبِه به.

ويتكر تشامبِرز

تشامبرز لا يُخطئ، فزمن الشكاوى العلنية لم يصل بعد. تُحافظ الولايات المتحدة خلال السنوات الأولى من الحرب على حيادٍ صعبٍ وعند الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي ينتقل هذا ليصبح قوّة صديقة؛ لا أحد تهمّه ملاحقةُ أو محاكمةُ شبكة جواسيس روس. تشامبرز الواعي لخسارته المعركة يُرَكّز صراعه على جبهة أخرى: مقالاته في التايم. تستنفدُ ريشته القاطعة في كلّ مرّة أكثر طاقتَها في جلد الشيوعية والديمقراطيين الذين يتعاطفون معها أو يُدافعون عنها. لم يحن الوقت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حتى آذار ١٩٤٥ حين بدا أن مجرى الحرب مؤمّنٌ وأنَّ الاستياء بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي يزداد حدَّة كي يتلقى تشامبرز مكالمة من ريموند مورفي، وهو ضابط من وزارة الخارجية يُحقّق في شكاوى التجسّس.

صار تشامبرز مشهوراً ككاتب مقالٍ أنيق وسامٍ، صعد إلى قمة التايم، تبناه لوس كرجلٍ موثوق وعانى من نوبة قلبية أخبرته على التخلّي عن إيقاع تلك الحياة التي لا تنضب. يُسافر مورفي إلى بيته الريفي في ويستمينستر، حيث يستقبله تشامبرز في حالة مؤسفة، على الرغم من أنّه لا يتوقّف عن تدخين السيجارة بعد الأخرى، يُحرّر مورفي مُذكّرة لا تلبث أن تدور في أكثر الدوائر السياسية اختلافاً في واشنطون.

بينما تتحوّل الحربُ الباردة إلى مواجهة حتمية يحصلُ الجمهوريون في عام ١٩٤٦ على الأغلبية في الكونغرس وعلى الفور يتّهِمون الديمقراطيين، بمن فيهم ترومان، بحمايةِ مناصري الشيوعيين الذين يعملون في الحكومة. يتحوّل الخطرُ الشيوعيُّ إلى قضيّةٍ يومية. عندما شعرَ ترومان بأنّه محاصرٌ أخرجَ من كمّه قوانين ثقة جديدة بالنسبة إلى الموظفين العامّين وأعطى إرشاداتِهِ لوزير الخارجية، جيمس فرانسيس. بيرنز، كي يتخلّص من كلّ الموظّفين المريبين. إنّ انتخاب ج. بارنيل توماس، وهو جمهوريّ شرس وقوي، كرئيس للجنة النشاطات المعادية لأمريكا، يتحوّل طلقة الانطلاق إلى عصر الملاحقة والشك الذي سيبقى يُرمز لها لاحقاً بزمجرات السناتور جوزيف مكارثي.

في هذا الجوّ الجديد توقظ مُذكّرة مورفي اهتماماً مفاجئاً، بين الممثلين الشعبيين كما في إدارة ترومان. يُقابل تشامبرز بين عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧ مورفي في مناسبات عدّة، وكذلك ضباط في مكتب التحقيقات

الفيدرالي ومن لجنة الولاء المدفوعة من قبل الرئيس. في كلّ الحالات يؤكّد على اتهاماته، على الرغم من أنّه يرفضُ القيام بشكاوى خاصّة. يُنكر بناء على سؤال صريح من مكتب التحقيقات الفيدرالي أنه شكّل جزءاً من أيّ شبكة تجسّس ويُصرّح بأنه ليس لديه أدلّة حول علاقات الأشخاص، الذين سبق ووشى بهم، مع الرس.

لماذا هذه الرغبة الملحة؟ قرّر تشامبِرز أنّ حملته ليست ضدّ أشخاص بعينهم بل ضدَّ الشيوعية كقوّة مُدَمِّرة. هو لا يتطلع إلى تدمير أحدٍ، إذا كان قد تكلّم مع بريل فذلك لأنّه ظنَّ وقتها أنّ التجسس السوفييتي كان يُمثّل خطراً حقيقيّاً على البلد. الآن وقد انتهى الصراع فإنّه يُفضّل أن يُركّز على مقالاته بدل أن يتورَّط في تحقيقات لجنة النشاطات المعادية للولايات المتحدة. وهكذا عندما أصبح التهديد الأحمرُ مسألة رئيسية في الحياة الأمريكية لم يعد يهمُّ تشامبرز غير أن يُفكّك الأفكار العكرة التي تقوم عليها الماركسية.

فات الأوان كثيراً

جنون المعاداة للشيوعية العصابي الذي ساهم هو في إطلاق عنانه ينتشر يمنة ويسرة ويبدو أنّ السياسيين والصحفيين لا همَّ لهم سوى الكشف عن الجواسيس.

في العشرين من تموز ١٩٤٨ انفجرت القنبلة عندما نشرت الورلد تلغرام أنَّ «شقراء حسناء» شيوعية قديمة كشفت لمكتب التحقيق الفيدرالي أسماء شبكة عملاقة مزروعة في الحكومة.«ملكة الجواسيس الحمر» ليست كما نعرف لا الشقراء ولا الحسناء، بل البدينة إليزابيث بنتلي. في الثالث عشر من تموز تشهد هذه أمام لجنة النشاطات المعادية للولايات المتحدة وتُكرّر اللائحة الطويلة من الأسماء التي بدأت تتلوها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمام الشرطيين الخاصّين بوكلي وجارين في البناء الفيدرالي في نيويورك. عندما يقع تشامبرز على تصريحات الآنسة بنتلي في الصحافة يُدرك أنه لم يعد باستطاعته أن يبقى صامتاً.

في الأوّل من آب ١٩٤٨، صرّح رئيس التحقيقات في لجنة النشاطات المعادية للولايات المتحدة أمام الصحافة بأن تصريحات الآنسة بنتلي يُؤَكّدُها شاهدٌ جديد، وصدر أمرٌ بالمثول أُرسل إلى السيد ويتكر تشامبرز، كاتب عمود في التايم وشيوعي سابق. كرةُ الثلج التي دحرجها هو نفسه، قبل تسع سنوات حين ذهب ليتناول في العشاء لحمَ أيل في منزل نائب وزير الخارجية أدولف بريل، أدركتْهُ أخيراً.

نهاية. ١

لماذا كذبت عليَّ؟ ـ انتهرتُ جوديت في خلوتها الاستوائية الكريهة.

بدتْ لي في ذلك المساء استفزازيةً ومعاندة أكثرَ من المعتاد. كانت ترتدي فستاناً أخضر مريعاً وجوربين صوفيين. غرزت أمّي عينيها البرّاقتين، المشعشعتين شبه الذائبتين بين تجاعيد أجفانها، في عينيَّ. يا لِتِلكَ النظرة. ثمّ ضحكت. لم تكن ابتسامة من ابتساماتها الخبيثة والماكرة، بل قهقهة ضارية، شبه حيوانية. ثمّ وبعد أن هدّأها السعالُ والنحنحةُ كرّرتْ عليّ هذه لمرّة أنَّ كلّ واحد يملك الحقيقة التي يستحقّها ـ مسرحية المساء الآخر المملة ـ ولم تُحاول حتى أن تُبرّر ذلك، صفّت حنجرتها وأطلقت زفرة تكاد تُؤثّر.

ـ ماذا تريدني أن أقول لك؟ ـ همست ـ أنّ والدك اتُهِمَ قبل وفاته بأنَّهُ جاسوسٌ شيوعيّ. ألا تلاحظ كم وقعه سخيفاً؟

كانت تحمل على كاهلها روايات جون لو كاريه أكثر من اللازم

وأكثر من اللازم من الروايات المقلدة لها وأكثر من اللازم من أفلام التشويق وأكثر من اللازم من المسلسلات حول العملاء المندسّين، ـ كيلا أتكلّم عن مسلسلات المحاكاة الساخرة على طريقة جيت سمارت ـ، كيلا تبدو حبكة بهذا الشكل غير محتملة بل فقط مقلقة. لكن ليس هذا هو سبب صمتها. في الستينيات والسبعينيات كان ما يزال الخطر الأحمرُ يبدو ناشطاً وإذا كانت المكارثية قد سقطت في العار فإنَّ النشاطات السريّة للكي جي بي والمخابرات المركزية الأمريكية تابعت انتشارها على طول الكوكب. وبالمختصر المفيد اتُّهِمَ نُوَا بالتجسس ووحده موته الطارئ، الذي لم يعد يبدو لي طارئاً إلى هذا الحد، أنقذه من الذهاب إلى المحاكمة وربّما إلى السجن أيضاً.

ـ قولي لي شيئاً واحداً فقط ـ تحدَّيْتُها ـ هل كان طارئاً

ـ الحمامة.

ـ كيف عرفتِ؟ هو كان وحده، لم يرَهُ أحد يتعثّر.

ـ يا إلهي، يا ولدي ـ أجابتني كما حين كنت أحلّ خطأً مسائل التقسيم في المدرسة ـ، إنّه ذلك الفرخ التافه.

كذبة أخرى.

ـ على الرغم من خفر نوَا إلا أنّه كان شجاعاً مُجرّباً، مُهتمّاً دائماً بالقضايا الاجتماعية. هل التقى في ذلك العهد بشيوعيين؟ لا شك. هل كان هو شيوعيّاً؟ أشكّ بذلك. هل عمل لصالح الروس؟ بالطبع لا.

ـ هل تعرفين هذا أيضاً؟

ـ لا أحد عرفه مثلي ـ حملت يديها إلى صدرها ـ فقط كان يشغله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عمله في وزارة الخزانة، كان مقتنعاً بأنّه يساهم في خلقِ عالمٍ أفضل. والمسكين أخطأ كما في كلّ شيء.

ـ لماذا لم تحكي لي شيئاً من هذا قط؟

ـ ترمّلتُ حتى قبل أن تُولدَ ـ شدّدت باعتزاز ـ كان زوجي قد اتُّهِمَ بأنّه شيوعي، أسوأ مسبّة يمكن أن ينالها أحد آنذاك. هل تعتقد أنّني كنتُ أُريد أن أتذكّر هذا؟ أن أعودَ لأعيشَ سنوات الخراء تلك؟ كنتُ أُريدُ أن أبدأ هذا الذي يُسميه وُعّاظ التلفزيون *بالحياة الجديدة*. معك، يا بُني، أو بالأصح لأجلك.

ـ تأمّلتُها هناك تحت شمس فلوريدا المخاتلة، بشرتها الجافة، جذور شعرها البيضاء التي تشي بالصباغ الكستنائي، لكنّني لم أقدر على أن أشعرَ بالحزن أو الشفقة على تلك المرأة.

ـ ألم يهمّك أبداً أن تعرفي مَنْ كان؟ ـ هززتها ـ. أن تعرفي من كان زوجك؟ أن تتحقّقي مما إذا كان يكذب عليك؟

سوّت جوديت فستانَها وقرعت الجرسَ كي تأتي الممرّضةُ لتأخذها. وجهها لم يكشف عن غضب ولا سأم بل ولا عن ضجر.

ـ وهل تعتقد أنت أنّك قادرٌ على أن تكتشف عمّن كان هو، يا بُنيّ؟

ـ كان صوتها واهناً جدّاً ـ أنّك أنت، فعلاً من سيكتشف من كان نُوَا فولبي! أنَّكَ أنت فعلاً من سيكتشف من كان مخلصاً له.

ترنحت حين نهضت عن الكرسي؛ ساعدتْها الممرضة على الاستواء. أمي بقيت تكذب مرّةً ثمّ أخرى ثمَّ أخرى، بعنادٍ حتى النهاية.

هل يمكن أن نعرف ما الطيور التي تسكن قلبنا؟ في قلب أمّي لا تعشّش حمائم بل غربان.

الفصل الثاني

الفرصةُ تصنعُ اللصَّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الأوّل
حول كيف تزور واشنطن ليلاً وتجرّ جثّةً في الوحل

آريا الجاسوس

حيث كان يجب أن ترتفع صورةُ القمر الشاحبة، لا يُميّز سوى فجوة هي بكآبة الأغصان التي تسوط الزجاج الأمامي. الانعكاسات الليلية ـ ارتجاف نور مصباح الشارع، الهالة الوردية لبيت في البعيد، وميض الضباب الفسفوري ـ لا تُخَفّفُ من إحساسِهِ بالتوغل في جحر. عند إمالة زاوية الرؤية لا شيء يتحسّنُ ورأسُ المسلّةِ الضبابي يبدو له وتداً مغروزاً في قلب المدينة. «هل أكيد أن أحداً لا يُلاحِقنا؟»، ودَّ لو يسأل جيم للمرة الألف، لكنّه كان يعرف أنّ الآخر سيواجهه بحركةٍ تهكّمية. يا له من غباء أن تدور في العاصمة برفقةِ هذا الأجنبيّ الأرْمَص!. على الرغم من أنّه هو من اقترح هذا النظام بعد أن تواعد مع جيم أمام ورشة ميكانيكية، الدرج إلى لنكولن، حمامات مكتبة الكونغرس، صباحية سينما بائسة، فقد ندم الآن. اعتقد أنّه بهذا يُخفف من توتّره، لكنّ الرجفة في ركبتيه والعرق في صدره لا يُفارقانه. لذلك يصرّ على أن يأخذه من أماكن دائماً مختلفة ويتركُهُ بعدَ نصف ساعة ـ ليس أكثر من ذلك أبداً ـ في زاويةٍ ليست مطروقةً كثيراً، أبعد ما يمكن عن وزارة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخزانة. لكن حتى هذا يُريحه. يأخذ طرقاً هي في كلّ مرّة أكثر تعقيداً، يلفُّ ويدور دورات مفاجئة. «أحيي كلّ هذا الاحتراس» لفت جيم انتباهه، «لكنّنا نستطيع تماماً أن نتناول فنجانَ قهوة لنخّفف من البرد اللعين».

التوقّف هو مفتاح للعبور دون لفت الانتباه، يُفَكّر خوريستا، ويرتعش حين يتذكّر المناسبة التي أوقفتهم فيها الشرطة. حين انتبه إلى زعيق الزمامير والوميض الأزرق والأحمر يصبغ المقود شعر بأنّه هالك، بينما بقي جيم رابط الجأش، بل ومنزعجاً من سائقِ الدراجة النارية الذي طلب منه أن يُنْزِلَ زجاجَ النافذة. «أحد الأضواءِ الخلفية لا يعمل، لا تتأخّر في إصلاحه» وبّخه. كان هذا كلّ شيء. قبل أن يعاود سيره أراد جيم أن يُلقّنه درساً: «أهمّ شيء هو الحفاظ على الهدوء». استشاط خوريستا غضباً. «سئمت من هذا اللعب»، أجابه ممتقعَ الوجه. طلب منه جيم، وقد خفض من استنفاره، الصبرَ، ففي النهاية لم يحدث شيء وذكّرَهُ بأولوية القضية.

القضيّة. السبب السرّي الذي لا يمكن التفوّه به يدفعه للقيام بهذه المشاوير الليلية ولتحرير تقاريره نصف الشهرية. السبب الذي لأجله يخضع لهذا القلق الجامح. القضيّة، بلى، إنّها القضيّة. محاربة النازية. البحث عن السلام العالمي والصداقة بين الشعوب. إعادة بناء المساواة والعدالة. القضيّة اللعينة التي توشك أن تفجّر قلبَهُ وتقضي على طمأنينته. من أجلّ أيّة شياطين عاد للتعاون مع الروس في الوقت الذي تجرّأ قبل سنوات على تركهم؟ إذا كان طبعه لا يسمح بالمُسَارّات والمكائد، فلماذا هو هنا من جديد مع جيم كمعاون له، على وشك أن يخرج الوثائق التي يخبئها في جيب سترته الداخلي؟ لماذا لم يلتزم بكلمته ـ أم أنّه انطوى على رعبه ـ ويرضى بخموله البرجوازي؟ لماذا لم تكفه أعمالُهُ

الرسمية ويتابع روتينه البيروقراطي؟ لأنّ خوريستا بالرغم من كلّ شيء ما زال يؤمن بالقضيّة.

يُميّز على يمينه ظلال المول فيزداد انزعاجه. «لِنَقُمْ بدورةٍ أخرى» يستعجله جيم. هو يحرف نظرته كيلا يرى جانب البيت الأبيض المُحتَضَر. حين يتوغّلان في منطقة فيها حدائق مُستَنْفَدة وبيوت بائسة سيئة الطلاء ـ حي زنوج، دون شكّ ـ، يبدأ جيم باستنطاقهِ ويسأله كيف أمضى أسبوعه. بكلمات أخرى: بماذا أتيتني. خوريستا يمقتُ دماثةَ الروسيّ. إذا كان عنده هناك، في سيّارته، على وشك أن يُسلّمه تقريراً آخر من تقاريره، فلأنّه يتطلّعُ لأن يكون منسجماً مع مبادئه، مع قناعاته التي ـ هكذا لا أحد يشكّ به ـ دافع عنها منذ شبابه. المرّة الأخيرة التي ترك فيها عمله السرّي لم يكن بسبب المعاهدةِ التي وقّعها الروس مع الألمان وحسب، بل لانعدام حساسية عملائهم. لا يستحق أن يُعامَلَ بهذه العجرفة، فهو واحد من أكثر الشخصيات احتراماً في الحكومة ويُقامِر بكلِّ شيء ـ كلّ شيء ـ عندما يتعاون مع السوفييت. أم يظنون أنّهم يستطيعون شراءه بسجادة فارسية بائسة. شيء مضحك. ببساطة هو يُخاطر لأنّه يريد.

«لم يكن أسبوعاً زاخراً بالنشاط تماماً»، يعترف هامساً. ويوجزُ، مُشْعِلاً سيجارة، حالةَ المباحثات مع البريطانيين، وضع الصين الصعب، احتقانات وزارة الخارجيّة أمام اليابانيين، معلومات في غالبيتها عامّة لكنّ جيم يخزنها ككشوف من الدرجة الأولى، لأنّها تتداخل هنا وهناك مع تحليلاتٍ هي إلى هذا الحدّ أو ذاك تافهة، ويتركُ خوريستا بعضَ اللآلئ تسقط، معلوماتٍ خاماً لا أحد غيره يعرفها، أرقاماً، ميزانيات ستُثير لعابَ رؤسائه في موسكو. يستمرّ الليلُ سلساً وضبابيّاً ويتشابك الاثنان متبادلين الرأي حول تطوّر الحرب. هذا الجزء هو أكثر ما يُمْتِعُ خوريستا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في لقاءاتهما، وحين يتحرّر من عقدة الذنب يستعيد مزاج الأستاذ وينطلق ليُحاضر في السياسة الاقتصاديّة. ويتساءل أحياناً عمّا إذا لا يُجازف فقط من أجل الوصول إلى اللحظة التي يُسمح له فيها بنشر مخزونه الواسع من الأفكار والآراء ويعطي درساً في السياسة الماليّة كما لو أنّه ينصح ستالين بعينه من خلال شخص وسيط. يعتبر نفسه مالكاً لحقيقةٍ عليا ولا يستمتع بشيء كما يستمتع بمشاركتها مع آخرين، مقتنعاً بأنّه بهذا يؤثّر في العلاقات التي سيحافظ عليها الأمريكيون والسوفييت عند انتهاء الصراع. مخلِّص؟ بالأحرى مُهدِّئ. وسيط. شخص قادر على المقامرة بسمعته شريطة أن يُصغى إليه على هذا الجانب وذاك من المحيط.

ينظرُ جيم إلى عينيه بِرِضىً. يُقدّرُ حماسَ خوريستا المفاجئ، ويلاحظ فيه برهاناً على التزامه. مثل كلّ الأفراد من طبقته يحتاج لأنّ يُصدّق أنّه لا بديل له كي يُبَرِّرَ كذبه واختلاساته. وقد أنّبوا جيم عدّة مرّات لأنّه يمنحه هامشاً من المناورة واسعاً للغاية ولأنّه لا يشدّ براغيه ويجبره على الحصول على معلومات أكثر حساسية، لكنّ الروسيَّ يعرف أنّه يجب أن يكون حذراً مع خوريستا، فبهذا الشكل فقط سيُحافظ على هدوئه وثقته كي يستمرّ في مهمّته. بعد كل حساب هو فعلاً، كما لا يكلّ من قوله، أحد أعمدة الجهاز.

بعد انتهاء دردشته المتقنة يسلّمُهُ خوريستا الأوراقَ التي كتبها بخطّ صغير ومتكسّر. جيم لم يلقِ حتى نظرة عليها ـ سيكون لديه متسع من الوقت كي يلتهمها في غرفتِهِ ـ يخبّئها في جيب بنطلونه كما لو كانت أوراقاً مالية مجعّدة. أين أتركك« سأله خوريستا. يعطيه جيم بعضَ الإشارات ويَلْزَمُ الاثنان الصمتَ خلال الجزء الأخير من الطريق. محاولين أن يتكهّنا من الذي فاز أكثر في التبادل في هذه الليلة.

مع اقتراب الوداع يعود خوريستا ليشعرَ بيديه مُتَعرّقتين. مرّة أخرى يشعرُ بنفسه فارغاً ومنهكاً، حنقاً. يعد نفسَهُ بأنّها ستكون المرّةَ الأخيرة وأنّه لن يستجيب بعد الآن إلى هذه المواعيد الكريهة. سيتجاهل مكالمات جيم وجماعته ويعترفُ من جديد أنّه غير قادر على أن يعيش من دون زوابع تهزّه في كلّ مرّة يركب فيها الروسيّ في سيارته وأنّه لا يستطيع أن يتخلّى عن فكرة أن يكون ذكاؤه محل تقدير في موسكو كما في واشنطن. عند وصوله إلى الزاوية المشار إليها ـ رأس المسلّة لا يكاد يشقُّ طريقه بين الضباب ـ يفتح جيم البابَ وينزل فوق الثلج المتسخ. لم يمد أحدهما يده للآخر. يستعدُّ خوريستا، بعد أن انتهت مهمّته، للعودة إلى البيت، إلى حضن زوجته، إلى ذلك النصف الآخر من حياته الذي طالما اشتاق إليه وطالما خجل منه.

ثنائي

ـ راوي هذه القصة الرائعة ـ وضّحت ليَ لِيْ ـ ليس غير هاري دكستر وايت، وكان وقتذاك قائماً بأعمال مساعد وزير الخزانة. أو على الأقل هذا ما تشير إليه اتهامات بنتلي وتشامبِرز.

ـ يبدو المشهد مُقتَطَفاً من *الرجل الثالث*[1] ـ تباهيتُ بسعة معرفتي ـ. *أتذكّر ظهورَ أورسون ويلز، فرس البحر الشموخ ذاك؟ الضباب الكثيف، المدينة الفارغة والمتوعّدة، العميل السوفييتي العدوانيّ الذي لا يرحم.*

ـ هكذا أراد الجمهوريون أن يرسموا وايت في السنوات اللاحقة على

---

(١) فيلم بريطاني (١٩٤٩) من أخراج كارول ريد وسيناريو غراهما غرين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

موته ـ أخذت لِيْ رشفة صغيرة جدّاً من كأسها واكتشفتُ أنّني أتأمّل شفتيها ـ. في انتخابات ١٩٤٢ سحق الجنرال إيزنهاور الديمقراطي أدلاي ستيفنسون وهنري ولاش مرشّحَ الحزب التقدّمي، ونائب الرئيس روزفلت سابقاً وصديق وايت القديم وعيّن نائباً له ريتشارد نيكسون بعينِهِ. لم يكن لجوِّ البلدِ أن يكون أكثر غرابة، فالتحالف القديم مع السوفييت قد حُلَّ، وتشرشل ألقى توّاً خطابه حول الستار الفولاذي، وكان مكارثي قد بدأ صيد الساحرات ومن لم يكن يرتعدُ أمام الخطر الأحمر كان يخاف أن يُتّهم بأنّه أحمر مُتَسَتّر...

ـ لم يُعْقَد اجتماعنا هذه المرّة في مكتبي أو في مقهى معقّم في ميدتاون، بل أمام زجاجة نبيذ سانسير وبعض المحار (لي) وصحن خس متعدّ الألوان (لها)، في مطعم فرنسيّ صغير في ماديسون لم يبدُ للوهلة الأولى المكان الأنسب لاجتماع عمل، فالصالون متوسط الإضاءة، ليس فيه غير ثماني أو تسع طاولات، جميعها عليها شموع صغيرة مشتعلة. بالإكراه هجرت لِي بنطلونات الجينز وكنزات القَبّة العالية كرقبة سلحفاة وظهرت في بلوزة سوداء يبدو أن فتحة صدرها كانت تضايقها. أرخت شعرها ـ الطويل جدّاً ـ وكانت تضع قرطين فضّيين ناعمين في أذنيها الصغيرتين. كنت أُسَرّ بطريقتها بالتظاهر بأن النبيذ بدأ يربط لسانها.

ـ على الرغم من أنّ الجمهوريين فازوا في الانتخابات الفيدرالية ـ وضّحت لي ـ فقد هزموا توّاً في ويسكونسن ونيوجرسي، والانتخابات الأولية في كاليفورنيا قريبة. لذلك بدأ أعضاء الحكومة يستخدمون كلَّ المنتديات كي يوجهوا ضرباتهم للديمقراطيين. في تشرين الثاني من عام ١٩٥٣، توجّه المحامي الجديد هربرت

برونيل إلى أعضاء نادي التنفيذيين في شيكاغو وانطلق بعد أن مدح مكتب التحقيقات الفيدرالي ليَتَّهِم إدارة ترومان برفضها العمل ضدّ العملاء الشيوعيين المندسين في الحكومة. وكمثل أعلى على إهمالها المعادي للوطن ذكر اسمَ هاري دكستر وايت.

فاجأتني العدوانية التي كانت لي تشير بها إلى الجمهوريين. ليست المسألة أنّني جمهوري ـ (في الحقيقة أحتقرهم تقريباً أكثر من الديمقراطيين) لكنّني منذُ أن غادرت بيت أمّي لم أتعايش مع أحد له مواقف ليبرالية واضحةِ مثلها. فكّرتُ أن هناك شيئاً ساحراً في الاحتقار الذي تكنّه لي للجبّارين واكتشفت على الفور أنّ يدي على يدها. بدل أن تسحبها تركتها هناك، باردة بلا حراك.

ـ كي يبدأ برونيل عدّدَ كلَّ المناصب التي شغلها وايت في وزارة الخزانة وصندوقِ النقد الدولي وأبْرَزَ مساهمتَهُ في اتفاقيات بريتون وودز ـ اكتفت لي برفع أحد حاجبيها لا مبالية بمداعباتي ـ. واتهمه بعدها بتسليم وثائق سرّية للروس كي ينقلها هؤلاء إلى موسكو، لكنّ الأسوأ من ذلك بحسب قوله كان أنّ الديمقراطيين كانوا يعرفون أنّه جاسوس شيوعيّ عندما سموه مديراً تنفيذيّاً لوفد الولاياتِ المتحدة إلى صندوق النقد الدولي.

ـ وبماذا أجاب ترومان؟

حاولت أن أصبّ لها مزيداً من النبيذ، لكنّها منعتني محرّرةً يدها من يدي وواضعة إياها على الزجاج.

ـ نعست ـ اعتذرتُ.

ـ يحدث هذا مع الكأس الأولى ـ ابتسمتُ ـ سترين إذا تناولت كأسين أو ثلاثاً سيكون التأثير عكسيّاً.

ابتسمتْ ولفتت نظري لأوّلِ مرّة أنيابُها التي لمصّاص دماء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- في ظهور له على التلفزيون أنكرَ الرئيس اتهامات برونيل - على الرغم من جهودها في أن تُحافظ على يقظتها إلاّ أنّ صوتها بدأ يشي بتغيراتها الناتجة عن الكحول ـ أكّد ترومان أنّه إذا كان صحيحاً أن وايت كان يخضع للتحقيق من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي فهذا يعني عملياً أنّه كان من المستحيل البرهان على التهم ضدّه، وأكّد أنّه إذا كان قد سمح بتسميته في صندوق النقد الدولي، فذلك لأنّ الأمر يتعلق بمنصبٍ أقلّ حساسيّة من منصب نائب وزير الخزانة.

اعتذرت لي مبتعدةً عن مخطوطها وتوجّهت إلى الحمّام (تصوّرتها ترشّ وجهَها بالماء كي تنتعش). وقلت للنادل دون أن أستشيرها إنّنا لن نتناول العقبةَ ولا القهوة وأن يأتينا بالحساب. عند عودتها عادت إلى روايتها بينما أنا آخذها من ذراعها نحو المخرج، حيث كان السائق ينتظرنا. لم تسألني ولا حتى إلى أين كنّا نتوجّه.

- في نهاية تشرين الثاني ١٩٥٣ مثل برونيل وهوفر أمام اللجنة الفرعية للأمن الداخلي في مجلس الشيوخ - كانت أضواء بارك أفينو تتسلّل عبر النوافذ الصغيرة كأنّها حَبْحاب ـ أكّد المُدّعي أنّ كلماته أسيئ تفسيرها وأنّه لم يبغِ قط أن يُلَمِّح إلى خيانة ترومان، لكنّه أصرَّ على أن نائب الرئيس رفض أن يُواجِهَ التسلُّلَ الشيوعي لاعتباره بأن الأمر يتعلّق بإلهاء. بعدها وفي لحظة الذروة من الجلسة أكّد هوفر أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي لم يَنصح قط بتسميةِ وايت في صندوق النقد الدولي كي يُتابع التحقيقات حوله وأنكر أن يكون قد أُعفي من العمل في وزارة الخزانة لأسباب أمنية، كما أكّد الرئيس. وختم قائلاً إنّه لم يكن عنده أدنى شك بأنّ وايت كان في خدمة السوفييت.

ـ كيف جاء ردُّ فعل إيزنهاور؟

ـ كان خائفاً من أن يُعرّض مؤسّسةَ الرئاسة للخطر. وعد بأنّ قضية الشيوعيين في الحكومة... يصدرُ فُوَاقاً... لن تتحوّلَ إلى موضوع مركزي في الانتخابات القادمة وقال إنّه لن يجيب على أي سؤالَ متعلّق بقضية وايت. لكن الدعوة إلى الانسجام دامت قليلاً... فُواق...استدعى أعضاء اللجنة الفرعية للأمن الداخلي في مجلسِ الشيوخ، المصّممين على انتزاع ملاحقةَ الشيوعيين من مكارثي، استدعوا المتواطئين الافتراضيين وايت، فرنك كوي، هارولد غلاسّر ونُوَا فولبي. استدعي للمثول أمامهم. استُدعي والدُك للمثول يومَ ٢٠ كانون الأوّل ١٩٥٣.

ـ قبل أسبوع من لقائه مع الفرخ ـ فاجأني انعدام العاطفة التي لفظت بها هذه الكلمات.

عندئذ كان وجهانا على بعد بضعة سنتيمترات عن بعضهما في المصعد الذي كان يقلّنا إلى شقّتي. ما إن دخلنا حتى خلعت لي نعليها واستوتْ في أحد كراسي الصالون الكبيرة؛ عرضتُ عليها كأس شمبانيا رفضتها بإيماءة قرف.

ـ الفقاعات لا تريحني.

ملأتُ، هازّاً كتفيَّ، قدحاً بالنبيذِ الأبيض

ـ ماذا كان من الممكن أن يحدث لوالدي لو لم يمُت؟ ـ جلستُ بجانبها ووضعت يدي على فخذها. مرّةً أخرى قبلتْ جرأتي بصمت، مذعنة أكثر مما هي مثارة.

ـ من الصعب الإجابة على هذا ـ تلعثمت ـ فمن ناحية كان الزوجان روزنبرغ قد أُرسلا إلى الكرسيّ الكهربائيّ ومن ناحية أخرى بدأ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد وفاة ستالين يتحقّق بعضُ الانفراج بين القوّتين العظميين. وشيئاً فشيئاً راحت المناوشات بين الجمهوريين والديمقراطيين تنتقل إلى مجالات أقل مأساوية من التجسّس... فُوَاق... وسرعان ما عاد ترومان ليصبح وطنيّاً. وانتهى مكارثي بأن فقد مصداقيته. وسقط برونيل في النسيان واختفى اسم وايت من العناوين الأولى ليتحوّل إلى ملاحظة في أسفل صفحاتِ كتب التاريخ، وإن لم يكن كمؤسّسٍ لصندوق النقد الدولي، بل كجاسوس شيوعيٍّ محتمل... فُواق... على الأقل حتى لم يعد ولاءُ أو خيانةُ مساعديه يهمّ أحداً...

ـ إلاّ نحن ـ ختمتُ.

قبل ثوان من لفظِ هذه الكلمات كانت قد بدأت تفكُّ أزرارَ بلوزتها. ثدياها الدقيقان يمكن أن يخلط بينهما وبين ثديي صبيّ.

المشهد الثاني
حول كيف حصل اقتصاديان على الحجر الفلسفي واقتصاديان لعبا دور البطولة في صراع القرن

استهلال

هل يمكن الحصول على المال من العدم؟

سيميائيو العصور الوسطى حاولوا أن يحوّلوا الرصاصَ إلى ذهب من خلال آليةِ تحويلٍ سرّية. ولكي يشرعوا بالعملية كانوا يستخدمون معدناً فيه شوائب، وهذا مبدأ أساسي ـ كبريتيد النحاس ـ الذي يُدركُ بعدَ أن يُنظّفَ ويُنقّى بالهاونات والأنابيق مرحلةً أعلى ويبدأ باللمعان. بخلاف أسلافهم رفض سيميائيونا الماليون الحديثون أيَّ مادة أوّلية وركّبوا بدل ذلك صيغاً أثيرية رياضية كي يثروا على هواهم.

للتوضيح ليس كلُّ العلماء سواسية. عندما يُجَرّب بيولوجي أو فيزيائي أو كيميائي فرضيته، فإنّه ينتظر نتيجةً، تعود بالفائدة على بقية البشريّة إضافة إلى أنها تمنحه الشهرة الأبديّة؛ بالمقابل عندما يثبت اقتصاديّ قوّة أفكاره، ببساطة يُحاول أن يجمع ثروة. هذه هي خرافة اثنين حاصلين على جائزة نوبل في الاقتصاد، قرّرا واثقَيْن من أنّهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشخصين الأذكى على الكوكب، أن يُطَبّقا نظريّاتهما على قيمة الأسهم وفعالية السوق... في السوق.

هدفهما؟ خلق ملايين الدولارات من الهواء

جوقة المستثمرين

ـ دائماً ربحنا عندما خسر آخرون ـ وجَّهني مديري الجديد قبل أن يضربَ الكرة الصغيرة ـ. هذه هي طبيعة صندوقنا وجوهر نجاحنا. علينا ألا نخاف الاضطرابات بل أن نعتصرها لصالحنا.

بالكاد فاجأتني خطبة جون ميريويذر. كنتُ قد انضممتُ إلى لونغ تيرم كابيتال منجمنت

حين كان في لحظة قلقة؛ بل وأكثر من ذلك، حُملت إلى هناك كي أُحاول أن أصلح الفترة السوداء (ستة أشهر من الخسارة بعد خمس سنوات من الأرباح التي لا تُصدّق. لا أنكر أن رؤيتي لِ ج. م. (كما كان يناديه أصدقاؤه) بكامل أناقته إلى جانب شركائه المُفَضّلين، وجميعهم على هواهم في ناديهم الهائل، نادي الغولف ـ أعترف بنفوري من الرياضات ـ، كانت تجعلني أشعر بأنني في غير مكاني. إذا كان فعلاً وجهه المحبّب والمستدير، الأيرلندي بامتياز، وابتسامته الخفيفة على فم خالٍ من الشفتين كان يدعو إلى الخلط بينه وبين كاهن كاثوليكي أو شرطيّ لطيف، المهنتين اللتين مارسهما في مراهقته، فإنّني لا أنسى أنّ ج. م. كان المؤسّس الأسطوري لمجموعة تحكيم سولومون براذرز ولا أنّه كان مدير صندوق التحوّط الأكثر حصرية على الكوكب[1].

---

(١) على الرغم من أنّ صناديق التحوّط انطلقت نحو عام ١٩٥٠ إلا أنّها لم تتحوّل إلى مؤسّسات مركزية في نظامنا المالي إلا منذ سنوات قريبة. بخلاف الصناديق المتبادلة، =

بحسب حكايةٍ طريفة رُدِّدَت حتى الإعياء في وول استريت، كان ج.م. مُدمن اللعب المرضي الذي لا يُضيع مناسبة للمراهنة في مباريات البيسبول وسباق الخيل والانتخابات المحليّة في فيرمونت ورود آيلاند وقد وصل به الأمر أن خسر في بعض المناسبات عشرة ملايين دولار في لعبة واحدة بالبوكر الكذّاب (تسليته المُفضّلة) لكنّ مزاجه الرياضي وولاءه للعذراء وشغفه بالحياة العائلية لا ينسجم مع الصورة المقامر الجاهل. لا شكّ كان قادراً على أن يربح أو يخسر بضعة ملايين في صباحِ واحد، لكنّه لم يكن يترك لنزواته أن تقودَه أبداً. منذ فترة وجودِه في سولومون كان يتبجّح بأنّه لا يتعاقد إلا مع *التجّار* الذين لا ينظرون إلى السوق على أنه مملكة للحظّ أو العبثية، بل كانضباط فكريّ صارم.

كان ج. م. من أوائل من انضمّ إلى الوسط المالي الوسخ، إلى الممسوخ القادمين من أعلى المراتب الأكاديمية، أشخاص هيّابون وشاردون، متوحّدون، ما كانوا ليحصلوا على فرصة للعمل لولاهم ـ والإثراء ـ في وول ستريت. معه شكّلوا فريق سولومون الشهير وكثيرون منهم استمرّوا بعد كارثته العابرة في نهاية الثمانينيات، وحتى اللونغ تيرم (بل وحتى حقل الغولف المبهر): إريك روزنفيلد المدرس القديم في مدرسة هارفارد للأعمال؛ فيكتور ج. هاغاني، اليهودي الإيرانيّ المربى في مدرسة لندن للاقتصاد؛ والذراع الأيمن لـ ج. م. لورنس هيليبراند،

=عملت دائناً في الظلّ فهي لا تحتاج لأن تُسجّل في لجنة الأوراق المالية والبورصات. إنّها نوع من نوادي الأثرياء، مكوّنة بحسب القانون فقط من ٩٩ مستثمر، بمشاركة بمليون دولار على الأقل أو خمسمئة ألف إذا كان كلّ واحد يستثمر خمسة ملايين دولار. تبقى محافظهم مخفية وهم مخوّلون بطلب قرض ما شاءوا من مال دون أيّ تقييد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي يحمل شهادتي دكتوراه من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، لكنّ نجاحه الأفضل كصياد عباقرة كان تعاقده مع اثنين سيفوزان بجائزة نوبل في المستقبل، روبرت س. مِرتون ـ ابن الاقتصادي الذي اخترع مصطلح نبوءات ذاتية التحقّق ـ ومايرون سكولز، هل هناك إستراتيجية أفضل لجذب رؤوس الأموال إلى صندوقه (بنكه) الجديد من أن يضم اثنين من أكثر مشاهير الاقتصاديين احتراماً على وجه الأرض؟ وهل من طريقة أفضل لعدم كفاءة السوق من إيواء من برهنا على كفاءتهما؟

ـ سأسرُّ إليك بأهمّ ما تعلّمته من الغولف ـ قال لي ج. م. مفاجئاً دون أن يتوقّف عند تلكؤ ضربته الأخيرة ـ الشيء الوحيد الذي يحتاجه المرء لتحويل الخسارة إلى ربح هو الوقت. هذا فقط. الوقت.

لو كان السوق تامّاً، كما كان يتصوّره جين فاما ورفاقه في شيكاغو، لكان من المحال الحصول على أرباح من عملية التجارة التافهة بالسندات، اختصاص ج.م.، إذ تبقى الأسعار ثابتة في لحظة واحدة، دون إمكانية للاختلال.. لكن وبما أنّ أسواقنا تميل فقط للكمال دون إدراكه ـ الشيء الذي برهن عنه مِرتون وسكولز ـ فإنّ الأسعار تتغيّر من سوق إلى أخرى. ومع الزمن يميل الهامش بين السندات الأكثر أو أقل مخاطرة، إلى التقارب، لكن من الممكن خلال ذلك استغلال الاختلاف والحصول على حصص هائلة. كان هذا هو تعريف التحكيم، على الأقل كما كان يطبّقه ج.م. إمكانية الإثراء بكلفة صفر؛ فقد كرّس نفسه لهذا في سولومون براذرز ولهذا يُكرّس نفسه الآن في لونغ تيرم كابيتال منجمنت.

يمتدُّ العشبُ، بلونه الأخضر، الذي يكاد يكون اصطناعياً، حتى الأفق تحت نور الظهيرة، تلك كانت مملكة ج.م. الحقيقيّة. بينما كان

يُفضّل في المكاتب المركزية للونغ تيرم كابيتال منجمنت في غرينويتش في كونيكيتكت أن يقضي اليوم أمام الشاشات، مطوّقاً بالسماسرة والتجّار، وهو يصيح يمنة ويسرة خاضعاً لدوّار التقلبات ولا يدعو إلى اجتماع إلا من حين لآخر في مكتبه المُبطّن في الطابق الثاني، كلّ المواضيع التي كانت تهمّه حقيقة كانت تُحلُّ هنا، في حقل الغولف.

لم يتأخّر هيليبراند وروزنفيلد وهاغاني باللحاق بنا، يتبعهم خدمُهم المهلّلون أمام ضربات ج.م. التائهة. لكنّ هذا لم يكن يعتبر نفسه مهزوماً، كما لم يفعل حين غادر سولومون، وقد حلم منذ ذلك الوقت بإعادة تشكيل فريق تحكيمه دون أن يعتمد على رأس مال الآخرين وبهذه الفلسفة ابتدع لونغ تيرم نوعاً من صندوق التغطية مختلفاً عن أيّ صندوق آخر، والذي إذا كان فعلاً سيُركّز على سوق السندات، إلا أنّه كان مستعداً لأن يرفع مراهناته بمعدل عشرين أو ثلاثين مرّة أكثر من مراهنات منافسيه.

ـ اللعنة! ـ صاح ج.م. عندما رأى الكرة تذهب لتقف بين بعض نباتات السياج بينما هيليبراند لا يكاد يكبح ضحكته الخفيفة.

ناوله الخادمُ مضرباً جديداً ورأيناه نحن البقية يتوغّل بين الشجيرات.

ـ راهن ج.م. راهن عشرة من الكبرى على أنه سيحصل عليه ـ أسرّ لي هاغاني، مسروراً ـ. لم أره قط يفشل بهذا الشكل.

ـ بينما كان صندوق المخاطر التقليدي يبدأ عادة بعشرين أو خمسة وعشرين مليون دولار، كان ج.م. ينتظر أن يجمع ألفين وخمسمئة مليون دولار؛ وبنما كانت غالبية الصناديق تمنح قرابة العشرين بالمائة من الأرباح لشركائها، وعد هو شركاءه بخمسة وعشرين بالمائة. بالمقابل كان المستثمرون عنده مجبرين على البقاء بجانبه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمدّة ثلاث سنوات (من هنا جاءت تسمية لونغ منجمنت[1])، بحيث أنّه في حال التقلب الأقصى فالاحتياطيات يمكن أن تبقي على السفينة طافية إلى إن تعود الرياح لتصير مواتية.

هذه المرّة ضرب ج.م. ضربة لم تُخرج الكرة من السياج وحسب بل جعلها تطير على بعد عدة بوصات من الحفرة. امَّحت البسمة عن وجه هيليبراند، روزنفيلد وهاغاني.

ـ عندما بدا أنّ كلّ شيء قد ضاع ـ ساط ج.م. الهواء بواقي قبعته ـ، الشيء الوحيد الذي كان يحتاجه هو الحظّ...

حالف الحظُّ لونغ تيرم كابيتال منجمنت كثيراً خلال سنواته الأولى: عندما قضى المعلم الكبير غرينسبان في بداية ١٩٩٤ برفعٍ غير متوقّع لأسعارِ الفائدة للاستثمارات قصيرة الأجل محدثاً زعزعةَ قاسية في الأسواق، استغلّ ج.م. الفوضى بدهاء. انهارت بين ليلة وضحاها السنداتُ الأمريكية والأوروبيّة ووقعت بنوك كثيرة في الإفلاس. »رائع، أفضل ما يمكن أن يحدث هو أن يستسلم منافسونا!«، كان هذا تعليقه الوحيد: سوف يُوَسّع الغرقُ هوامش السندات، تماماً ما كان يحتاجه لونغ تيرم. حصل ج.م. بتطبيقه لهذه الإستراتيجية على سبعة بالمائة من الأرباح خلال شهر واحد.

في عام ١٩٩٤ راهن ج.م. رهاناً أكثر مخاطرة بسندات وزارة خزانة الولايات المتحدة، الأدوات المالية الأكثر أماناً نظريّاً ـ وضجراً ـ على الكوكب. قدَّرَ مزوّداً بصيغ عبقرِيِّيهِ مخاطرَ العملية وأقنع البنوك بأن تقرضه المالَ الضروريّ. جمالُ المناورة ـ لا مجال لكلمة أخرى ـ كان

---

(١) طويل الأمد.

فوريّاً: نظراً لأن المبالغ المستثمرة في بيع بعض السندات كانت هي ذاتها المستثمرة في شراء سنداتٍ أخرى وكل العملية كانت تتمّ بأموال مُقْتَرَضَة، لم يُضطر ج.م. لأن يستثمر سنتيماً *واحداً* منه. في النهاية حقّق ربحاً قدره خمسة عشر مليون دولار من لا شيء!

ـ أصدقائي الأعزّاء ـ همس ج.م. بعد أن سجّل ١٨ نقطةً في الحفر أكثر من زملائه ـ، أنتم مدينون لي بزجاجة بيرة. وكلّ منكم بعشرة آلاف دولار.

ـ ميروذر أعطى إكرامية ضخمة لخادمهِ وأشار لي بإصبعه قبل أن يتوجّه إلى سيارته.

ـ عليكّ أن تتحسّن، يا فولبّي ـ أمرني.

وضع هاغاني ذراعَهُ الثقيلةَ حول عنقي، كما لو أنّنا نعرف بعضنا طوال حياتنا.

ـ يتكلّم بجدّية ـ وبّخني ـ ج.م. يمقت من لا يكونون بمستواه في الغولف. من الأفضل لك أن تتدرّب!

ترتيل

قرّرت منذ طلاقي من راشيل ألاّ أعودَ لألمس، ولن أقول لأعصر، أعجنَ أو ألجَ جسداً نسائياً آخر. حتى ولو حاولتُ أن أُبرِّر لنفسي ذلك محتجّاً بالمظهر الخنثوي لِلِيْ، بجذعها الممشوق، الخالي من البروزات المخيفة، بِرَبْلَتَيّ ساقيها العضليتين ـ ربلتا لاعب كرة قدم مزحت معها وهي تتعرّى ـ أو بأنفها الذكري بصراحة، سيكون من اللامعقول إنكار الجاذبية، التي على الأقل في لحظات الذروة السابقة على الجماع، كان يحدثها عندي جمالُها. كان فيها هشاشة خفية، لا تكاد تُدرك، تتناقض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع مزاجها الاحتجاجي. بل إنّ رائحة بشرتها، التي ذكرّتني برائحة حديثي الولادة، كانت تُعزّز العجزَ الذي (كنت أوّل المفاجئين به) سرعان ما صار لا يُقاوم عندي.

ما سبق لا يعني أنّنا ما إن نستلقي على السرير، حتى نكون قادرين على تجنب الكارثة. كي أبدأ لم أتحمّل قط الأعضاء منتوفةَ الشعر، التي تُعرض مثل الرخويات الطازجة وما إن اكتشفت عانتها الحليقة حتى شعرتُ بالحاجة للهربِ فوراً من سوء التفاهم ذاك. وحده صبرُ لي، التي قررت أن تقود تردّدنا كما لو أنّها تقود فرقةً موسيقية ريفية، سمحت لي أن أُركّز على شفافية عينيها وعلى حيوية فخذيها المبالغ فيها قليلاً، ماضية بي إلى رعشة سريعة أجبرتني بعدها على أن أردّ لها على حساب خدرِ براجم أصابعي. كانت النهايةُ الصحيحة، بينما نحن نرتاح بعد المعركة وعيوننا ثابتة على السقف، واضحة لكلينا: ولا حتى لو جهدنا طوال حياتنا سننجح بأن يتكيّف جسدانا مع رغباتنا.

ومع ذلك لم أسأل نفسي أي شياطين كانت تفعل بجانبي، كما كان يحدث معي عادة، أيضاً لم أبغ أن أطردها دفعاً ولم أسارع لأغتسل كي أتخلّص من أثرها. تأمّلتها بينما هي نائمة منطوية على نفسها، كما لو أنّها تحمي نفسَها في أحلامها من هجومٍ بهيمة، ولم أتهرّب من إغواء إيوائها. عندما استيقظت أخيراً مخبولة وعمياء حضّرتُ لها قهوةً من دون سكّر شربتها برشفات صغيرة ونعومة، بينما أنا أداعب ساقيها العاريين، تلفنا طبيعةُ الزوجين اللذين مضى عليهما سنوات وهما يُكرّران العادة الصباحية ذاتها. حاولت أن أتبيّن في بشرتها الباهتة علامة انزعاج أو ندم، لكن لي سارعت لتستحمّ، ارتدت ملابسها وودّعت دون أن تُظهر عاطفةً أخرى غير الحزن الوديع على هذا الحدّ أو ذاك والذي عادة ما يُثير جماعاً مملاً.

أمضيت الصباح كلّه دون أن أبعد عن ذهني عريَها الرشيق يتمشّى ما بين الغرفة والحمّام. ماذا كان ذاك؟ كان يصعب عليّ أن أفهم لماذا أجهدتُ نفسي في إغوائها، ولماذا هي لم تُقاوم. الأفضل لكلينا أن نتظاهر أنّ شيئاً لم يحدث، قوسان غير عدوانيين مفتوحان بين راشدين، تناولا كؤوساً أكثر مما ينبغي. ربّما لم يكن صعباً التعاقد مع مؤرّخة أخرى، قادرة على مساعدتي في بحثي، لكنَّ توافق الموجات مع لي كان مُريحاً وكنتُ أقاوم فصلها أو تدميرَ عملنا المشترك بسبب استثمار جنسي، لم ينتج لي ـ عند هذا المستوى كان واضحاً ـ أيَّ أرباح.

تواعدت معها مساء عند درج المكتبة العامّة في نيويورك، واقترحتُ عليها، مستغلاً دفء الخريف المتأخّر، أن نعمل على واحدة من الطاولات الصغير في الهواء الطلق في بريان بارك. وصلت هي متأخّرة بضع دقائق ـ لم تكن الدقة من بين فضائلها ـ ترتدي بنطلون الجينز الممزّق عند الركبتين ذاته، وقميصاً ضارباً للبياض وقد جمعت شعرها في ذيل حصان ريفيّ. على الرغم من أنّها مرة أخرى لم تضع لمسة ماكياج، بدت نديّة، شبهَ مرتاحة. اعتذرت عن التأخّر ووضعت حقيبة ظهرها المليئة بالأوراق أمامي. سررت لأنّ لقاءاتنا استعادت طبيعتَها المهنية، في الوقت الذي كانت تكويني فكرةُ ألاّ أعود لأمتلكها بين الملاحف.

أسهبت ليْ بحديثها عن وايت وكينز، متصورة إيّاهما كمجالدين في حلبة مصارع، لكن بالكاد منحتُ مجازاتِها انتباهاً. فجأة بدا لي غير معقول أن تبحث دون حياء في أسرار أبي دون أن أكون قد سألتها عنها. ما إن انتهت من مقارنتها بين الاقتصاديِّيْن، حتى طلبتُ منها أن تُحدّثني قليلاً عن نفسها. أكّدت لي وقد احمرّت خجلاً أنّه ليس هناك الكثير لتحكيه (كذب، النساء يفتنهنّ أن يُبدي أحدٌ اهتماماً بماضيهنّ، مهما بدا رهيباً أو غير ذي أهمّية) وبدأت تختصر لي مسيرتها العاطفية التائهة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت لي قد وُلدت في بلدة صغيرة من نيويورك العليا وكانت كما تخيّلتُ ـ ليس ضرورياً أن يكون المرء بصّاراً كي يلاحظ ندوبَ الهجران ـ، جاءت من عائلة مُفَكّكة من طبقة عاملة. حبلت أمّها في الثامنة عشرة من عمرها وفي الخامسة والعشرين هربت من قمعِ زوجها، وهو عامل تعدين مع نسبة عالية من الغيرة والذهان، بحسب ابنته، ، ومنذ ذلك الوقت عاشت لي مع ستّة آباء بدلاء على الأقلّ ـ بدءاً من سائق حافلة كان يدغدغ إليتها وحتى معلم ابتدائي هزيل، كان يشتري لها دمى باربي مستعملة ـ كما لو أنَّ أمّها أطلقت اختباراً كي تكتشف أكبر الخاسرين في المنطقة. ردّ الجيران على هذا الهوس بشائعات كانت الأمّ بحسبها مُدمنة هيروين (هي كانت تنكر ذلك) ولكي تُعوّض هذه الانفجارات، كانت لي دائماً حسنةَ السلوك وبالرغم من خجلها المعوق، إلاّ أنّها دائماً شغلت الأماكن الأولى في صفّها، من هنا جاءت المنح التي سمحت لها بدراسة في الثانوية في كورنِل والدكتوراه في جامعة مدينة نيويورك. بالمقابل رفضت أن تُقَدّم لي أيّ تفصيل عن حياتها العاطفيّة، وإن لم تمتنع عن التلميح إلى أنّ نجاحاتها في هذا المجال كانت أقرب إلى الضمور (فهمت العدم). كان حبُّها الوحيد الحقيقيّ، بحسب قولها، على الأقل حتى تلك اللحظة كلابها، التي كانت تشعر تجاهها باحترام مَرَضيّ، بدءاً من الدالماتا الأجرب الذي رافقها في طفولتها وحتى سالينجر، كلب الصيد الذي لا يُطاق وتتقاسم معه الآن الأستوديو.

بالمقابل فاجأني قليلاً أن تعترف لي بالصعوبة التي تجدها في أقامة الصداقات. بحسبها لم تكن فقط تجد صعوبة في الانسجام مع رفاقها وأساتذتها، الذين سرعان ما يصبحون بالنسبة إليها بلهاء أو رجعيين، بل ودخلت في شجار صاخب مع رئيس قسم التاريخ لدفاعِها عن زميلة

لها، عوقبت بقطع المنحة عنها لأنّها حبلت. فهمتُ بعد أن سمعت هذه الاعترافات الملتبسة، بشكلٍ أفضلَ نقطةَ ضعفها البسيط تجاه الديمقراطيين: كانت تنتمي إلى تلك النسبة الصغيرة من السكان الذين يُفكّرون بأن ارتقاءهم الاجتماعي يعود إلى مساعدة الدولة أكثر مما إلى جَلَدِهم أو فطنتهم. لا أستطيع أن أُنكرَ أن فكرة أن أبيّن لها الطبيعة الحقيقيّة للأشياء وبخاصّة ميزات الأنانية، كانت أحد الدوافع للإبقاء عليها. مقابل مساعدة هذه الشابة المؤمنة بالعدالة لي كان عليَّ أن أبرهن لها عن عبثيّة نواياها الطيّبة.

عندما أنهت قصّتَها هبط علينا ليلٌ رطبٌ وساطع. نظرتْ لي إلى ساعتها وقالت إنّ عليها أن تذهب. اقترحتُ عليها دون اهتمام أن آخذها إلى بيتها. في البداية رفضت، لكنّها انتهت بالصعود إلى السيارة حين وقف تشارلز أمامها وفتح لها الباب كما لو أنّها أميرة..كان حتميّاً أن يحدثَ، عند وصولنا إلى وجهتنا (في الجزء العلوي من هارلم) صمتٌ من النوع البرّي عند من سبق وتشاركا في دفقه، وسألتُها عمّا إذا كان باستطاعتي أن أصعد معها. صعدنا الطوابقَ الأربعة. وتسللنا إلى مخزن بائسٍ يتجمّعُ فيه المطبخ وغرفة الطعام والسرير على بعد بوصات قليلة. سارع سالينجر إلى شمّي ثم تعلّقَ بطريقة غير مؤدّبة كثيراً بساقي اليمنى. لو لم تحبسه لي في الحمام ما كان أمامي من وسيلة أخرى غير الرحيل.

كان يصعب عليّ أن أتخيَّل أنّ أحداً يستطيعُ أن يمضي كلّ تلك الساعات في علبة أحذية مثل تلك وخاصّة برفقة كلب. اعتذرتْ لي بعدَ أن بحثتْ في مؤونتها لأنّه لم يكن عندها ما تُقدّمه لي غير شاي أعشابٍ أو نبيذ عضوي. اخترتُ الثاني: خطأ لا يُغتفر. كان واضحاً أنّ الطريقةَ الوحيدة لتخفيف الضغط هي في أن نسمحَ من جديدٍ لجسدَيْنا أن يُخاطِرا ويلتقيا. فجأة تعرّت أمامي، دون مقدّمات: الخجولون ليسوا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحياناً خجولين كثيراً. إذا كان أحدُ الاثنين ينتظر أن يتحسّنَ الجنسُ عن الليلة السابقة، فالخيبة كما يبدو كبيرة ـ رعشتان حصلنا عليهما بالقوّة تقريباً وفي زمنٍ متقطّع ـ، لكنّنا نمنا متعانقين بطريقة غير متوقّعة حتى الفجر. في النهاية، لن يكون ذلك أفضلَ استثمارٍ في حياتي، لكنّنا نحن رجال الأعمال لسنا، كما تريد النظريات، عقلانيين خالصين.

ثنائي

كينز ضدّ وايت. الجولة الأولى

في هذه الزاوية وبسروال داخلي أزرق و٥٩ عاماً، مولود في قرية كامبريدج الجامعية البهيّة، بطل الأوزان الثقيلة، أيّها السيدات والسادة، الملاكم الوحيد والفريد في الجزر البريطانية، معلّم أجيال من مقاومي اللكمات، أيّها المشاهدون والوزراء، المؤلف ذائع الصيت للمجلدات الضخمة غير المفهومة والتي لا تقارن بشيء: *النتائج الاقتصادية للسلام والنظرية العامّة حول العمل والفائدة والمال*، التي قضى بها على كلِّ خصم له، عضو عصابة بولمزبوري القديمة، أيّها السيّدات والسادة، معكم اللامع والفذّ والعظيم الذي لا يطاله الشكّ، اللورد جون مينر (الرجاء لفظها على الطريقة الإنكليزية) كااااااااااينز...

في الزاوية المقابلة وبسروال داخليّ أحمر (أجمل ما قيل) وخمسين عاماً من العمر، مولود في بوسطن الباردة والكوزموبوليتانية، المُتحدي الراسخ للصولجان العالمي، أيّها السيدات والسادة، حامل علم الولايات المتحدة الأمريكية، النجمُ الصاعد للُملاكمة الاقتصادية، أيّها السيدات والسادة، المقاتلُ الخارج من إسطبلات الوزير مورجنتاو والرئيس روزفلت، بطل وزارة الخزانة، اللامع الذي لا يطاله الشكُّ، العظيم هاااااااااري دكستر واااااااايت...

يا للمصارعة التي تقترب، أيّها الأصدقاء والصديقات! التجربة ضدّ الطموح، التقنية ضدّ القوّة، الفطنة ضدّ الخبث، التقليد ضدّ التجديد، النبالة ضدّ البرجوازية، الثقافة ضدّ الحضارة، الملكية ضدّ الديمقراطية، الفكاهة البريطانية الخفية ضدّ الفعالية الأمريكية، في عشر جولات ستُقام ما بين ١٩٤٢ و١٩٤٥ على طرفي الأطلسي، هذان الملاكمان سيتواجهان على اللقب العالمي المُشتهى: منقذو العالم. أيّها السيدات والسادة واحد فقط سوف يحصد المجد والشرف. واحد فقط سيتحول إلى منقذ الكوكب، أيها السيدات والسادة واحد فقط سوف يُصمّم خطةَ اقتصاد ما بعد الحرب، أيها الأصدقاء والصديقات واحد فقط سوف يمسح بالزيت كمبدع للقفص الاقتصادي الذي ما زال مُغلقا علينا.

هل تميزونهما هناك على مقعديهما محاطين بجحافل المُدراء والسكرتيرات والمساعدين، الذين يُدلّكون ويُلمّعون دماغيهما بكل أنواع المراهم والدهون؟ بريق نظرته يشي بترقّب ضراوة المعركة. ها هما ينهضان يقفزان ويحمّيان عضلاتهم، واعين للحظة التاريخية. الآن يدعوهما الحكم إلى وسط الحلبة، كلاهما يحضر دون رغبة، يقيس بعضهما بعضاً عن بعدٍ وتصطدم قفازاتهما بتحية خجولة، أيّها السيدات والسادة كلّ شيء جاهز!

هذه هي مصارعة القرن!

كما تدلّنا الشابّة الشهوانية بلافتتها التي تحملها أمامها فاليوم هو ٢٣ تشرين الأول ١٩٤٢ وتعطي إشارة بدء الهجوم.

ابْدأا!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وميض بنفسجي ينير الغيوم للحظة، تعود السماء بعدها إلى الظلمة والسفينة ترتجّ على ارتفاع خمسة وعشرين ألف قدم فوق المحيط. هاري لا ينسى حتى الآن إزعاجات العبور وهوله: ثماني ساعات من الاضطرابات، مشدوداً إلى مقعده ـ برغوث في علبة كبريت ـ متضرّعاً ألا تعبر مقاتلةٌ ألمانية في طريقه. الهبوط الاضطراريّ في اسكتلندا أيضاً لم يُخفّف من دوخته وحتى خلال عملية التفتيش عن الأسلحة، التي كان عليه إن يذهب إليها إلى جانب مورجنتاو، لم يكن قد استعاد توازنه واضطرّ لأن يعتذر كي يركض إلى الحمّام ويستفرغ في المغسلة. منذ ذلك الوقت لم يمنحه ألم المعدة هدنة. على امتداد الاجتماعات مع مسؤولي وزارة المالية لم تتوقّف أمعاؤه عن التلوي محدثة حشرجات مزعجة.

اليوم يشعر هاري بأنّه أفضل قليلاً ـ فهو لأوّل مرّة منذ بضعة أيام يتغوط بشكل صحيح ـ، وإن كان ما يزال يعاني من المغص والحموضة في المعدة. يا لها من خاطرة غريبة. طبعاً لم يكن لمعاناته أصل عصبيّ!. على الرغم من أنّ السفير واينانت حدّد الموعد في آخر لحظة، إلا أنّ وايت كان عند هذا المستوى لا يخاف من لقاء كينز، فقد مضى عليهما أسابيع يعملان كلٌّ في خططِهِ وكان من غير المعقول ألا يستغلّ رحلته إلى إنكلترا من أجل أوّل تبادل للآراء مع المعلّم.

المرّة السابقة التي التقيا فيها، قبل سنواتٍ كثيرة، فعلاً سبّبت له تعرّقاً مسبقاً، لكن الظروفَ كانت مختلفة جدّاً. ففي نيسان ١٩٣٥، عندما أرسله مورجِنتاو في أوّل مهمة رسمية إلى أوروبا، بالكاد كان وايت قد بدأ عمله في وزارة الخزانة، وإذا كان قد اعْتُبِرَ بالفعل كشابٍّ

طموح وواعدٍ فإنّه لم يلبث أن شعر بنفسه في وضع أدنى أمام كاينز، أعظم اقتصاديّ على الكوكب. في تلك المناسبة عامله هذا بفتور مهذّب، الأمر الذي مقته وايت دائماً عند البريطانيين؛ ولم يكن باستطاعته أن يؤكّد أنّ العالِمَ كان حاداً أو غير لبق، لكنّه لم يتخلّ قط عن بعض التعالي أمام زميله الأمريكي الغرّ.

بعد سبع سنوات كان وايت ما يزال يكنّ احتراماً عميقاً للورد كينز ـ قبل أشهر كان الملك جورج قد سماه بارونا نظراً لخدماته الفائقة للتاج ـ وما يزال يُفَكّر أنّه أعظم اقتصاديّ حي، لكنّ وايت الآن الناطق باسم وزارة الخزانة في المفاوضات الاقتصادية حول ما بعد الحرب. وهكذا بينما سيستخدم المعلّم حنكته كي يحافظ على آخر امتيازات الإمبراطورية البريطانية، سيوضح له وايت جيّداً أنّ الولايات المتحدة ستفرض شروطها. ربما كانت هذه اللا مساواة هي أكثر ما في هذه المصارعة التي تقترب إثارةً، نظراً لأنّ الاثنين يعترفان بتفاوت الوسائل التي يعتمدان عليها، سيجدان نفسيهما مُجبرين على أن يتشابكا في معركة مليئة بالفطنة والمكائد والبنود الجانبية. على الرغم من أنّ اللورد كينز كان في وضع أدنى إلا أنّه خصم رهيب. وعلى وايت أن يستخدم كلّ إمكانياته كي يهزمه، ليس على مستوى الأحداث (الأمر الذي يعتبره مسلّماً به) بل على مستوى الأفكار.

يشغلُ وايت، سانداً بطنه بكلتا يديه، كرسياً كبيراً بجانب مورجنتاو، بينما بقية الحاشية ترتاح في أماكن قريبة، في الوقت الذي يعلن فيه السفير واينانت عن وصول البريطانيين. بعد الترحيب البروتوكولي يجلس كينز مقابل وايت، على الرغم من أنّه ينحرف في حديث جانبي منمّق مع مدعوٍّ آخر. يبدو لهاري أنّ المعلِّمَ شاخَ فجأة، شاربه الشابلنيّ شابَ وبرز قَذَالُهُ بين خصلات شعره مثل تلّ في سهل. صار جلد يديه رَقّاً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والكيسان الداكنان تحت عينيه يشيان بإنهاكٍ مُزمن، على الرغم من أنّ إشراقةَ نظرته لم تفقد قوتها. يعرف وايت أن الممثّل الثانوي الهرم في أوبريت خيلبرت وسوليفان يُخفي في داخله نمراً مسنونَ المخالب.

يُوزّع نادلٌ كؤوساً ومُعجناتٍ مالحة ـ وحدها الخوذات المعدنية في الرواق والدورية العسكرية المتمركزة في زاوية السفارة الأمريكية في لندن تُذكّر بأنّ المدينة تعاني من القصف الجويّ النازي اليومي ـ والمحادثة تجري من موضوع إلى آخر، وهو ما يُثير انزعاج كينز ووايت المشترك، غير المتسامحين مع الثرثرة. بدراستهما عن قرب يتبين أنّهما لا يختلفان عن سرطانين بحريين جاهزين للهجوم، يكتفيان بفتح فميهما وإغلاقهما. يوزّع كينز لآلئ سخرية ـ خاصّة حين يُشير، مواربةً إلى خطّة وايت ـ ويهزّ الأمريكي بتوضيحين أو ثلاثة، أيضاً موارِبة حول خطّة كينز، هذه المناوشات تعلن بداية المواجهات.

وشيئاً فشيئاً يغلق بقيّة المدعوّين أفواههم ـ بما فيهم واينانت، الذي باعتباره الحكم بالكاد يتوسّط بجملتين أو ثلاث جمل رياضية ـ ويسوون وضعيتهم في مقصوراتهم. الضربة الأولى وجّهها اللورد كينز: صندوق النقد الذي يقترحه وايت لا يبدو طموحاً بشكل كافٍ لحلّ تحديات ما بعد الحرب، بخلاف اتحاد المقاصّة الدولي الذي اقترحه هو وهو أكثر أناقة وأكثر تعقيداً. يمتصّ وايت الضربة، يحمي أجزاءه اللينة ويهرب من إمساك البريطاني به.

ـ لن يُقرّ الكونغرس أبداً شيئاً مختلفاً ـ يردّ وايت دون سخرية، كما لو أنّه يقول هكذا هي الأمور، فأنا لست أكثر من مبعوثِ الواقع.

هاري دكستر وايت وجون مينر كينز

يهزّ اللورد كينز كأسه، يأخذ رشفة ويتأمّل خصمَهُ بازدراء.

ـ لا شكّ أنّ اتحاد المقاصّة الدولي فكرة خلاّقة جدّاً، أقول خلاقة ـ يدفعُ وايت خصمَهُ نحو الحبال ـ، خلاّقة جدّاً، مشكلتها فقط أنّها غير سالكة سياسياً. في عالم آخر...

ضربة منخفضة لا يُعاقِب عليها الحكم. يبقى كينز في الهواء، لكنّه لا يتأخّر في استعادة وعيه بينما هو يختنق بلقمة السلمون.

ـ إذا كان هناك شيء يمكن أن يحاصر حرّية صندوق النقد ـ يُمرّر اللورد كينز ـ، فهو أنّ يعمل من خلال استكتابات الرأسمال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أتصوّره مثل أخطبوط غير مجهز بمجسات. بالمقابل، فإنّ إيجاد عملة تبادل عالمية سوف يضمن استقلاليته...

ـ البانكور؟ ـ يسخر وايت.

ـ ضع له الاسم الذي تريد ـ يدافع الإنكليزيّ عن نفسه.

قطرة دم تنزلق على جبين وايت: لا، ليس خطيراً أبداً، تستطيع أن تتابع، ليس من الضروري إيقاف المصارعة. كي يمرّر الأمريكيُّ الجرعة السيّئةَ يمضغ خيارة صغيرة ويترطب بجرعة شمبانيا.

»كينز، كينز، كينز!« يبدو أنّ البريطانيين الغلاة كانوا ينبحون، مشكلين موجة في صالة الاستقبال في السفارة. ملاكمهم لا يخيّبهم ويستمر بمعاقبة الآخر.

ـ لن تقبل إنكلترا أبداً أن يُوافق على تعديلات في تغيير العملة بأربعة أخماس أعضاء الصندوق ـ يصيح، مطلقاً العنان لتصفيق جماعته ـ ونظراً لأنّ بلدنا هو أكثر من استثمر في الحرب وعانى فإنّه سيمرّ بمرحلة معقّدة جدّاً بعد الحرب. تحتاج إنكلترا إلى حرّية تامة كي تُحَدِّد نوعَ التغيير في الجنيه الإسترليني.

»أطال الله في عمر اللورد كينز«، ودّ لو يصيح أنصارُه.

يتفادى وايت الضربة على الكبد، يسخر من خصمه بابتسامة صغيرة ستكون ترجمتها المقبلة: بالفعل هذه هي المسألة. يا لورد كانز، في نهاية الصراع ستصير إنكلترا قوة من المرتبة الثانية ولن تستطيع أن تقول شيئاً. وكاعتبار خاصّ لجهودك نحن هنا اليوم، نحن نُفضّل أن نصارع في دوريات أخرى، مع خصوم من وزننا. لو كنتُ مكانك، لاقتصرت على شكر هذا.

إذا كان وايت يُفكّر بما سبق، فهو يُفضّل أن يمنح خصمَه بعض الهواء: نحن بالكاد في الجولة الأولى ولا يُريد أن يهين المعلّم.

ـ ربّما علينا أن نترك هذه الدردشة لما بعد...

ـ كينز، يلهث، لا يستسلم.

ـ إنكلترا أيضاً ليست راضية عن فكرة أن يكون للولايات المتحدة حصة أكبر في الصندوق. هذا يعني أنّها تستطيع أن تتخذ كلَّ القرارات.

يتعرّض الجمهور إلى نوبة تأثّر مفاجئة تجاه الهجوم البريطاني، لا شكّ أنّه ملاكم عريق.

ـ أيضاً لا نستطيع أن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء ـ يقوم وايت بهجوم معاكس ـ. خطّتك تبحث عن العودة إلى شروط ما قبل الحرب...

عند هذا المستوى يظهر كينز العجوز مستنفداً.

ـ علينا أن نستمرّ في هذه المحادثات فيما بيننا فقط، قبل أن ندعو أعضاء الأمم الأخرى الحليفة ـ يقول بحزم ـ. ربّما نستطيع أن ندعو بعد وقت قصير الروس، تفادياً للشكوك.

وايت لا يبتسم هذه المرّة، واعياً أنّ هذه ستكون الضربة القاضية، قبل ثوانٍ من قرع الجرس.

ـ أخاف كثيراً، يا لورد كينز أن يؤسّس هذا للكثير من الشكوك. يمكن لحلفائنا أن يُفكّروا أنّنا شكّلنا عصابة أنجلوسكسونية، وهذا ما لا نستطيع أن نسمح به...

تجعل ضربةُ وايت القوية البريطانيَّ يرى، كما في الرسوم المتحرّكة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عصافيرَ حوله. لحسن الحظ أنّ الوقت استنفد واللورد كينز يشدّ، واقفاً، على آخر كأس شمبانيا.

انتهت الجولة!

سريناد

عليّ أن أعترف: عشقتُ، لأوّل مرّة في حياتي، بشدّة وارتباك وحماس. (ربّما للمرة الثانية، إذا ما حسبنا غرامياتي الشبابية مع لارس) حين لم أتوقّع ذلك. حين لم أكن أحتاجه. لم أعشق لي لِفيت، كما يمكن أن تكونوا قد ظننتم، بل الدكتور ألان ويترسبون. هل سأكون وقحاً وأرسمه؟ عالِمُ مناعة مقيم في مشفى جبل سيناء، محب لنيتشه، شوبنهاور، ومتيم متهتك ببوتشيني. وما زلت أرتعش حين أتذكّر كيف كان ينسلُّ من دثاره ويلف نفسه بملاءة ويُلوّنُ بصوت جهوريّ حسن، مقطوعتي آريَا لليو قبل أن يهوي على الأرض مجروحاً جرحاً قاتلاً من قبل أزلام تورنادوت!

أيضاً كان قادراً على أن يُجسّد مانون، ميمي، توسكا، ماجدا، ومينيي بل ولاوريتا وسور أنجليكا، بالحيوية ذاتها. كنتُ أتجرّأ أحياناً وأرافقه بصوتي الأجش المحزن الذي لجهير فأحطّم العلامات الحادة لِرودولفو، وكافارادوسي، وجاك رانس أو كلف، فقط كي آخذه بين ذراعيّ. كي أُخفّفَ من حنيني سأعدّد عيوبه: ألان لم يكن وسيماً من النظرة الأولى ـ عيناه كستنائيتان، ناحل، لكنّه ليس هيكلاً عظمياً، ونظيف أكثر من اللازم ـ وكان مخنثاً بدرجة أعلى مما أنا قادر على تحمّله، إلى حدّ أنّ حركاته وتمايُلاته كانت تُصيبني بالضجر للحظات.

قبل حوالي سنتين ميّزت وجهَهُ الأسمرَ وشيبَ شعرِهِ المُبكّر في

ردهة الميت ـ *تراه في دور كارمن خامدة*؟، لكنّني لم أجرؤ على الاقتراب منه خلال الاستراحة. عدتُ ورأيته عن بعدٍ في مناسبات أخرى، واحداً من بين كثيرين من المولعين العاديين بالفرقة، دائماً وحيداً ودائماً بطقمٍ أبيض، إلى أن جاءت ليلة كنت على وشك أن أبدأ فيها الفصلَ الثالثَ من عرضٍ مزعج لبوهيميا، وجّه إليّ نظرة نافذة من الجانب الآخر للقاعة. كان من المحال ألا أردّ عليها. ما إن انطفأت الأنوار حتى نهضَ من مقعده وتوجّه بحذر إلى جانبي.

ـ هذا العرض كريه ـ همس في أذني.

ـ أخذني من ذراعي فتبعته، مثاراً ومذهولاً إلى حمام الرجال. كانت جمل رودولفو ومارثلو الحزينة تُسمع من بعيد بينما هو ينزل سحاب بنطلوني.

إنّه بارد ـ ابتسمَ ـ اسمح لي أن أُدَفّئه لك.

كان ليلاً مقمراً وكان القمر من القرب...

ـ سأقول لك بكلمتين من أنا، ماذا أعمل، كيف أعيش ـ همهم ـ هل تريد؟ من أنا؟ أنا ألان ويترسبون. ماذا أعمل؟ ها أنت ترى. وكيف أعيش؟

ـ أعيشُ ـ أكملتُ.

ـ أين؟

ـ وحيداً، وُحَيّداً، هناك حيث ترى أسطحَ القرميد تلك ـ أنهيت بينما نحن نهبط بكلّ سرعة درجات لينكولن سنتر.

حملنا تشارلز إلى شقّتي، التي كانت تبعد سنة ضوئية عن أن تكون غرفة بيضاء. على السجادة وأمام النافذة الكبيرة التي كانت تُسلمنا أضواءَ وظلال مانهاتن ختمنا ثنائيَّنا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أنا لا أبيع أزهاراً ورقيّة، لكنّني بلى أبيع ورقاً، ورقاً كثيراً ـ اعترفتُ له بينما أنا أنزع عنه بنطلونه.

ـ ألستَ شاعراً؟ وَأَوَلَسْتُ الشِّعرَ؟.

ـ شعرُ[١] المال ـ اعترفت له ـ جي. بي. مورغان.

ـ ظننتكَ ميمي وإذا بك مركيز صغير.

ـ هل تحب أن تصبح موسِّتايَ[٢].

ـ عندما أذهب[٣]...

ذهب بعد ساعات قليلة، مُجبراً على التواجد في عيادته في السابعة صباحاً، لكنّني تلقيت مكالمة منه عند العصر. من دون ألاعيب غير مجدية ومن دون استراتيجيات خفيّة، ومن دون ازدواجية في النوايا.

ـ اليوم دورك في زيارتي. نستطيع أن نسمع الفراشة لِسكوتو بينما أُحضّر لك طبقَ... ريزوتو ـ تظارفَ.

كانت مواهبُ ألان في الطهي تتضاءل أمام مهاراته في الفراش. لكنّني لم أجد صعوبة في الاعتذار عن أرزِّهِ اللزج بعدما تذوّقت صلابة عضوه. أعتقدُ أنّني لم أستيقظ على امتداد تلكَ الأسابيع ليلةً واحدة إلا في فراشه ـ شيء جعلني أرفض أن أسرَّ إليه بكلّ علاقاتي السابقة ـ أسيرَ أحدِ مكونات كيمياء الأسْرِ التي فقط تهزّنا من حين لآخر، على الرغم من أنّ ألان قبل الرجوع إلى بيتي، البارد أكثر من اللازم والباهت بالنسبة

(١) الكلمة التي يستخدمها هي Lírica والتي تعني كما هو معروف الشعر الغنائي.

(٢) Mussetta إحدى شخصيات أوبرا بوهيميا، التي تُغني لحبيب مُتخيّل لتلفت انتباهَ مارسيلو وتتظاهر بأنّ قدمها تؤلمها بسبب حذائها الذي يضغط عليه مما يجعل أليسندرو يذهب ليشتري لها حذاء جديداً فتستغل غيابه كي تجتمع بحبيبها مارسيلو.

(٣) *Quando me'n vó ...* عندما أذهب، الأغنية التي تُغنيها ماسِتا لحبيبها.

لذوقه، كان يُفَضّل أن يأخذني إلى ملاذه في ميتباكينغ ديستريت، المكون من غرفتين مصمّمتين على شكل سفينةٍ شراعية فيه كوّتان معشقِتان في البابين، ودرابزين وحبال من الألمنيوم في تختية وجدران مغطاة بالخشب المصقول. كان ينتشر، كديكورٍ وحيد، على امتداد الصالون خطٌّ من أحواض سمك فارغة ومضاءة بوهج فسفوري أزرق. اكتشفتُ وأنا أبحثُ في الرفوف أنّ مجموعته من الأوبرات لا تنافس مجموعتي، باستثناء عدد النسخ المُقَرْصَنة لأعمال العبقري لوكا. هوايته البحرية لا تكاد تبتعد كثيراً عن الابتذال، لكنّ هذا لم يمنعني من أن أُبحر معه ليلةً بعد ليلة.

بعد ذلك الاستهلال المتلألئ انزلقنا أنا وألان إلى الفصل الأول من أوبرا رومانسية، لم تقطعها إلا مواعيدي التي لا تؤجّل مع لي. لم يبدُ لها تغيّبي مريباً. فعالم المال له قواعد لا يُدركها فهمُ الطالبةِ المجازة، وكانت تبدو لها أسفار أعمالي حتميّة نتيجة موقعي في وول استريت. ربّما كان من الطبيعيّ أكثر أن أُلغي الألفة الحذرة التي كانت تربطني بها، لكنّني لم أبغِ أن يكون بهذا الشكل. مهما كان الجنس سيّئاً، فالجنس ليس أبداً جنساً فقط، وما إن اعتدتُ على لي حتى لم أعدْ مستعداً للتخلي عن اتقاد فطنتها ورفقتها المثيرة. حتى ولو لم يكن هناك شيء آخر فإنّ لحظات الخيبة الشهوانية تلك كانت تضمن لي وفاءها الفكري. في نظري كانت هي وألان يتكاملان تماماً، والاستمتاع بعالِم المناعةِ الناريّ لم يكن ليجبرني على التنازل عن الخبيرةِ الرصينةِ ببريتونَ وودز. فقد كنتُ ألعبُ أوراقي جيّداً (وأنا كنت أفتخر بأنّني غشّاش متقدّم). كنت أثق بأنّني سأحتفظ على حدٍّ سواء بالهيام الذي أعيشه مع الجامح المتعصّب للأوبرا، كما بالاحترام الرصين الذي بدأت صديقتي الشابة تمنحه لحياتي الاجتماعية.

في ذلك الوقت لي لم تكن تُرافقني إلى كلِّ العروض والكونشرتوات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والحفلات التي كنتُ أحضرها في **التفاحة**[1] **الكبيرة المتعفّنة** وحسب، بل تجرّأت على تعريفها على ولديّ. استقبلها إسحاق بعكس ما توقّعتُ بلامبالاة مهذّبَة يمكن أن تمرّ على أنّها موافقة ضمنية. بالمقابل لم تتأخّر سوزان، التي لم تكن تناقش قراراتي أبداً، في أن ترى في لي منافسةً لها ـ كانتا في العمر ذاته تقريباً ـ وخصّتها بتلك الكراهية المبطنة التي عادة ما تَتَسَمَّمُ بها النساء. إذا لم تنتقد أسلوبها («من أين أخرجتها، يا أبي؟ أمن طائفة من الهبيين؟») كانت تسخرُ من نبرة صوتها أو تتظاهر بالاهتمام بدروسها، وتظهرها كأكاديمية متخشبة ومضجرة (ربما كان في لي شيء من هذا). على الرغم من أنّني توسّلت إليها أن تُساعدني على إدخالها في *عالمنا* المُقيّد، رفضت ابنتي ذلك كلّياً. كان واضحاً أنّها لن تغفر أبداً كبرياءها وبخاصّة شبابها المخزي.

كانت لي، الانطوائيةَ وليست صغيرة النفس تردُّ على استفزازاتها بسخرية هي من الحنكة بحيث أنّه كان من الصعب على ابنتي أن تلتقطها. كانت مراقبتهما وهما تتناقران مثل كركِيين مسلية إلى حدّ ما، أخيراً توقّفت عن تدخّلي في معاركهما. بعد كلّ حساب لن يبقى أمامهما من وسيلة غير أن تتعلّما أن تتعايشا معاً. كنتُ خلال ذلك أتفاخرُ بمهارتي بالاستمتاع بحسابيّ تجارتي[2]. الإستراتيجيةُ ذاتها التي كانت تحكمُ صفقاتي الماليّة كانت تُطبّق على اقتصاديَ العاطفي. إذا كان باستطاعتي أن أملك كلّ شيء، فلماذا سأحدّ من حساب رغبتي؟

لي وألان. ألان ولي. توازن تامّ.

---

(١) تعني كلمة manzana في الإسبانية الثمرة المعروفة بالتفاحة وكذلك كتلة أبنية. وهنا يلعب الكاتبُ بالمعنى، وهو يعني هنا بالتحديد وول ستريت

(٢) يقصد هنا لي وألان

المشهد الثالث
حول كيف تعشق جاسوسة
وتسمنُ بوجبَةٍ من الحنق

آريا إليزابيث بِنتلي

كان يا ما كان، كانَ هناك فتاة مليحة قليلاً، انعزالية ومتردِّدة، تربت في بيتِ بائعِ مُقَدَّداتٍ ومعلمةِ ابتدائي صارمة، انتهت بأن صارت جاسوسة روسية ثمّ واشية. على الرغم من أنّني كنتُ أتصوّرُ بأنّ الصورة التي قدّمَتْها لي لي عن إليزابيث بِنتلي كانت تشبه روايةَ ألغازٍ أو فيلماً أسود[1] كانت بالنتيجة قصة حب سوقية (أو بالأحرى صدّ).

١. حيث تكتشف بطلَتُنا كيف تصارع شرَّ الصدّ

على الرغم من أنّها لم تكن المرّة الأولى التي تتأمل فيها جسدَ رجلٍ كبير في السن (في حياتها الإيطالية المجنونة عرفت العشرات بالمعنى التوراتي للكلمة) يبدو لها جسدُ ماريو مختلفاً، ناعماً مشدوداً وفتياً.

---

(١) Filme noir أو السينما السوداء جنس سينمائي ظهر في الولايات المتحدة ما بين عامي ١٩٣٠ و١٩٥٠ وبلغ أوجه بين عامي ١٩٤٠ و١٩٥٠ ويعتبرُ الصقر المالطي لجون هيوستون أول فيلم من هذا الجنس، أحداث هذه الأفلام تعالج الجريمة بقدرة تعبيرية وبصرية قوية من خلال اللعب بالظلّ والنور.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكبرها المشرفُ على رسالتها بعشرين سنة، لكن بينما كان هو يُحافِظ على رجلين صلبتين وعضلاتِ صدر كريمة وبطنٍ يكاد يكون مستوياً، كانت هي تخجل من ساقيها الطويلتين الناحلتين، بشرتِها المغطاة بالبثور وثدييها المتهدّلين؛ إذا كانا قد انتهيا معاً فهذا يعود إلى أنّها عادة ما تتصرّف هي كمؤدِّبة وهو كطفل مفطوم. لم يكن يهمّ كثيراً أن الأستاذ كاسِلا أحدُ أبرز النقاد الأدبيين بين أبناء جيله أو أنّ اسمه موجود بين أشد المستهزئين بالقائدِ في توسكانا، يبدو لإليزابيث أنّ عليها أن تؤنِّبه كما لو أنّها أمّه وليست عشيقته.

بلى عشيقته. تبتهج تلميذة ماتا هاري المستقبلية عندما تتمتم بهذا الاسم، بقيت سنوات تُفكّر أنّه ما من رجلٍ سيتوقّف عند وركيها اللذين لقابلة، أو ردفيها الملتهبين، وأنّها ستنتهي وحيدة ومعذّبة. بالمقابل اليوم لا تتمكن من تذكر أسماء زوّارها الليلين الذين لا يُحصون. حياتها العاطفيّة بدأت متأخّرة جدّاً، فبينما كانت منافساتُها في فاسار يتسلّلن مع خلانهن الصغار ويُدخّن ويشربن سرّاً ويقصّرن تنوراتهنّ كي يعرضن ربلات سيقانهن، كانت هي ترتدي كمُوجّهة ابتدائية، ترفض الكحولَ ولم تعطِ قبلتها الأولى حتى الثامنة عشرة، قبل وقت قصير من فقدانها لعذريتها في السفينة التي أقلّتها لأوّل مرّة إلى أوروبا، لكن، يا لها من طريقة للانتقام! بعد أن اجترّت آلامها في نيو ميلفورد وروشستر وغرقت في دوّامات الانقباض وتصوّرها لنفسها بأنّها مُضجرة وغير قابلة للزواج، برهنت لها سنةٌ واحدة في إيطاليا أنّ امرأة شابّة - *أيّ* امرأة شابّة - قادرة على الحصول على رجلٍ، إذا ما أرادت فعلاً ذلك. وهذا ما فعلته منذ وصلت إلى فلورنسا، التأكّد من سطوة الجنس عندها. ما همّ أنّ زميلاتها يتهمنها بالسهلة، بالثعلب أو العاهرة. هذا أفضل من أن توصم بالمثقّفة أو بالعاقر كما في فاسار وتبقى عانساً.

لم تحتج إليزابيث ولا حتى أن تطلب من كاسِلا أن يُساعدها في رسالتها، هو نفسه وعدها بأن تُحرّر سكرتيرته المخطوط.. ليست المسألة أنّها غير قادرة على أن تنهي عملها ـ فهي بعد كلّ حسابٍ قامت بكلّ البحث حول القصيدة اللعينة ـ، لكنّها تُفضّل أن تُمارس الحبَّ مع أستاذها بدل أن تُخرّب عينيها بمقاطع شعرية قروسطية. بطلتنا لا تتمالك نفسها، تُداعب قضيبَ عشيقها فيتمطى هذا شيئاً فشيئاً. تتابع إليزابيث بيدها ثمّ بشفتيها ـ تعتزّ بكسله ـ فترسم عضلاتُ وجهِ المناضلِ المعادي للفاشية تشنجاً. لا تستطيع الشابّة أن تُنكر أنّ كاسِلا شكّلَ أثراً حاسماً في أفكارها. قبل أن تتعرّف عليه غازلت مجموعة من أتباع موسوليني ـ بسبب غندور صغير آخر ـ، لكنّها الآن تعتبر نفسها مناضلة ثورية مقتنعة. لا تتردّد إليزابيث في ابتلاع مني الأستاذ، تُنظف فمها بظهر يدها وتستكين إلى كتفه.

ـ تلقيت توّاً رسالةً من الجامعة ـ قال لها فجأة ـ يريدون أن يفصلوني.

يقول لها مديرُ رسالتها إنّه سيعمل كلّ ما بوسعه كي يدعمها، لكنّ غموضه لا يطمئنها.

ـ عِدني! ـ تصيح إليزابيث.

ـ في مشهد منسوخ عن ميلودراما إيطالية تغادر إليزابيث شقّة كاسِلا إلى جحرها الذي استأجرته في سانتا كورتشي، حيث تُغلق على نفسها خلال الاثنتين والسبعين ساعة التالية. يزورها الأستاذ مرتين وتبصق عليه من النافذة. تُخرِجُ مُسْتَنْفَدَةً الحبوبَ التي جاءت بها معها من أمريكا وتدفع بقبضةٍ منها إلى حنجرتها. بعد ساعتين تكتشفها جارة لها وتُجبرُها على التقيّؤ في المرحاض. وبفضل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تدخّل القنصل الأمريكي السريع لم يتسرّب الخبرُ إلى الصحافة وتُغادر إليزابيث مدينة أرنو حتى دون أن تودّع كاسِلا. تحمل تحت إبطها مجلّدَ رسالتها السميك. الرسالة ذاتها التي ستقدّمها بعد أن تستقر في نيويورك بنجاح مدهش في جامعة كولومبيا ـ وإن لم يخلُ الأمرُ من شكوكٍ بالانتحال.

٢. *حيث تكتشف بطلتنا الميزات الجنسية للشيوعية*

تستيقظ إليزابيث بعد منتصف الليل، تُطلّ من نافذةِ زريبتها في أوبِّر ويست سايد كي تتأكّد من أنّ أحداً لا يُراقبها ـ العملية التي نصحها بالقيام بها الرفيق المعلّم منذ الدرس الأوّل ـ وتتوقّف لتتأمّل الجسدين المتشابكين لجورج وحسين. تُقارن بين عضويهما كما لو أنّ الأمر يتعلّق بنوعين من الحيوانات. بينما ينكمش قضيب اليوناني زهرياً وغليظاً خلف الفلقة، يعرض قضيب العراقيّ ويقسو. أيّهما تُفضّل؟ إليزابيث (غيّرت كنيتها إلى شيرمان احتراساً) لم تُقرّر بعد. ربّما يكون جورج أفضل كعشيق، ينجح بالحفاظ على الإيقاع ذاته دون أن يتعب، لكنّ عيبه هي وحشيته وعدم حساسيته؛ بينما يبرهن حسين على أنّه أكثر تهذيباً، على الرغم من أنّ المناورات الفموية تضمحل أمام منافسه.

من كان سيقول لها أنّ الثلاثة سينتهون إلى السرير؟ هذا فعلاً يشكّل أولويّة بالنسبة إلى إليزابيث، التي حلمت لسنواتٍ بهذا الخيال دون أن تجرؤ على تحقيقه. تعرّفت على جورج بعد قليل من عودتها من إيطاليا بعد أن سجّلت على مضض في مدرسةِ السكرتارية في جامعة كولومبيا. بعد انتهائها من دروس يومِها الثاني ـ كان الضرب على الآلة الكاتبة قد سحق أصابعها، قرّرت بطلتُنا أن تمنح نفسها نَفَساً في بارٍ بائس؛ هناك وقعت على اليوناني، الذي كان ما يزال في ثوبِ عمل البنّاء يستهلك بعضَ البيرة مع سكان كهوف آخرين، استهواها أنفه المستقيم وعيناه

السوداوان وذراعاه المشعران، وبعد دقائق قليلة كان جورج يدعوها لكأس وبعد نصف ساعة كان يعضّ حلمتيها في الحمامات.

لم تتصوّر إليزابيث في شبابها قطُّ أن مجهولاً وخاصة إذا كان كلباً متعرّقاً مثل جورج سوف يدغدغها في مكان عام (وعامّ). لو تبيّنت أمها أنّ ابنتها تحوّلت إلى عاهرة لأصيبت بسكتة قلبية، بل وحتى رفيقاتها في فاسار كوليج، اللواتي كنّ نظرياً متحررات، سيثرن فضيحة؛ بينما رفيقاتها في الحزب لا يصفقن لتحدياتها للأخلاق البرجوازية فقط، بل ويشجعنها على الإبحار في مغامرات هي في كلّ مرّة أكثر فحشاً. كانت إليزابيث قد تجنّبت أن تظهر أنّها مهتمّة أكثر من اللازم بالكحول أو بالرجال فقط فهمت أن شيوعية حقيقيّة لا تتوقّف قط أمام أي فكرة مسبقة عندما سخرت منها جولييت لأنّها لم تطلب كأس وسكي بوربون ثانياً ودفعتها لتنام مع المدعو السيد سميث مقابل مئة دولار.

بعد أسابيع قليلة تعرّفت على حسين، طالب تبادلي من جامعة كولومبيا وفتحت إليزابيث جبهة ثانية. على الرغم من احتراسها، اكتشفها حسين ذات ليلة تتقلّبُ مع جورج. هي نفسها فوجئت عندما سمعت نفسها تعرض على الرجلين أن يبقيا ليناما معها. الآن يستريح الثلاثة على الملاحف، ساقا العراقي السمراوان فوق فخذي اليوناني ناصعي البياض، بينما هي تتأمّلهما كما لو أنّهما يشكلان لوحة حيّة، عملاً فنّياً منبثقاً من عبقريتها.

من كان سيقول لها إنّ الشيوعية ستكون عيداً؟ عندما قالت أخيراً لصديقتها لي[1] إنّها فعلاً مستعدة لتنضوي في الحزب كانت تُفكّر

---

(١) هناك اسمان في الرواية يلتقيان في الكتابة العربية في هذا الاسم: Lee, Leah الأولى هي المؤرخة صديقة وزوجة فولبي والثانية هذه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمتابعة مسيرتها المعادية للفاشية التي بدأتها مع كاسِلاّ دون أن تتوقع أنّ انضواءها سيقدّم لها ما لا نهاية له من اللقاءات الجنسية مع عملاء آخرين. في الأشهر الستة الأخيرة استقبلت في بيتها (وفي فراشها) قرابة العشرين شيوعياً جاءوا يبحثون عن ملاذ. ربّما كانت جولييت على حقّ: الرأسمالية تُبالغ في قيمة الجنس. ما الداعي لتسعيره وحدّه كما لو أنّ بمجرد نوم الشخص مع أحد يجعله ينضم إلى ملكيته؟ حتى الآن لم يكن نشاطها في الحزب مكثّفاً تماماً، لكنّ حياتها الجنسية لم تكن قط بمثل ذلك التنوّع. مؤسف أن جولييت ستختفي بسرعة، كانت ستُسعد إليزابيث كثيراً بالتباهي أمامها بالثلاثي الذي تشكله مع جورج وحسين، وهو بالتأكيد ما كانت ستحتفل به.

٣. حيث ستعثر *بطلتنا على حبّ حياتها الأحمر*

تستيقظ إليزابيث في منتصف الليل وتتأمّل جسد عشيقها الممزق تحت الشبكة التي تسربها حصيرة النافذة. تُراقب بطلتنا فكّهُ العريض والمربع، صدرَه القرديّ، بطنه البارز وقدميه، قدمي الغول. تصغي بعدها إلى زفيره الذي يتسرّب من شعبه الهوائية. ياشا يتمطّى، فزعاً وعندما يُعانقها يكاد يُحطّم عظامها. لا. لم تكن إليزابيث قط بمثل تلك الثقة، بمثل، لماذا لا نقوله، هذا الحبّ، بالرغم من قامته، قامةِ لقزم، شفتيه المتدليتين وصوته الخفيض. ياشا كائن وجل وعاجز. منذ أن غزا حياتها، ـ باسم تيمي التافه ـ، وبطلتنا لا تُفكّر إلاّ أن تقبع بجانبه، أن تُساعده في أعماله، تخفِّفَ من معاناته. بعد أن مرّت في الحزب بأشخاص كثيرين أفظاظ وبذيئين كان نعمة أنّ براون اختاره كعامل تواصل.

في مصادفة سعيدة كانت جامعة كولومبيا قد أرسلت إليزابيث لتتمرّن

على أعمال السكرتارية إلى المكتبة الإيطالية للمعلومات، وهو مركز، كما لن تتأخّر بطلتنا في أن تكتشف أنّه مركز لنشر الدعاية الفاشية. اتصلت ببراون، بعد مرحلة صمت طويلة، وهي على وعي بأنّ عملها هناك يمكن أن يكون مفيداً للحزب. أملى عليها هذا عنوانَ غرينويش فيلاج حيث سيمر ويأخذها. عندما توقّفت السيارة، أمرها براون أن تشغل مقعده، ثمّ وبعد أن قدّمها للسائق، ذهب نحو النفق، لم يُحدث العميل الموجود وراء المقود انطباعاً حسناً عندها، جعله معطفه المتسخ والقذر، شعره المغبر ونتنه الحامض يبدو فنّاناً جوّالاً أو متسوّلاً (بعدها فقط ستفهم إنّ هذا كان مظهر الشيوعيين الحقيقيّين). قاد تيمي بصمتٍ حتى وصل إلى مطعم يوناني في الشارع ١٤. اكتشفت بطلتنا خلال العشاء أنّ القزم يملك عقلاً يقظاً وقناعاتٍ حديدية واكتشفت نفسها تُدردِشُ معه بمرحٍ ما كانت لتسمح به لنفسها أبداً. لم يتوقّف تيمي عن الكلام عن الخطرِ الذي يُحدق بأوروبا بسبب النازية وحدّثها عن ملاحقة اليهود والشيوعيين. اقترح عليها القزمُ بعد تناول العقبة أن يقوما بمشوار في السيارة. أوقف السيارة فجأة في منطقة خالية وبينما هو ينظر إلى إليزابيث بصرامةٍ قال لها إنّ المكتبة الإيطالية للمعلومات كان مكاناً مفصلياً بالنسبة للقضية.

ـ يجب أن تبقي هناك بأيِّ ثمن.

أخيراً وبعد أشهر من وجودها في الظلّ يأتي أحدٌ ويجعلها مسؤولة عن مهمّة عظيمة، وربّما خطيرة. أمرها تيمي أن تتواصل معه فقط من خلال وسيط وأن تكون حذرة في كلّ خطوة من خطواتها.

ـ بدءاً من اليوم ما عدتِ مجرّد شيوعية، صرت جزءاً من الجهاز السرّي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفضل تلطيش رماها به أحد قط. بدءاً من الآن ما عاد باستطاعة إليزابيث أن تذهب إلى اجتماعات الحزب وعليها أن تغادر الدوائر التقدميّة في المدينة؛ وإذا ما صادفت أحد الرفاق، عليها أن تقول إنّها قطعت علاقاتها مع الشيوعيين. تواصلها الوحيد سيكون مع تيمي.

ـ أعرف أنّه لن يكون سهلاً. إلا من أجلي، ستكونين الآن وحيدة تماماً، رفاقك القدامى سيظنون أنّك خنتهم. لكنّ الحزب ما كان ليطلب منك هذه التضحية لو لم تكن ماسّة جدّاً.

استسلمت إليزابيث للمهمّة بورع، كانت تصل باكراً جدّاً إلى المكتبة، تبحث في مكاتب المدير، تفتش في المكاتب والأرشيفات، تُسجل ملاحظاتٍ وتخرج وثائق تنسخُها فيما بعد على دفتر. كانت تجتمع كلّ خمسة عشر يوماً مع تيمي، دائماً في ساعة العشاء، وتقدم له جرداً بنجاحاتها.

عاد القزم بعد ستّة أشهرٍ ليقترح عليها مشواراً ليلياً في السيارة، أخذ جادّةَ ريفرسايد درايف باتجاه الشمال، دون أن يتوقّف ودون أن يفتح فمه حتى تيرّيتاون على بعد بضعة أميال عن مانهاتن. على الرغم من أنّ الاثنين كان يحسّان بما سيحدث إلاّ أنّهما كانا يتبجحان بأنهما عضوان شيوعيان منضبطان وليسا عاشقين في خلوة مراهقة. كان الغروب ينشر سداه غيوماً فوق الجبال ونتف الثلج تنزل على الزجاج الأمامي. أخذ تيمي يدَ إليزابيث وأفلت جملة ماركسية لينينيّة نموذجية: «أحبُّك». بعد هذه الانطلاقة العاطفية الثورية وضّح لها أنّ تلك لم تكن لحظة سعادة.

ـ لو كنّا مجرّد عضوين في حلقات الحزب لكان كلّ شيء أسهل ـ اشتكى القزم ـ لكنّنا لسنا رفيقين بل عميلان سرّيان. القواعد بالنسبة إلينا صارمة جدّاً. لا نستطيع أن يكون لنا حياة شخصية.

محظور علينا أن يكون لنا أصدقاء، بل وأكثر من ذلك أن نعشق بعضنا. بحسب مبادئ الشيوعية، لا نستطيع أن نشعر بما نشعر به. سأصلك مع آخر جديد وأختفي من حياتك للأبد.

قبّلَتْ إليزابيث تومي حتى غشى البخارُ الزجاج الأمامي.

ـ أو ربّما نستطيع أن نحافظ على علاقتنا بالسرّ ـ اقترحت عندئذٍ بينما هي تُنظّف أحمر الشفتين عن عنقه.

هل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر إثارة من أن تكون المرأة جاسوسةً وعاشقةً ممنوعة لجاسوس آخر؟ بقي تيمي يتواعد معها في أماكن عامّة من أجل اجتماعات عمل وفي أماكن خاصّة لمتعهما السرّية مرتين. راح القزم المهووس في تحويلها إلى تلميذة له، انهمك في تعلمها أدقّ تقنيات التجسّس. بطلتنا تبتسم عندما تتذكّر السهرات الطويلة التي كان يُعلّمها فيها شيفرات الرسائل. تكتيك الملاحقة والهرب، أو مناورات فتح الأبواب والأدراج. بالمقابل يتقطّب حاجباها حين تتذكّر اليوم الذي اكتشفت فيه مصادفة أنّ تيمي يُكنّى في الحقيقة غولوس.

ـ جاكوب غولوس ـ قال لها بصوت عال حين رأى أنّه اكتُشف.

حين همد غضبها، قَبِلَ ياشا أن يحكي لها قصّته. اعترف لها بأنّه يهوديّ وبأنّه وُلِد في أوكرانيا وانضمّ للبلشفيك منذ أول ساعة وهرب في العشرين من عمره من روسيا، يلاحقه رجال القيصر، ووجد ملاذه في أمريكا وعاد إلى الاتحاد السوفييتي بعد انتصار ثورة أكتوبر؛ ثمّ عاد إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٢١ ليُعيد تأسيس الحزبِ الشيوعي عاثرِ الحظ؛ وأنّه عمل في دترويت وشيكاغو متسلّلا إلى النقابات وأنّه كان مديراً للجمعية التقنية لمساعدة روسيا السوفييتية، وهي شاشة لأعماله التجسّسة؛ وإنّه يشغل في الوقت الحالي المركز الثالث في الحزب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشيوعي ويتظاهر بأنّه مدير (سياح عالميون)، الشركة التي أعدّها من أجل حصر السفر إلى الاتحاد السوفييتي وتفيده كغطاء. أخيراً حكى لها أنّه منذ بضعة أشهر كان سجيناً عند الشرطة السرّية في مكتب التحقيق الفيدرالي ولجنة النشاطات المعادية لأمريكا، اللعينة، التي وجد نفسها مجبراً على أن يدلي بشهادة فيها. هذه هي كما يبدو أسباب مشاكله الصحيّة. (بالمقابل لم يكشف لها عن أنّه لا يُكنّى بغولوس بل ريزين، وأنّه كان عضواً في وكالة المخابرات السوفييتية ويعيش مع عشيقة أخرى في واشنطن وأن عنده زوجة وابنة في روسيا).

أدركت بطلتنا بعد أن سمعت قصة عشيقها أنّ مصيرها سيبقى مرتبطاً بمصر القزم. والآن وبينما تتركه إليزابيث يلفّها بذراعيه القويّين والمشعرين تُجدّد وفاءها له.

- أحبُّك، يا ياشا.

- وأنا أحبُّكِ، يا إليززززاااابيث - يتنحنح غولوس، ويشدّ كلّ منهما على الآخر تحت خيط الضوء المتسلّل من حصيرة النافذة.

آريا ويتكر تشامبرز

بخلاف إليزابيث بنتلي فإن مسيرة ويتكر تشامبرز كجاسوس وواشٍ لم ترتبط قط بالجنس، بل بثقل جسمه. عندما انضمّ إلى الحزب الشيوعي كان جامعياً قويّاً مفتول العضلات مثل حمّال. بعد عشرين سنة وقد تمّ تقديسه من قبل اليمين صار لا يكاد يستطيع أن ينهض عن كرسيّه. بحسب لي كان تحوّله الإيديولوجي متناسقاً تماماً مع تحوّله الجسدي.

١٩٢٥ مائة وخمس وخمسون رطلاً (سبعون كغ.)

ـ أين يمكن أن نجد مكتباً للحزب الشيوعي ـ يقطب ويتكر ما بين حاجبيه ـ قرّرتُ أن أنضمّ إليه.

تنظر إليه غارلين سِندِر برقّة. تعرف أنّ رفيقها في جامعة كولومبيا يُكرّس نفسه منذ أشهر لالتهام الأدب الشيوعي ـ يهرب منه أصدقاؤه تفادياً لخطاباته حول *السوفييت يعملون* ـ، لكنّها كانت تعتقد أنّه أقل سذاجة بالمعنى السياسي.

ـ الحزب الشيوعي لم يعد موجوداً ـ تكشف له غارلين ـ فقد أعلنوا في العام الماضي عن عدم شرعيته وتفرّقَ أعضاؤه هنا وهناك. بعضهم أنشأوا مجموعة أخرى، حزبَ عمّال أمريكا، الشيء الوحيد الذي يخطر ببالي الآن هو أن أصِلَك بهم.

قرأ وايت المقطوعة اللينينية من بابها لمحرابها ويستطيع أن يلقيها عن ظهر قلب دون جهد كبير. لا يُفكّر أنّ قراءتها كانت كشفاً ـ فهو دائماً شجبَ الظلم ـ، لكن، بلى فكّر بأنّها كانت المُحوِّل الذي جعله يخرج من وهم الديمقراطية. في أوروبا تبيّنت له فظاعة ظروف حياة العمال والفلاحين، بل هو نفسه وقع ضحيّة الاستغلال الرأسمالي قبل ذلك، خلال الأشهر التي قضاها مستَعْبَداً في أنجل وهِفِنور وهو يُركّب السكك الحديدية على العوارض. إذا كان تصوّرَ نفسه في لحظة ما غير سياسيّ وحاول أن يُكَرّس نفسه لأنقى تنوّعات الشعر الغنائي، فهو يعرف الآن أنّ الفنَّ ليس إلاّ أداة أخرى من أدوات الرقابة الاجتماعية. لذلك ترك جامعة كولومبيا: كان قد تصوّر أنّ المؤسّسةَ الجليلةَ ستصير منبتَ الثورات، لكنها تكشّفت له عن مشفى مُصمّمة لإفقار وشرذمة المتمرّدين، والحدّ من خشونة النقاد وإعداد من سيَسْتَوْلون على البلد. الأخوّة المسيحيّة التي انضمّ إليها لاحقاً، مُتَّبِعاً نصائح لاها (أمّه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الطفيلية) لم تُقدّم له بدورها أي ملاذ، الدين لم يكن أفيون الشعوب بل قبرها.

يلوذ ويت، غاضباً من سلبيةِ معاصريه، بالمكتبة العامّة في نيويورك، واحة حيث يكرّس نفسه لتشكيل قنابله الأدبية، لكن ما من سطرٍ واحِدٍ يخرج من قلمه. يتصفّح بطلُنا مجلّة، منزعجاً أمام عقم صباحٍ آخر، عندما يقترب منه بحذرٍ عنصر قصير وحيويّ بوشاح أحمر ملفوفٍ حول رقبته التي لثور.

- هل أنت من يريد أن ينضمّ؟

يتخذ بطلُنا وضعيَّةَ الدفاع (تُثير قرفه رائحة القهوة في نفسِ الدخيل) ولم يُدرك طبيعةَ الدعوة إلا بعد برهة.

- بلى.

يقوده سام إلى خارج البناء ويوضّح له أنّ الحزب قبل ضمّه إليه. وعندها يُرافقه ويت إلى صالون مُضعضع في الجانب الغربي، حيث تتناقش شرذمةٌ صغيرةٌ، مخنوقة بين حلقات الدخان، بخمس لغات، ما الذي يجب فعله بالكوكب. يُراقبُ الواصلُ الجديدُ رفاقَهُ الجدد بحذرٍ، خائباً من أشكالهم المزعجة وأنهار كآبتهم. اعتقد أنّه سيجتمع بحرّاسِ الثورة الأشاوس، أرواح جميلة في أجساد أجمل، وبدل ذلك يكتشف رثّي الثياب أولاء.

يضعه سام بين شخصين مزرقّي اللون وهزيلين، ربّما كانا بولونيين أو تشيكيين، بأنفين ساميَّيْن هائلين. عمّ يتحدّثون بهذه الإنكليزية ذات التراكيب المستحيلة؟ هل عن الصراع الطبقي، المادّية الجدلية، دكتاتورية البروليتاريا؟ ينطلق ويت، غير القادر على أن يفكّ شِفرا مصطلحاتهم الجديدة، في خطبة مطوّلة حول انحطاط الغرب. يلتفت إليه مستمعوه وهم يَشْكُون بلغاتهم الشرقية من إنكليزيّته المُتَكَلَّفة.

لا يمرُّ يوم لا يزور فيه ويت مقرّ الاجتماع السرّي المعتم في الجانب الغربي، وفي الوقت الذي يستعرض فيه شغفه بالبلاغة، يكسب ثقة بمهارات الشيوعية الأوّلية، بصفوفها ومخاوفها، بجدلياتها، بمدارسها وتنوعاتها. في مداخلاته التالية يحيط حججه بكمية هائلة من الاستشهادات الماركسية ـ اللينينية. ما إن نجح في مرحلة الاختبار، يومَ ١٧ تشرين الأوّل ١٩٢٥ حتى عُمِّد في احتفال رصين تلقى فيه كتاباً من الحزب ـ، مختوماً وموقّعاً من قبل بِرت ميلّر، سكرتير تنظيم منطقة نيويورك.

صار صيّاد أرواح

١٩٣٢. ١٧٥ رطلاً (٨٠ كغ)

ـ مؤسّسات خاصّة؟

هذا برهان على الثقة ـ يحثّه بِداختْ بصوت خافت ورقيق، بينما شاربه نصف الشائب يقفز ويتراجع ـ. جائزة.

ـ لكن ما العمل السرّي؟ ـ يُظهر ويت أسنانه التالفة بما يشبه الافتخار.

لم يسمع في سنواته الستّ كمناضل شيوعي قط أحداً يتحدّث عن هذه المؤسسات الخاصّة.. إذا حدث ووصلت إلى مسمعه إشاعات مشوّشة، دائماً غير مؤكّدة، عن أعمال محجوزة للكوادر العليا للحزب، والآن بداخت يتواعد معه في مكتبهِ، في مركز العمّال وهو لا يؤكّد له وجود هذا العالم الباطني وحسب، بل ويدعوه ليصبح واحداً من عملائه. بينما كان يُشكّل جزءاً من هيئة تحرير ذي ديلي وركر ونيو ماس، لم يعتد ويت قط على الحذر والحسد والشكوك، التي يبدو أنّها تشكّل جزءاً من طبيعة الحزب، بعدها نجا من الطرد من أتباع لوفستون،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومن الاتهامات بأنّه تروتسكي متقنّع ومن رفع السرّية عنه بسبب كتاباته الأدبية، لكنّه لا يُعتبر مناسباً كي يخضع للانضباط الذي يطالبه به بداخت.

ـ لماذا أنا؟

يوضّح له الحذّاء القديم أنّ موسكو تُقَدِّر ذكاءه وتقيّم تطلعاته الأدبية ويوضّح له أنّه آن له أن يبرهن عن التزامه. عليه أن يترك منصبه كرئيس تحرير في ذي نيو ماس، وينسى مقالاته وينحلّ في الهواء.

ـ سوف ننشر إشاعة أنّك طُرِدت من الحزب.

أخيراً سيملك ويت الفرصة كي يعمل شيئاً أرفع من إعداد تهويماته الاشتراكية ويبدّد موهبته في قصائد وإشارات وصفية، وعد ويت أمام قبر ريتشارد أن يُعلن الحرب على الرأسمالية، النظام القادر على أن يدفع إلى الانتحار بنعومةِ ورقّة أخيه، لكنّ كتاباته لا تبدو له كافية للإيفاء بوعده بالانتقام. فقط هو لا يستطيع أن يقبل هكذا وبسرعة دون أن يستشير أستير.

ـ أحتاجُ لأن أُفكّر قليلاً ـ يحمرّ خدّاه كما لو أنّه طفل يحتاج لموافقة أمّه كي يذهب إلى حفلة.

يعود ويت إلى البيت بزهرة عود صليبٍ وبعينين شاحبتين وهائلتين. طلبت منه أستير بعد أن رأته يمضغ فخذَ فروجٍ نصفَ ساعة أن يُقدّم لها توضيحاً، يتريّث بطلُنا ويتلعثم بطريقة صبيانيةٍ ومتيبسة، كم هي مختلفة هذه المرأة عن كلّ نسائه السابقات! *الزوجات*. هكذا كان مجبراً أن ينادي كلّ النساء اللواتي سبقن أستير، »زوجاته الشيوعيات«.جيرتورد كانت الأولى، أرملة مكتنزة وسليطة اللسان، ذهب ليعيش معها بأمر من الحزب، ثم دعا بوب بانغ لتنتقل إلى عندهم وبحسب ألسنة السوء

ليتناوب معها في الفراش. مع إيدا، الثانية، التي كانت تبدو مشكّلةً من بلور، انتهت علاقته بها عندما حبلت وطالبها بالإجهاض. في تلك الأثناء كان ويت يخرج مع أستير. معها كان الاتفاق أكثر غموضاً: كان يعيش معهما في شقتهما الصغيرة مايك وغراس إنتراتور، وهما صديقان قريبان من الاثنين، الأمر الذي لم يتأخّر في إثارة التقولات، ما إذا كان الأربعة غريبي الأطوار أو منحرفين، أو ما إذا كانوا يتبادلون كلّ أنواع الوضعيات. على الرغم من مظهرها، مظهر ابنة الشارع، ومعاطفها النتنة والبالية، وجواربها الرطبة وأظافرها المسودّة فإن أستير انتهت بأن عشقته وطالبته بعرسٍ كما يأمر الله.

ـ لا!

ويت يتحسّب: شيوعي أو لا شيوعي، أستير تُفكّر الآن بالصنجات والمهود وبالأطفال يلاحِق بعضهم بعضاً في الحديقة، بالمشوار عند العصر مع كلب فلاحة. العملُ السرّي ليس المساعد الأفضل لقيام العائلة. أراد بطلنا أن يعرض لها حججه، يُكلّمها عن إيمانه الثوريّ، وعن عظمة قدره ولم يجرؤ.

يعود ويت ليصعد الأدراج حتى مكتب بداخت في مركز العمّال. يقضمُ أظافره، خجلاً لأنّ زوجته لم تُعطِهِ إذناً ليلقي نظرة على الجهاز السرّي.

ـ آسف ـ لا يرفع ويت نظره ـ. أنت تعرف كيف هنّ النساء: حين يبحثن عن ابن لا أحد يستطيع ردعهنّ.

ينفخ الخيّاط القديم خدّيه ويقطب شاربيه كفرشاة.

ـ تأخر الوقت كثيراً، يا تشامبرز، الإصلاحات تمّت. ما عاد باستطاعتك أن تتراجع. هل تفهم؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بلى، يفهم. يدرسُ ويت خياراتِهِ، أن يقول لا ويتحمّل غضب أستير، أو يقول لا ويتعرّض لانتقام موسكو. على كلّ الأحوال هي أخبار سيّئة لمن يتطلّع لأن يُصبح أباً لأسرة.

ـ سأتكلّم معها.

يشدّ بداخت على يده كما لو أنّه يُهنّئه بعرسه. كلاهما يُغادرُ البناءَ ويأخذ المترو حتى الشارع ١٤ حيث ينتظر جون شيرمان، أحد رفاقه القدماء في الديلي وركر، الذي يُقدّمه له بداخت الآن باسم دون. يسير بطلنا كتفاً إلى كتف مع صلةِ وصله أمام محلاتِ اللحوم المقدّدة في الحيّ، يصوغ له ويت مجموعة من الأسئلة، يريد أن يستغلّ هذه الخلوة كي يألف وظائفه الجديدة.

ـ الآن أنتَ متخفٌّ ـ يقاطعه دون الغضوبُ ـ هنا أنا من يطرح الأسئلة وأنت تُجيب عليها. وأنت تطرحُ الأسئلةَ وأنا لا أجيب عليها. اتفقنا؟

يوافق وايت.

ـ الأفضل الآن أن ننفصل ـ يتهيّأ دون ـ سنلتقي من جديد في الساعة السادسة أمام هذه المحطّة ذاتها.

لا يُقاوم بطلُنا إغواءَ الاحتفال بعملِهِ الجديد بنصف زجاجة من الوسكي. تحوم صورة أستير الصفراوية والمريعة، في رأسه. يُشكّل هذا المساءُ أوّلَ درسٍ له في الجاسوسيّة مع دون، يصعدُ كلّ منهما في عربة مترو مختلفة، ينزلان في الشارع ١١٠ ويسيران باتجاه الشمال على رصيفين متقابلين، يطوفان حول الإيست ريفر ويدوران حول قبر غرانت في الشارع ١٢٣، حيث تأخذهما سيّارة. السائق الذي يناديه دون بنيك، رجل ضخم، أشقر الشعر، سلافي النبرة، يُدير الحديث. يعرف ملفّ

ويت بالتفصيل ويسأله عن ميوله السابقة، علاقته بلوفستون، عدم انضباطه وعلاقاته بالتروتسكيين.

- قد أكون ارتكبتُ أخطاءً في الماضي - يعضّ ويت على إبهامه - لكنّني مستعدّ الآن لأن أقبلَ خطّ الحزب.

يضع نيك يدَهُ على فخذ بطلنا البدين.

- سيكون اسمك اعتباراً من اليوم كارل.

أنا بطرس وعلى هذه الصخرة، إلى آخره...

- ستترك تحرير ذي نيو ماسيس والحزب سيتكفّل بنفقاتك. - يقول له نيك - دون سيُسلِّمك في كلّ شهر مائة دولار. إذا احتجت إلى أكثر تكلّم معه. بالطبع عليك أن تبيّن نفقاتك.

يتوقّف نيك في شارعٍ ضيق، يخرج بعض الأوراق المالية من محفظته ويسلّمها لبطلنا.

- كي تشتري طقماً لائقاً.

يودعهما ويت مرتبكاً ويتوجّه مباشرة إلى المترو. طفل يحمل دمية دبٍّ. لم يخطر له طوال الطريق أي صيغة كي يوضّح لأستير حياته الجديدة

١٩٢٥. ١٨٧رطلاً (٨٥ كغ)

مسكين هول، يتأسف بطلنا. كان هال وير، برأيه، الشيوعيّ الذي لا يكلُّ، الأكثر نشاطاً وطموحاً، الذي التقى به. كان قد مضى سنوات كثيرة على ويت وهو يعمل ساعياً - الجامع بين الناس، باللغة الصريحة لمتآمري الماضي -، المهمة التي لم تكن على مستوى تطلعاته، إلى أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جعله هال مسؤولاً عن التنسيق بين أكثر المجموعات نشاطاً. حقيقة يأسف لأنّه لم يحضر جنازته، لكنّ الحزب أمر كلَّ عملائه بتفادي أي نشاط عام.

ـ الراحة لنفسه يدمدم ويت (أو بالأحرى كارل).

كان الحزب قبل وير مكوّناً من حشد بائس من المستضعفين؛ وبفضل جهوده امتدّت خلال أقل من سنتين مجساته إلى بضع عشرة وكالة ومنظمة فيدرالية، بما في ذلك وزارات الزراعة والعدل والخارجية والخزانة. عملاؤه لم يعودوا أولئك المُهاجرين من أصحاب الأخلاق الريفية وصاروا من خريجي إيفي ليج وشباباً من أسر راقية. كانت أزمة ١٩٢٩ الأرضية الأفضل لجمع أولئك المثاليين، جميعهم مزّقتهم اللامساواة والظلم؛ وإقناعُهم بالانضمامِ للصراع ضدّ الإمبريالية ما عاد مهمّةً عير معقولة ومستحيلة.

عندما يعود كارل إلى نيو هوب، حيث استأجر بيتاً كي ترتاح فيه أستير وابنته الوليدة، يعلم بأنّ ج. بيترز قرّر أن يقسم حلقة وير إلى مجموعتين فرعيتين وبأنّه سيبقى على رأس عملاء واشنطن، ومع ذلك يبقى روتينه دون تبدّل. في كلّ يومٍ يقودُ لساعتين ونصف من نيو هوب وحتى واشنطن، حيث يتواعد معَ بعض من هو على اتصال بهم، في مقهى أو سينما أو حديقة عامّة، يدسّ الأوراق التي يُسلّمها له في بطانة سرّية في حقيبته ثمّ وبعد سلسلة من المناورات والدوران يحملهم إلى بيت آمن في بالتيمور. ساعة أخرى في الطريق. يُصوّر بطلُنا الوثائقَ بكاميرا ليكا ويترك الميكروفيلم لينشف خلال الليل، يقود ثلاث ساعات أخرى عائداً إلى البيت فقط كي يعود في الصباح إلى بالتيمور ليستعيد المواد. ويبدأ على الفور رحلة لساعتين إلى نيويورك، حيث يسلّمها

بنفسه إلى الروسي المصاب بجنون العظمة، ذي العينين الصغيرتين كحبّتي زيتون.

بعد بضعة أشهر ينتهي كارل إلى المستشفى مهدوداً من قلّة النوم، يقتنعُ: ستقتله الجاسوسية في النهاية. وبفضل قرض من لاها يستثمر كلّ مدخراته في مزرعة في ميريلاند، الأقرب قليلاً إلى العاصمة، ويطلب تقليص مهامّه، قائلاً إنّ تركيز كلّ تلك المسؤوليات في شخصٍ واحدٍ ليس مستحيلاً إنسانيّاً وحسب بل وخطيراً استراتيجياً.

ـ هل تتصوّر لو أنّهم استطاعوا توقيفي؟ يمكن لتدفق المعلومات أن ينقطع لأسابيع.

أمر الروسيُّ مُكْرَهاً عميلاً آخر، اسمه الحركيّ فِليكس بأن يأخذ على عاتقه تصويرَ الوثائق، سامحاً لبطلنا أن يُكرّس مزيداً من الوقت لتوسيع الشبكة، التي ينضمُّ إليها ـ بحسب شهادته اللاحقة أمام هيئة التحكيم الكبرى ولجنة النشاطات المعادية لأمريكا ـ، سيلفرماستر، وايت وعدد من معاونيهم في وزارة الخزانة. وبهذا الشكل يتحوّل كارل إلى محورِ أكبر مؤامرة تجسّس مدسوسة عرفتها واشنطن.

١٩٣٨. ٢٠٠رطل (٩٠ كغ)

ـ هل هذا كل شيء؟

لا يكاد ذلك الصباح الربيعي يختلفُ عن الصباحات الأخرى: مُطبق، باردٌ، لا ملاحة فيه. يُسلِّمُ كارل (ما زال كارل، على الأقل فيما تبقى من اليوم) فليكس الوثائقَ التي جمعها توّاً في واشنطن عندما ينتهي هذا من تصويرها يعيد الأصول إلى أصحابها. باستثناء واحد، في هذه المناسبة، يحتفظ ويت بما يبدو له أنّه أهمّها أو أكثرها حساسية، بتلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي يمكن أن تُساعده في المستقبل. وبدل أن يقودَ باتجاه نيويورك، حيث ينتظره الروسيّ بلهفته المعتادة ينعطف ويت (هو من جديد ويت) نحو ميريلاند.

ـ هل أنتما جاهزان؟.

تشدّ أستير حزام الأمان للصغيرة إلين وتُسوّي جلستَها في السيارة إلى جانب زوجها.

ـ إذن هيّا بنا.

كان ويت يشكّ دائماً بأنّ الستالينية فسادٌ أو هذيان، لكنّ احتدام أعماله السرّيّة جعله يُغمض عينيه عن جنون الطاغية. ملاحقة أعداء الشعب ـ بمن فيهم عدد من رفاقه، مثل بيل وزوجته ـ أحكام بالنفي والإعدام دون محاكمات والميتات الغامضة لم تترك له مجالاً للشك بالتفسّخ الذي يتخفى وراء القضيّة الثورية. لا أحد بعقله السليم يستطيع أن يعتقد أنّ كلّ أولئك العملاء الطيبين كانوا هم أنفسهم اليعاسيب الرأسماليين الذين سيعترفون فيما بعد بسلسلة من الجرائم المريعة. أستير دعمته دون تحفّظ، لكنّها سئمت من التخفّي ومن تبديل الإقامة والأرق، سئمت من القلق اليومي مِنْ أن يَعتقلهم مكتبُ التحقيق الفيدرالي، أو يعدمهم الروس.

وفقاً لخطّة هربهم الحذرة استأجر ويت غرفة في أولد كورت رود، تجمّع سكني في وودلاون، ميريلاند وأخذت زوجته على عاتقها أن تشتري سيارة جديدة. بعد أن ترك الروسي ينتظرُ في نيويورك شرعت عائلة تشامبرز برحلة طويلة إلى بطرسبورغ، في فرجينيا.يصلون في اليوم التالي إلى سومتر في كارولينا الجنوبية ثم إلى جاكسونفيل. أخيراً يستأجرون بيتاً صغيراً ويُغلقون على أنفسهم عدّة أسابيع.

ـ ستكون إجازة جميلة ـ يكذب ويت على ابنته.

يستغلّ حبسه القسري وينهي ترجمةً عن الألمانية لصحافة أكسفورد الجامعية، دخله الوحيد المُتوقّع ويُحضِّرُ نفسه للقسم الألمع من خطّته. تنطلق عائلة تشامبرز بحذر عائدة إلى غرفة أولدكورت رود المضعضعة ثم وبعد أسبوع تستأجر بيتاً صغيراً في الـ ٢٦١٠ من شارع بول ستريت، بجانب جامعة جونز هوبكنز. ضربة دهاء! على الرغم من أنّ الروسي ـ اسمه الحقيقيّ بوريس بيكوف هو المقيم لخدمة المخابرات العسكرية السوفييتية (غرو) في الولايات المتحدة وأزلامه وضعوا سعراً لرأسه، فإن ويت وأسرته ما زالوا سالمين غانمين في آخر مكان يمكن أن يخطر ببال الروس أن يبحثوا فيه عنهم. في ميريلاند على بعد أميال قليلةٍ من واشنطون ومِنْ ماضيه كجاسوس

١٩٤٨. ٢٦٥ رطلاً (١٢٠ كغ)

ـ والأطفال؟

لا يوجد مساحة للعاطفة في صوت أستير. يأخذ ويت يدَها ويُقبّلها.

ـ علينا أن نكون ممنونين لأنّنا وصلنا إلى مثل هذا البعد في جوٍّ من السلام والسعادة ـ يترك بطلنا نفسها يسقط بكلّ ثقله على كرسيّ كبير. بعد النوبة القلبية التي أصابته في العام الماضي ما عاد يُقاوم الوقوف على قدميه أكثر من خمس دقائق.

ويت مجبر على الشهادة لا مناص له.

منذ أنِ انتهت الحربُ لم يتردّد في مقابلة عددٍ لا نهاية له من مُحقّقي مكتب التحقيق الفيدرالي، وفروع أخرى في الحكومة. أعطى مقابلات لا نهاية لها لصحفيين وأكاديميين وقدّم نفسه للتعاون مع أعضاء من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مجلسي الشيوخ والكونغرس ـ بل وتحمّل هواتف مكارثي الملحّة ـ، لكنّه رفض أن يشي بأصدقائه. ربمّا أن سوء صحّته خفّفت من حدَّته؛ الحرب الوحيدة التي تهمّه، يُقال، هي الحرب ضدَّ الشيوعية، كمنظمة أفكار، وليس ضدّ أتباعها. لا يريد لرفاقه القدامى أن ينتهوا إلى السجن؛ طبعاً أيضاً لا يريد أن ينتهي هو نفسه إلى زنزانة، لكن الواقع الآن لا يَترك له خياراً آخر.

لا يعرف ويت من تكون تلك الشقراء، »ملكة الجواسيس الحمر، التي تتحدّث عنها كلّ وسائل الإعلام، لكنّ الأسماء التي ذكرتها أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا وأمام الصحافة تنطبق على كثيرين من المتواصلين معه، معاوني وير والجهاز السرّي الذين جمع منهم مرات لا تُحصى وثائقَ سرّية كي يسلمها بعد ذلك للروس. بل تردّد على بعضهم اجتماعياً. إذا ما استدعوه للمثول سيكون عليه أن يكشف عن كلّ ما يعرفه ـ حسن، ربما ليس كلّ ما يعرفه.

عندما يرنّ الهاتفُ يُدرك ويت أن مصيره تحدّد. أوّل من اتصل به كان مراسل التايم في الكونغرس ـ الأسبوعية التي عمل هو نفسه فيها على امتداد السنوات الأخيرة. منذ دقائق، يقول له هذا، أعلن رئيس لجنة النشاطات المعادية لأمريكا أمام الصحافة، أنّه وبهدف التأكّد من الاتهامات التي صبّتها السيّدة إليزابيث بنتلي ضدّ مختلف أعضاء إدارة روزفلت، أصدرَ أمراً بالمثول كي يمثلَ شاهدٌ جديد، هو أنت، يا سيّد تشامبرز أمام أعضاء مجلسي الشيوخ والكونغرس.

ـ حالياً ليس عندي ما أدلي به ـ أجاب بطلُنا.

مكالمة أولى، أولى.

يبدأ السيرك.

المشهد الرابع
حول كيف تثقبُ فقاعةً جنسية وحرب العالم

ترتيل

ماذا سأفعل له؟ على الرغم من أن فيكرام ما يزال يَصفني بالبربريّ ويشجب ذوقي السيّئ، منذ ذلك اليوم أكره الطعام الحارّ، الكوري بكلّ درجاته، الكركم، كبوش القرنفل، القرفة، عجينة التمر هندي. الصلصات الحامضة الحلوة، بذور الخردل، أوراق ليمون الكافير، الهال، أنواع طاجين الرزّ، حليب جوز الهند، الكزبرة، كلّ هذه المتع التي يجلّها المقلّدون والأثرياء الجدد في أمريكا. لم يدفعني انزعاجي لأن أشتاق للهمبرجر البلاستيكي أو للسجق الأمريكية التي لا إمكانية لسبرها، المخفية دائماً تحت طبقة ضاربة للحمرة والصفرة، المشكوك بأصلها. بالمقابل لم يخرج ستيفن وفريقه من المكدونالدز ـ، لكنّ معدتي لم تعد تتحمل طبقاً آخر من الباد ـ تاي، لفافة جديدة من القريدس أو طبقاً آخر من سلطة البابايا الخضراء. بعد ثمانية أيّام من امتلائي بهذه الأطعمة بسبب مضيفينا ـ التنفيذيين المتأنقين بأطقم من الكتّان الأبيض وربطات العنق المزهرة ـ، كان قد مضى عليّ ساعتان متقوّساً في محنة مضاعفة من التقيّؤ والإسهال خاضعاً إلى جرعة فيلٍ فموية كانت تجبرني على التبوّل مع كلّ تنهيدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أفهم قط لماذا اعتبر ج. م. أنّ قيادتي لتلك المهمّة في كوريا الجنوبية وماليزيا وإندونيسيا وسنغافورة وتايلاند لا بدَّ منها. كانت عملات تلك البلدان قد بدأت تنهار قبل أسابيع، وهي أكثر مرضاً منّي أنا نفسي. دون أن يكون هناك علاج معروف، ليس لوقف انزلاقها، بل لتخفيف الغثيان الذي كان يُعانيه لونغ تيرم بسببها. كما يحدث دائماً للفقاعات ـ دائماً هو دائماً ـ الشبيهة تماماً بالحبوب والبثور تنمو وتنتفخ حتى يأتي يوم تنفجر فيه وسط الوجه. حافظت البنوك المركزية للنمور الآسيوية لأشهر على أسعار فائدة في مستويات لا تُقاوم بالنسبة للمستثمرين الأجانب (النعت الذي نُفضّله نحن هو الثعالب) محدثة دفقاً لزجاً من رؤوسِ الأموال نحو اقتصادها. كما كان متوقّعا فإن هذه الوفرة المفاجئة قد خصّبت مؤشرات النمو وزادت من المضاربة بعملاتها ـ كي لا نذكر الملايين التي استنفذها المنظمون والسياسيون المتلاعبون ـ إلى أن سخنت أسلاكُهم وانفجرت العقدة مثل نيران الألعاب النارية التي كثيراً ما تُدهش أبناء البلد دون أن يبقى أمام قادتهم من مخرج آخر غير أن يستدعوا لمساعدتهم رجالَ إطفاء صندوقِ النقد الدولي (رجال إطفاء، ولتعذروني إن قلتها، هم أقرب إلى الحارقين المُتَعَمِّدين)

أخيراً، ليس قصدي أن أتعبكم، قرّائي نافدي الصبر، بدرسٍ حول كيف تعمل (أو تتوقف عن العمل) الاقتصاداتُ الناشئة، يكفي القول بأنَّ لونغ تيرم كابيتال منجمنت راهن بالملايين على البهت وعملات أخرى لا يمكن لفظ أسمائها، نظراً لأنّ النماذج المطوّرة من قبل تلاميذِ ميرتون وسكولز كانت قد أكّدت أنّ إمكانية تخفيض العملة غير وارد ـ أقول غير وارد: شبه معدومة ـ، وأمرني ج. م. بأن أشرع بالسفر من الشمال إلى الجنوب في تلك «المناطق الفردوسية» بهدف معرفة لماذا أخطأت صيغُنا التي لا تُخطئ. بكلمات قليلة: علينا أنا وفيكرام وستيفن أن نعرف لماذا أصيبت المعجزة الاقتصادية الآسيوية المشهورة بإسهال شديد مثل بطني.

ممزّق القلب أمام عجزي عن التركيز على شيءٍ آخر غير حاجاتي الجسدية، جرعتُ زجاجةَ مضادّ إسهال وبدأتْ يُرافقّني مرؤوسيّ - المعانِعون في البداية لمثل هذا النوع من الغارات - سبري الخاص للأسواق الشرقية.

ماذا أستطيع أن أقول غير أنّ شوارع بانكوك كانت جنَّة بالنسبة إلى أدلاء عدمِ التدخل؟ الدولة، إذا كانت موجودة، لم تكن تتدخّل في هذه المنطقة مِن السوق. كما لو أنّ الأمر يتعلّق بالحلم المُحقّق لمعبودتي آين راند، كان رجالُ الأعمال المبدعون هنا ينتصرون دون أن يُعكّر عليهم فتوحاتهم صوتُ الضعفاء. تحوّل أكثرهم فطنة إلى أصحاب بارات، مقامر ونوادي وصيفاتٍ، هؤلاء وأولئك كانوا يتنافسون فيما بينهم دون أن تقومَ أيُّ سلطة مزعجة بكبح قوتهم الرأسمالية. الذي كان يجمع الفتيات أو الفتيان الأجمل والأكثر صبوةً أو الأحلى، كان عنده ما يربحه: مزيد من الزبائن ومزيد من الاستثمار لتجارته.

على امتداد أيام العمل الهنيئةِ تلك، غصت في التحقيق بالسوق والذي أعطى نتائج لم تكن مفاجئة أبداً: إن تدفّق السياح والسابرين من أبعدِ تخوم الكوكب بأحزمة نقودهم عداً ونقداً - وهرموناتهم في أوجها - لم يحدث ارتفاعاً ذا معنى في أسعار الخدمات المقدّمة من خوادمَ الجنس، بل إلى زيادة عدد المواخير وبيوت الدعارة، التي سرعان ما استعمرت الأحياء الخلابة الملاصقة للمنطقة الحمراء. كلّ تايلاندي يملكُ قليلاً من الذكاء اقتنعَ بأنّ هذه الشركات الصغرى كانت السبيل الأكثر مباشرة نحو الثروة وكثير من أصحاب الرؤى طلبوا قروضاً بمبالغ هائلة (عامة من رجال مافيات وأسوأ أنواع المبتزّين) بهدف بناء المزيد من معابد المتعة تلك. فقاعة نموذجيّة. فقاعة جنسية، ككل الفقاعات، لا أحد أراد أن يراها..

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ظننا أن الزبائن سيصلون دون توقّف»، اعترف لي صاحب نادي التنينات الثلاث، المهموم بإنكليزية غابيّة، «لم يكن هناك من داع للتكهّن بتقلّصٍ مفاجئ للزوار الأجانب». طبعاً لا. فالأمر يتعلّق ليس فقط بأقدم تجارة في العالم، بل وأكثرها أماناً وفعالية، أو على الأقل هذا ما كان يُردّده أولئك الرأسماليون الاستوائيون. «يستطيع الأوروبيون والأمريكيون أن يحرموا أنفسهم من أيِّ شيء، إلا من الفرج». ربّما سيكون هؤلاء، أفذاذ الأموال الداعرة على حقّ لو لا أنّ فقاعتهم الصغيرة كانت في فقاعة أخرى أكبر، الفقاعة الاقتصادية التايلاندية التي كانت بدورها جزءاً من الفقاعة الآسيوية العملاقة.

وذات يوم ودون سابق إنذار، قلَّ الزبائن، في البداية ببطءٍ ثمّ قلّوا بطريقة متسارعة ما عادت أفواج السياح الألمان والفرنسيين أو اليابانيين البدينين تنزل من يخوتها وطائراتها وسيارات الليموزين، ببنطلونات قصيرة مزهرة، وكاميرات رقميّة وقضبان منتصبة (وماركات وينات وجنيهات أو دولارات. وماذا عن آلاف الأذكياء الصغار الذين طلبوا قروضاً من رجال مافيات ومبتزين، مقتنعين بأنّهم برفّةِ عينٍ سوف يسبحون في المال ويدفعون ديونهم بسخاء. بعضهم انتهى إلى قاع الخليج برصاصٍ مربوطٍ إلى رسغيه، وآخرون صاروا عبيداً للدائنين، وآخرون أكثر لاذوا بالمستنقعات الداخلية.

ـ هل تعتقدان بإمكانية الخروج بمغزى من حكاية الجنس والبخل هذه؟ ـ سألتُ ستيفن وفيكرام في نهاية رحلتنا.

هزّ الهنديّ كتفيه. الأمريكي لم يلتفت ولا حتى كي يراني.

ـ الدرس ليس في تخفيف الاندفاعات، في ألاّ نترك الجنونَ الجماعيَ يعمينا أو في تفادي رجال المافيات ـ أعطيتهم درساً ـ

الفقاعات كانت موجودة وستبقى دائماً هناك، تتضاعف في مكان أو آخر. ما علينا أن نفعله هو أن نُحاول الهرب منها في آخرِ لحظة.

ـ ما أصفاهُ، ذهنك! ـ سخرَ ستيفن.

تلك الفقاعة الجنسية، الشبيهة جدّاً بالفقاعةِ الاقتصادية، التي كانت تلفّها، تحوّلت من وجهة نظري إلى السابقة على تلك التي ستستمرّ بهزٍّ وتحفيزِ اقتصادِ الكوكب في العقدين التاليين (عن أكبرها: فقاعة العقارات ما بين عام ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٧ سوف أتكلّم لاحقاً) تماماً كما كتبتُ في تقريري إلى ج. م. عند عودتي، خطأ اللونغ تيرم كابيتال منجمنت كان ذاته خطأ أيٍّ من شركات المواخير الريفية تلك. لقد عثرنا على الفقاعة في لحظة مواتية وكسبنا مبالغ طائلة فيها، لكنّ نظرياتنا الفلكية لم تخبرنا متى نغادرها.

ثنائي

ـ الأوّل عبقريّ، الثاني فقط لامع؛ الأوّل مجازف، الأوّل أرستقراطيّ وشغوف بالفنون، الثاني دهمائي ومولع برياضات المضرب ـ لي كان يرسم شخصياته كما لو أنّهم جزء من أسرته ـ. إذا كانت الاختلافات بين كينز ووايت كبيرة (فقط كان يجمع بينهما التصوّر العالي جدّاً الذي كان يملكه كلّ منهما عن نفسه) خططهما لما بعد الحرب لم يكن من الممكن أن تكون أكثر اختلافاً.

خلعت لي حذاءَها وارتمت على الأريكة كما لو أنّها في بيتها، آخذةً رشفاتٍ صغيرةً من شاي النعناع، الذي حضّرَتْهُ بنفسها. كان سالينجر يشخرُ عند قدمَيْها بشكل متهدّج كما لو أنّه يريد أن يذكّر بوجوده في صالوني.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لجأ كينز إلى تيلتون في أيلول ١٩٤١، بعد وقت قصير من تعيينه عضواً في مجلسِ بنك إنكلترا، كي يُفكِّر بمصير اقتصاد الكوكب ـ لي كانت تُلَخّص لي الفصلَ الرابعَ من رسالتها ـ. كانت قد مضت على العجوزِ أشهر وهو يُقلِّب بالمسألة: ما هي عيوب الشفيع الذّهبي؟ ما المشاكل التي ستُواجهها إنكلترا بعد النصر؟ لكنّه فقط في سكونِ الريف وقعَ على نظامه المثالي.

عدتُ، غير آبهٍ كثيراً بدرسِ رفيقتي في التاريخِ الاقتصادي، لأفحصها، مُقتنعاً بأنّها كائن من كوكبٍ آخر. جبهتها عريضة تغطيها خصلةُ شعر تجعلها تبدو حتى أصغر مما صغيرة، تفسح المجال أمام عينين صغيرتين يقظتين مُعَشَّقَتَيْن في وجنتين جَهْمَتَيْن، الجزء الوحيد من وجهها الذي يُقلّص عذوبة تعبيرها. ربما كان أكثر ما يشدّني إليها هو أنّها واحدة من الأشخاصِ المُفْعَمين بالأفكار حول كيف يعيش المرء بأخلاقٍ، والذين ليسوا كثراً في عالم المال. لا أستغربُ إذن أن تختار في الصراع بين وايت وكينز، دون تردّدٍ، مجموعةَ الثاني.

ـ الغاية الأساسية للاتحاد الدولي للتعويضات عند كينز هي تأمين ضبطِ الأمم المُقرِضة دون التنازل عن نظام الدائنين ـ ـ تتابعُ غيرَ مباليةٍ بأفكاري ـ. بحسب البريطاني الصفقات الدولية يجب أن يتم التفاوض عليها عبر حسابات تعويض ستملكها البنوك المركزية في بنك دولي جديد للتعويض. تستطيعُ البنوك المركزية أن تشتري وتبيعَ عملاتِها الخاصّةَ بها مقابلَ قروض وديون حساباتها، وسيُعبر عن أرصدتها بوحدة قياس جديدة، البانكور.

كان الخروج لتناول الطعام معها تجربة تتراوح بين السبرِ النباتي والعقيدة الدينية. رأفتُها بالجنس البشري كانت تزداد مع الماشية

والخنازير التي تُنتهك ثمّ تُذبَح في مركباتٍ صناعية مشؤومة، إذا لم تكن تقنعني بالذهاب إلى أحد المطاعم التي تقدّم طعامها، طعام الفضاء الخارجي ـ همبرجر مزيف، فخذ فروج مزيّف مصنوعة من العلف ومن بذور الفصّة ـ، يكون عليّ أن أُفكّر كيف كانت تُحلّل الوجبات حتى تخترع أطباقاً نقية بما يكفي لكي تنزلق في جهازها الهضمي.

ـ لكلّ بنك مركزي الحقّ بمبلغ من البانكور مماثل لنصف القيمة المتوسطة لتجارتها العامة في السنوات الخمس الأخيرة ـ تتابع لي توضيحاتها دون أن تتوقّف عند تثاؤبي ـ، وكلُّ عملة وطنية ستملك معدّلاً ثابتاً من التحويل إلى العملة الجديدة، وإن كان قابلاً للتعديل. ستسمح الآلية بالحفاظ على التوازن في ميزانِ المدفوعات بين البلدان الأعضاء. الإيداعات في البنك سوف تَتمّ انطلاقاً من الفوائض أو العجز وتنتهي بتصفيتها. وفي انعطافة نظام كينز الأكثر أناقة، أنّه إذا حقّقت جميع البلدان في نهاية العام توازناً تامّاً، فإنّ ميزان بَنكور سيعبر عنه بصفر. ثمّ إنّ كينز تخيّل شرطةً فوق القوميات ومؤسّسةً لإعادة البناء والنمو. للأسف هذا المشروع الجميل لم يتحقّق قط، بعد أن قاطعه وايت.

ـ وهكذا أُفلت من أيدينا! ـ سخرتُ.

كان يفتنني سماعُها هكذا، بذلك العنف الجامح الذي كنتُ أجده مُفاجئاً وغريباً جدّاً. وبعكس كلّ التوقعات (وبالرغم من تطفل سالينجر الكريه) كنّا بدأنا نشكّل هذا الذي عادةً يُسمّى بأقصى حدود الابتذال، زوجين صالحين.

ـ بخلاف كينز، اقترح وايت إنشاءَ مؤسّستين متوازيتين، بنكاً وصندوقاً لتحقيق الاستقرار ما بين الحلفاء ـ بلّلَتْ إصبَعَها كي تُمرّر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صفحاتِ الرسالة ـ أكثرَ واقعيةً وأقلَّ طوباوية. كي يبدأ لم تأخذ خطّتُهُ بالاعتبار وحدة مصرفية جديدة وتقترح أن يُشكّل الصندوقُ من اكتتابات بذهب، وعملات الدول الأعضاء المحلّية وأدواتها مالية، موزّعة بحسب الحصص النسبية (التي سيكون إلى حد كبير هو من سيُحدِّدها) تحت تصرّف البلدان الأعضاء، التي عندها مشاكل في ميزان المدفوعات. بالمقابل، على هذه البلدان أن تتنازل قليلاً عن سيادتها الماليّة وأن تخضع لإشراف الصندوق. بنك إعادة الإعمار والتنمية (البنك الدولي) يمدّ بالرأسمال الضروري لإصلاح أضرار الحرب من خلال قروض طويلة الأجل بأسعار فائدة منخفضة.

ـ ـ إذا ما فهمتُ جيّداً ـ حاولتُ أن أكون جدّياً ـ، فإنّ خطّة كينز كانت أكثر طموحاً وتجديداً من خطّة وايت، لكن وقتها كان قد صار واضحاً أنّ الولايات المتحدة ستفرضُ قراراتها على قوّة من الدرجة الثانية مثل بريطانيا العظمى.

رسمت لي ابتسامةً سمحت لي بأن أُقدّر مرّة أخرى أنيابَ ماصِّ الدماء البضةَ عندها.

ـ إذا كان وايت جاسوساً شيوعيّاً ـ ختمتْ أخيراً ـ، فيجب أن يكون جزءاً من طبقةٍ خاصّة جدّاً، أقل اهتماماً بنشرِ أفكارِ ماركس من تأمين هيمنةِ الولايات المتحدة على الكوكب.

لم يستطع استنتاجُها أن يُطمئنّي، لكنّ الساعة الكبيرة التي تتصدّر الصالون أشارت إلى منتصف النهار. استيقظ سالينجر من سباتِهِ وحملته لي بين ذراعيها كما لو أنّه دمية. كانت ساعة قطع دردشتنا والخروج للبحث عن جَزَرِها ولفتِها.

جوقة الابنين الجاحدَيْن

أمام الفظائع التي يوقعها بنا آباؤنا ـ أوّلها: انتزاعنا من العدم كي يهجرونا في هذه الموحلة ـ، لا يبقى أمامنا غير طريقين: أن نَتَمَيّز عنهم، بكلّ الطرق الممكنة، بما فيها هدر قرائحنا (مثل إسحاق) أو أن نُفاقِم بلاهتهم وأخطاءهم، مقتنعين بأنّ موافقتهم ستكون الإجراء الوحيد لنجاحنا (مثل سوزان). هذا هو البعد البائس لإرادتنا الحرّة، نقطع رأس العجوز ونتمزق مع كلّ ضربة فأس أو أن نتظاهر بذلك ونصبح مقصورين على حالة الببغاوات أو قرود المكاك بلا رغبات. يمكن أن يحدث أنّ أحداً يعتقد أنّه يُعارضُ الأب وينتهي بأن يصير انعكاساً له (مثل إسحاق) أو أنّ أحداً يصرُّ على البحث عن مباركته كي يصفّيه بطرق أكثر وحشيّة (مثل سوزان).

على الرغم من أنّ راشيل أجبرتْ ابنيّ منذ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على التذلّل أمام سلسلة طويلة من المعالجين من طوائف متناقضة ـ بدءاً من الفرويديين العدوانيّين وحتى اللاكانيين القتلة، دون أن ننسى الهاذيين من أتباع كارل غوستاف يونغ ـ، البرهان على أنّ التحليل النفسيّ ليس أكثر من لعبة صالون معقّدة وعبثية هو أنّه لا سوزان ولا إسحاق انتبها إلى أنّهما بقوّة تعذيبهما لنفسهما في كلّ ساعة بسبب علاقتهما الصراعية معي، حوّلاني إلى مركز حياتهما. مسكينة راشيل! آلاف وآلاف الدولارات بُذّرت فقط كيلا يصير أيٌّ منهما، بعد أكثر من عقد من تفسير أحلام باطلةٍ وتمتمات باعترافاتٍ مريعة قادراً على تحمّل مسؤولية نفسه. ساعات لا نهاية لها ضُيِّعت كي تخلص إلى أنّني كنتُ المسؤول عن خوفهما وفشلهما دون أن يفيدهما هذا الكشف في شيء (ويتهموننا نحن سادة وول ستريت بأنّنا غششنا آلاف الأبرياء!)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إسحاق المهووس بتفادٍ نموذجي مهما كان الثمن جهد في الحصول على ميدالية الأب التام، الذي يعني بحسب كلماته، التدخّل في كلّ شؤون أولاده وقبول أكثر نزواتهم تفاوتاً. لا شكّ عندي أنّ تويدليدي وتويدليدوم ـ داف وجو ـ تحوّلا إلى كرتين خمولتين من الشحم لأنّ أباهما مصّمم على ألا يؤذي حساسيتهما ويرفق أن يمنع عنهما الأطعمة اللذيذة والضارّة والكوكاكولا التي كانا يلتهمانها بكميات هائلة. «الأطفال ليسوا بلهاء ولا معاقين» كان ابني يُعلن مكّرراً أطروحة كات، «الأطفال أشخاص صغار» وحاول مرتكزاً إلى هذه النظريّة أن يتعقّل معهما منذ الثالثة عشر من عمرهما. دون أن يُدرك أنّ الأطفال ليسوا شيئاً آخر غير آلاتِ رغبة ـ أنانيين تماماً ـ، كان يُحاول أن يقنعهما أن يفعلا هذا أو ألاّ يفعلا ذاك بحجج كان الطفلان يسحقونها بالعواء أو بانفجارات الغضب. ومع فشل الحوار أذعن إسحاق وزوجته لإرضاء حتى أكثر طلباتهما جنوناً، الاثنان مكوّران جدّاً، بدينان. لم يراكم الاثنان بفضل هذا التكتيك أطناناً من الشحوم وحسب بل أيضاً مجموعات هائلة من الألعاب ـ واحد جمع روبوتات والآخر ديناصورات ـ كانت صدى مجموعات قصصي المصوّرة وأسطواناتي. بعدها جاءت ألعاب الفيديو ومعها تفكّك تلك الحياة العائلية الحنونة، التي كثيراً ما كان يتباهى بها إسحاق.

عندما كنّا نزورهم أنا ولي بالكاد كان تويدليدي وتويدليدوم يخرجان أنفهما من غرفتهما، حيث كانا يقاتلان التنينات وسكان الكواكب الأخرى، أو يرافقان قفزات صديقيهما الوحيدين الحقيقيّين: لويجي وماريو اللذين لا يكلان، كان غيابهما بالنظر إليه عن بعد مرغوباً به، ذلك أنّهما حين يغادر البليدان المائدة، يبدآن بنقر إلياتهما حتى ينتهي أحدهما بالتباكي على الأرض. كان والداهما يُحاولان، بدل أن يُعاقباهما

يتعقلان معهما وبصبر رجلٍ تحرٍّ يُحققان ليعرفا من الذي بدأ الاعتداءات. صار تويدليدي وتويدليديوم وقتها لا يردّان على أسئلتهما، وبدآ من جديد بتبادل الضرب والصفع أو القبوع أمام التلفاز، (مصدر متعتهما الوحيد) غير آبهين بتفتيش أبيهما. مسكينٌ إسحاق! هو الذي جهد كي يتخلّص من لامبالاتي لم يحصد غير أنّه ربّى كائنين محزنين وسيّئي المزاج مثله.

كان وضع سوزان مع التوأمين مقلقاً أكثر فمزاجها الفظّ وضعف أعصابها ـ لا شكّ القرن الماضي كانوا سيُشَخّصون بأنها حالة هستيرية ـ لم يُحضّراها قط لتحديات الأمومة. كانت ابنتي تُعامِلُ أودري وسارة كما لو أنّهما مستأجرتان أقامتا في بيتها غصباً عنها. محتلّان. بخلاف إسحاق، ما كانت لتصنّفهما كشخصين صغيرين وكانت تتأمّلهما بمزيج من القلق والحيرة الذي يخصّ به الواحد البرمائيات. حين كبر التوأمان قليلاً (شقراوان، شاحبتان، متماثلتان بشكل منحوس) كانتا تمضيان من غرفة إلى أخرى على رؤوس أصابعهما، مشغولتين بألعاب لم تكن سوزان لتجرؤ على أن تسبر غورها. كانت أودري وسارة تكتفيان بنفسيهما، ربّما متأثّرتين بنوع من التوحُّد، وتهربان من أمّهما كما تهربان من مسخ. بينما كانتا تحتفظان لتيري بكلّ الغنج والمجاملات كانتا تجهدان كيلا تقتربا من سوزان؛ التي لم تكن بدورها تقومُ بجهود كبيرة كي تلفت انتباههما، كما لو أنّهن! يعشن حياة منفصلة ولا يلتقين إلا حين كان يُنظّم تيري نزهات أو عروضاً سينمائية أيّام الآحاد.

عندما أتمّتا السابعة أو الثامنة من عمريهما، بدأت سوزان تنظر إلى التوأمين ليس فقط بحذر بل بشيء كان يقترب من الخوف. الصغيرتان لم تعملا قط أيّ شيء فظيع ـ جرأتهما لم تُلامس قط جرأة ابْنَي خالهما البدينين ـ، لكنّ سلوكَهما الذي لا لوم عليه، ضحكاتهما الصغيرة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المختزلة، مزحاتهما المعقّدة وحركاتهما الحذرة ذهاباً وإياباً أقنعت أمّهما بأنّ فيهما شيئاً غريباً، شيئاً مشؤوماً، غير ملموس، ولم يخطر لها علاجاً آخر غير أن تُسجلهما في عشراتِ النشاطات غير المدرسية، كي تُبعدهما من جانبها غالبية اليوم. وجدت أودري وسارة نفسيهما مجبرتين على حضور ورشات خياطة، دورات رياضيات، دروس بيانو ورسم والأكثر مقتاً بالنسبة لصغيرتين في غاية الأناقة مثلهما، هي تمرينات كرة القدم و*الكروس* الطويلة. كما لو أنّها الطريقة الوحيدة للتخفيف من مسؤوليتها ذنوبها كانت سوزان تجرّهم من أقصى المدينة إلى أقصاها دون أن تأخذ بالحسبان احتجاجاتهما، تقدّمهما المعدوم في الرياضيات والرسم أو البقع المزرقّة التي كانتا تعرضانها على أذرعهما وأرجلهما في نهاية مبارياتهما.

بعكس تويدليدي وتويدليديوم لم يبدُ لي التوأمان قط ثقيلتي الظلّ بل بصراحة بدتا جذّابتين. بالطبع كانتا بعيدتين عن أن تكونا فاتنتين ـ كانت سارة لا تجيب إلا بكلمات مقتضبة وأودري لم تنقطع عن التبوّل في السرير حتى الحادية عشرة من عمرها ـ، لكنّهما كانتا تملكان ذكاءً صامتاً يظهر في تعليقاتهما الساخرة ونكاتهما التي تحمل معنيين، غير المناسبة لعمرهما. من المُحال استنتاج أنّهما في أعماقهما سيّئتان، كما اعترفت لي سوزان مذعورة، على الرغم من أنّهما تملكان نزعة أبرز مما عند بنات أخريات، إلى نقد وإهانة من هنَّ من جنسهما. سوزان غير القادرة على مقاومة سخرياتهما وضحكاتهما، تنصّلت منهما. سمحت للسائق أن يقودهما إلى دروسهما المسائية المزعجة وأن يكون أبوهما هو الوحيد المهتمّ بنجاحاتهما المدرسية. بينما هي لا تعود إلى البيت حتى ساعة العشاء. عزا تيري، الذي لم يكن قط نبيهاً، غيابَ زوجته التي راحت تطول في كلّ مرّةٍ أكثر، إلى علاقتها السيّئة جدّاً ببنتيها، مع أنّ سوزان عثرت في الواقع على بديل لحب الأبناء في مكان آخر.

ـ آسفة، يا أبي.

في عيني ابنتي الزيتونيتين كان يهتزّ غشاء لزج، مع أنّ الدموع لم تتمكّن من الجري على خدّيها. كانت قد تواعدت معي في مقهى مكتبة مورغان وبدت أكثر عصبيّة من المعتاد. كانت تدقّ بكعبها وتعضّ على رأس شعرها بإصرارٍ ينبئ بنوبة اكتئاب. بعد تبادل الأسئلة الأسريّة المعتادة انطوت على نفسها في صمت شديد. بردَ الكابوتشينو لايت أمامها دون أن تأخذ منه رشفة وحادة.

ـ أحبُّه ـ اعترفت لي أخيراً.

كان أسوأ مما ظننتُ: لم تكتفِ سوزان بأنّها خدعت زوجها، وهو شيء متوقّع بل وحميد نظراً لندرة فضائل تيري، بل إنّها لجأت مرّةً وأخرى إلى العنصر ذاته إلى أن انتهت متعلّقة ببلاهة بالقميء. كيف سأشرح لها أنّه لا يمكن إطلاقاً الخلط بين الغلمة والحب؟ تراها لم تتعلّم شيئاً من أبيها؟ كنتُ سأُسَرّ لو وضعت قروناً لتيرّي عند أدنى فرصة، لكن دون أن تُجازف باستقراره أو تُخاطر بمشاعره.

ـ لا أستطيع أن أفعل شيئاً، يا أبي ـ أنّت ـ. أحبُّه.

ذكّرني تقطيبها بنزوات طفولتها. كيف لا أهديها ذلك النمر الوردي، كيف لا أتركها تسافر إلى مدريد مع صديقاتها، كيف لا أشتري لها بي إم دبليو بعد تخرّجها وكيف لا أغطّي نفقات قطار حياتها الفاضح؟ لكنّ هذا كان مختلفاً.

ـ إذن فقط أطلب منكِ أن تعتني بنفسك ـ أذعنتُ.

مالت سوزان برأسها، مرتبكة، كما لو أنّني أتكلّم بلغة أجنبيّة وعادت لتعضّ على شعرها.

ـ إنَّه مُتزوّج ـ همست.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ماذا؟

ـ ميلتون.

ـ ميلتون؟

ـ وأنت تُحبّينه...التي يمكن سخريتي.

صاعقاً كان تبيّنُ الأضرار التي يمكن لفكرة تافهة (الحبّ) أن تُحدثها في روحٍ ضعيفة مثل روح ابنتي.

ـ وهو يُحبني ـ أصرّت سوزان بجدّية.

لم يكن باستطاعتي أن أُصَدّق. لم أكن أُريدُ أن أُصدّق.

ـ حماقات ـ وهنتُ ـ لو كان يُحبّك لكان معك.

ـ لا يريد أن يُطلّق من أجل أولاده..

فجّرتُ يدي على الطاولة.

ـ الشيء الوحيد الذي يُريده ميلتون هو أن ينام معك. وأنت معه ـ صحتُ ـ وكلّ هذا مقبول تماماً لو أنّكما لم تتورّطا بالخرافات. لا تستطيعين أن تسمحي بأن يُعميكِ عشقٌ زائف لا ينسجم مع عمرك.

ما زالت معدتي تتقلّب وأنا أتذكّر المشهد. كيف لسوزان، المرأة الذكية أو على الأقل التي تملك نسبة ذكاء أعلى من المتوسّط يمكن أن تكون ضحية فكرة دهمائية؟ هل يا ترى صحيح كلّ تلك الثرثرة عن الذكاء العاطفي؟ في هذه الحالة يجب أن تكون هي بين المعوقين.

ـ لا أدري لماذا قررت أن أحكيه لك.

ـ ولا أنا.

ـ أنا ذاهبة.

ـ هيا، اذهبي مع ميلتون لكِ ـ صرخت بها ـ. هذا إذا لم يكن الآن مع زوجته.

انسلّت سوزان بسرعة رافعةً على الفور حقيبة يدها ماركة لويس فيوتون كما لو أنّها تريد أن تخطو خطوة راقصة باتجاه المخرج. هي التي كانت مصرّة على إرضائي طوال حياتها طعنتني أخيراً في ظهري.

غناء جماعي[1]

أكاد أودّ أن أقول لكم ما حدث لي خلال نوبة جنون، انجذابٍ مفاجئ أو استسلام للرومانسية، قرّائيَ الصبورين، لكنّكم تعرفون، أنّ هذا لم يكن قط أسلوبي. كان قد مضى عليّ أشهر وأنا أُخطّط عن وعيٍ، لواحد من القرارات التي يتخذها من يتطلّع إلى موقع ممتاز بين نخبةِ التفاحةِ الكبيرة المتعفنة. هكذا وكما أنَّ المُستَثْمِرَ مُجْبَر على أن يحصل على أسهم يتخيّل مستقبلها مؤمّلاً حتى ولو كره فرعَ أو سياساتِ المؤسّسةِ التي تصدِرها، عليّ أن أخطو هذه الخطوة كي أُعَزِّز صورتي أمام عيون ابنيَّ وشركائي وأمام أبي الهول العامّي هذا الذي لا يشبع ونسميه عِلْيَة المجتمع. ربّما ما كانت لي لتصبح خياري الأوّل في ظروف أخرى ـ لو لم يكن بسبب البحث في ماضي أبي لكان من الصعب عليَّ أن أتعرّف عليها ـ، لكنّني عند هذا المستوى لم أكن مستعداً لأن ألاحق وجهاً أجملَ أو ثروة أشهى. على الرغم من مشاعرها الطيّبة وقناعاتِها الديمقراطية ونباتيّتِها الملتزمة وافتتانها المزعج بالحيوانات، فإنّ المؤرّخة الشابّة كانت مثالية بالنسبة لغاياتي، فهي امرأة

---

(١) Concertante بالإسبانية concertato بالإيطالية هي الجزء من الأوبرا التي تُغنّي فيه الشخصيات كلها أو معظمها مع الكورس.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أجمل وأذكى من المتوسّط، وبعيداً عن هوسها بزيادة تبرعاتي الخيريّة، لا تتدخّل في تجارتي وترضى بمشاركتي في جزء من حياتي اليومية فقط.

دعوتها ذات سبتٍ وأنا في كامل وعيي، إلى عشاءٍ، ثمّ ومن دون خواتم ولا تصريحات طنّانة، قلتُ لها بأنّ الزواج يمكن أن يكون فكرة جيّدة لكلينا. نشرت لي، بلباس أكثر وقاراً من المعتاد، ـ بالتأكيد كانت تشكّ بشيء ـ ابتسامة كادت تربكني، رفعت كأسها وبما يُشبه اللعثمة أجابتني قائلةً نعم سيكون شيئاً رائعاً وأنها فقط ستطلب مني حفلة حميمة إلى هذا الحدّ أو ذاك وليس حفلة من تلك الحفلات الباخوسية التي يعتادها المليونيريون. وعدتها أن أفعل المُمكنَ لإرضاء مطالبها ـ في الحقيقة كنتُ قد حجزت صالة في فندق بلازا ـ وشربتَ معها نخبَ سعادتنا المستقبلية. لا دموع، لا غيبوبة: *صفقة سعيدة*، من دون منغصات.

العائق الوحيد؟ ألان، بالطبع.

لم أعرف كيف أقوله لها. كيف أوَضّحه. بالنسبة لشاب من عمرها (مواليد ١٩٦٨) متشكّل خارج أحكام عصري المسبقة لن يبدو له قراري غير معقول وحسب، بل ومحزناً ومضحكاً أيضاً. ما الحاجة للتظاهر وإخفاء رغباتي الحقيقيّة؟ مؤسِفٌ أنّ *عالمي* و*عالمه* لم يكونا متعادلين. ربّما في وضعه كطبيب نيويوركيّ يستطيع أن يتمتع بحرّية غير محدودة، لكن أنا لا أستطيع أن أسمح لنفسي بترف أنّ أُسْتَبْعَدَ من هذا الجزء الكريه من المجتمع الذي يعتبر دعمه لي حاسماً في مستقبلي الماليّ. ثم أنّني لم أكن مستعداً لأن أُعرّي هكذا نفسي أمام ولديَّ، من أجل رغبة تبدو الآن صبيانية. كما قلتُ، كنتُ أريدُ كلَّ شيء في وقت واحد. أُريدُ ألان ولي.

لي لفيت

فضّلتُ خلال التحضيرات المُنْهِكة للعرس ألاّ أقول شيئاً لصديقي. ما الداعي لأن أُعكِّر سهراتنا بشكل مبكّر؟. بقيت أزور بيته مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع، واعداً نفسي في كلّ مرّة أن تكون المناسبة الأخيرة التي ألزم فيها الصمتَ، لكنّني كنت أسكتَ في كلّ مرّة. عشية الارتباط بِلي ـ كانت الدعوات قد دارت بين مئات المدعوّين ـ عرفتُ أنّه لم يكن أمامي من خيار، مثلتُ في زورقه الشراعي قرابة الساعة التاسعة ليلاً. كان ألان قد أعدَّ سمكاً مقلياً وكنّا أخذنا بالحسبان أن نسمع توراندوت بصوت برجيت نيلسون. بعد الجنس والعشاء كان هناك مزيد من الجنس، تلاه صمت لا حدود له. فجأة ينهض ألان من السرير، يلفّ نفسه بدثار عقيقي اللون ويبقى واقفاً أمامي، مُهدّداً وجميلاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ الألغاز ثلاثة، واحد منها الموت ـ صاح.

ـ كيف؟

ـ يخدع نفسه ولا يخدع الآخرين أبداً.

ـ آسف حقيقةً ـ تمتمتُ

ـ يخدع أكثر الناس محبة له لأنّه يعتقد أنّ من يخدعه لا بدَّ سيغفر له.

ـ أنا آسف، يا ألان. كنتُ سأقوله لك...

ـ خديعتك أعظم لأنّك حتى لا تنتبه إلى أنّها خديعة ـ وأشار لي إلى الباب.

ـ أنا أحمق، اعذرني.

ـ الآن أعرفُ اسمك فعلاً ـ ختم بينما أنا أرتدي ملابسي مرتبكاً.

عدتُ لأميّز بشرتَهُ السمراء وشَيْبَهُ المُبَكِّرَ في عروض عديدة في متحف المتروبوليتان للفن، لكنّه لم يتكرّم قطّ بالتكلّم معي.

المشهد الخامس
حول كيف تميز الأسنان السيّئة
وكيف تحصر جاسوساً في يقطينة

ترتيل

كانت الهالتان المتكيّستان المزرقتان في وجهه الإسفنجي تظهرانه كبطلِ ملاكمة نَكّل به خصمُهُ، كرشه يُهدّد بتفجير الزر الذي يضغطه، بينما شريطا شيّاله الذي يسند البنطلون بصعوبة يهتزّان مثل وتري كمان. والطامّة أن ويت لم يتمكّن من النهوض حتى قرابة الساعة السابعة، متعثّراً بمنضدة السرير وخزانة الثياب ـ لم يُغمَض له جفن حتى الفجر ـ تجرجر حتى حمّام صديقه مكنوغتون، حلاقة مرتعشة حصدت ذقنه (وأنا أقول غبَبَهُ) وخلّفت ظلالاً بنيّة واسعة على رقبته وخدّيه المنتفخين. مظهره لا يوحي بأدنى حدّ من الثقة، وبدل أن يزهو كمواطن نموذجي، ناشرٍ محترم، أو خطّاء نادم، سيكتشف المحققون معه بهلواناً بديناً أو أورانغواتان[1] بلا قوة.

المسألة أنّ ويت الجالسَ هناك، أمام رئيس لجنة المحقّقين في

---

(١) قرود ضخمة أصلها من ماليزيا ويعني اسمها ساكن الغابة. شعرها ضارب للحمرة أو بنّي، طويلة الذراعين، حين يمكن إذا فُتحا أفقياً أن يبلغا المترين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النشاطات المعادية لأمريكا لا يظهر كسوط لا يرحم لشيوعية، كان ينشر مقالاته في التايم، ولا كضمير لأمريكا الإنجيلية الحاقد، ولا حتى كجاسوس متقاعد، بل كأداة صيدٍ محزنة، ككأسٍ بطولةٍ معروضٍ لسخريةِ الصحافة التي تملأ درج بناء مكاتب الكونغرس القديم.

وضعُ أعصابه، يعترفُ، ليس ناتجاً عن الفحص الصارم الذي سيخضع له، والذي لن سيُحدِّد شهرته العامّة وانتقاله إلى التاريخ وحسب ـ على الرغم من أنّ هذا الأخير، بحسب قوله، لا يشغلُهُ ـ بل عن التهديدات التي ستتعرّض لها أسرته حين يكشفُ عن أسماء من كان على اتصال بهم والسعاة. لذلك ما إن وصل إلى شقّة مكنوغتون حتى استلقى على الأرض بحثاً عن ميكروفونات وطالب مُضيفه أن يسدل الستائرَ ويضبطَ النوافذ ويقفلَ الباب. هنا فقط استطاعَ أن يجلسَ ليكتب التصريح الذي سيقرؤه هذا الصباح، ورغم ذلك لم يقدر بعدها على أن يُصالح النوم ولا حتى عندما وضع مكنوغتون منزعجاً من جنون عظمته، مسدَّسَهُ، عيار ٤٥ على منضدة السرير وأكّد له أنّه سيستعمله ضدَّ أيّ دخيل.

يتوغّل ويت مرتعداً في القاعة ٢٢٦، حيث ستُعقدُ الجلسةُ الصباحية الأولى، التنفيذية والسرّية والمغلقة.

ـ جاء السيّد تشامبرز معه بتصريحٍ يُريد أن يقرأه قبل بَدء المحاكمة ـ يوضّح مكنوغتون لروبرت ستريبلينغ، رئيس لجنة المحقّقين.

ستريب (هكذا يُحبّ أن ينادوه) المفتول العضلات يسوّي ذؤابتَهُ ويتصفّح الأوراق التي يسلّمها له تشامبرز.

ـ هل *هذا* ما تريد أن تُصرّح به؟

لم يمنحه ستريب ولا حتى الفرصة كي يردّ عليه، يقوده إلى قاعةِ

أخرى، حيث ينتظرهما حشدٌ من أعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ والسكرتيرات وكتّاب الآلات الكاتبة. يستعيد ويت بعد أن يُلقي نظرة على مستجوبيه، ثقله شيئاً فشيئاً ويركّز مؤخرته الهائلة على خشب المقعد.

ـ هل أنت ديفيد ويتكر تشامبرز وتُقسمُ على أن تقول الحق ولا شيء غير الحقّ؟ ـ يمدّ له ستريب الكتاب المقدّس.

ـ أقسم ـ يبتلّ غلافُ الكتاب بالعرق ـ والآن هل أستطيع أن أقرأ تصريحي؟

ـ هناك نسخة منه في ملفّك ـ يرسم ستريب إشارة سطحية[1] بأصابعه ـ إذا أصررت، ستستطيع قراءتها فيما بعد.

يُراجع رئيس لجنة المُحقّقين بطاقاته ببرودة.

ـ قُلْ لي، يا سيّد تشامبرز، هل كنتَ، خلال الوقت الذي كنتَ فيه عضواً في الحزب الشيوعي، على معرفةٍ بحلقة الجواسيس، التي كانت تعمل وقتها في واشنطن؟

يأتي ردّ فعل ويت كما كان يفعل حين كان جاسوساً ويكذب مثل وغد.

ـ لا، لم أكن.

ـ لا؟

---

(١) Floritura في الإسبانية، وfioritura بالإيطالية وتعني التحلية المرتجلة في الموسيقى وهي علامة توضع في نوتة الأوبرا وتدل على أنّ المؤدّي يستطيع أن يعزف أو يغني بحسب ما يراه. وتطوّر معناها وصار يستخدم في مجالات أخرى لتعني بين أشياء أخرى الزينة السطحية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أعني أنّني كنتُ واعياً لإمكانية أن ينحرفَ قسمٌ من الجهاز السرّي باتجاه أعمال تجسّسيّة؟

ـ وضِّحْ لنا، يا سيّد تشامبرز، هل كنت تعرف أنّ الجهاز أنشئ لأغراض تجسّسية أم لا؟

ـ دعني أقل نعم، كان هذا أحد أهدافه..

ـ ومن شكّل الجهاز؟

ـ ألم نكن نتكلّم عن جهاز افتراضيّ؟

ـ من كان رئيس هذا الجهاز في واشنطن؟ ـ الآن هو جون رانكين، وهو ديمقراطيّ من ميسيسبّي، وهو من يرعاه؟

ـ أحاول أن أفهم عن أيّ جهاز نتكلّم ـ يصرّ ويت على تكتيكه المراوغ.

ـ أجِبْ على السؤال.

ـ فقط أنا في ظروف تسمح لي بالتكلّم عن المجموعة التي كنتُ فيها. أنشأها هارولد وير في عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩. كانت غايته وضع شيوعيين في أماكن حسّاسة في الحكومة، من حيث يستطيعون أن يؤثّروا على اتخاذ القرارات أو تغيير الموظّفين أو إذا رأوا ذلك مناسباً، ربّما القيام بأعمال تجسّسيّة...

ـ إذن تعترف أن مجموعتك فعلاً كان هدفها القيام بأعمال تجسّسيّة...

ـ لكن ليس منذ البداية.

على ماذا يلعب تشامبرز؟ قدّم نفسه طوعاً إلى هذه اللعبة، لكنّه الآن يخدع؛ هو مصمّم على اتهام رفاقه، لكن ليس مواجهةً، يُريد أن

يكشف عن ارتباطاتهم السرّية، لكن دون أن يعترف تماماً بمشاركته. توازن مقلقل بما يكفي. ينطلق كي يكسب الوقتَ في تحليلٍ معقّد للطبيعة النظرية للأجهزة السرّية. يطالبه ستريب وأعضاء اللجنة المنزعجون بأسماء وأسماء ومزيد من الأسماء.

- رأس المجموعة كان ناثان ويت، وهو محامٍ كان يعمل في مجلسِ العلاقات العمالية. بين قادتها كان هناكَ أيضاً جون أبت، لي بريسمان وفيكتور بيرلو. وألجير هيس وأخوه دونالد. وتشارلز كرامير، واسمه الحقيقي كريفتسكي، كما أعتقد. وهنري كولينز.

يميل أعضاء لجنة التحقيق بالنشاطات المعادية لأمريكا برؤوسهم بإيقاع واحد كما في عمل موسيقي لبرودوي، على الرغم من أنّهم سبق وسمعوا بكلّ هذه الأسماء، قبل أيّام من فم إليزابيث بنتلي.

- هل تعرف هاري دكستر وايت؟ - يُخرج ستريب أسّاً من كمّه.

- نعم.

- هل كان عضواً غي هذه المجموعة؟

- لا.

- هل كان شيوعياً؟

- لا أستطيع أن أقول إنّني كنتُ أعرف أنّه كان كذلك.

- هل تعتبره صديقاً للشيوعيين؟

- فقط بعضهم كان يظنّ هذا، مثل ج. بيترز.

- لكنْ ليسَ أنت؟

- أنا لا أستطيع أن أقول إنّه كان شيوعيّاً.

بعد قول هذا لم ترَ اللجنة أنّها ساعةُ أن تُفتح الأبواب للصحافة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فحسب، بل ونظراً لأهمية الشاهد الجديد رأت أنَّ من الأفضل أن تنتقل إلى قاعة أخرى أوسع في بناء مكاتب الكونغرس الجديد. ينتقلُ السيرك، كما يسميه ويت ذاته في مذكراته، إلى الحلبة المركزية.

يتفلطحُ ويت على مقعده الجديد، محاطاً بالميكروفونات. يعود ويضع يدَهُ اللزجة على الكتاب المقدّس. ويقرأ على الفور الصفحات التي أعدّها، الصفحات التي تشرح افتتانه الثوريّ المُبكّر، انضمامه كعميل، أعماله السرّية، وعيه، هربه وتحوّله إلى المسيحيّة وإيمانه الجديد والقويّ بالله.

ـ قطعتُ علاقتي بالحزب الشيوعي منذ عشر سنوات ـ يعتدل صوتُهُ ـ حاولتُ خلال هذه السنين أن أعيش حياةَ عمل، خائفاً من الله. وحاربتُ في الوقت ذاته الشيوعية بلا هوادة بالمحاضرات وبالكلمة المكتوبة. أنا فخور بالمثول أم هذه اللجنة. الدعاية التي تتضمنها هذه الشهادة عتّمت، ولا شكّ سوف تبقى تعتّم، على جهدي في الاندماج بمجتمع الرجال الأحرار، لكنّه ثمنٌ صغيرٌ عليّ أن أدفعه إذا ما ساعدت شهادتي مواطني الولايات المتحدة على معرفة أنّهم مُهدّدون بقوّة جبّارة ومشؤومة بشكل فظيع، هدفها استعبادهم. أُريد أن أدعو جميع الشيوعيين القدماء الذين لم يعترفوا بعد وكل أتباع الحزب الشيوعي الذين لم تمزّق أو تفسد بعدُ غرائزهم الفضلى، لأن يُساهموا في هذا النضال فما زال هناك متسع من الوقت.

بعد انتهاء مرافعته انطلق أعضاء لجنة التحقيق في النشاطات المعادية لأمريكا بحثاً عن مزيد من الجيف. يبرز حدثان في الجزء الأخير من مثوله. عندما يعود عضو الكونغرس نيكسون الصامت والغائب على امتداد الصباح ليسأل بأنفه الهائل وصوته الأخنّ الشاهدَ عن هاري دكستر وايت ويتجنّب هذا الجواب المباشر. ثانياً حين يروي كيف أنه قَبل أن يترك الجهاز بقليل في عام ١٩٣٨ زار ألجير هيس، الصديق الجيّد' في

بيتِهِ في جورج تاون كي يحاول إقناعَهُ وإقناعَ زوجته بريسيلا بالانفصال عن الحزب.

- تعشينا نحن الثلاثة بيضاً مقلياً - ويت لا يوفّر التفاصيل - وبذلتُ كلّ جهودي لإقناعهما باللحاق بي، لكنّ هيس، العصبيّ والمنزعج رفض أن يقطع علاقته. عندما انفصلنا راح يبكي.

- يبكي؟

- يبكي - يُقلد جرس صوت ويت نغمةً حزينةً ورتيبة -. المسألة هي أنّني كنتُ أُقدِّر السيّد هيس كثيراً.

آريا ألجير هيس (مع جوقة أعضاء الكونغرس)

بعد أسبوع يُخرج ألجير هيس خاتم زواجِهِ من بنصره ويضعه على المغسلة؛ يغسل معصميه وراحتي كفّيه مرّةً وأخرى، ألف مرّة، بحركة لا تشوبها شائبة، غير أبهٍ بالصورة الباردة التي تُطلّ من المرآة. كان عقله من البعد عن المكان، ومن الاستغراق في عالم آخرَ أو في ماضٍ، بحيثُ أنّه إذا ما غابت صورته فجأة كصورة مصّاص دماء، قد لا ينتبه. يتوجّه بعد أن يُنَشّف يديه بالإصرار ذاته ليضع الخاتم، ينظرُ إلى الساعة ويتّجه إلى قاعة الجلسات.

أناقته المُفرِطة قليلاً، حركتُهُ، هيئته الشموخة والنبضُ الخفيف في نبرته - الذنب في ذلك ذنب تربيته الهارفاردية - لا تترك مجالاً للشك بنجابته. بخلاف تشامبرز، البذيء في كلامه والسيّئ في لباسه، يظهر هيس ما كان أو ما تظاهر دائماً بأنه كان، موظّفاً نموذجيّاً، أساسيّاً في الطلقة الممتازة، التي أنقذت في ظلّ روزفلت والخطّة الاقتصادية الجديدة، البلد من الإفلاس. على الرغم من أنّ مهده الممتاز هو سوء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهم - اضطرّ ألجير أن يتحمل مسؤولية أخوته بعد انتحار أبيه، وكان تاجراً دون إمكانيات كبيرة -، التناقض مع متهِمِهِ كان بالنتيجة من البهرجة بحيث أن، للأفضل أو للأسوأ، سيتحملان الصورة النمطية لشيوعي السابق المحزن والمتأنق المفخّم.

- أريد أن يبقى واضحاً أنّني لستُ ولم أكن يوماً قط شيوعياً - يصرّ هيس، بالصوت المخمليّ لِلّذي ترأّسَ قبل سنواتٍ مؤتمرَ دومبارتون أوكس - لا ألتزمُ ولم ألتزمْ قط بمبادئ الحزب الشيوعي. لستُ ولم أكُنْ يوماً في أيِّ جمعية مرتبطة بالحزب الشيوعي. لم أتبع قط قياداتِ الحزب الشيوعي لا بطريقة مباشرة ولا غير مباشرة؛ وإلى الحدّ الذي يمكنني أن أعرفَ ما مِن صديقٍ لي شيوعيّ.

ألجير هيس (١٩٥٠)

يطلب منه ستريب سيرتَهُ الذاتية فيسرد هيس اللائحةَ المثالية للمناصب التي راكمَها على امتداد عشرين سنة من العمل في الخدمة العامّة، منذ تدرّبه مع القاضي الأسطوري أوليفر وندِل هولمز وحتى منصبه الحالي كمدير تنفيذيّ لمؤسسة كارنيجي (التي يرأسها شخص محترم جدّاً من قبل الجمهوريين، مثل جون فوستر دولز). بالنظر إليه هكذا، لا أحد يستطيعُ أن يُصَدّق أن الأمر يتعلّق بالثوري الرومانسي الموصوف من قبل ويت يومَ ٣ آب. أم أنّ استريب، أو أحد أعضاء الكونغرس أو مجلس الشيوخ، بل وحتى أحد نسورِ وسائل الإعلام يستطيع أن يتصوّره مُنْتَحِباً بعد أن حاول تشامبرز إبعاده عن المخالب السوفييتية؟

في لحظة الذروة من المحاكمة يُريه ستريب صورة حديثة لويت ويسأله عمّا إذا كان يعرفه. يدرسها هذا مقطّبَ الحاجبين، ممسكاً إيّاها برؤوس أصابعه كما لو أنّها روث، قبل أن يعيدها إلى رئيس لجنة المحقّقين.

- إذا كانت هذه صورة السيّد تشامبرز، فليس فيها أي مظهر غير معهود - يرفع ألجير حاجبه - يُشبه ناساً كثيرين. بل ويمكن أن يُخلط بينه وبين رئيس هذه اللجنة....

كارل موندت بوجهه، وجه سمكةِ الكرة، الرئيس القائم بأعمال لجنة النشاطات المعادية لأمريكا نظراً لغياب ج. بارنِل توماس، هو الوحيد الذي لا ينضمّ إلى جوقةِ القهقهات التي تهزُّ القاعة.

- لا أقول ذلك كي أتظارف - يستعيد ألجير وقاره - كنت أودُّ أن أراه وجهاً لوجه، أُفَكّر أنّني وقتها سأكونُ أقدرَ على أن أقول ما إذا كنتُ قد رأيته ذات مرّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صيغة مُعقّدة قليلاً لكنّها بعد كلّ حساب فعّالة. كان كما لو أنّه محميٌّ بترس ـ نزاهته وغطرسته ـ تنفجر بطّارية صواريخ لجنة النشاطات المعادية لأمريكا في الجوّ دون أن تمسّه. حتى أنّ أحدَ مُستجوِبيه يعتذر منه في نهاية الجلسةِ على الضرر الذي يمكن أن يكون قد تسبّب له به مثولُ «مَنْ كثيرون من المواطنين الأمريكيين، بمن فيهم بعضُ أعضاءِ اللجنة نكنّ له تقديراً عالياً جدّاً»، ويشدّ آخرُ بِفخارٍ على يده (سيكون على ألجير أن يعودَ ليغسل يديهِ بالصابون).

يخرج هيس أمام أعين كلّ المراقبين من الجلسة كفارس أُهين بغير عدل ويت كجاسوسٍ خسيسٍ وكذّاب. نيكسون هو الوحيدُ الذي لا يُطلق طريدَتَهُ. بينما موندت، هربرت وبقية أعضاء اللجنة يظهرون حذرين، أو بصراحة خجلين، يراقبُ هُوَ انزلاقاتِ وتردّداتِ هيس بعدسةٍ مكبّرة، وكعضوٍ مبتدئ في الكونغرس يُناسبُهُ أن يُبرهن عن تحمّسه المعادي للشيوعية. يُفكّر ابنُ كاليفورنيا أنّ هيس تصرّف بتعالٍ لا يُحتمل وأنّ طريقة إنكارِهِ لتشامبرز ـ كان من الأسهل لو أنّه قال لا أعرفه ـ هي الخيطُ الذي سيشدّه حتى النهاية. ومَنْ هو أفضل حليفٍ لإعادةِ طرحِ هجومِهِ من ويت؟

ترتيل

المشهد الآن هو المحكمة الفدرالية في نيويورك، في فولي سكوير، التي يأتي إليها نيكسون ويت واثنان أو أكثر من أعضاء لجنة النشاطات المعادية لأمريكا وفريق التحقيق برئاسة ستريب. مع فارق أنّ الذي يوجّه الأسئلة الآن هو صاحب الأنف الهائل.

ـ يؤكّد السيّد هيس أنّه لم يسمع باسمك قط، يا سيّد تشامبرز. هل كنت تستعمل اسماً آخر في مرحلتك كعميل سرّي؟

ـ في تلك المرحلة أسميتُ نفسي كارل.

ـ ألم يسألك هو قط عن كنيتك؟

ـ ما كان ليخطرَ هذا على البال في الدوائر الشيوعية.

ـ لماذا أنت واثق إلى هذا الحدّ بأنّ هيس كان شيوعيّاً؟

ـ أكده لي ج. بيترز ـ يبدأ ويت بالاسترخاء ـ وأنا نفسي رأيته. في عدة مناسبات أخذتُ معلوماتٍ من يديه مباشرة. بالطبع لم يكن أكن أملك وثيقة معتمدة من الحزب، لكنّني لم أشكّ قط بعضويّته

ـ أإلى هذا الحدّ كنتَ تعرفه؟

ـ أُفضّل أن أقول كنتُ أعرفُهُ كفاية. كنّا صديقين. كان اسمه وقتذاك هيل أو هيلي واسم زوجته ديلي أو بروس ـ يراجع ويت السنواتِ العشر التي انتميا فيها إلى المجموعة ذاتها ـ. كانت بريسيلا متزوجة قبلَهُ من الناشر تير هوبسون، الذي كانت دائماً تتكلّم عنه بشكلٍ سيّئ، لكنّه كان يدفعُ حساباتِ تيمي، ابنهما الصغير. وكان السيدان هيس يملكان كلبَ كوكر سبانيل جميلاً.

ـ هل كانت له هواية ما؟ ـ تدخّل بيل ماندل.

ـ كان ألجير وبريسيلا يتمتعان بعالم الطيور ـ ينتبه ويت للأهمّيّة التي تحرزها تفاصيل كهذه ـ كانا في الصباح يذهبان إلى تشيسابيك، وإلى قناة أوهيو وغلين أكو لتأمّل الطيور. أتذكّر مرّة كانا فيها متأثرين جداً لأنهما رأيا طائر ملكة ذهبيَّ الرأس.

ـ هل نزلت ذات مرّة ضيفاً على الزوجين هيس؟

ـ بيتهما بالنسبة إليّ ثكنة غير رسمية. أتذكّر عدداً من العناوين التي عاشا فيها في تلك السنوات، دائماً بطريقة مقتصدة. لم يكونا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحبان الأشياء المادّية وعادة ما كانا يأكلان قليلاً، أعتقد أنّني لم أتناول معهما قط كوكتيلاً. السيّد هيس في غاية البساطة والدماثة والرقة في طبيعته. كان يستعمل سيارة فورد قديمة مفككة، وإن بدّلها في عام ١٩٣٦، كما يبدو لي، بأخرى ماركة بليموث.

ـ وماذا فعل بالسيارة القديمة؟ ـ يُصرّ مندل.

ـ تركها لي. بعدها وبعكس كلّ قواعد المحيط السرّي، أصرَّ على تسليمها للحزب، كي يتمكّن من استخدامها أحد من الأعضاء الفقراء في منطقة الغرب الأوسط أو في أي مكان آخر.

ـ شكراً جزيلاً، يا سيّد تشامبرز ـ يظهر نيكسون راضياً ـ. هل أنت جاهز للخضوع لكاشف كذب؟

ـ طبعاً، إذا تطلّب الأمر.

ـ أإلى هذا الحدّ تشعر بالثقة؟

ـ أنا أقول الحقيقة.

ذو الأنف الهائل، المتأثر بمداخلته ذاتها يتضاعف، يزور جون فوستر دولز ويُقنعه بألاّ يدعم هيس علانية، يلتقي بصحفيين وسياسيين جمهوريين يشجعونه على الاستمرار بحملته، يهتف بلا كلل إلى ستريب، الذي يتأخّر محقّقوه في تأكيد المعلومات التي قدّمها تشامبرز. يمثل متهمون آخرون أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا: هاري دكستر وايت، لانكلين كورّي ودونالد هيس. ويتمكن أخيراً من جعل ألجير يجلس من جديد على المقعد.

ـ لم يحدث قطّ أن تواصلتُ مع أحد يُدعى كارل ـ تثاءب هيس، متململاً في مقعده.

عندئذٍ يُريه نيكسون صورةَ ويت شابّاً، أي بوزن أقلّ بستين أو سبعين ليبرا (يكاد يكون رشيقاً) هذه المرّة يدرسها ألجير بوعي.

ـ وجهه ليس غريباً. لذلك أود أن أراه وجهاً لوجه.

يفرقع نيكسون أصابعه.

ـ ما لا أفهمه ـ يغضب هيس ـ هو لماذا نُعامَل أنا وتشامبرز بالطريقة ذاتها في الوقت الذي كانت فيها حياتي العامة سليمة بينما هو شيوعي معلن. ثمّ إنّني قرأتُ في الصحف أنّك، يا سيّد نيكسون قضيت نهاية الأسبوع في مزرعته.

ـ أستطيع أن أُؤكّد لك أنّني لم أقضِ معه ليلة قط ـ يتحجّج نيكسون، منزعجاً.

(وبالفعل زار ذو الأنف الهائل ويت في مزرعته وإن لم يبقَ للعشاء.)

ـ أستطيع أن نؤكّد لك أنه لا يوجد أيّ اتفاق مسبق لنا مع السيّد تشامبرز ـ يتدخّل ستريب ـ. هو يؤكّد أنّه قضى أسبوعاً في بيتك، يا سيّد هيس، وعلينا نحن أن نُحقّق في ذلك. وأستطيع أن أقول لك، إمّا أنّه كرّس نفسه لدراسة حياتك بدقّة، وإمّا أنّه زارك في تلك المرحلة.

ـ ليست المسألة فيما إذا كنّا نعرف بعضنا وأنا لا أتذكّر ـ ينفجر هيس ـ، بل فيما إذا تمّ بيننا الحديث الذي وصفه هو.

ـ لا أدري من منكما يكذب ـ يتدخّل عضو مجلس الشيوخ هربرت ـ، لكنّ واحداً منكما هو أفضل ممثل أنتجته أمريكا!

يزداد الارتباك عندما انعطف ألجير بشهادته انعطافة غير متوقّعة مشيراً إلى أنه وهو يُفكّرُ الآن، يتذكّر أنّه أجّر بيته أسبوعاً لعنصر لم يكن يُدعى كارل، بالطبع ولا ويتكر تشامبرز إطلاقاً، (يا له من اسم مريع) بل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جورج كروسلي، شخص كان يلوكُ الكلمات بصوت خفيض، كان متزوّجاً وله ابنة صغيرة.

ـ وهل بقيَ هذا السيّد كروسلي في شقّتك يا سيّد هيس؟ ـ يبتسم نيكسون.

ـ هذا السيّد كروسلي، بلى.

ـ هل تستطيع أن تصف لنا زوجة كروسلي؟

ـ امرأة هي أقرب إلى أن تكون مصمتة، بل ويمكنني القول بأنها مصمتة جدّاً، لا أعتقد أنّني قادر على التعرّف عليها.

ـ ما الطول الذي كان لذلك الرجل؟

ـ كان أقرب إلى القصر.

ـ بدين؟

ـ ليس كثيراً.

ـ وماذا تقول لي عن أسنانه؟

ـ كانت سيّئة جدّاً، وددت لو أرى هذه التفاصيل في السيّد تشامبرز. كانت أسنان ذلك الرجل مكسّرة، وكان يبدو أنّه لم يعتنِ بها قط.

ـ ما السيارة التي كانت مع السيّد كروسلي؟ ـ هجم ستريب.

ـ ما من سيّارة. أنا أعطيته سيارتي، فورد قديمة. لم تكن في حالة جيّدة لكنّ صندوقها كان واسعاً جدّاً.

ـ أنت أعطيت سيّارتك لكروسلي؟ ـ يُصرّ نيكسون.

ـ تماماً.

ـ وهل اشتريت سيارة جديدة؟

ـ سيارة بليموث سيدان، لكنّني أعترف أنّني ندمتُ بعدها وطلبت من

ذلك الرجل أن يدفع لي ثمنها ـ يُصحّحُ ألجير ـ وفي النهاية لم يفعل قط، أعطاني عشرين أو خمسةً وعشرين دولاراً وسجادة فارسية، ما زلتُ أحتفظُ بها. كان هذا كلّ شيء. في عام ١٩٣٥ توقفت رؤية كروسلي ولم أعرف بعدها عنه شيئاً أبداً.

ـ هل تعتقد أنّ السيّد كروسلي والسيّد تشامبرز هما الشخص ذاته؟

ـ لا أستطيع أن أؤكّد ما لم أره أمامي.

ـ هل كنتما تستخدمان أنت وأسرتك أسماء تحبّب في تلك المرحلة؟

ـ كان اسمي هيل أو هيلّي. وبيسلا كنا نناديها بروس أو بروسي وتيموثي ابن زوجتي كنا نادي تيمي أو موبي.

ـ هل كان عندكم حيوانات منزلية.

ـ كوكر سبانيل.

ـ ماذا تقول لي عن هواياتك في ذلك الوقت؟

ـ التنس والطيور.

ـ وهل رأيت مرّة ما عصفورة ملكة الرأس الذهبي.

ـ بلى! ـ ـ يتحمّس ألجير كما لو أنّ العصفور يحوم أمامه ـ هنا بالذات، في بوتوماك. عادة ما تأتي إلى هنا وتعشّش في المستنقعات. جميل رأسها، يا لها من طائر عظيم!

ودّ ذو الأنف الهائل ورفاق السوء لو يتعانقوا فرحاً.

ـ حسن، يا سيّد هيس ـ يختم ستريب ـ سيكون هناك جلسة جديدة يوم ٢٥ آب في الساعة العاشرة والنصف صباحاً. في قاعة كاوكوس في الكونغرس. ستدعى أنت كما السيد تشامبرز للشهادة.

ـ يسعدني أن أملك الفرصة لأواجه السيّد تشامبرز.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بينما ينسحب هؤلاء وأولئك يصدح ذو الأنف الهائل بصوت خفيض: *ملكة الرأس الذهبي، ملكية الرأس الذهبي، ملكة الرأس الذهبي...*

ثنائي (مع جوقة أعضاء الكونغرس)

لماذا التغيير المفاجئ في المخطّطات؟ ولماذا قال عضو الكونغرس مكدويل لهيس إنّه سيزوره في مكتبه في مؤسّسة كارنيجي ويستدعيه الآن إلى غرفته في فندق كومودور؟ ما إن يفتح الباب، حتى ينتبه ألجير إلى أنّهُ وقع في فخّ. يرتّب فريق ستريب فرش الجناح كي يحوّله إلى محكمة مصغّرة. نيكسون الذي شكّ بأنّ من الممكن لهيس أن يُعيد بناءَ روايته عن الأحداث قاد تلك الجلسة المرتجلة كي يُحَاضر مَنْ صار لا ينظرُ إليه كطريدة فقط بل كحجرِ أساسٍ لمستقبله السياسي.

- ارتح - يقول مكدويل إلى هيس مشيراً إلى كرسيّ خشبيّ -. تستطيع أن تُدخّن إن شئت.

لا تخفي هذه الدماثة الزائدةُ الطابعَ الرسميَّ للاستجواب. يجعله مكدويل يُقسم ويبدأ ذو الأنف الهائل هجومه.

- بدا لنا أنّ من الأفضل أن يتوضّح لنا ما إذا كان السيّد كروسلي والسّيد تشامبرز هما ذات الشخص - صوته الأنفيّ يثقب أذني ألجير.

يأخذ هيس نَفَساً ويتوجَّهُ بنظره المتحدّية إلى النائب.

- في هذه الحال أُريد أنّ تُسجّل الجلسة صوتياً. وأنا في الطريق إلى هنا علمت بموت هاري دكستر وايت. كانت ضربة قاصِمة ولا أعتقد أنّني في أفضل وضعية للإدلاء بشهادتي.

يبدو أنّه يقول: إنّ أيدي اللجنة ملطخة بالدم، أعضاؤها هم المسؤولون عن موت نائب وزير الخزانة القديم. ذو الأنف الهائل الأكثر رخاوة من كلبِ ماء يكتفي بابتلاع ريقه.

ـ أدخلوه.

يشق ويت طريقَهُ من الغرفة المجاورة بخطوات بطيئة، ثقيلة ومدوّية كخطوات العملاق في جاك وحبات الفاصوليا، محيطاً بهيس، الذي ينظرُ إليه دون أن ينظر إليه، وينهار على الكنبة.

ـ سيّد هيس ـ يستفزّه نيكسون ـ هذا الرجل هو ويتكر تشامبرز. أسألك الآن أن كنت تعرفه.

يتلعثم ألجير، يتوقّف أمام مُتَّهِمِهِ ويفحصه شبراً شبراً بدءاً من جبينه وحتى أخمص قدمه السمينة.

ـ هل أستطيع أن أتكلّم معه؟ ـ يسأل نيكسون كما لو أن ويت من السكان الأصليين ويحتاج إلى ترجمة فوريةأم تستطيع أنت أن تطلب منه أن يقول شيئاً؟

ـ ياسيّد تشامبرز قل لنا اسمك ـ يستجيب نيكسون.

ـ اسمي ويتكر تشامبرز.

ينهض ألجير ويتفحّص وجه مُتّهِمِه كما لو أنّه يفحصُ قرداً خمولاً مُحَنّطاً. البدين والنحيل، الأوّل بدين، قصير أحمر والآخر فارع الطول، بارد، جامد.

ـ هل يهمّك أن تفتح فمك؟ ـ يتحدّاه هيس.

ـ اسمي ويتكر تشامبرز.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لا، فقط أطلبُ منك أن تفتح فمك ـ يلتفتُ ألجير إلى ذي الأنف الهائل ـ أنتَ تعرف ما أعني.

ـ أنا محرّر تنفيذي في التايم ـ ينظر ويت إلى السقف.

ـ هل أستطيع أن أسأل عمّا إذا كان لصوت هذا السيّد عندما شهد ضدّي وقع كوقع هذا؟ ـ يُصرّ هيس.

ـ صوته؟ ـ يُكرّر نيكسون.

ـ هل تستطيع أن تتكلّم بصوت أخفض؟

ـ اقرأ شيئاً، يا يا سيّد تشامبرز ـ يُسلِّمه ذو الأنف الهائل مجلّةً.

يبقى ويت مشلولاً، هامبتي دمبتي على حافة الهاوية.

ـ هل أنت جورج كروسلي؟ ـ ينظر ألجير إلى عينيه.

ـ لا ـ يردّ ويت ـ لكنّك ألجير هيس، أفترض.

ـ طبعاً أنا هو.

مدفوعاً من نيكسون يقرأ ويت مقالة من التايم بصوت عالٍ.

ـ هذا الصوت يشبه قليلاً، الصوت الذي أتذكّره لجورج كروسلي ـ ينحني هيس نحوه مثل مروِّض يُدخِلُ رأسه بين فكّي أسد ـ، وإن كان يبدو لي أنّ أسنانه تحسّنت أو أنه تعذّب كثيراً في تقويمها.

ـ أصلحها لي اختصاصيّ في عام ١٩٤٤.

ـ أعتقد أنّ هذا السيّد هو جورج كروسلي ـ يُلَخّص هيس ـ، وإن كان هناك تفاصيل تغيّرت، إضافة إلى الأسنان. هل تسمح لي بأن أوجّه إليك بعضَ الأسئلة المباشرة؟

ـ تفضّل ـ يردّ ويت.

ـ هل استخدمتَ ذات مرّة اسم جورج كروسلي؟

ـ لا.

ـ هل استأجرتَ ذات مرّة شقّة في الشارع ٢٩؟

ـ لا.

ـ لا؟

ـ لا.

ـ هل أمضيت ذات مرّة فترةً مع زوجتك وابنك في الشارع ٢٩ في واشنطن، عندما كنت أعيش أنا وأسرتي في الشارع بّي؟

ـ حدث ذلك.

ـ فعلت أم لم تفعل؟

ـ فعلت.

ـ إذن هل تستطيع أن تقول لي كيف توفّق بين إنكارك السابق وهذا التأكيد.

ـ ما من مشكلة، يا ألجير، لأنّني أنا كنتُ شيوعياً وأنت كنت شيوعياً.

ـ هل هذا هو جوابك؟

ـ كما شهدتُ سابقاً جئت إلى واشنطن بصفتي موظفاً في الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة ـ يؤكّد ويت ـ. كنتُ على تواصل مع المجموعة السرّية التي كان ينتمي إليها السيّد هيس. السيّد هيس وأنا صرنا أصدقاء. إلى الحدّ الذي أتذكّره، السيّد هيس نفسه عرض عليّ شقّته وأنا قبلتها شاكراً.

ـ سيّدي الرئيس ـ يتوجّ ألجير إلى مكدويل ـ، لا حاجة لي بتوجيه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مزيد من الأسئلة للسيد تشامبرز.الآن أنا واثق من أنّه هو جورج كروسلي

ـ وهل هذا هو السيّد ألجير هيس الذي أشرت إليه في شهادتك، يا سيّد تشامبرز؟

ـ دون شك.

لا يتحمّل ألجير أكثر. لأوّل مرّة تتفكّك تقاسيمه، تحمرُّ عيناه، تتحطّم ثقته. يشير جامحاً إلى ويت بسبّابته على بعد سنتمترات قليلة من وجنتيه

ـ أود أن أدعو السيّد تشامبرز أن يُكرّر هذه التصريحات ذاتها من دون حضور هذه اللجنة، وفي حال عدم قدرته أن يُتَّهَم بالتشهير ـ ثم وبالتوجّه إليه يضيفُ بحنق ـ: أتحدّاك أن تفعل وآمل بحق الشيطان أن تفعل ذلك بأسرع وقت.

يوقف أحد أعضاء فريق ستريب يد هيس بالقوّة مستبقاً شجاراً.

ـ لا أفكّر أن ألمسه ـ يصرخ ألجير. بالمقابل أنت تلمسني!

تهبط ظلالُ المساء على الغرفة والنائب مكدويل، القائم بأعمال رئيس لجنة النشاطات المعادية لأمريكا، يُسارع لإغلاق المواجهة.

ترتيل

تحت شمس جهنّمية وبحضورِ قرابة ألف ومائتي شخص، إضافة إلى كاميرات التلفزيون ـ واحدة مبتدئة ـ، تعنون الصحف يومَ ٢٥ آب بـ «يوم المواجهة».

تشامبرز ضدّ هيس.

عندما يدخل ويت إلى القاعة يظهر من جديد بمظهره الدائم، أشعثَ

الشعر، متصبباً عرقاً. بينما يرتدي هيس طقماً كتانيّاً مكوياً بإتقان وبابتسامة دعاية معجون أسنان كولغات.

لا معنى لتكرار تبادلات ذلك اليوم، التي كرَّرت في جوهرها الحججَ التي دافع عنها كلّ منهما في جلسة فندق كومودور. يعترف الاثنان بأنّهما تعارفا في عام ١٩٣٥ ويؤكّدان أنّ وايت أمضى بضع أسابيع في شقّة هيس في الشارع ٢٩، وإنّه استخدم سيارةَ الفورد، فيما عدا ذلك واصلا خلافهما. فصل يبرز في ما عدا ذلك ما لا نهاية له من التفاصيل الدقيقة:

ردّاً على سؤال نيكسون يؤكّد ويت من جديد التقديرَ الذي كان يشعر به تجاه هيس في الماضي.

ـ هل كان السيّد هيس صديقك؟ ـ يغوص ذو الأنف الهائل بأصبعه في الجرح.

ـ السيّد هيس كان أفضل صديق تعرّفت عليه في الحزب الشيوعي.

ـ يا سيّد تشامبرز هل تستطيع أن تجد في ذاكرتك اليومَ دافعاً تتهم لأجله السيّد هيس؟

ـ ما الدافع الذي يمكن أن يكون عندي؟

ـ لا أدري، ربّما فعل السيّد هيس شيئاً ضدّك...

ـ انتشرت إشاعة مفادها أنّ شهادتي تقوم على الانتقام لخلاف ماض، أو أنّني أقوم به انتقاماً أو كراهية ـ تمتلئ عينا ويت بالدموع ـ. أنا لا أكره السيّد هيس. كنّا صديقين، لكنّنا الآن متورّطان في مأساة التاريخ. السيّد هيس يمثّلُ العدوَّ الخفيَّ لكلّ ما نناضلُ وأُقاتلُ أنا لأجله. شهدتُ ضدَّه نادماً ومشفقاً، لكن وسط الخطر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي يحيق بأمتنا، ليكن الله في عوني، لم أستطع أن أعمل بطريقة أخرى.

في نهاية الاستجواب لم يعد عند أعضاء لجنة النشاطات المعادية لأمريكا شكّ بأن أعظم كذّاب وطئ الأرض الأمريكية لم يكن آخر غير هيس، الذي يجب أن يمثل أمام هيئة مُحَلَّفين كبيرة بتهمة الضرر.

يردّ محامو ألجير مُقَدّمين في محاكم بالتمور دعوى بالتشهير ضد تشامبرز ويطالبون بتعويض بقيمة خمسين ألف دولار عن الضرر النفسي والمعنوي.

المعركة الآن جسداً لجسد.

آريا ويتكر تشامبرز

في هذا الجو تجري انتخابات الثاني من تشرين الثاني لعام ١٩٤٨، التي ولدهشة القريبين والبعيدين تعود وتعطي الرئاسةَ والكونغرس إلى الديمقراطيين. يحكم تشامبرز أن أبناء بلده لم يتوقفوا بعد عند خطر المؤامرة الشيوعية ولذلك يبدو أكثر إلحاحاً البرهانُ على أنّ هيس كذّاب وأنّ رؤساءه الديمقراطيين وعلى رأسهم ترومان لم يفعلوا شيئاً لكشف القناع عنه.

- هل تشعر بأنّ شيئاً ناقصاً في هذه القضيّة، أم لا؟ - يسأل ويت محاميه، ريتشارد كليفلاند، بينما هو يرُاجع الحجج التي سيقدمانها خلال المحاكمة.

- بلى.

- هذا لأنّ هناك فعلاً شيئاً ناقصاً - يهمس ويت - التجسّس، يا صديقي، إنّه التجّسس.

لن أقول إنّ كليفلاند، الابن الضخم للرئيس الذي يحمل الاسم ذاته، يفغر فاه، لكنّ الاعتراف يُشوّشه. حتى تلك الساعة لم يكن ويت قد استخدم هذه الكلمة خلال الجلسات أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا اقتصر على قول أنّ الاثنين كانا شيوعيين وأنّهما كانا يدفعان اشتراكهما للحزب وأنَّ ألجير أعاره شقّته وسيارته. لكنّ لا شيء من هذا خلال الثلاثينيات كان يُشكّل أيّ جريمة. الحزب الشيوعي كان منظّمة شرعية وكان شرعياً الانضمام إليه، الاجتماع علناً أو سرّاً، دفع الاشتراكات والمشاركة في البيوت والسيارات طوعاً. إذا ثبت حنث هيس بيمينه، فقط سيعرض مداورته بالاعتراف بماضيه أمام اللجنة. أما التهمة بالتجسّس فستبدّل المشهد: الأمر يتعلّق بجريمة أعظم وأكثر ضرراً بما لا يُحَدّ بسمعة المتَّهَم ـ والمُتَّهِم.

ـ هل عندك برهان محدَّد؟ ـ يسأل كليفلاند.

ـ أخشى أن يكون نعم.

ـ ضمان حياته.

بما أنّنا نعرف أنّ ويت أمّن، قبل قليل من مغادرته الجهاز السرّي، إخفاء بعض الوثائق السرّية المتعلقة باتصالاته ووضعها بين يدي ناتا لفين، حفيد أستير. على الرغم من أنّه لم يره منذ أربع سنوات لا يتردد بالاتصال به هاتفياً. بعدها بقليل يرسل إليه برقيّة، يعلمه بأنّه سيصل إلى شقته في بروكلين نحو الواحدة مساءً. النص يحتوي على سطر آخر: **من فضلك حضّر لي أشيائي.**

عندما يذهب ويت إلى الموعد، كان ناثان على المائدة مع كامل العائلة، يعترف لعمّه أنّه لا يعرف إلى ماذا يشير. يُذَكّره ويت أنّه أودع عنده قبل عشر سنوات مغلّفاً أصفر. ناثان الذي يُشَغّل ذاكرتَهُ يوضّح بأنّه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعتقد أنّه تركه في بيت أبويه. عندما يدخل الاثنان إلى حمأم السيدين لفين، يتنفّس ويت أخيراً الصعداء. يظهر المُغلّفُ القديم داخل وعاء خزفي مُغطّى بشباك العناكب والغبار.

ـ يا إلهي، ظننت أنّه لم يعد موجوداً.

بعد العودة إلى وستمينستر ينشر محتواه على طاولة غرفة الطعام.

ورقة واحدة ٣ × ٥ تقريباً مع ملاحظات؛

أربع أوراق دفتر مطوية بعناية؛

خمس أوراق رسمية صفراء مغطاة بالملاحظات مكتوبة بخطّ اليد على الوجهين؛

خمس وستون ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة ٨ ونصف × ١١ و٨ ونصف × ١٠؛

شريطا ميكروفيلم مُظَهّران، مجموع ما فيهما ٥٨ لوحة.

ثلاث بكرات معدنية فيها ميكروفيلمات غير مظهرة مختومة بشريط لاصق أسود.

قنبلة.

واعياً بأنّ تلك المادّة المشعّة يمكن أن تُدمّره مع هيس، يلتهم ويت أوّل شيء يعبر به، بيضاً مقلياً، شحمَ خنزير، بطاطا مسلوقة، جامبو، خبزاً، مربى وغالون حليب. كلّ هذا الطعام لا يشبعه فيُحمّي بعد ساعتين الموقد ويُحضّرُ قطعةَ لحم مشبعة بالدم. وفي المساء وجبة أخرى من البيض المقلي وشحم الخنزير والزبدة والخبر. لا ينام طوال

الليل، يرقص، يرقد على السرير. تبدو أستير مثله في غاية العصبية والاضطراب.

يتوجّه ويت في صباح اليوم التالي إلى اجتماعٍ مع محامي هيس في مكتب كليفلاند مصمّماً على أن يعبر نهر الروبيكونَ.

ـ أنا جاهز لتقديم الوثائق في المحاكمة ـ يُعلن لهم ما إن يصل ـ ـ. إنّها بعضُ مخطوطات السيّد هيس ونصوصٌ أخرى مكتوبة على الآلة الكاتبة.

ـ لماذا تأخّرت إلى هذا الحد في تقديمها ـ يسأله وليم ماربوري، محامي ألجير.

ـ كنتُ أشعر بنفسي في غاية القلق نظراً للصداقة ولأنّ السيّد هيس واحدٌ من ألمع رجالات البلد ولم أكن أريد أن أؤذيه أكثر من اللازم ـ يُسارع ليُريهم الملاحظاتِ الأربعة المكتوبة بخط اليد والأوراق الخمس والستين المكتوبة على الآلة الكاتبة (عن البقية لا يقول شيئاً)

يسترخي ويت، كما لو أنّ وزنَهُ خفَّ بضع ليبرات دفعةً واحدة، وينطلق لأوّل مرّة منذ سنين ليحكي بحريّة ـ لنكن دقيقين، ببعض الحرّية ـ عن الطبيعة الحقيقيّة لعملهِ السرّي. يُحدّثهم عن بيكون، العميل الروسي الذي كان صلة وصل معه، عن الرحلات المعقّدة التي كان يقوم بها بين بالتيمور ونيويورك وواشنطن للحصول على الوثائق وتصويرها وإعادتها إلى مصادرها، عن الطريقة التي كان هيس يُسلّمه بها الأوراق (فِي أكثر من عشرين مناسبة، يُدَقّق)، عن علاقته القويّة به. يُقدّر ماربوري، محامي ألجير التأثيرَ الماحق الذي سيكون للوثائق على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دعوى التشهير؛ لكن ما زال باستطاعة زبونِهِ أن يبقى خاضعاً لمحاكمة جنائية.

هل هو انتصار لويت؟

انتصار طفيف.

إذا كانت الأدلة تُعزّز فعلاً روايتَهُ، فإنّ المشنعين به لن يتأخروا في سؤاله لماذا كذب على لجنة النشاطات المعادية لأمريكا ولماذا لم يتجرّأ إلاّ الآن على تقديم الأدلّة. وللطامّة فإن جريمة التجسّس بحسب نظام المحدودية الحكومي تسقط بعد ثلاث سنوات، ولذا فإنّ هيس يمكن أن يُتَّهَم فقط بالحنث باليمين.

عندما يُري محامو ألجير أوراقَ تشامبرز، يعترف بأنّها تُشبه الوثائق التي كان يَستلمها عندما كان مساعد معاون الوزير فرانسيس ساير في وزارة الخارجية ويؤكّد أن الوثائق مكتوبة بخطٍّ يده.

ـ لكنَّني لا أملك أدنى فكرةَ عن الكيفية التي وصلت بها إلى يدَي تشامبرز.

كان نيكسون في مكتبهِ في الكونغرس في غاية الاكتئاب، مثله مثل بقيّة أخوته في العقيدة. كان مقتنعاً بأنّ فوزَ ترومان يعني وضعَ نهايةٍ للقضية ضدّ هيس. خائباً وعد زوجته برحلةٍ بحرية إلى بنما وحين يفتح ستريب البابَ دون أن يُعلن عن نفسه ويقول له إنّ عليهما أن يُسافر على الفور إلى وستمينستر كي يزورا تشامبرز، فإنّ ذا الأنف الهائل لا يتردّد في أن يرسله إلى الشيطان.

ـ ما عدتُ أطيقُ هذه القضيّة. لا أُريد أن أسمع أكثر عنها. أنا ذاهب إلى بنما.

يحكي له ستريب أن تشامبرز على ما يبدو سلّم محاميه أدلةً محدّدة عن نشاطاتِ هيس التجسّسية.

ـ وأعتقد أن ابن الحرام ما يزال يخفي شيئاً.

يصل الاثنان إلى بيت حليفهما المزعج قرابة الثالثة مساءً. يستقبلهما ويت في الأهراء بقميص بمربعات ـ أقرب إلى الملحفة ـ مليء بزرقِ العصافير (زرق ملكة الرأس الذهبي؟)

ـ آسف يمنعني محاميَّ من الحديث معكما.

«الآن يسكت» يُفكّرُ نيكسون. ستريب بالمقابل يظنّ أن ويت يموت توقاً لأن يكشف لهما عن أسراره. ألقيتُ قنبلة ـ يعترفُ تشامبرز ـ لكنّها لا تُقارن بالقنبلة التي سألقيها لاحقاً.

هل يعني هذا أنّ لديك مزيداً من الأدلّة؟ ـ يسأله ستريب.

ـ هل تعرف مصوّراً جيّداً؟ خبيراً حقيقيّاً؟

لماذا؟ ـ يُثار نيكسون.

لا أستطيع أن أقول لماذا؟

لنذهب من هنا ـ يلعنُ صاحبُ الأنف الكبير.

ينهض ويت في صباحِ اليوم التالي رائقَ المزاج: منذ أسابيع وربّما أشهر لم يشعر بمثل تلك الراحة. لا شيء تبدّل، عملياً لم يمرّ قط بمثل الخطر الذي يمرّ به الآن ـ يمكن أن يتلقى في أيّ لحظة تبليغاً للمثول أمام المحكمة بتهمة الخنث ـ، لكنّه يشعر بسلام داخليّ مفاجئ، سلام من ليس عنده ما يخسره.

يُقرِّرُ ويت بعد أن يحلبَ بقراته ويشربَ قهوتَهُ مع أستير ـ التي هي في كلّ مرّة أكثر اضمحلالاً واحتجاباً ـ أن يتنزّه في حقول مزرعته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تسوط الريحُ الشتويةُ وجهَهُ وتنعشه. يأخذ ويت قرعةً ضخمةً ويحملها إلى المطبخ. كما لو أنّه يُحضّر مصباحاً لعيد الهالوين. يفتح الثمرةَ بسكين ويُخرجُ لبّها وبذورها، ثمّ يلفُّ بكرات الميكروفيلم بورقٍ خشن ويضعها في داخلها. ما إن ينتهي حتى يعيد القرعةَ إلى البستان. هناك في العراء، على الأرض القفراء والمتجمدة، يرتاحُ سلاحه الجديد، قنبلته الهيدروجينية.

في اليوم التالي حين يُسلمُ أخيراً الوثائقَ إلى ستريب، لا يعود عنده أيّ سرّ يكشف عنه. أو لا يكاد يعود عنده أيّ سرٍّ. لأنّه يخبّئ في إضبارةٍ تحت القفل والمفتاح في عمق مكتبهِ وثيقةً أخيرة تعود إلى سنوات عمله كجاسوس.

بعض الأوراق المكتوبة بخط اليد والتي لم يكتبها هيس.

مذكرة سريّة من وزارة الخزانة.

حين يسأله ستريب بعد بضعة أيام عن كاتبِها يلفظُ هو الاسمَ بوضوحٍ تام.

ـ هاري دكستر وايت.

المشهد السادس
حول كيف تُكوّنُ حياة زوجية تامّة وتصفع مُعَلمَكَ بنعومة

ثنائي

دائماً انتابني شكّ عند النظر في جلسات العمل التي كانت تشارك ليْ بها بامْ ـ مؤرخة فن، شعرها أحمر طبيعي، متزوّجة من موظّف تنفيذي في مِرّيل لينش ـ والطريقة التي كنا نرتب بها رتابتنا الجنسية التي راحت تتباعد في كلّ مرّة أكثر، وعند انتباهي للغموض المرتعش في صوتها لشعرها المجموع دائماً في ذيل حصان خشن، لمشاركتي لها شَغَفَها بهذه أو تلك الممثلة الإيطالية أو الفرنسية، أو أحكامها القاسية على وحشية أو إهمال الذكر ـ وكذلك لسماعي مرّة بعدَ أخرى لانفجارات غضبها على صديقات بامْ ـ، لكن ميولها بقيت مخزّنة في مكان ما من دماغي، كواحدة من تلك المعارف الأكيدة التي يُفَضّل المرء ألا يُخرجها إلى النور. إذا كانت زوجتي اللامعة تُفَضّل أن تسكتَ على أفضلياتها، فأنا عازم على احترامها: لم يحدث أن فتّشتُ في أدراج أو بريدِ الغير الإلكتروني، عندي ما يكفيني من إدارة أسراري الخاصّة. بعد كلّ حساب أنا أيضاً كنتُ أظنّها على اطلاع على خباياي باتفاق ضمني يُظهر راحة ترتيبنا ويجنبنا تلك المشاجرات التي عادة ما تُسمّم حياة المتزوّجين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجدد. ربّما لهذا السبب فوجئت كثيراً قبل أن ننتقل بقليل إلى طاولتنا في مطعم غراند تير في المتروبوليتان، لنتناول العشاء بعد حفلة السمر التالية على عرض مضاعف للدثار والعباءة غناء بافاروتي، دومينغو، وتيريزا ستراتاس العظيمة (وإخراج زيفيرللي المدهش) تنزلق لي إلى بكاءٍ سخيّ ومديد، مُحَطّمةً سحر الليل.

ـ أظنّ أن الدموع ليست بسبب موت نِدًا ـ ناولتها منديلاً.

ـ اللعنة على بامْ! ـ تنهّدت.

ـ هل جرى لها شيء؟ ـ على الرغم من أنني تنبأت بالانعطافة التي ستشهدها الدردشة، إلاّ أنّني فضّلتُ أن أتبع سيناريو الزوج المُفاجأ.

ـ أولا تهتف لي في كلّ ساعة وتريدني تحت تصرّفها ـ عندما مخطت أحدثت لي رجّةً هزّت سيّدتين عجوزين كانتا تشقان طريقهما باتجاه طاولتيهما ـ، ثمّ تختفي، لا تردّ على الهاتف ولا تُقَدّم لي توضيحات...

ـ ماذا أستطيع أن أقول لك؟ لم أفهم النساء قط.

ـ ليس صحيحاً...

نجحتُ أخيراً مقابلَ مساهمة متواضعة بخمسة وثلاثين ألف دولار سنوياً في أن أصبح واحداً من رعاة دار أوبرا متروبوليتان (حتى أنّ مديرتها التنفيذية دعتني للغداء في هذا الأسبوع ذاته) وكانت تلك الحفلة مناسبة كي أتواصل مع زملائي الجدد؛ وأقل ما كنت أرغب به في مثل تلك الظروف هو حصول مكيدة منزلية.

ـ قولي لي ماذا يحدث؟

ـ أحتاج لمساعدتك ـ شمّرت لي أنفها.

ـ حسن. سأكون معكِ صريحاً. برأيي أنّ بامْ صار عندها صديقة أخرى (أو صديق) تهمّها أكثر أو تُعجبها أكثر منك. لا أريد أن أكون فظّاً، يا حبيبتي، لكنّك طبق مائدتها الثانية.

عاودت لي البكاء، لكنّه كان هذه المرّة مختلفاً، أكثر عقلانية وحساباً، هذا إذا كان من الممكن قول هذا عن البكاء.

ـ في الحرب أوّل شيء علينا فعله هو أن نَتَحَقّق من الأرض التي ندوس عليها ـ اقترحتُ.

ـ هل تستطيع مساعدتي؟

يبدو أنّ لي حسبت كلّ شيء ولا تنتظر إلا الطريقة التي تستميلني فيها (كما استمالت نِدّا كانيو)، لكنّ موقفها لم يجعلني أغضب منها. إذا ما استبعدنا السرير، فقد كنّا نُشكل ثنائيّاً جيّداً، أفضل من أيّ من الذين أتردد عليهم في الوسط المالي، لماذا لن أساعدها؟ وافقتُ.

أوقفت زوجتي الشابة نشيجَها، وضعت مسحوقاً على أنفِها وخدَّيْها، سوّت خصلةَ شعر وأخذتني من ذراعي.

ـ إذا ما انتبه أحد إلى أنّ مَسْكَرَتي سالت سأقول له إنّ أغنية «ارتدِ طقمك»[1] أثارت مشاعري.

كم بعيدة صارت على ما يبدو، الشابةُ البريئة، التي حضرت كي تعمل لصالحي قبل بضع سنوات. لا أريد أن أقول إنّ احتكاكها بي *أفسدها* ـ ما زالت تتباهى بقناعاتها الليبرالية عند أوّل فرصة صغيرة

(١) جملة من أغنية صادح مشهورة في أوبر باجلياتشي (المهرجون) للإيطالي لروجيرو ليونكافاللو (١٨٥٧ ـ ١٩١٩).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لتصبّ لعناتها على الجمهوريين ـ لكن من حسن الحظّ أن أفقها الأخلاقي توسّع.

عبرنا الصالون ونحن نحيي يمنة ويسرةً (دون أن يعرفنا أحد كما يبدو) حتى وصلنا إلى مكاننا في أبعد زاوية من الطاولة الرئيسية. دخل بافاروتي ودومينغو وستراتاس دخول المنتصرين فنهضنا جميعاً كي نُصفّق لهم. كم هو محزن أن تكون بعيداً إلى هذا الحد. سارع المشهورون ليجلسوا بجانب جين لفين وجو فولبٍّ، المدير الفنّي والمدير العام الكريه لدار أوبرا متروبوليتان (بالمناسبة كان قد بدأ حياته مصمما للمؤثرات الفنّية) حاولتُ أن أُحافظ على اتزاني ورحتُ أتحدّث مع جيراني، طبيبين وصاحب شركة مبيدات حشرية أو عطور، لكنّني في أعماقي كنت أشعر بنفسي مغموماً مثل لي. في تلك اللحظة وبينما النُّدُلُ يُقدّمون حساءَ حلزونٍ تافِهاً والندماء يتباهون بموسوعيتهم الموسيقية المزيّفة، وعدتُ نفسي ألاّ يمرّ عامٌ حتى أتحوّل إلى نجمٍ آخر من نجوم عالم الأوبرا الصغير، إلى راعٍ من الدرجة الأولى لفَنِّها، بحيث لا أستطيع أن أختار مكان جلوسي وحسب، بل أين أُجْلِسُ الآخرين أيضاً.

ـ دعيه لي ـ همستُ في أذنِ لي.

ترتيل

درسُ التاريخ، وبخاصّة درس تاريخ الرأسماليّة هو ذاته دائماً، أحدٌ يكتشفُ طريقةً جديدة كي يثري بسعادة أو خفّة (في السابق كان اختراع تكنولوجيّ جديد؛ اليوم صيغة للتكهّن بسلوك الأسواق)، يستخدمها مرّة وأخرى بفعالية، حتى يجمع الملايين، وسرعان ما يشعر بعدم الرضا، يَلمحُ إستراتيجياتٍ جديدةً كي يزيد امتيازه، ينساق مع دوافعه، يضيعُ

عن نظره الواقعُ المقارنُ بمآربه، يُقدّر عالياً مَكْرَهُ، يهملُ أو ينتقص من قيمةِ مؤشرات الخطر، يُخاطر أكثر من اللازم، يبدأ يخسرُ مالاً، يزيدُ المراهنات، فيخسرُ أكثرَ وأكثر، لكنه ولا حتى بهذا الشكل يرتدع أو يُغيّر رأيَهُ، وحين يقول لنفسه إنّ حظّه على وشك أن يتبدّل... يصل الإفلاس. دائماً القصّة ذاتها. ولا أحد يتعلّم.

كان ج. م. قد أخذنا إلى فيكرام وأخذني إلى اللونغ تيرم، صندوق العباقرة، كي يعيد بعض العقل إلى نجومه، إلى المتهوّر هاغاني، إلى النزق هيليبراند، ليرمّمَ الحسَّ العام بين سادة الكون أولئك، ويُحاولَ أن يستعيدَ الخسائر التي كانت المؤسّسة تعاني منها بطريقة هي في كلّ يوم أكثر خزياً. اندفاعه كان صحيحاً، التعاقد من ناسٍ قادرين على أن ينفخوا قليلاً من الهواء النقيّ في مكاتب كرينويتش المخلخلة، وأن يكشفوا عن سبب أنّ نزفها لا يتوقّف، على الرغم من جمال ودقّة صيغها.

اقتصرنا أنا وفيكرام على القيام بعملنا، مراجعة مختلف عمليات اللونغ تيرم كابيتال منجمنت ومُحاولة أن نعثر على تفسير أكثر مما على علاج. تحول هاغاني وهيليبراند حتماً إلى أكبر مُشَنِّعَيْن بنا. ما أسهل أن تعثر على خطأ سابق، كانا يقولان لنا.

ـ المسألة أن التحقّق من السبب الذي جعل أحداً يخطئ في الماضي أبسط وأريح من اتخاذ قرار للمستقبل، لكن لهذا هم يدفعون لنا ـ واجههما فيكرام.

لم تكن مناقشة نموذَجَيّ ميرتون وسكول في جدولِ أعمالنا. على كلّ الأحوال كان علينا أن نكشف عن الاستثمارات التي تبتعد عن القاعدة التي وضعها الحائزان على جائزة نوبل. بعد أن غصنا في حساباتهما عثر فيكرام، بعد بضعةِ أشهرٍ، على أوّل جواب. إنّ نجاح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللونغ تيرم كابيتال منجمنت، نجاحه الهائل، كان السبب الأساسي في فشله. كان الصندوق قد حقّق في أقل من خمس سنوات أرباحاً خياليّة وفجأة صارت المسألة ماذا سنفعل برأس المال المُراكَم. على الرغم من الغالبية كانت قد عادت لتستثمر في عمليات تحكيم جديدة بحسب القوالب التي أملاها العباقرة، كان قد زاد ما يكفي كي يقع هاغاني وهيليبراند وشركاؤهما في إغواء المراهنة بمبالغ هائلة هنا وهناك، مُرتكزين على حدسهم أكثر مما على تحليلهم، هم لن يعترفوا أبداً بأنّ قراراتهم تستجيب لخصياتهم أكثر مما لإحصاءاتهم وأنّ خسائرهم كانت ناتجاً نموذجياً لطيشهم أو لغطرستهم، سوف يغطون أحشاءهم بالأرقام وبمزيدٍ من الأرقام، آملين ألا يكتشف أحدٌ، وخاصة نحن، أنّ خلفَ الرائحة الحلوة المتضوّعة من صيغ ميرتون وسكول تتخفى رنجةٌ متفسّخة.

كان، كما أشار فيكرام، قد نفذ صبرُ ورشدُ شركاء لونغ تيرم كابيتال منجمنت وقد غطّوا بمرابحهم وحسن حظّهم، ـ أكبر خطر على المضارب ـ لو كانوا قبل سنوات لأمضوا أسابيع في تحليل المعلومات عن الاقتصاد الإيطالي كي يهبّوا لصالحه أو ضدّ سنداته أو عملته، بينما لا أحد الآن يملك الوقتَ ولا حتى لإعادةِ قراءةِ تقرير. عندها، تماماً عندها لفظَ أحدُهم الكلمةَ التي ستُحَدّد مصير لونغ تيرم كابيتال منجمنت: روسيا. قرن الوفرة الجديد، جنّة الرأسمالية الجديدة. ألدورادو الجديد. للوهلة الأولى أبدى الشركاء حماسهم لمشروع الاستثمار الجديد، فبعد كلّ حساب كان حاكم مصرف روسيا المركزي، سيرغي دوبينين، قد صرّح للتوِّ بأنّ الروبل لن يُخفَّضَ والسندات الروسية دفعت في سنة واحدةٍ فائدةً وصلت إلى تسعين بالمئة. إنّ إمكانيات أن يلعبوا لعبة التحكيم في أرض دوستويفسكي

الباردة كانت تبدو أكثرَ من منعشة. لكن أين صارت الأرقام والدراسات الشاملة التي ميّزت لونغ تيرم كابيتال منجمنت حتى ذلك الوقت؟

ـ هذا القرار خلّف طعماً كريهاً في فمي ـ اعترفتُ لـ ج. م. في اجتماع في غريونوتش ـ يقولُ حمقى صندوق النقد الدولي إنّ روسيا مشكلة تحت السيطرة نظراً لإنقاذ اثنين وعشرين مليار دولار سلّموها توّاً ليلتسين. لا أصدّق. هذه الأموال ستنتهي إلى جيوب الأقلية الحاكمة.

لم يكن الوصول إلى هذه النتيجة يتطلّب أن يكون المرءُ خبيراً في السياسة الروسية، لكنّ هاغاني ازدرى تحليلنا بحركة بذيئة.

ـ لا يمكن للقوى النووية أن تُفلس، الولايات المتحدة لن تسمح بذلك أبداً. لذلك استرخِ، يا فولبي. ثم دعني أقول لك إن لدينا نموذجاً للعجز الروسي غير المحتمل أبداً.

ـ صيغة قادرة على أن تتنبأ بما قد يحدث إذا لم تستطع القوّة النووية الأعظم على الكوكب أن تفي بمدفوعاتها؟ حقّاً؟

ـ نحن هنا نرتكز على التجربة ـ لا يخفي هاغاني غيظَهُ ـ إذا لم تكن مستعدّاً لاستخلاص نتائج التجربة، تستطيع أن تبقى جالساً مكتفَ الذراعين ولا تفعل شيئاً.

خطأ مُبْتَدِئ: أن تعتقد أنّ الماضي في عالم الأموال ميزانٌ جيّد للمستقبل. عندما تجرّأت بعد ساعتين وقلتُ لـ ج. م. إنّ تفكير هاغاني يضع المؤسسة في خطر، نظر هذا إليّ كما لو أنّني دخيل أو جاسوس.

ـ الناس من أمثاله هم من يكسبون المال للصندوق.

عندما يُسمع إنذار زلزال هذا يعني أن مركزَ الهزّة قريب جدّاً. على الأقل هذا ما يحدث في عالم المال: عندما تكون علاماتُ الأزمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

واضحةً جدّاً بحيث يستطيع أي شخص أن يُلاحظها، فهذا يعني أنّه لم يعد هناك مكان يُهْرَعُ إليه. نظراً للأحداث اللاحقة، لا أجرؤ على تأكيد هذا التأكيد (وإلا لما كنت تحت شجرة جوز الهند القذرة هذه)، لكنّني على الأقل أستطيع أن أتباهى بأنّني تنبّأتُ هذه المرّةَ بالهزّة التي كانت تقترب. انفجار وإعصار، وعرفتُ كيف أفلتُ منهما في الوقت المناسب. ربّما حانت، كما قلتُ لفيكرام ذات مساء، ساعةُ أن أتخلّى عن خدمة الآخرين.

ثنائيّ الانتقام

حدسي لم يخطئ: ألبوم الصور الذي سلّمه لي رجل التحرّي، التي تليق بهوستلر أكثر مما ببلايبوي، لا يترك مجالاً للشك.. كانت بام تتلذّذُ على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع مع دومنيكانية منفوخة الثديين، إضافة إلى شقلباتها مع زوجتي يومَي الاثنين والأربعاء في ساعة الشاي. من المستحيل معرفة ما إذا كان هناك حدٌّ أدنى من الحب في تلك الرياضة الغراميّة، في الابتهالات الصارخة لله، واحتكاك البظرين. بام الرياضية ـ أكره أن أقول الشبقة ـ، كان ما يزال عندها طاقة لإرضاء زوجها الموظف التنفيذي المهذّب في سيتي بنك. اضطررت دون أن أتخلى عن الإعجاب بحميتها أن أُشاطر لي نهم عشيقتها. دخلت زوجتي متشنّجة اليدين في بكاء كان هذه المرّة عدوانيّاً وشديداً، مليئاً بالكراهية.

ـ والآن.

ـ الآن؟

ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟

ـ تنسينها.

ـ لا.

ـ مشاركتها.

ـ أيضاً لا.

أفعوان الغيرة الذي لا يرحم (وغير المجدية)

ـ حسن، اتركي الأمر لي ـ وعدتُها مرّة أخرى.

ـ ما زال يدهشني تذكّر التواطؤ الذي حبكناه فيما بيننا أنا ولي في ذلك الزمن، حين كان كلّ مِنّا يُطلع الآخرَ على مغامراته الجنسية ونتبادل النصائحَ أو يُواسي أحدنا الآخر دون ندم. وينخسني الحزنُ حين أتذكّرُ أنّ من المحتمل جدّاً إلا أعود إلى جانبها وألا ألاعب الصغيرة بيكا، التي لا تحمل حتى كنيتي ولم أتأمّل وجهها الصغير قطّ. عندما كانت الدمينيكانية ذات الثديين الأيروستاتيكيين تظهر في سوق للحلي الرخيصة، تغطيها الخواتم والأساور متعدّدة الألوان، أهتمَ أحدهم بأن يقدّم لها مبلغاً جيّداً كي تبحر عائدة إلى جزيرتها أو على الأقل تتظاهر بذلك. بكلّ كبرياء رفضت الخلاسية. وعندها وكما في نديّ الصوت، العربيد (وأتخيّله إيطالياً) الفاقد لسنٍّ والعنيف، بلطخة حمراء على عنقه من الخلف) كشف لها أنّ الخيار هو أن تقدم شكوى من مجهول لسلطات الهجرة.

لم نسمع بعدها أخباراً عن الدومينيكانية وبقيت لي وبام أكثر ارتباطاً من أيّ وقتٍ مضى

رشوة أو ابتزاز مهاجر غير شرعيّ عقوبتها عشرون ألف دولار.

أن تبتسم لك زوجتك (ولا تُخرّب عليك حفلات دار الأوبرا) شيء لا يُقدّر بثمن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تكن مصادفة ولا معجزة، أُفَكّرُ الآن أنّ الاكتشاف كان جزءاً من مُخَطَّط رسمته أمّي بخبث. بقيت جوديث المهجورة في مأوى المتقاعدين في أورلاندو تمارس نشاطها مثل محرّكة دمى العرائس قادرة على أن تجعلنا نتقدّم أو نتقهقر في تحرّياتنا (كما ما تزال لي تُسميها) كما تشاء. فجأةً ترتاح على مكتبي مجموعة جديدة من يوميات أبي موضوعة في علبة فيديكس بسماكة بوصة، كما لو أنّها أنقذت من قاع البحار (أو من ذاكرته) تعود هذه المرّة إلى مرحلة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥ (لماذا هذه السنوات فقط، سألت زوجتي، بالغة الحساسية) وتغطّي المباحثات بين الوفدين الأمريكي والبريطاني حول السياسة الاقتصادية لما بعد الحرب وما وراء كواليس مؤتمر بريتون وودز. هديّة جعلتها أمي، بلطفها المُطلق، تصلني دون أن تقبل بأيّ سؤال عن مصدرها أو أسباب ظهورها المفاجئ.

بخلاف الدفاتر السابقة صار خطّ نُوَا أكثر قوّة، كما لو أنّه جهد في الحفاظ على نبضه. بالمقابل كانت ملاحظاته الفنيّة منها والإنسانية (كي نصفها بطريقة ما) تحقّق نبرة مبالغ في دقيقتها ساعةَ تفصيل المباحثات مع الإنكليز. توصيفاته لخفايا بريتون وودز أفرحت لي ـ كان نُوَا واحداً من مُحرّري اتفاقيات المؤتمر ـ، لكن بالنسبة إليّ سرعان ما بدت لي طويلة ومتعبة.

ـ لنُركّز على تلك التي تسمح لنا بملاحظة العلاقة بين وايت وأبي بالاتحاد السوفييتي ـ طلبتُ من لي.

ـ برأيي أنّ وايت ومرؤوسيه لم يكونوا يبحثون عن شيء آخر غير لَيِّ

ذراع البريطانيين ـ صرّحت. لا شكّ أن نائب وزير الخزانة كان يحترم كينز، لكنّه كان مصمِّماً على تخريب كلّ مبادراته.

على الرغم من أنّ أسلوب لي استمرّ بسيطاً، في التواريخ الأخيرة، إلا أنّها قامت بعملية تحويل حاذقة في صورتها، بقيت تستعملُ الحدَّ الأدنى من الماكياج لكنّها الآن لا تتردّ في شراء منتجات لوريل أو لانكوم بدل خلائطها العضوية من الأطعمة المتكاملة ما زالت تُفضّل الجينز والصندل، وإن كانت الآن تجمع بين أزياء ستيلا مكارتني وأحذية مانولو بلاهنيك وقطع من كولومبيا أو الهند. الشيء الوحيد الذي لم تَلِنْ تجاهه هو إيمانُها النباتي وقرارها بألا تشربَ غير القهوة والشوكولاتة من علامات التجارة العادلة وجرعةُ الالتزام الاجتماعي في حدّها الأدنى الذي تستطيع مستهلكة نيويوركيةٌ أن تُخفّف بها من ذنوبها.

ـ ماذا تقولين لي عن هذا الجزء؟ ـ أشرت إلى صفحة معلّمة بقلم:

٢٣ تشرين الأوّل ١٩٤٣

اليومَ رافقتُ هاري إلى غداء مع السفير مولوتوف، وهو رجل ضخم لغته الإنكليزية المخبوصة، وشفتاه غليظتان كشفتي ملاكم قديم. بينما كان ضيفنا يلتهم محاراته التي من ماين، أملى عليه هاري محاضرة عن المباحثات مع البريطانيين والتقدّم في الخطّة المالية لما بعد الحرب. أنا مقتنع بأنّ الدبلوماسي العتيد كان يُسجّل كلَّ كلمة من كلماتنا. وضّح له هاري الوجوهَ العامّةَ للصندوق ولم يفتْهُ الإصرارُ على أنّ وجود الاتحاد السوفييتي في الجهاز لا غنى عنه. أكّد لنا مولوتوف بلطف مدروس أنّه سيُرسل كلّ المعلومات إلى موسكو وأنّه ينتظر جواباً إيجابياً لصالح التعاون بين الأمم، إلخ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«المشكلة»، لخّص هاري «هي أنّ الروس لا يعطونكَ أبداً جواباً مُباشراً، كلّ شيء يجب أن يُسْتَشار به ألفَ مرّة، إنه كابوس».

- يجب أن نتذكّر أنّ وايت وكينز تابعا بين كانون الأوّل ١٩٤٣ ونيسان ١٩٤٤نقاشهما عن بعد - دمدمت لي - كان وايت بحاجة لأن ينشر بأسرع وقت اتفاقاً على مبادئ تُفيد كقاعدة للمؤتمرِ المالي، الذي كان روزفلت يُريد عقدَهُ قبل الصيف. كينز، لم يترك يوماً يمر دون أن يُرسل برقيّةً لوزير الخزانة ليشكو من مسودّة وايت. في النهاية وباستثناء بضع لمسات، لم يكد يبقى من مشروع كينز الطموح أثرٌ في الاتفاق، باستثناء الاسم الذي اختير لتعميد صندوق النقد الدولي، المصطلح الذي سكّهُ البريطاني مقابل صندوق تحقيق الاستقرار الدولي الأكثر غموضاً وتقنيّة، الذي استخدمه وايت. انظرْ:

١٣ شباط ١٩٤٤

استُبْعِدَتْ أونيتاس نهائياً. أكّد وينانت، سفيرُنا في لندن، ذلك لوزيرِ الخارجية. خسر البريطانيون معركتهم الأخيرة ولم يبقَ لهم غير أن يذعنوا دون شروط. من جانبنا عاد الرئيس ليصرّ على أن يُعقد المؤتمرُ خلال شهر أيار. لم يبق إلا بضعة أسابيع! والأسوأ هو أن علينا أنا وغلاسّر أن ننظمه.

- بعد ثلاثة أشهر يعود السوفييت ليظهروا على المسرح - أدلُّها على مدوّنتين أخريين:

٢٠ نيسان ١٩٤٤

«ومن جديد لا أخبار من الروس» أسرَّ لي هاري. «غداً سيُعلن الوزير مورجنتاو اتفاقية المبادئ ومولوتوف لم يعطنا جواباً حتى الآن. تكلّمتُ

معه عشر مرّات وما يزال يقول إنّهم ليسوا واثقين من مبادئ الصندوق. لا أعرف ماذا سنفعل إذا لم يصل الجواب غداً في مثل هذه الساعة».

عبثاً حاولتُ أن أهدئه.

٢١ نيسان ١٩١٤

قبل ساعات قليلة من إعلان الوزير اتفاقية المبادئ وصل أخيراً ردُّ الروس، لا يتعلّق الأمر بانضمام متحمِّس، أبداً، لكنه على الأقل أوضح من الصمت السابق. على الرغم من أنّنا لسنا موافقين على الموضوعات الجوهرية، تقول البرقية، فقد قرّرنا أن ندعم خطّة مورجنتاو.

لا أدري أخيراً ما إذا كان باستطاعتنا أن نتنفّس الصعداء بهذا.

- مرّة أخرى لا أجدُ شيئاً غريباً - فجأة تقلق لي من عنادي -. كان وايت يحتاج إلى موافقة الاتحاد السوفييتي كي يستمرّ بالتحضيرات للمؤتمر. استطاع مورجنتاو بعد تأكيد مشاركة البريطانيين والروس، أن يُعْلِن أنّ هذا سيُعقد في تموز. ومع ذلك فالصحيح هو أنَ نشر اتفاقية المبادئ لم يُخفّف من التوتر بين وايت وكينز. آلاف التفاصيل الصغيرة (تاريخ ومكان المؤتمر، أعضاء لجنة الصياغة الجديدة، عدد البلدان المدعوّة) ما زالت تعيقه. فقط كي أعطيك فكرة عن مزاجه سأقرأ لك مقطعاً من رسالة كينز هذه - لم تتردّد زوجتي في تقليد الإيقاعات المفخّمة الخاصّة بالنبرة البريطانية:

فكرة الدكتور وايت تصبح في كلّ هذا «غريبة وأكثر غرابة». ٤٢ دولة تصبح ٤٣، دعيت يوم ١ تموز. لا تستطيع أن تلتزم ولا أن تتخذ قرارات نهائية لأنّ كلّ شيء سيكون بشرط الرجوع إلى الجهات المختصّة. ومع ذلك يبدو الآن أنّهم حتى ما عادوا يتظاهرون بتحقيق بأيّ عمل، فكلّ شيء سيكون جاهزاً قبل أن يصلوا. تشير الصحف الأمريكية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى أنّ «المؤتمر سيبدأ يوم ١ تموز ويمكن أن يمدد أسابيع» لا أدري، إلاّ إذا كان هناك خطأ مطبعيّ، ماذا سيفعل قفص القرود هذا خلال كلّ هذا الوقت. من المتوقّع حدوث تسمم كحولي حاد قبل أن يُختتم.

ـ لا يُلاحظ عليه أنّه راض جدّاً ـ اعترفتُ.

ـ أعلن مورجنتاو أخيراً، بعد أن طفح الكيل عنده من انتقادات الروس والبريطانيين ـ رفعت لي يدها إلى جبينها ـ عن مقرّ المؤتمر، فندق واشنطون في بريتون وودز. قبل هذا دعا وايت إلى اجتماع خبراء من وزارتي الخزانة والخارجيّة في فندق كلاريدج في أتلانتي سيتي في نوع من الاختبار العام ستنبثق عنه المواقف التي ستُدافع عنها الولايات المتحدة أمام البريطانيين. سأوفّر عليك الوصف الذي يُقدّمه أبوك للقاء (حقل ملغوم بمظهر سيران عائلي) كي نُركّز على آخر تعليق لنُوَا حول السوفييت قبل أن ينتقل إلى بريتون وودز:

٢٨ *حزيران* ١٩٤٤

والروس؟ هذا هو السؤال الذي نطرُحُهُ جميعاً يوماً بيوم. لا يكادُ يترك هاري ينام. يأتون، لا يأتون. يأتون مستعدين للمشاركة التامّة، يأتون كمراقبين فقط. هم سعداء، هم غاصبون.

بعد كلّ الذي فعلناه لأجلهم.

ـ بعد *كلّ الذي فعلناه لأجلهم* ـ ردّدتُ ـ ألا تعتقدين أنّ هذه الجملة تكفي لتوثيق خيانته؟

المشهد السابع
حول كيف تربح وأنت تخسر وتخسر وأنتَ تربح وكيف تُرَتّب ألبوم عائلة صغير

رباعية (مع جوقة أعضاء الكونغرس والجمهور)

تجوب قاعة المحكمة الغاصّة هسهسة عندما ينساب الزوجان على السجادة الحمراء. بأناقة هي في الوقت ذاته بهيّة ومعتدلة ـ هي ترتدي بلوزة رقيقة وملساء؛ وهو يرتدي أحد أطقمه الرمادية اللؤلئية التي لا غنى له عنها. يحتفظ ألجير وبرسيلا بطابع البراءة. لا يهمّهما كثيراً أنّهما قضيا ستة أشهر منذ أن اتُهِمَ هو رسميّا بحنث اليمين وأنّ نصفَ البلد يعتبره جاسوساً، وأنّه بدل أن يحضرَ مسرحية موسيقيّة، يجد نفسه مجبراً على الدفاع عن نفسه في قضية الولايات المتحدة ضدّ ألجير هيس في محكمة فلوري سكوير في نيويورك.

يتململ القاضي صموئيل كوفمان (غرّ لم يمضِ عليه في منصبه ولا حتى شهر) مُغَضّناً أنفه، في كرسيّه المُنَجّدة بالجلد الأخضر ويوجه نظرتَهُ إلى توم مورفي، المدّعي العام الذي يقع على عاتقه الاتهام.

ـ هل نبدأ يا سيّد مورفي؟

مورفي، فيل سمين سوداوي، لا ينتظر ثانية واحدة قبل أن يقف أمام المحلّفين وهو يهزّ برزمة من الأوراق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ نحن هنا كي نُحاكم السيّد ألجير هيس، المتهم بأنّه كذب مرّتين أمام هيئة محلّفين كبرى ـ يوجّه خرطومه نحو إحدى المقصورات ـ. أوّلاً عندما أكّد أنّه لم يُسلِّم قط وثائقَ من وزارة الخارجية للسيّد تشامبرز، ثمّ عندما أكّد أنّه لم يلتقِ بتشامبرز بعد الأوّل من كانون الثاني ١٩٣٧. لدى الاتهام شاهد واحد، صاحب السيادة، ويتكر تشامبرز نفسه، المُستعد لأن يُصرّحَ كيف استلمَ الوثائقَ من السيّد هيس ليُصوّرها بعد ذلك. وكذلك سيُثبتُ أنّهُ في جهد لتسريع العمليّة، انضمت السيّدة بريسيلا هيس إلى فريق الجواسيس، لتكتب على الآلة الكاتبة الوثائق التي كان يخرجها زوجها من مكتبه ويحملها إلى بيته. للأسف ـ يخفض مورفي صوته ـ على الرغم من أنّ شرطتنا كنست مدينةَ واشنطن من أوّلها إلى آخرها فإنّ التهمة لا تملك حتى الآن حجر زاوية للدليل، الآلة الكاتبة ماركة وودستوك، التي كانت السيّدة هيس تنسخ بواسطتها الوثائق. ومع ذلك تملك الحكومة أدلة كافية كي تثبت التهمة.

ينقل المدعي العام لاهثاً كتلته نحو الزاوية المقابلة من القاعة برقصة تُذَكّر بأفراس نهر *الخيال*.

ـ على أعضاء هيئة المحلّفين أن تدرس تشامبرز بدقة ـ يُلقّنهم ـ، انظروا إلى سلوكه على المنصة، انظروا إلى لون وجهه، فتشوا تقاسيمه وحركاته لأنّنا في النهاية، إذا لم تصدّقوا تشامبرز، لن نملك فرصة أن نكسب هذه القضيّة.

مع مُتَّهِمٍ مثل هذا من يحتاج لدفاع! يكاد يبدو أنَّ تشامبرز هو المشتبه به!

بعد استراحة لخمس دقائق، يُقدّم لويد ستريكر، محامي هيس زبونه.

ـ أيام الألعاب النارية والتلفزيون وكلّ العروض التي أحاطت بهذه القضيّة انتهت ـ يتقدّم ستريكِر نحو منصّة هيئة المحلفين ـ. بعد أشهر من كونه هدفاً لتفتيش وحشي، وصل ألجير هيس أخيراً إلى الباب الآمن للسكينة والهدوء لمحكمة العدالة، أظنّ أنّ زميلي السيّد مورفي كان على حقّ حين قال إنّ الشيء الوحيد المهمّ هنا هو إقرار مصداقية هذا السيّد، ويتكر تشامبرز.

يصير ستريكر مانوياً، يُصوّرُ هيس كأنّه ملاك وتشامبرز أكثر من شيطان، كشيطان بائس، شيوعيّ وغدٍ رفض مرّةً وأخرى أن يُقَدِّمَ الدليلَ على اتهاماته، ثم ولكي يتملّص من دعوى التشهير التي أقامها هيس ضدّه اخترع قصّة التجسّس.

ـ لكن دعوني أُضيف شيئاً ـ يتوجّه ستريكر إلى مورفي ـ. أنتَ قلت، يا سيّد مورفي، إنَّ رجالك مشّطوا مدينةَ واشنطون من بابها لمحرابها ولم يتمكنوا من العثور على آلة كتابة السيّدة هيس، أليس صحيحاً؟

ـ أنا أريد أن أُعلن أنّها عندنا ـ يخرج أرنباً من قبّعته ويكرّر ـ: نحن عندنا آلة الوودستوك العائدة للسيدين هيس.

يلتصق الجمهورُ بمقاعده.

ـ لقد كان السيّد هيس ضحية بريئة لمن كان يُدعى يومها جورج كروسلي، وهو رجلٌ في ظاهره ذكيٌّ ولطيفٌ وحسنُ الحديث ومشروع كاتب. من سوء الحظ أنّه لم يكن هناك أحد إلى جانب السيّد هيس كي يُحَذّره من هذا الشخص، كما سأفعل أنا الآن أمامكم. في بلدان الجنوب ـ يُقوّسُ المحامي حاجبيه ـ، حيث ما يزال يوجد مجذومون، ويُسمع أحياناً رجلٌ يَصرخ في الشارع:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«نجس، نجس!» في كلّ مرّة يقترب فيها مجذوم. أنا أقول لكم الشيء ذاته مع اقتراب هذا المجذوم في أخلاقه. «نجس، نجس!» شكراً لكم.

وحده مورفي بدا أنّهُ سُرَّ لاقتراب ساعة الغداء.

ترتيل

لا شيء يُريح رجلَ أعمالٍ أكثر من اتفاق شفّاف، ميثاقٍ من دون أحرف صغيرة، عقدٍ من دون خبث خفي. مرّة حين فتحت لي أوراقها ـ ابتداء من كشفها خلال حفلة المتروبوليتان التي لا تحتمل، لم تتوقّف عن ذكرِ بام، ونادراً ما كانت تُخفي الغيرة التي تعاني منها بسببها ـ العلاقة الصافية التي أقمناها صارت أكثر تماسكاً. تحوّلنا إلى شريكين في شركة كانت تعود علينا بكثير من الفائدة: بالنسبة لي: حماسها لبحوثنا والبهجة التي كانت تُثيرها في الدوائر التي كنّا مُجبرين على التحرّك فيها؛ وهي الحريّة التي لم تتمتّع بها من قبل قط ـ الحرية التي لا يمنحها غيرُ المال، والتي سمحت لها بالحصولِ على الدكتوراه من جامعة مدينة نيويورك بأعلى العلامات والتفرّغ للقضايا الاجتماعية، التي بشيء من الريبة كنتُ أسارع لتمويلها. أنابيب في السلفادور، مطاعم أطفال في ماليزيا، مراكز لجوء في نيجيريا، وتمويل العشرات من جمعيات حمايةِ الحيوانات، هذه الأمور الصغيرة التي تساعد عدداً قليلاً وتُنظّفُ ضميرَ الأثرياء. هكذا وبينما كانت هي تجهدُ نفسَها في عملِ شيءٍ لها خطيبانن أجل العالم، كنت أنا أعتصرُ هذا العالمَ ذاته، الذي لن يكون أبداً في نظري غير حظيرة خنازير.

من الناحية العاطفيّة كان اتفاقنا يعود علينا بحريّة، هي فوق ذلك أكثر فائدة. إذا كان يصعب علينا في البداية تفصيل مغامرات كلّ منّا، فإنّ

دردشاتنا الجنسية راحت تصيرُ تدريجياً أكثرَ صراحة، خالية من حرج البرجوازيّ الصغير الذي كنّا نجد مشقّة في التخلّص منه. عندها فقط تجرّأتْ لي وحكت لي بعضَ تفاصيل ماضيها الغراميّ. يبدو أنّ النساء كنّ يجذبْنَها منذ طفولتها، على الرغم من أنّ قواعد الرفاقية الأنثوية الغامضة غطّت على ميولها. المرّة الأولى التي قبّلت فيها إحدى رفيقاتها، نظريّاً كي تتعلّما التقنيات التي عليهما أن تستخدماها مع الفتية، أثبتت لها لماذا في خيالاتها تظهر دائماً أثداء هائلة، وأوراك قويّة وشعر أجعد. إذا كانت حقيقة لم ترفض قط أجسادَ الرجال ـ كان لها خطيبان أو ثلاثة جدّيين إلى هذا الحد أو ذاك في المدرسة ـ، إلا أنّها كانت تُفضّل أن تتوغّل في تجويفات جنسها ذاتِهِ. كان خجلها بمنعها من الاقتراب من البنات اللواتي فعلاً كنّ يعجبنها مشجعات الرياضة الراقصات والممثلات الصغيرات البلهاوات ـ ويبدو أنّها قبلت لزمنٍ طويل المسترجلات اللواتي لهنّ عضلات مصارعاتٍ وجماجم حليقة وكانت تذوب بهنّ بعد تنتفخ بالتكيلا. لا يسعني إلا أن يدهشني أنّ امرأة بتلك الجذرية والاحتجاجية مثل لي تستسلم لنماذج الاستعراضات، إذ فقط كانت تُثيرها النساء ذوات الأثداء الهائلة والخصر النحيل والخلفيات البارزة، اللواتي كنّ يفتنّ العمال والميكانيكيين (كانت بام بشفتيها المنتفختين ووركيها السخيّين. تحتلّ مكاناً ممتازاً بين عضوات هذا النوع) إحدى غرائب أطوارها تماماً عكس غرابة طوري، شعر الجسد: الذي كان يبدو لها برهاناً على القذارة التي لا تُحتمل ولا تستمتع إلا بالاحتكاك ببشرة نقيّة.

لم أتأخّر بعد أن توضّح موقفُها في أن أحكي لها قصّةَ ألان وأشرت على الفور إلى هدفي الثاني: فيكرام كورييشي، على الرغم من أنّ اختياري أربكها منذ البداية، إلاّ أنّ الفكرة سرعان ما أثارت حماسها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منذ أن كنّا نعمل في جي. بي. مورغان كانت قد شدّتني آدابُ الهندي الصموتة، طموحُهُ الحزين والهادئ، لونُ عينيه وشفتيْهِ الرماديّ قليلاً، لكنّني لم أجرؤ على حمله إلى السرير، ليس خوفاً من رفضه بقدر ما لأن إحدى قواعد أخلاقي النادرة (أو الأحرى العملية) كانت تدفعني لأن أفصل الجنسَ عن العملِ بذكائه المالي ووفائهِ المثبت الذي جعل فيكرام أساسيّاً في إستراتيجيتي ولم أبغِ أن أُخاطِر وأخسرَهُ من أجلِ ليلة شبق تافهة. ولا حتى خلال رحلتنا إلى جنوب شرق آسيا ألمحت له برغباتي: في حين أنّ كلينا استمتع بالمتع المحليّة ـ أنتم تعرفون ما أُشير إليه ـ، كل واحدٍ قام بها على انفراد. كانت لي هي من شجّعتني على النظر إلى الأمام فقد كانت تحسّ (بحقٍّ) أنّ اتحادَ جسدينا سيبرز سيُعزّز التزامه *بقضيّتنا*.

في ذلك المساء ذاته قلتُ لفيكرام إنّني بحاجة للحديث معه واتفقنا على أن نلتقي في بار محتشم في وست فيلاج. بالكاد أظهرَ دهشته ـ تقويسة خفيفة من حاجبه الأيسر ـ عندما عرضتُ عليه أن نترك لونغ تيرم كابيتال منجمنت ونؤسّس صندوق تحوّطنا الخاصّ بنا. كان قد طلب مارتيني جبس (بطيخ أحمر) أو كوكتيل آخر من تلك الكوكتيلات متعدد الألوان التي كانت تعجبه كثيراً (بينما كانت تبدو لي مقرفة) وشربه بجرعةٍ واحدة. طلبَ آخرَ وعاد ليجرعه دفعةً واحدة، بينما نحن نصقل خطّة تجارتنا. لم أره من قبلُ ولا من بعدُ يشربُ بتلك الطريقة. ومع ذلك عندما غادرنا البار قرابةَ منتصف الليل كنتُ وحدي من تأذى من الكحول مع أنّني اقتصرت على طلب ثلاث كؤوس ويسكي بالثلج.

سرنا باتجاه شقته في بروكلين، وهي عبارة عن استوديو أوسع مما ظننت عندما رأيته من الخارج، في طابق ثان مزخرف بكلّ الكليشهات التي عادة ما نربط بينها وبين الهنود، صور لآلهة وأبطال أسطوريين،

أباريق وترهات نحاسية ورائحة كركم وبخور لا يخطئها الأنفُ والتي لم أكن قد اعتدتها بعد. سكري لم يمنعني من تعريته في زمن قياسيّ. عندها رماني فيكرام ببطني على السرير ربطني من معصميّ إلى درفتي النافذة بمرسة حريرية أخرجها من درج. لا أستطيع أن أقولَ أنّ تلك كانت الرعشة الأكثف في حياتي، إذ أمتعني بعدها مرّاتٍ كثيرة، لكنّها فعلاً الأقل توقّعاً. شعرتُ به في داخلي دون أيّ مقدّمة، يهتزّ (ويهزّني) بقوّة لا يمكن أن توصف إلا بأنها عنيفة. حين استيقظت في الصباح وجسدي يؤلمني قدّم لي فيكرام فطوراً هندياً واقترحَ عليّ الاسم الذي علينا أن نُطلقه على *صندوقنا*.

ـ بالطبع: جي في كابيتال منجمنت

جوقة الجمهور

ـ هو، إنّه هو! ـ همهم الجمهور بعد سلسلة من الشهادات الفنّية المملّة. يدخل ويت أخيراً إلى الخشبة.

مضغوطاً في طقم أسودَ يبدو خيمة معسكر حدادية. الشاهد نجمُ الادعاءِ العام يظهر منتكساً، فقد صارت الهالتان حول عينه أكثر أرجوانيةً وهالة من الإذعان خرّبت وجهَهُ. لم يكن قط بمثل تلك البدانة، فالذنب والحنق والإنهاك جعلت منه مستودوناً متقاعداً. يعود ويت بعد أن يُقسم على الكتاب المُقدّس ليُلَخِّص قصّته. وكان يهمس أكثر مما يتكلّم، مرّةً يغرقُ في صمت كثيف ومريع وأخرى يضيع في استطراد أكاديمي متشابك. يُقاطعه ستريكِر مقدّماً اعتراضاً بعد آخر، مصمِّماً على أن يظهره كروحٍ شريرة وغليمة.

يستعيد مورفي المبادرة ويُلخص مسيرةَ الشاهد الشيوعية (نظراً لأنّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هيس مُتهم فقط بالحنث باليمين فقد أمر القاضي بألا يستطرد حول نشاطاته في الحزب). يُحَدّدُ، حريصاً على ألا يُسرّب تفاصيلَ صعبة، التاريخَ الذي تعارفا فيه هو وهيس في واشنطون ويتكلم عن صداقته، عن الوزارة والفورد المعارة، والوثائق التي كان يسلمها إليه هيس، عن ضمه إلى حلقة بريسيلا.

بعدها يري مورفي وايت كيساً من السلوفان فيه رزمة من الوثائق والميكروفيلمات (أوراق اليقطينة») يعرّفها الشاهد بأنّها له ويكرر التأكيد على صداقته مع هيس ويُكرر التسلسل الميلودرامي لوداعه، حين أراد أن يُقنعه بالتخلّي عن الجاسوسية وهذا بحسب شهادته انتهى بالبكاء كطفل.

ـ هل كانوا يعرفونك في ذلك الوقت باسم جورج كروسلي؟ ـ يستنطقه.

ـ لا أتذكّر، محتمل. ما يتبادر بسرعة إلى ذهني هو حديثنا في ذلك اليوم. قال لي ألجير إنه لمحزن أن أترك شبكتنا تماماً في اللحظة التي كان يوشك أن يترقّى فيها في وزارة الخارجية. وسألني قبل أن نودّع بعضنا كيف سأقضي عيد الميلاد.

ـ وبماذا أجبته؟

ـ بأنّني أتصور عيدَ ميلاد حزيناً جدّاً. عندها سلّمني ألجير دمية خشبية صغيرة لابنتي إلين.

•

ستريكِر يرفع ببنطلونه دون أن يسمح لذلك المخرج الميلودرامي بأن يربكه، وينغرس مثل ذئب بحرٍ عجوز أمام ويت.

ـ أليس صحياً، يا سيّد تشامبرز، أنّ الشيوعيّ يجب أن يُطيعَ أوامرَ

الحزبِ مثل عبد، حتى ولو أشاروا عليه أن يغير عملَه، بل وحتى الزوج أو الزوجة؟

ـ هو كذلك.

ـ وكذلك حين يأمره الحزبُ بأن يكذب، يسرقَ أو يخرج إلى الشارع ويبدأ شجاراً.

ـ هو كذلك.

ـ أليس أيضاً كلُّ شيوعيّ جاسوساً ومخرِّباً وعدوّاً للحكومة؟

ـ بلى.

ـ وأنّ كلَّ أعضاء الحزب كانوا خونة للبلد، أليس صحيحاً؟

ـ بلى.

ـ وأنت خنتَ بلدنا؟

ـ بلى.

ـ ولكي تُخفي عملك كجاسوس، أَلَمْ تكذبْ في تصريحاتِكَ أمام الوزير أدولف بيرل، أمام السيّد راي مورفي وأمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا؟

ـ هو كذلك.

ـ وعندما مثلتَ لأوّل مرّة أمام هيئة المُحلّفين، أكّدت أنّه ليس لديك علم بأيِّ عملٍ جاسوسيّ. هل كان جواباً زائفاً أم حقيقيّاً؟

ـ زائف.

ـ إذن أنت تعترف بأنّك صرّحت زيفاً وحنثت باليمين، أمام هيئة المُحَلّفين الكبرى في هذا البناء ذاته وهذه القاعة ذاتها؟

ـ هو كذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقول ستريكِر متذوّقاً انتصاره إنّه لم يعد لديه أسئلة، ثمّ وبعد ينظر إلى الساعة ـ الواحدة وثمان وخمسون دقيقة ـ يطلبُ من كوفمان أن يؤجّل الجلسةَ إلى يوم الاثنين القادم. ما إن يطرق القاضي الطاولة بمطرقته، حتى يُسارع فريق ستريكِر لتهنئة رئيسه، بينما مورفي على الطرف المقابل من القاعة، فقط يشدّ على أسنانه.

آريا سوزان

صورة عائلية.

بالنظر إليهم عن بعد، دون الاقتراب أبداً لأكثر من بضعِ خطواتٍ يبدون عائلة تامّة: الأبُ هادئ ورياضيّ بذقن مشطورة وسالفينَ مُشذّبين لم يعودا موجودين إلاّ في مسلسلات الثمانينيات، ساعة الباتيك فيليب في معصمه والوقفة الرجولية لجيمس ديم، لا يكاد يكون بديناً. بذراعيه العضليين والمشعرين ـ القميص مشمّر الكمين ـ، تري تحضن أحد التوأمين ـ ربّما أودري)، جميل في الثامنة من عمره، ضفائر تكاد تكون بيضاء، أنف مشمور وفم صغير مفتوح، على شكل وردة (إلى يسارها في ظلّ شجرة قبقب التوأم الثاني (ربّما سارة) أقل غنجاً بقليل من أختها تتشبّث بدبّها المخمليّ، على الجانب الأيمن من الصورة وإلى الخلف بخطوة ة الأم النحيلة جدّاً بوجهها الشاحب إلى حدّ كبير وقد جمعت خصلات شعرها بقوس، بنطلون جينز مرتخ قليلاً وتلك النظرة التي لا تعرف ما إذا كانت تسرقك أم تخترقك. تيري وأودري، سارة وسوزان، صهري، حفيدتاي وابنتي. الأسرة التي يمكن أن يتعاقدوا معها لإعلانٍ عن معجون أسنان، أو رقائق ذرة أو قصعات لحم الحجل.

من المُحزن أنَّ تلك الصورةَ، الملتقطةَ بحبٍّ ـ كانت سوزان خبيرة في التخفيف من قسوة الحياة اليومية كما لو أنّها تُطبّق عليها الفوتوشوب

ـ، كانت ستارة لتعاسة تمزّق القلب. خلف أسنان تيري الرائعة وأناقته التامة كان فظّاً وقاسياً، سادياً قليلاً. خارج قوسين قصيرين من الهدوء، لم تكن أودري (أمّ أنّها سارة) لتتوقّف عن التذمّر ليلاً ونهاراً من سوء حظّها. كانت سارة (أم أودري؟) سليطة، تكاد تكون شريرة، وكانت قد طُردت لتوّها من المدرسة لأنّها شقّت أذنَ رفيق لها. وسوزان، سبق وقلتُ، سوزان بقيت هائمةً ببلاهةٍ بميلتون (التعيس غير الموجود في الصورة).

أي حقّ لها بانتقادي وقتها؟ كي تصرخ بي كما لو كنتُ تيري أو إحدى بنتيها، أو ذلك الأبله الذي تقول إنّها تعشقه؟ إذا كانت الأخلاق قد بدت لي دائماً ترساً لإخضاعِ الضعفاء وغسلِ ضمير الأثرياء. قليلة هي الأشياء التي أكرهها كما أكره تناقض من يتباهى بنظافتِهِ ويُخفي رذائل أسوأ من التي يُشير إليها بإصبعه. أيّ أنّ باستطاعتي أن أتمرَّغ مع ميلتون ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع، خفية عن زوجي وابنتيّ، ومع ذلك أقيم الأرض ولا أقعدها إذا كان لدى أبي اتفاقاً مفتوحاً، عقلانياً مع راشدين. أو أعتبر نفسي ليبراليّاً ومتسامحاً، بل وأتباهى بأنّ صديقي مِثْلِيّ، لكنّني لا أتحمّل أن يكون أحدُ الشخصين، اللذين يقيم معهما أبي اتفاقاً حضاريّة، رجلاً.

عندما اقتحمت شقّتي قرابة الحادية عشر ليلاً. كان فيكرام يستحمُّ بعد مساءِ جنسٍ في غير أوانه. ما الفائدة لو أنّني غطيتُ المكشوف؟ حملتها إلى مكتبي وأغلقتُ على نفسي معها. كانت بشرتها تظهرُ شفافيةً أكثرَ من المعتاد، لا تكاد تتبدّى في تعبير الانزعاج ـ يمكنني أن أقول القرف ـ الذي يُرصِّعُ وجهها.

ـ بلى، صحيح ما تُفكّرين به ـ قلتُ لها دون أن أزيد شيئاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شتمتني سوزان. انتظرتُ أن تهدأ وعرضتُ عليها كأس براندي فجَرَعتْه في ثانية.

ـ وماذا عن لي؟ ـ دمدمتْ كما لو أنّه صار يهمّها فجأة رأي زوجتي.

ـ لي لديها حكاياتها الخاصّة بها.

تغلّبتُ على الغضب وحاولتُ أن أوضّح لها اتفاقنا، أسبابي وأسباب كلّ واحد منّا، التعايش المهذّب، القائم بيننا نحن الثلاثة كما لو أنّني أُبيّن لها كيف نقوم بعملية جمع. طالبتها بأن تحترم قراراتنا وبخاصّة ألا تقول شيئاً لأخيها. وكجوابٍ وحيدٍ غَطّت وجهها وغرقت في انتحاب جديد.

ـ كفّي عن البكاء ـ أمرتها

دون أن تقول لي لماذا جاءت لتبحث عني في مثل تلك الساعة، أصلحت سوزان ماكياجها قليلاً، وقالت لي، لا شيء، لم يكن شيئاً مهمّاً أبداً وإنّها تستطيع الانتظار. بينما هي تنسل بكلّ سرعة إلى الشارع اصطدمت بفيكرام. اكتفى صديقي بكلّ رزانته المعهودة على الابتسام لها.

رباعية (مع جوقة أعضاء الكونغرس والجمهور)

بخلافِ ما يجري في أفلام المحاكمات المجلجلة، فإنّ المحاكمات الحقيقيّة هي من الثقل والبطء والسأم مثل رباعية لفاغنر على مسرح في المناطق (بينما فيردي، حتى ولو أُسيئ عزفُهُم له، دائماً يؤثّر بي). في معظم الوقت لا شيء مهماً يحدث في المحاكم بينما الخبراء والشهود يفرطون، بخطوِ السلحفاة، الأدلةَ والبراهينَ. والقضيّة لا تنتعش إلا حين يعتلي ألجير المنصّةَ بعد أسابيع من الصلب وهُزّئ، أو أعيدَ إليه اعتباره

ومُدِح. ومن جديد هو أنيق. ومن جديد هو هادئ ومتكبّر. ومن جديد هو يسيطر على عواطفه (هذا إذا كان يملكها) بقوّة. ومن جديد هو وسيم. ومن جديد هو واثق من مكانته ومن طلاقته. ومن جديد هو جاهز لتحمّل المصارعة بصبر. ألجير، ثور مصارعة.

ـ يا سيّد هيس، هل أنت أو كنت، ذاتَ مرّة، عضواً في الحزب الشيوعي؟ ـ يبدأ ستريك.

ـ لست ولم أكن قط؟

ـ أو رفيق طريق أو مناصراً للشيوعيين؟

ـ لا، يا سيّد ستريك.

ـ هل هذه الملاحظات لك؟ ـ يُريه المحامي »أوراق بالتمور« التي سلّمها ويت لمكتب التحقيق الفيدرالي.

ـ بلى.

ـ هل سلَّمت ذات مرّة وثائق مثل هذه للسيّد ويتكر تشامبرز؟

ـ لا.

ـ هل قدّمت أو سلّمت ذات مرّة في حياتك وثائق محصورةَ التداول أو سرّية أو سرّية جداً من وزارة الخارجيّة إلى ويتكر تشامبرز أو شخص آخر؟

ـ لا.

ـ هل كانت إجاباتك أمام هيئة المحلّفين الكبرى ولجنة النشاطات المعادية للولايات المتحدة، نزيهة؟

ـ كانت.

ـ وهل هي كذلك الآن؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ هي كذلك.

آخذاً بيده ـ هي كلماته ـ يقودُ ستريكِر ألجير في طريق الحياة الوعر، منذ دراساته الأولى وحتى هذه المحنة العمياء، سامحها له أن يذكر ملفّه النظيف كموظّف.

ـ هل أنت من كتب على الآلة الكاتبة الوثائق المعروضة كدليل؟

ـ لا.

ـ وزوجتك؟

ـ طبعاً لا.

ـ هل قامت بذلك بوجودك أو بمعرفتك؟

ـ لا، يا سيّد.

ـ هل اعتمدت على امتيازك الدستوري كي لا تردّ على أسئلة لجنة النشاطات المعادية لأمريكا أو هيئة التحكيم الكبرى؟

ـ لم أفعل ذلك قط.

ـ هل تعاونت مع مكتب التحقيقات الفيدرالي؟

ـ دائماً. كنتُ مثلهم مهتمّاً بأن تُعرف الحقيقة.

ـ وكيف تفسّر وجود هذه الملاحظات بخط يدك.

ـ كنّا في الوزارة نستخدم كميات هائلة من الورق. كانت المادة أحياناً من الضخامة بحيث أنّني كنتُ أكتب ملاحظات كي يكون مساعد الوزير فرانسيس سابر على اطلاع على مضمونها.

ـ وكيف وصلت هذه الملاحظات إلى يد السيّد تشامبرز؟

ـ ربّما سرقة ـ يُصالب هيس ساقيه ـ في تلك المرحلة لم يكن بالكاد يوجد تشديدات على الدخول إلى وزارة الخارجيّة، مثلاً جوليان

وادليغ، كان يمثل في مكتبي أو مكتب معاون الوزير دون سابق إعلام.

ـ متى كانت آخر مرّة رأيت فيها السيّد تشامبرز قبل أن تُتَّهَم من قبله؟

ـ في ربيع ١٩٣٦.

ـ يا سيّد هيس، أنت طالبتَ بوقارٍ أن يكون قرار هيئة التحكيم بتبرئتك من المسؤولية عن كلّ التهم الموجّهة إليك. أليس صحيحاً؟

ـ هو كذلك ـ يردّ ألجير دون أن يرفّ له جفن.

ـ وهل أنت حقيقة غير مسؤول؟

ـ لست مسؤولاً.

(يا سلام!)

يمسك مورفي، بعد استراحة قصيرة، بزمام المبادرة ينتصب في الحلبة، يُخرج سيفَه من غمده أمام صندوق المحلّفين ويفصّل محاولاً أن يبرز في كلّ خطوة، يُفصّلُ مجموعة تناقضات هيس: الوودستوك، الفورد، جورج كروسلي، تاريخ هذا الشيء أو ذاك. ضمن خطةِ قاتلِ الثور يُحاول مورفي أن يصرعه من الطعنة الأولى. وهذا أكثر مهارة أو حذاقةً ـ محامي هارفارد وليس فوردهام ـ يتفاداه ويثيره. على كلّ طعنة يردّ ألجير بحِرَفِيّة وأحياناً بعتوّ وأخرى بتهكّم ويفلتُ من الحصار بدهاء. لا يتخلّى مورفي عن عرض ازدواجيّة المتهم، لكنّه عاجزٌ عن طعنه الطعنة القاتلة، يخيب ويظهر كأحمق.

إذا كان ألجير قد خرج سليماً من الحصار، فإنّ برسيلا لا تفلت من حنقِ مورفي. كما لو أنّ المُتَّهِم والمُتّهَم وجهان لعملة واحدة. تظهر زوجة هيس من الهشاشة وعدم الثقة والتوتر مثلَ زوجة تشامبرز. بعيداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من حبّهما وإخلاصهما لزوجيها، ما من واحدة منهما أرادت أبداً أن توضع في تلك اللحظة الحرجة. لم تبغِ بريسيلا الساذجة والكاتمة حتى أن تتدرّب على شهادتها، المسكينة تحمل على كاهلها الأسابيع التي عرضتها فيها في الصحف وأهانتها ـ هناك من يتهمها بأنّها الجاسوسة الحقيقيّة وأن ألجير ضحيتها ـ، لا تشعر وقد هُجِرَتْ من أصدقائها وزملائها بأنّها قادرة على تحمّل الدمارِ المعنوي والمالي الذي ستُنزله بهما المحاكمة حتى ولو كسباها.

يوجّهها ستريكر بكياسةٍ عبر سيرة حياتها المتباينة، تربيتها في برين ماور وفي ييل، زواجها البائس من الناشر تراير هوبسون، طلاقها، الإجهاض المخزي الذي أخضعت له (بسبب وغدٍ آخر) وزواجها من هيس. تدعم بريسيلا موقف زوجها، لم يحدث قط أن صادقوا المستأجرين عندهم، لم يحدث قط أن صادقت أستير، لم يحدث أن اجتمعتا أو ذهبتا معاً إلى طبيب الأطفال. طبعاً وتُنكر أنّها كتبت وثائق زوجها على الآلة الكاتبة، أو أنّها سلّمتها لِتشامبرز. بريسيلا لا تتشظّى ألف شظيّة لكنّها بعد انتهاء الاستجواب تهرم بشرتها وتخضرّ عيناها. تمزّق قلبها.

آريا إسحاق

كليشيه أخرى: الابن المُبذّر. ترك إسحاق العاجز عن تحمّل مواقفِ أبيه المتسلّط والفوضويّ ثانيةً واحدةً أكثر ـ أضمنها ـ الجامعةَ في الثانية والعشرين من عمره، ملأ جسدَهُ بالوشوم الملائكية. ترك أظافره تنمو حتى تقوَّست. بدّلَ قمصان الشاطئ لاكوست بقمصان من دون قبّة وأحذية التنيس نايك بصنادل. ملأ فمه بكلمات مثل كارما وناماستي ورأفة، حمل حقيبته على ظهره مع كراسات المساعدة الذاتية بأسماء

شرقية مبهمة وتبخّر في كولورادو في مخيّم هبّي، جالية هاريكيشنا أو في محمية للسكان الأصليين الأمريكيين، أرسل رسالة لا نهاية لها، موبوءة بعلامات التعجّب والحروف الكبيرة والأقواس وتدفقات أخرى لفتح عتبات الضمير ـ في ما كان يسميه **الرفض العظيم**.

لا أعتقد أنّني استطعت أن أفكّ أكثر من عشرة بالمئة من رموز نظريّته، لكنّها كانت باختصار بياناً ضدّي، مقنّعاً بإعلان معادٍ للرأسمالية. يقول لي إسحاق إنّه لم يكن مستعدّاً لأن يُصبح »ذئب بشر« آخر وإنّه يرفضُ »أخلاق أَكَلَة لحوم البشر« و»التنافس على سحق البؤساء« وأنّ أفكاري الفردانية أفسدها »الفيروسُ الذي حمل اليهود إلى معسكرات الاعتقال« وأنّ دفاعي عن السوق الحرّ كان ستارة فجّة »لإخفاء لهفتي على الربح« (أعترف أنّه لم يخطئ هنا) أخيراً إنّه »لن يُلطخ يديه بدم الضعفاء«. ما عدا فقرتين جميلتين أو أكثر حول حياة الكواكب وحجم الكون، كان يتكلّم ذات الكلام الفارغ المعادي للرأسمالية دائماً. هتفت لي أمُّهُ تقولُ إنّه إذا حدث شيء للشاب سأكون أنا المسؤول وسأدفع الثمن غالياً جدّاً. هل قلقت أم شعرتُ بالإهانة؟ على الإطلاق. أيضاً من أشعر بأنني جرحت شخصياً، ولا حتى عندما قارنني ابني بألْ كابون وبول ـ بوت[1].

بعد سنة ونصف، عاد إسحاق، كما كان متوقّعاً، ـ بعد أن نفدت مدخراته وسئم من وجبة الأعشاب والرز المسلوق ـ إلى الحضارة التي طالما كان يحتقرها، إلى حياته مع كات ومسخَيْها، تويدليدي

---

(١) Al Capone (١٨٩٩ ـ ١٩٤٧) أحد أكثر المجرمين المطلوبين في الولايات المتحدة الأمريكية في عشرينيات القرن الماضي Pol - Pot . دكتاتور كامبودي (١٩٢٥ ـ ١٩٩٨).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتويدليدوم. لم يكن هناك حاجة ليعتذر، كانت نبرته الحانقة والمتعالية عند مُطالبتي بأن أعود وأدفع له التسجيل وأودع له نقوداً كنت مديناً له بها »لأنني جئت به إلى هذه العالم المقرف« تُوازي الاعتراف بالذنب، وباتباعي نصيحة الكتاب المُقدّس لم أُعاقبه، لم أردّ عليه، بل ولم أسخر من فشله. أيضاً لم أستقبله بذراعين مفتوحين، كما في رسوم ولوحات حفر المناظر، فإيداعاتي له في البنك أكثر فائدة. أهلاً بك في البيت، يا بُني.

عندما حصل أخيراً على شهادة إدارة الأعمال جاب إسحاق النظامَ المالي من أقصاه إلى أقصاه دون أن يعثر على مكانه في أي مكان. شغفه؟ ما من شغف. لا شيء كان يعجبه، لا شيء يُرضيه، لم يكن هناك من عمل جيد بما يكفي له، أو كان ينتهي إلى اكتشاف أن رؤساءه وزملاءه بالتأكيد خرفان حسودون أو أفاع جاهلون لن يعرف كيف يتفاهم معهم أبداً. نجحت في إدخاله في مكتب مشتقات بنك بير ستيرنز، حيث استمرّ ثلاثة أشهر. ما رأيك إذن بغولدمان ساكس؟ ستة أسابيع. في بنك أمريكا حطّم رقمه القياسي: تسعة أيّام.

تخليت عن التوصية به، مرَّ عندها على عدة صناديق استثمار، مكتب استشارة للأسواق الناشئة، شركة تأمين ثم وبعد أن منح نفسَهُ استراحةً لمدّة سنة أخرى ـ ممّ؟ ـ حطَّ في ميريل لينش. استمرّ هناك سنة ونصف أكّد في نهايتها بحكمة أنّ عالم التجارة ليس عالمه. كان يعيش من إيداعاتي التي كنت أدخلها في حسابه. زوجته التي كانت أكثر ذكاءً منه كانت قد طلبت استيداعاً من القسم القانوني في بيست بوي كي تُربّي تويدليدي وتويوليدوم.

بإدراكي لاستقلالي المستقبلي أواسطَ ١٩٩٨ طلبتُ من إسحاق أن

يبدأ بالإجراءات القانونية كي نُطلقَ جي في كابيتال منجمنت، صندوق مخاطرنا ـ مخاطري ـ الخاصّ. ما كنتُ لأأتمن أحداً قط على حساب، لكنّ الفكرة كانت في أن أجعله يفهم الإجراءات أمام مختلف المؤسسات الفيدرالية والحكومية. عندما اقترحت عليه أقصر طريقين ـ استغلال النفوذ الذي يسودُ عالمنا ـ رفض رفضاً قاطعاً. كان وسيبقى رجلاً نزيهاً، حذّرني شامراً أنفه. كما يمكنكم أن تفترضوا، قرّائي الشكاكين، لم أعتزّ بضميره الناصع ولا بمبادئه الراسخة. من الشيطان الذي يخطر له أن يفتخر بأخلاق نظيفة مثل إسحاق ويعمل في وول استريت؟

رباعية (مع كورس أعضاء الكونغرس والجمهور)

مبارزة أخيرة بين الضبّ والفيل.

ويتكِر تشامبرز حانث يمين مُعْتَرِف ومرتكس، كذّاب تماماً تعليماً وتدريباً وميلاً وتفضيلاً ـ يبدأ ستريكر، وهو يجوب الأرض الخشبية من جانبٍ إلى آخر بطقمه الفيروزي الغامق والفراشة الوردية، ربطة عنق فرسان القرن التاسع عشر ـ بل وأسوأ من ذلك، تشامبرز عدّو الجمهورية. كافر بالمسيح، مؤمن كاذب بالله، ليس فيه أدنى احترام للزواج ولا للأمومة، رجل بلا مبادئ ولا إيمان. ما من كلمةٍ حشيمةٍ يمكن أن أستخدمها في وصفه، السوقية والخديعة والجريمة طبعت روحه بالنار...

وهكذا راح، دون أن يتوقّف على امتداد أربع ساعات، يدحض كلَّ دليل وكلَّ مؤشّر، يحتقر كلَّ شهادة ضدّ زبونه؛ يُثني على هيس دون تحفّظ ويشيرُ إليه كضحيّة لمؤامرةٍ عظيمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ هذه ليست محاكمة! هذه فضيحة! ـ يأخذ ستريكِر نفساً، ويستعيد، كممثل بارعٍ، قبل أن يناشِد المُحلَّفين ـ. إذا كنت قد أسأتُ إليكم بدرجة ما خلال خطابي، فإنّني أرجوكم أن تعتبروها ضدّي وليس ضدّ السيّد هيس.

وهنا يلتفتُ المُحامي إلى زبونه.

ـ يا ألجير هيس، هذا الكابوس الطويل على وشك أن ينتهي. ارتح جيّداً. بيتك، حياتُك، حرّيتُك في أيدٍ أمينة. شكراً أيتها السيّدات والسادة.

مورفي، الفيل، لا ينافسُ من أجل الأوسكار: لا يملك الوسائل ولا المهارة لإلقاء مونولوجٍ. يُفضّل أن يُركّز على الأدلة التي يكرّرها مرّةً وأخرى. آلة وودستوك. مخطوطات هيس التي يملكها تشامبرز. النسخ المكتوبة على الآلة الكاتبة. آلة وودستوك. مخطوطات هيس التي يملكها تشامبرز. النسخ المكتوبة على الآلة الكاتبة.

ـ لو أنّنا أردنا أن نُقارن السيّد هيس بأحدٍ، لكان بيهوذا الإسخريوطي ـ مورفي لا يتفادى الكليشيه ـ. هو أيضاً كانت سمعته جيّدة. كان واحداً من الاثني عشر؛ قريباً من الله ونعرف ما فعل. قد يكون ويتكر تشامبرز أفعى ملتفّة، لكنّ ألجير هيس الإبليس بعينه، واحد من الملائكة الساقطة. ما اسم موظّف الحكومة الذي يأخذ أوراق هذه الحكومة ويُسلّمها لجاسوس شيوعيّ؟ ما اسم هذا الشخص؟. إنّ رجلاً لامعاً مثله، يسيء للثقة، لَيُثير الاشمئزاز. خلف هذا الوجه الباسم يكمن قلبٌ أسود وسرطانيّ، قلب الخائن الأسود.

لو أن مقياس التصفيق اخترع في تلك المرحلة لقاربت بلاغة مورفي الدرجة القصوى.

في الرابعة وعشرين دقيقة يطلبُ القاضي كوفمان من رجالِ هيئةِ المحلّفين العشرة والمرأتين الانسحابَ للتداول.

في العاشرة والنصف ليلاً يسأل القاضي كوفمان المُحلَّفين عما إذا كانوا قد توصّلوا إلى اتفاق في زمن معقول أم أنّهم سيحتاجون إلى فندق.

ـ لا أرى قراراً فورياً ـ يؤكّد ناطقٌ باسمهم.

يساق المُحَلَّفون إلى فندق نيكِر بوكِر يحرسهم أربعة رجال أمن.

في التاسعة والنصف من صباح الثامن من تموز تعودُ هيئة المحلّفين للتداول. في الحادية عشرة والنصف يُسَلّم أعضاؤها رسالةً مختومة إلى كاتب المحكمة يلفتون انتباههم فيها إلى أنّه حتى الآن لم يصدر حكم.

يعودون في الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة ويرسلون مُغلّفاً للقاضي كوفمان: »تشعر هيئة المُحلّفين أنّها غير قادرة على التوصّل إلى حكم«. يدعوهم هذا وقد أصيب بالخيبة، إلى متابعة المحاولة.

يعود المُحلّفون ليظهروا رُمصاً مُنْهَدّين. يرسلهم للتداول.

في الخامسة وخمسين دقيقة يُعلن الناطقُ باسمهم أنّهم سيقومون بجهد أخير.

في السادسة والنصف يسأل القاضي كوفمان المُحلَّفين عمّا إذا كانوا يريدون استراحة لتناول العشاء. في التاسعة وخمس عشرة دقيقة ليلاً يُعلِنُ المُحلَّفون أنّهم غير قادرين على التوصّل إلى اتفاق، ولا يبقى أمام القاضي كوفمان، المذعن غير أن يُثبّت أنَّ المُحاكمة انتهت بهيئة محلّفين منقسمة.

لا يُسرُّ هيس. وبريسيلا توشكُ الآن أن تتمزّق ألف مزقة. كلاهما يُغادر القاعة مُتَرنّحاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ماذا يعني هذا؟

أنّهما لم يُبرَّآ.

أنّ المُحاكمة يجب أن تُعاد.

أنَّ مُحاكمة جديدة تنتظرهم.

المشهد الثامن
حول كيف يُبنى العالم في فندق فاخر وحياة الجواسيس الهادئة

آريا نُوَا

أتصوّرُكَ واقفاً، مشدوداً ووحيداً وسط الشاطئ على الرمل الخشن، تتأمّلُ من بعيد العمارةَ الإسبانية القويّة لفندقِ ماونت واشنطن، ذلك الحوت الأبيض المُغطى بالنوافذِ الصغيرةِ ونهاياتِ ملاط المرمر التي تبرز تحت زرقة منتصف الليل. بعيداً يرتفع محيطُ التلِّ المتعرّج ومن رؤوس أشجار الصنوبر يُقلع سربٌ من الإوزّ في طيران مستوٍ ومُدوٍّ. خارج الفندق لا يوجد لا جادّة رئيسيّة، ولا شوارع متاخمة ولا حوانيت ولا مطاعم، لا شيء غير خضرة الغابة والدروب التي تجوبها الأرانب البرّية والأيائل. بينما في داخل البناء يختبئ كونٌ مُصَغّر من صالونات التجميل، والحلاقة، ومحلات الملابس وملاعب الكراتِ الخشبية ووكر نمل من المكاتبِ المرتجلة لإرضاء حاجياتِ مجموعة من الموظفين المختالين (هم دائماً تقريباً من الأمم المجاورة) كتّابِ الاختزال والمحقّقين الصحفيين ومستشاري الرؤساء والوزراء.

أنت واحد من مبدعي ما سيجري في هذا التخم الهادئ من نيو هامبشير بدْءاً من اليوم التالي.لقد أعددتَ إلى جانب هارولد غلاسّر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وفرانك كوي وبقية فريق وزارة الخزانة المؤتمرَ بإحكام، مشحّماً بكراتِ وتروسَ الآلةِ المعقّدة التي سيتبناها العالمُ كي يُنقذ نفسَهُ من الركود والحرب. أيضاً بريتون وودز من عملك، الإرث الأكثر ديمومة ـ أتجرّأ على أن أقول: الأنجح ـ الذي انبثق على امتداد التاريخ من دماغ اقتصادي. ومع ذلك لا أراك راضياً ولا مُثاراً؛ على العكس، أرى في تصعيرتك مسحةَ ريبةٍ، ومضةَ إشراق تجعلك تشكّ بأنّ النظام الذي أبدعْتَهُ بأوامر من وايت بهدف الخلاص من الهزات الاقتصادية يمكن أن يتحوّل إلى قميص مجانين في خدمة بضعة أشخاص.

اضطُرِرْتَ على امتداد هذه الأيّام إلى أن تُصارع كلَّ الوفود، المُتَوَاجِهَة بسبب حجم حصصها. بسبب العزّة الوطنيَة كان كلّ واحدٍ يُريد أكثر مما عيّنت له وزارة الخزانة ومما كان الكونغرس مستعدّاً لمنحه له. الصين تُصرّ على أن يكون لها الحصّة الثالثة الأكبر وكذلك الروس ـ ستكون الولايات المتحدة الأولى وبريطانيا العظمى الثانية، طبعاً هذا لا يُناقش ـ فرنسا والنهد الخامسة والدول الأمريكية اللاتينية وأستراليا وجنوب أفريقيا تتطلع إلى ترقيتها في السلّم بأيّ ثمن. موضوع آخر إشكالي: وايت قال لكَ إنَّ الصوت يجب أن يعادل مجموع الحصص، لكن الدول الصغيرة حذّرتك من أنّها لن تقبل أن تكون هامشية. لكن أكثر ما يُقلقك هو تضمين الاتحاد السوفييتي في النظام المالي لما بعد الحرب. فالبريطانيون بقوا يُلمحون إلى أنّ السوفييت يجب أن يبقوا على الهامش، مع نظام تخطيطهم المركزي اللعين وصناعتهم التي تسيطر عليها الدولة بيد من حديد، لكن لا وايت ولا أنتَ مستعدّان لأنّ تتركاه خارجاً. »الصندوق بحاجة إلى روسيا« قال هاري في أكثر من مناسبة.

اجتمعت الوفود يومَ الأوَّل من تموز ١٩٤٤ في قاعة الرقص الكبرى من أجل الجلسة بكامل الأعضاء. »كان الجوّ يدلُّ على حفلةٍ تنكّرية أكثرَ

مما على الترَقُّب« تكتبُ في دفترِكَ. بعد رسالة ترحيب الرئيس روزفلت أبحر موفدو الصين وتشكوسلوفاكيا والبرازيل وكندا وروسيا والمكسيك في تتالي خطابات تبدو لك ميلودرامية، مُضحكة ومبتذلة، قبل أن يتمكّن مورجنتاو أخيراً من أن يتوجّه إلى المؤتمر. »في ميادين المعركة في كلّ العالم« يُحَدّدُ وزير الخزانة، »مات شباب بلداننا معاً، ماتوا من أجل هدفٍ مشترك. ليس بعيداً عن قوانا أن نسمح لشباب بلداننا أن يعيشوا معاً، كي يضعوا طاقاتهم وذكائهم وتطلعاتهم في خدمة الإثراء المتبادل والتقدم السلمي«.

استُنفدَت الأيّامُ الأولى في مداخلاتٍ مُفخَّمة أو مثيرة للسخرية، مترجمة من خليط من اللغات إلى الإنكليزية ـ بابل مع لغة اصطلاح الاقتصاديين ـ، وهو ما يبطّئ أكثر إيقاعَ المؤتمر البطيء بحد ذاته. في الثالث من تموز تُنَظَّمُ مختلفُ الوفودُ واللجان بحسب خطّة وايت، الذي قرّرَ أن يكون رؤساء الأولى، (أي الوفود)، شبه الشرفية، من نصيب الأجانب، بينما تبقى الثانية على كاهل سكرتيرييه. أنت عليك أن تتباحث إلى جانب أمورٍ أُخرى مع الروس. ويبدأ على الفور تقريباً الأخذ والعطاء المضني بشأن الحصص. كان هاري قد حذّرك: »دع الموفدين يتكلّمون كما يشاءون، ما دام ليس عندك ما تقوله، لنفصل العمل الحقيقي عن الثرثرة«.

مهمّتُك أن تُوَجِّهَ النقاشات بعيداً عن الثرثرة، وترجمة المناوشات في مسارات محدّدة وتوجيه الموفدين بأكبر قدر من الحنكة الممكنة باتجاه الأهداف الموضوعة في أتلانتيك سيتي. على امتداد الأسبوعين اللذين يبدوان لك مُنْهِكَيْن، جنونيين وناجحين جدّاً، تُلاحظ كيف أنّ بعضَ عظماء العقول المالية على الكوكب يُهاجم ويمزق ويصفّي ويغربل ويسحق بعضهم بعضاً وينقسمون ويتصالحون ويتفقون إلى هذا الحدّ أو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذاك على الحد الأدنى من أسس التوزيع. تماماً كما قال لك وايت الخلافات تُحَلّ خلف الكواليس، في اجتماعات مستعجلة بين موفدي البلدان المتأثّرة ـ مكسيكيون وهنود وفرنسيون بشكلٍ مُتكرّر ـ وممثلي الولايات المتحدة.

المشكلة الكبرى تظهر حين يُعلمك الروس، السمجون والقساة أنّهم غير مستعدّين لأن يقبلوا حصّة أقل من حصّة البريطانيين. في مخطط وايت. المساهمات الكاملة في الصندوق لا يمكن أن تتجاوز الثمانية مليارات دولار. ولذلك فإنّ الإذعان لضغوطهم يكاد يكون مستحيلاً. وللطامّة الكبرى أنّك سرعان ما ستكتشف أنّ السوفييت قد سرّبوا مطالبَهم إلى الصحافة. كيف ستعمل في مثل هذه الشروط؟ مطالبهم لا تتوقّف أبداً. بالنسبة لتشدّدهم فإنّ الغالبية تعتبره عدم رغبة منهم بأن يكونوا جزء من نظام بريتون وودز. »روسيا تُريدُ أن تستخدمَ صندوق النقد ككيس حلوى«، يتذمّر عضو الكونغرس ولكوت.

أمام هذه الفورة يفقد هاري أعصابه: »لا أظنّ أنّ هذا الافتراض صحيح« يستنكر. »يملك الاتحاد السوفييتي ميزات لا يملكها أيُّ بلدٍ في العالم: إنتاج كبير من الذهب، قدرة إنتاجية عالية، والأهم هو أنّه قادر على أن يُحدّد بنفسه متى يبيع. ما من بلدٍ رأسماليّ يستطيع أن يفعل ذلك، لأنّه يحتاج إلى أرباح. هكذا عندما يقول الاتحاد السوفييتي بصراحة: «سنستخدم هذا الصندوق لشراء أشياء لأنّ هذه العصر هو عصر حاجة وهذه هي فائدة صندوق تحقيق الاستقرار وسنسدّده بعد خمس أو ست أو سبع سنوات »أنا أعتقد أنّ الأمر يتعلّق بتحقيق استقرار مماثل لتحقيقه في أيّ بلد آخر. هناك نزعة للإشارة إلى الاتحاد السوفييتي بالسبّابة لأنّ موفديه يقولون بصراحة ما ستقوله بلدان أخرى بكلّ الطرق. كيف تعتقدون أنّ بولونيا، هولندا، فرنسا، بلجيكا أو الصين ستتصرّف؟ مثله. إذا لم يفعلوا سيكون وزراء اقتصادهم حمقى«.

على الرغم من خطبة وايت المسهبة، فإنّ ولكوت يقول إنّ لحظة توجيه إنذار إلى الروس قد حانت، وأنت تُحاول أن تتوسَّط قائلاً ما زال هناك وقت للمفاوضات.

يجتمع مورجنتاو ووايت مع ستبانوف عملاً بنصيحتك، معاون وزير الشعب للتجارة الخارجية في الاتحاد السوفييتي، ثقل ثقيل فهو لكي يزيد القضيّة تعقيداً لا يتكلّم كلمةً إنكليزية واحدة. تتأخّر المفاوضات إلى ما لا نهاية. يُصرّ الروسيّ على الحصول على حصّة أكبر وتخفيض مساهمته بالذهب خمساً وعشرين بالمائة؛ تثور ثائرة مورجنتاو. المترجمُ يتُرجم: «يؤكّد السيّد ستبانوف أنّه سعيد بفكرة دعم موقف الولايات المتحدة، لكنّ الاتحاد السوفييتي تريد أن يشغل المكان الذي يعتبره مناسباً لحساباته». مورجنتاو يرفض ويقتصر ستبانوف على القول بأنّ عليه في هذه الحالة أن يطلب توجيهات من موسكو، الحجة الدائمة.

بعد يومين من الصمت يطلبُ منك هاري أن تذهبَ وتتباحث عن رئيس الوفد الروسي. يردّ عليك ستبانوف، بتكبّر، أنّه لم يتلقّ بعد أخباراً من موسكو. عندها يذعن مورجنتاو المتضايق لطلباته: «كلّ المؤتمر متوقّف بسبب الروس» يشكو لك ولهاري. «سأكون مستعداً لمنح السوفييت حصة قدرها مليار ومئتا مليون دولار. وألا تُشكل العملات الذهبية التي سُكّت حديثاً جزءاً من الحسابات، وهذا أفضل بكثير من تخفيض الخمس وعشرين بالمئة الذي يطرحونه. نعرف أنّ موقف السوفييتي فريد، وأنّهم قدموا أكبر التضحيات خلال الحرب ويعانون من دمار هائل، لكن إذا ما استخدمنا هذا المعيار فإنّ كلّ البلاد المدمّرة ستطالب بأن تُعامل بالطريقة ذاتها».

يطلب منك وايت أن تنقل الرسالة إلى السفير السوفييتي. المترجمُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُترجم كلماته: «السيّد ستِبانوف يشكرك على موقفك الطيّب»، ما لا تعرفه هو ما إذا كان صوت ثقة أم سخرية. على الرغم من أنّهم حقّقوا وقتها كلّ ما يريدون تقريباً، يُصرُّ السوفييت على طلباتهم غير المعقولة. تجتمع أنت ومورجنتاو ووايت في قاعة أخرى صغيرة وبعد نصف ساعة يعيدون صياغة الفقرة لإرضاء الروس.

«يبدي السيّد ستبانوف موافقته على التوقيع»، المترجم يُترجم: «لكن وبما أنّ الأمر في غاية الأهمية فإنّه يحتاج لضمان موسكو، إذا لم تُحْتَرَم الصيغةُ، التي اقترحناها، كما هي.» أيضاً انتهيتم، منزعجين، إلى الإذعان في هذه النقطة. «السيّد ستبانوف يشكر لكم موقفكم الطيّب» يختم المترجمُ. «قل للسيّد ستبانوف إنّها ستكون المرّة الأخيرة التي يشكر فيها في بريتون وودز»، يمطره مورجنتاو. بعد تجاوز هذه العقدة صار كلّ شيء جاهزاً لإعلان نجاح المُفاوضات.

بعد أسبوعين من الشدّ والرخي مع وفود مختلفِ الأُمم الحليفة، يعلن أخيراً الوزير مورجنتاو، الأكثر هزالاً من حصان يومَ السابع عشر من تموز ١٩٤٤، الخبرَ السعيد: «اليوم وُلِدَ صندوقُ النقد الدولي» يُصر بعضُ الوفود على تمديد المؤتمر لحلّ بعض المسائل، لكنَّك ناورت كي يتم الاتفاق أخيراً على فترة للتفكير والراحة.

تصف في يومياتك الموفدين الروس باللطيفين والمهذّبين، على الرغم من أنّهم يبدون دائماً بين المِطرقة والسندان. تنظم ذات مرّة أنت ووايت لعبة كرة الطائرة بين السوفييت وفريق وزارة الخزانة، خسرتم فيها بطريقة مخجلة. في بعض الليالي الهادئة تحضر مع بعض زملائك الروس إلى اللجنة الرابعة، الاسم الذي أطلقه أحدُ الأفذاذ على النادي الليلي، حيث يسكرُ الموفدون الأكثر شباباً وعربدة حتى الفجر.

في هذه الأثناء يُحرّر فريقُك المَحْضر الختامي للمؤتمر، وهو وثيقة

مؤلفة من ٩٦ صفحة مكتوبة ببلاغة يحوّلها المحامون إلى لغة أكثر غموضاً واستغلاقاً. صار النصّ جاهزاً كي يوقعه المندوبون في نهاية الجلسة الختامية، المقرّرة يوم ٢٢ تموز ١٩٤٤ في التاسعة وخمس وأربعين دقيقة ليلاً. خلال حفلة السمر، يكاد كينز، الشاحبُ والهشُّ بسببِ النوبة القلبية الحديثة، يُجرُّ نفسه جرّاً إلى كرسيّه بينما يستقبله المندوبون وقوفاً. يقرأ بعدها مورجنتاو برقيةَ تهنئة من الرئيس روزفلت فيأخذ كينز الكلمة كي يتوجّه لآخر مرّة إلى المؤتمر.

«شرف لي أن أُقدّم أمامكم المحضر النهائيّ» يقول كينز بصوت فأريّ فِتنتفخُ أنت اعتزازاً. «حاولنا نحن المندوبين لهذه المؤتمر أن نُحقّق شيئاً صعباً للغاية. اضطررنا لأن نقوم في الوقت ذاته بمهمات الاقتصاديّ والماليّ والسياسيّ والصحافيّ والبطلِ والمحامي والإحصائيّ، بل أُفكّرُ، بدورِ النبي والعرّاف. لقد برهنّا على أنّ سباقاً لأربع وأربعين أمّة كان قادراً على العمل في مهمّةٍ بنّاءةٍ في جوّ من الصداقة والتوافق الراسخين. قليلون هم من كانوا يعتقدون أن ذلك ممكن. إذا ما كنّا قادرين على الاستمرار في مهمات أوسعَ من هذه، فهذا يعني أنّه ما يزال يوجد أملٌ في العالم. الآن سنفترِق إلى بيوتنا ومعنا صداقات جديدة معقودة وألفة جديدة. لقد تعلّمنا العمل معاً. إذا ما استطعنا أن نستمر بهذا الشكل فإنّ هذا الكابوس الذي استنفد كثيرون منّا ممن هم حاضرون هنا فيه حياتهم، يمكن أن يصبح من الماضي. والأخوّة بين البشر ستتحوّل إلى شيء أكثر بكثير من مجرّد عبارة بسيطة».

كرئيس للمؤتمر، يلقي مورجنتاو خطابَ وداع، تنطلق في نهايته مجموعة تنشد نشازاً خطوط ونجوم[١]. حين ينهض اللورد كينز من

---

(١) النشيد الوطني الأمريكي الشمالي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقعده، ويرنّم الجميع بسعادة «لأنّه رفيق جيّد»، لم تستطِعْ أن تُخفي دموعك أمامه. علامة اعتراف. يربت وايت على ظهرك. أخيراً تحين ساعة توجّه المندوبين إلى القاعة B لتوقيع المحضر النهائي.

نظرتُكَ، كنظرةِ وايت، لا تُركّزُ على الأنخاب والمعانقات، التي تنتشر في كل مكان، بل على مِنْكَبي ستِبانوف العريضين، تَراهُ ينتصب باعتدال وتتأكّد من أنّك تراه يدخل القاعة B. تحبسُ أنفاسَك بينما رئيس الوفد السوفييتي ينتظر دوره، لكنّك تسترخي أخيراً حين تراه يُمسك بقلم خبرِهِ ويضع توقيعه على المحضر الأخير. لقد نجحت! أخيراً أعطى عملُ تلك الأشهر، تلك السنواتِ، الشاقُّ أُكُلَهُ التي انتظرتها أنت ووايت. لو لم تصر على أن تبقى مسيطراً على نفسك، الأمر الذي تعيبه عليك أمّي دائماً، لكنتَ أحببتَ أن تسكر تقريباً.

للأسف قصّة بريتون وودز لا تنتهي في يوم الحفلة ذاك. تلي المعانقات والأنخاب قراءةٌ متأنّية للمحضر النهائي في مختلف عواصم الكوكب ولا يتأخّر موظّفو المالية في الإشارة إلى الأخطاء والفجوات. بعد عودته إلى تيلتون يحكم اللورد كينز نفسه بأنّ الوثيقة التي حرّرتَها هي جمع من التناقضات، على الرغم من أنّ بريطانيا العظمى، مثلها مثل غالبية الأمم الحليفة، تنتهي بالتصديق عليها قبل انتهاء موعد الحادي والثلاثين من كانون الأوّل ١٩٤٥. مع استثناء واحد بارز ـ ماحق بالنسبة إليكم.

بعكس ما وعد به، يرفض ستالين الذي لم يحافظ على الكلمة التي التزم بها ستِبانوف ويرفض أن يضمّ الاتحاد السوفييتي إلى نظام بريتون وودز. بعد أشهر قليلة من انتهاء الحرب ينزلق الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة إلى مواجهة جديدة. والرجال من أمثالك وأمثال

وايت الذين عملتم المستحيل للحفاظ على التحالف بين القوّتين سرعان ما ستجدون أنفسكم مُتّهمين بالتجسّس والخيانة.

آريا الرشفة (لي)

منذ أن اقترب يختنا من تولوكا ـ الاسم لوحده كان يوحي بعدم الثقة ـ عرفتُ أنّ لي ذهبت هذه المرّة أبعد من اللازم.ما الحاجة لأن تُجرجرني إلى هذا الجحيم المتخلّف، الذي كان بحسب الصحف اليومية واحداً من أقل الأماكن أماناً على وجه الأرض؟ لم أجد طريقةً لإقناعها بالعدول. عندما قلتُ لها إن عليّ أن أُنهي اتفاقاً في التاريخ ذاته في سيئول، قالت لي إنّها لن تغفر لي أبداً إن لم أرافقها؛ خلال كلّ تلك السنوات رافقتني إلى نصف العالم، واندمجت في حياتي الاجتماعية الكريهة واقتفّت آثار أبي إلى ما لا نهاية، فأقل ما يمكنني أن أفعله هو دعمها في هذه المبادرة، التي كانت بالنسبة إليها في غاية الأهميّة (في الماضي رفضت إتباعها في مغامراتها المُحضّرة في تنزانيا ولاوس ونيبال). دخل في عقلها هذه المرّة أنّ كلابَ المكسيك بحاجة لمساعدتها، ثمّ وبعد أن انتزعت منّي مليوني دولار، أصرّت على بناء ملجأ نموذجيّ لإيوائها. (مليونان ضمّها فيكرام لا أدري إلى أيّ نفقات مما يستطيع جي.في. كابيتال منجمنت أن يخصمها كاملة من الضرائب)

في الجوّ حلّقنا فوق العاصمة ـ خليط من سحابة تلوث وأنوار ـ انعطفنا بعدها باتجاه منطقة بيوت بائسة وحقول ذرة متفرّقة حتى هبطنا في المهبط. هناك أخذنا شاحنة أشبه بالدبابة الحربية واستطعنا أن نتأمّل عبر نوافذها المدرّعة المنظرَ الفردوسي لبيوتٍ رُسِمَت عليها وجوه سياسيّين ولأكواخ بأسقف من الصفيح حتى وصلنا إلى البلدة ذات باسمها الذي لا يلفظ حيث أسّست لي وشركاؤها مركزاً لاستقبال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكلاب. كانت الكلاب في العالم الثالث بحسبِ قولها تُعاني من أكثر المعاملات رعباً دون أن تفعل الحكومات شيئاً لإيقافها. «لا توجد ولا حتى حملات لتوعية الناس بحقوق الحيوانات»، كشفت لي لتريني خيمةً مليئة بصور كلابٍ هزيلة يُغطيها الجربُ، شاردة في أسواقٍ وساحات عامّة. «لا أحد يهتمّ بها وكثير منها يموت دهساً».

يا لها من حيوانات مسكينة! لكن هل كانت تقع على عاتقنا مهمّة تحسين حياة الكلاب؟ برأيي لي كان عدم التدخّل غير إنساني (بالكاد احمرّت خجلاً عند لفظها للصفة). ثمّ وبعد أن حصلت على دعم جمعيّة محلّية ـ مجموعة من الهواة يعيشون بشقّ النفس ـ وتقديم رشوةٍ مفرطةٍ لمجموعةٍ من مُوَظّفي البلدية للحصول على الترخيص الضروري، رفعت زوجتي وشركاؤها الهيكلَ العملاق لمأوى الكلاب الشاردة في مزرعة قديمة على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً عن مدينة المكسيك.

توغّلت عربتُنا دون أن تتوقّفَ عن الارتجاج القوي في طريق مفروش بالحصى محاطٍ بالصبّار والبرشومي. لم ينقص المشهد غير هنديّ أحمر يغفو تحت قبعتهِ الهائلة كي يؤكّد تحاملي. بعد قرابة الميلين صادفنا لافتة هائلة تعلن: مأوى ج. ول. فولبّي للحيوانات المساء معاملتها «شرطيان مسلحان برشاشين فتحا لنا باباً كبيراً من الألمنيوم واستطعنا أخيراً أن نتمتع ببعض الحرّية في الحركة. وعلى الفور خرج لاستقبالنا رجلٌ اقرب إلى القصر من دون شاربين لكن بكرشٍ هائلٍ يندلق بين البنطلون والقميص الداخلي، قدّمته إليّ لي بالدكتور ثابالا.

بإنكليزية شبيهة بإنكليزية سبيدي جونزاليز، قادنا المدير عبر منشآته الطليعية، حيث يُعنى بكلاب من كلّ السلالات بمهنية وإتقانٍ منقطعَيّ النظير في البلد. لم يكن هناك أقفاص، بالمعنى الحصري للكلمة،

مناطق حرّة حيث لا يتعايش أكثر من كلبين أو ثلاثة من سلالاتٍ متشابهة. لم تكن هذه الكلاب: اللابرادور، السلوقية والفوكستريّر الحيوانات القبيحة التي أرتني لي صورَها. لا تُعطى إلا أغذية من النوع الأوّل، عضوية مئة بالمئة»، تفاخر الدكتور ثابالا، بلمصةِ اعتزاز (أو ربّما حسد) بعدها أرانا العيادةَ التي يقوم عليها طبيبان بيطريان مع المعدات الأكثر تطوّراً ـ جيء بها مباشرة من دنفر، تباهى أمامي ـ، والصالة التي تُجرى فيها العمليات الجراحية والتوليدية. أخذت زوجتي بين يديها جروَي شيواوا شاكيين (عيون نطاطة ملتصقة بجسمين لحيوان قارض)عمّدا إرادتهما الطيبة ببولة جيّدة.

كانت لي قد وعدتني بأنّ الزيارة لن تدوم أكثرَ من ساعة، لكنّ شركاءها المضيافين أعدوا لنا مائدة ترحيب جذّابة. تبيّنتُ حين جلسنا إلى المائدة دون أن أكبح ضحكتي، أن التاكو الذي قدموه لنا كان محشوّاً بشيء يُسمونه «لُحيمات»: قطع خنزير مقليّ بشحمه. لي العازمة على ألا تزعج مضيفينا لم يبق أمامها غير أن تجرب مُرَكَّزَ الشحومِ المشبعة ذاك. لم ينتبه المحليون إلى التناقض بين أن يعملوا في مركز مخصّص للدفاع عن الحيوانات ومضغِ أحشائها، ربّما لأنّ الكائنات الوحيدة التي تستحق الحماية هي تلك الحشرات المضحكة التي كانت رئيستهم تُدلّلها بكل ذلك الحنان. عندما عدنا أخيراً إلى الجيت بدت لي مضعضعة. لكن كان لتلك التجربة على الأقل أثران إيجابيان، أولاً لم تعد زوجتي لتطلب منّي أن أُرافقها إلى مشاريع إنقاذ الحيوانات ـ أو ما هو أسوأ، كائنات بشرية ـ. ثانياً اكتشفتُ فعاليةَ الدكتور ثابالا، الذي إضافة إلى أعماله البيطرية، سرعان ما سيتحول إلى شريكي في تجارة مبيدات الآفات الأكثر ربحاً بكثير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ترتيل

ذكّرني فيكرام باللعنة الصينية التي تقول: آهٍ منك إذا ما حالفك الحظ وعشت أوقاتاً مهمة. ورددت عليه بأخرى أفضل: آهٍ منك إذا ما حالفك الحظّ وعشت أوقاتاً أكثر إمتاعاً. وكم كان صيف العام ١٩٩٨ كذلك! تحوّلت التسعينيات إلى عقد القرن الأكثر جنوناً بعد العشرينيات الرائع والستينيات الفاسق، الأكثر تهتّكاً والأكثر مسخرةً! فإلى حيث التفت المرء كان يقع على مشهد ظريف، أقرب إلى مهرجان في قرية أو حانة مما إلى برودوي أو متحف متروبوليتان. كنتَ تُشعل التلفاز فيظهر رئيسنا عذباً مسرّحَ الشعر إلى الخلف بأنفه الذي كحبة البطاطا ونبرته الجنوبية، يلقّننا درساً في التشريح - أم في علم اللغة؟ - الذي لا يمكن، بحسب رأيه، اعتبار دسّ سيجار هافاني في فرج طالبة مربوعة، يا للغباء، عملاً جنسيّاً. كم كنت معجباً بقليل الحياء هذا! بينما كان بعضهم يذمُّهُ كان آخرون يدافعون عنه بأظافرهم، كنت أجلُّ نظرته التاريخية، قدرته على إطلاق الذرائع بقناعته الميثودية، ووقاحته ساعة يُظهر ندَمَهُ دون أن يتخلّى عن السخرية من مستجوبيه! كم كنت عظيماً يا بيل، وإن كنتَ ديمقراطيّاً! (أُضيف: ديمقراطي خدم مصالحنا أكثرَ من أيّ جمهوري.)

بينما كان زعيم العالم الحرّ المحتبل بثوبه المبلّل بدفقه، كان على الطرف الآخر من الكوكب، على تخوم الإمبراطورية الشيوعية القديمة السكير المحمرّ المتصبّب عرقاً الذي كان يقود مصائرها كان يُردّد مرّة بعد أخرى أنّ الروبل لن تنخفض قيمته، لا يا سادة، هيب! أبداً، أبداً، هِب، هِب، هِب![1]. يُعلن يلتسين بأعلى صوته وهو يترنّح في بيته

(١) الصوت الذي يخرج مع الفواق.

الريفي على ضفاف البحر الأسود غير البعيد عن المكان الذي يقضي فيه نصف البرلمان إجازاتهم بينما الأسواق تنهار في موسكو وسعر البترول يهبط ٣٣ بالمائة، وسوق الأسهم توقف حصصها خوفاً من الانهيار وأسعار الفائدة على المدى القصير ارتفعت ٢٠٠ بالمئة.

الفارق بين الاستعراضين هو أنّه بينما أبقى الهزليُّ قائدنا العام على شركائنا في لونغ تيرم يبولون في ثيابهم من الضحك، كانت الكوميديا الأثيلية للرفيق يلتسين تقودهم إلى حالةٍ، سأصفها بأنّها هستيرية خالصة؛ وذلك كي لا يكون لها وقع كبير، السبب؟ المبلغ المريع الذي راهنوا به على التجميع المحتمل للسندات المرتبطة بالروبل، والذي عانى لونغ تيرم بسببِهِ من نزيفٍ مؤلم منذ آب. ما الذي خطر لهاغاني كي يوقفه؟ نعرفه. يضع بقيته في روسيا. يستثمر الملايين في بلد القياصرة القديم، بلد السماسرة الشيوعيين والأوليغاركيين خالعي العذار. لماذا هناك؟ هل لأنّ صيغة رياضيةً جميلة كانت تنبئ بلعبة غير معهودة للروس الجدد؟ هل لأنّ يلتسين هتف كي يؤكّد له أنّ البلد يسير بخطى حثيثة؟ ألأنّ سكول وميرتون برهنا على أنّ روسيا تقدّم مخاطر معقولة؟ لا! إذا كان هاغان قد راهن بكلّ شيء بلعبة السندات الروسية فلأنّه بدا له استثماراً جيّداً. إذن لماذا كل تلك الصيغ إذا كان إداريو اللونغ تيرم سيتركون قيادَهم في النهاية لحدسهم اللعين؟

وحدها الفئرانُ تُغادر حين تبدأ السفينةُ بالغرق. فئران ذكية، مثلي ومثل فيكرام! في الخامس عشر من تموز قدّمنا أنا وهو استقالتنا المزعجة التي لا رجوع عنها إلى ج. م.. حاول برهة أن يثنينا وبعدها، هو الكاثوليكي جدّاً، راح يُجدّف. قاومنا الضغط بجلادة: لم نكن مستعدين لأن نغوص في الوحل. في النهاية شدّ ج. م. على أيدينا بتحفّظ وأرسلنا مع محاميه للاتفاق على طريقة خروجنا. أكثر ما كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يهمّه هو أن نُوَقّع على بند السرّية، الذي كان يمنعنا من أن نحكي كلّ الذي رأيناه داخل اللونغ تيرم كابيتال منجمنت. (البند ذاته الذي، كما تشهدون أنتم قرّائي اللماحون، أخرقه الآن بدون حياء.)

لا أستطيع أن أقول إنّنا تنبّأنا أنا وفيكرام بالكارثة غير المعهودة. لا شكّ أنّ الصندوق كان يمرّ في لحظة سيّئة، لكن ولا حتى ببصيرتنا كلها كنّا سنستطيع أن نتصوّر سرعةَ السقوط. الثلاثاء في السابع عشر من آب، فعلت روسيا ما أكّد يلتسين أنّه لن يفعله أبداً (كما يحدث في كلّ أزمة) أصدر مرسوماً بتأجيل الدفع من جانب واحد. تلا ذلك التخفيض الخجول والمؤجّل. ومع ذلك فإنّ زملاءنا الأذكياء في وول ستريت رفضوا أن يروا الحريق الذي بدأ يحرق أجفانهم. «لا نعتقد أنّ روسيا ستتحوّل إلى مشكلة كبرى» صرّحوا ضاغطين على خُصياتهم. القوى النووية لا يمكن أن تقع في عجز، كان قد أكَّد هاغاني. لكنّ روسيا الآن القوّة النووية الأعظم على سطح الكرة لم تكن عاجزة عن احترام التزاماتها وحسب بل وتُعلنها بكلّ وقاحة.

يوم الخميس ٢٠ تعرّضت الأسواق إلى أوّل هبوط وصعود والجمعة ٢١، خسر داو جونز ٢٨٠ نقطة قبل منتصف النهار ولم يستعدها إلا قبل الإغلاق. ما عاد المستثمرون، أمام هذا التقلّب السريع في الأسعار، يثقون بالأسواق الناشئة التي جعلتهم كوارثها المتتالية في المكسيك وآسيا وروسيا يخسرون ثروات فانطلقوا جماعياً باتجاه سندات الخزانة.

ـ خراء!

هذا التعبير الأنيق على فم موظّف اللونغ تيرم، الذي تأكّد من أنّ التفاوت في المقايضة وصل إلى ٧٨ نقطة أساسية (في حين أن الطبيعي أن يكون نقطة واحدة)، وينبه إلى أنّ حالة التوتّر العام. بحسب نماذج

العباقرة، فإن ثغرة كهذه كانت *عملياً* مُحالة ولا يمكن أن تحدث ألاّ مرّة واحدة كلَّ ألف عام. ربّما كان الخلل في «عمليّاً». في كلّ دقيقة كان اللونغ تيرم كابيتال منجمنت يَخسر ملياراً. كان النزف من السرعة بحيث أنّه لم يكن هناك خطّة B لوقفه. بحسب المحلّلين الماليين، إنّ أسوء ظرفٍ بالنسبة للصندوق كان في أن يخسر ٣٥ مليوناً في يومٍ واحد، ووحده ذلك الحادي والعشرون من آب أفقده ٥٥٣ مليوناً. وجَد ج. م. وشركاؤه، الذين باغتتهم الحالة في إجازاتهم الممتعة في سويسرا وتوسكانا أو الشاطئ الأزرق، أنفسهم مُجبرين على أن يطيروا عائدين إلى مكاتبهم في كونيتيكت.

في ذلك الأحد أغلق إداريو اللونغ تيرم كابيتال منجمنت على أنفسهم كي يُقدّروا الأضرار (أو بالأحرى كي يبكوا عليها) كان الجميع يعرفون أنّ الخيار الأخير هو الحصول على حقٍّ عاجلٍ لرأس المال، وهو ما لم يبدُ سهلاً نظراً لظروف السوق. «الفجوات تَميل دائماً إلى التلاقي»، كان يُردّد م. ج. كصلاة مصمّماً على مقاومة الخطابية. لكن من يستطيع أن يهرع لإنقاذه؟

- وارّن - اقترح روزفلت، الذي كان يعرفُ ساحر أوماها من أزمنة أخرى، رفض بوفتْ بعد أن سمع طلبه. (لشيء ما هو بهذا الثراء).

سارع شركاء لونغ تيرم كابيتال منجمنت، وهم في كلّ مرّة أكثر ضيقاً، إلى مضايقة نصف العالم: جورج سوروس، روبرتو مندوزا، ج. ب. مورغان. هِربْ أليسون من ميريل لينش، يسوع وسانتا كلاوس. عبثاً... أنهار رأس المال التي كانت تروي سابقاً زرعَهم بسخاء جفّت الآن.

من رَغَدِ كرسيَّ، دُهشتُ لانهيار لونغ تيرم كابيتال منجمنت. بسخرية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ناعمة راح صندوق المخاطر، الذي كان قد ولّد أسرع أرباح في التاريخ، يخسر المال بسرعة سرعان ما سيستحق عليها جائزة غينيس.

ـ كم خسرتم؟ ـ سألتُ ج. م. عندما هتف لي يوم ٢٩ آب. لا بدّ أنّه يائس حتى يبحث عن رأيي.

ـ النصف ـ اعترف.

ـ إذن أنت منتهٍ؟

ـ ماذا تقول، ما زال عندنا النصف الآخر، وسوروس...

ـ آسف ـ أكدتُ ـ ما دمتَ خسرتَ النصفَ سيُفكّر الناس بأنّكَ ستخسر النصف الآخر بين لحظة وأخرى. *لقد انتهيت.*

في الثاني من أيلول أراني فيكرام الخبرَ الذي سرّبتْهُ وكالةُ بلومبرغ: لقد خسر لونغ تيرم ٥٢ بالمائة من رأسماله.

ـ الأسواق دائماً تتآمر على الضعفاء ـ لخّصت لشريكي الجديد ـ. بعد خمس سنوات من تقديمهم لأنفسهم كأكثر مسوخ وول ستريت ترهيباً، سيُلْتَهَمُ الآن اللونغ تيرم كابيتال منجمنت من قبل منافسيه.

لمحَ ميرتون، ميرتون العظيم، الكارثةَ المالية، خسارتَهُ لسمعةِ نماذجه المالية، فراح يبكي. وسكول، سكول العظيم كاد يُغشى عليه بينما كان يُكَرَّمُ في تورونتو، مسقط رأسه. وحده ج.م. كان يُقاوِم: ليس هناك ما هو أشدّ قرفاً في دائرتنا من رجل يائس يتباهى بأنّ رجل يائس.

في أواسط أيلول ارتفعت لونغ تيرم إلى خمسة عشر مليار دولار. مأثرة! لكنّ انهيار ج. م. بدأ يصبح غير ذي شأنٍ. كان صندوق العباقرة قد حقّق خلال سنواته الخمس صفقاتٍ مع جميع ممثلي وول ستريت. الحاصلان على جائزة نوبل يوشكان أن يكسبا مأثرة لا مثيل لها: نسف الكرة الأرضية.

مستغلاً فرصةَ حضورِ حفلة قدّاس جنائزي لفيردي بقيادة بارنبويم، ركبنا أنا ولي طائرتنا الجت ـ لم تعدْ زوجتي تتذمّر من هذه الأنواع من الترف العرضي ـ وخلال الطريق إلى شيكاغو ركّزنا على أن نستبق الاستجوابَ، كما لو كنّا كاتبي تحقيقاتِ عروض غِرَّيْن على وشك أن يُقابلا معبودَ بوب. ماذا كنّا نعرف وقتها عن هارولد غلاسر؟ قليلاً جدّاً. أنّ آخر منصب له في الحكومة هو معاون مدير في مكتب التمويل الدولي في وزارة الخزانة ومستشار الوزير مورجنتاو في مجلس حكام البنك الدولي؛ الذي كان قد اتُهم مثل وايت ومن حوله في عام ١٩٤٨ من قبل إليزابيث بنتلي بالانتماء إلى حلقة جواسيس شيوعيين؛ ومع ذلك لم تُوَجّه له التهمة رسميّاً قط، والذي قبل بعد خروجٍ غير لائق من وزارة الخزانة، بعددٍ من المناصب كانت إلى هذا الحدّ أوَ ذاك غير هامّة وإن لم تكن سيّئة الرواتب في عدد من الشركات الخاصّة وأخيراً أنّه يعيش الآن معزولاً في إقامة للعجزة على شواطئ بحيرة ميتشيغن.

كان غلاسر إلى جانب لود أولمان وألجير هيس وحداً من آخر أتراب أبي الباقين أحياء. اقترحتْ عليَّ لي أن أهتف إلى المأوى، كي أُحدّد معه موعداً، لكنّني لم أعتبر أنّ من الحكمة أن نُعلم مستشار وايت القديم بوصولنا، وأن نصل إليه في البيت الحجري الجليل دون إعلام. اكتفت امرأة حمراء الشعر، مكتنزة في أن أعطتنا دفتراً كي نُسجّل فيه اسمينا. (السيّد والسيدة بارنبويم)، القرابة من المقيم (حفيدان) عنواننا، ودلّتنا على درب إلى الشرفة التي كان فيها *عمّنا* في وسن تحتَ أشعة شمس الخريف الواهنة.

ـ سيّد غلاسّر؟ ـ تمتمت لي بابتسامة طفولية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الرغم من أن الصورة الوحيدة التي اكتشفناها له لا يَظهر فيها نموذجاً للرشاقة أو اللياقة ـ الشعر السابل المتناثر على قمّة رأسه المستطيل، الخدان المطنبان والأنف الشبيه ببصلة خضراء ـ حوّلته السنون إلى عجينة من التجاعيد التي لا تكاد تظهر تحتها العينان الصغيرتان الغبشاوان. كان العجوز يغفو على سرير معدني، متكتف اليدين، ساقاه مغطاتان ببطانية وذقنه ملطخة باللعاب الذي كان يجري من خطّ الفم الدقيق. في البعيد كان سهل الماء يمتدّ إلى اللانهاية. دفعتْهُ لي دفعةً خفيفة كي تذهب بالخمول عنه.

ـ هل نستطيع أن نتكلّم معك، يا سيّد غلاسّر؟

أخذتُ كرسيَّين من الحديقة وقرّبتهما من سريره.

ـ تتكلّم؟

ـ عن سنواتك في وزارة الخزينة.

استوى بصعوبة وهو ينظر إلى هذا الجانب وذاك بحثاً عن مساعدة، ونشق مخاطه بشكلٍ مدوّ.

ـ الماضي غير موجود ـ غرز عينيه في لي ـ يا آنسة...؟

ـ بارنبويم ـ قاطعتُهُ.

ـ نحن نكتب كتاباً عن بريتون وودز ـ كانت لي تجسّد دورها بمهارة.

ـ بريتون وودز؟ ـ ردَّد غلاسر آلياً.

ـ هل تستطيع أن تُحدّثنا عن تجربتك هناك؟ ـ أصرّت لي.

ـ يا آنسة ـ عضَّ العجوز على خدّيه ـ، حدث هذا منذ قرون، ماذا يهمّ الآن.

ـ أنت عملت كسكرتير لهاري وايت خلال المباحثات...

جعله اسم رئيسه القديم يهزّ أصابعه الملتهبة بطريقة تشنجيّة..

ـ هاري، هاري... ـ فكّرت للحظة أنه يُعاني من خرف الشيخوخة ـ. كان المسؤول عن كلّ الذي جرى هناك. عن كلّ شيء. انظرْ كيف كرّموه.

لامسنا الوترَ الصحيح.

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ هل تعلمين أنّهم أزالوا تمثالَهُ النصفيّ من بهو الصندوق؟ هل تعلمي؟ ـ اهتزّ غلاسر ـ. هو أنشأ هذه المؤسّسة والبائسون رموا تمثاله في القبوِ، يا آنسة. هل تسمعينني؟ في القبو.

ـ لماذا يفعلون هذا؟ ـ تظاهرت لي بالصدمة.

ـ البؤساء قتلوه، يا آنسة ـ لم يعد غلاسر يراني ـ قلبه لم يُقاوم.

ـ لكن... ـ حاولتُ أن أتدخّل.

ـ شيوعي! ـ تابع العجوز روايته وهو في كلّ مرّة أكثر صرامة وانزعاجاً ـ. كيف سيكون هاري شيوعيّاً، يا آنسة؟ كان رجلَ سلام، ويبحث عن السلام. ربّما كان متعجرفاً، كثيرون لم يكونوا يتحمّلون مزاجه السيّئ ولا هبَّاته، لكنّه لم يكن قادراً على أن يخون بلده. عاش دائماً بحسب أعلى القيم. حتى أنّ قلبه تحطّم،

ظننتُ أنّ العجوز سيبكي، لكنّه استعاد شخصيّته في الحال وقد أعاد الحنق إليه شبابه.

ـ سخافة. من يستطيع أن يتخيّل هاري، هاري أكثر من أيّ شخصٍ آخر، ينسل في شوارع واشنطن كي يسلّم وثائق إلى جرذ مثل تشامبرز؟ سخافة! لو أنّكِ عرفتهِ، يا آنسة ـ ضغط على يد لي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بأصابعه المخدّرة، الكنبة والمتيبسة ـ هو، كيف سأقوله، هو التام. رجل، لا عيب فيه. أنا أقول لك ذلك.

ـ لكنّك تعرف أنّ تشامبرز ـ اعترضت لي.

ـ هذا الجرذ.

ـ تشامبرز...

ـ لا. قولي: *هذا الجرذ*

ـ هذا الجرذ قدّمَ أمام هيئة محلّفين الكبرى وثيقة سرّية بخطّ وايت.

ـ كذب! لم يكن في تلك الوثيقة أيّ شيء سرّي ـ بدأ غلاسر يسعل ـ. باستطاعة أيّ كان أن ينتزعها من مكتبه. وادليغ أو أي شخصا آخر.

ـ لكن...

ـ لماذا سأكذب عند هذا المستوى، يا آنسة؟ ـ كان السعال يهزّه كما يهزّ إعصارٌ ورقة عشب ـ. هاري مات، أو بالأخرى قتلوه، منذ أكثر من أربعة عقود. لم يعد هناك من يذكره ولا يهمّ أحداً. لماذا أريد أن أدافع عن ميت؟

انتبهت ممرّضة إلى اهتزاز غلاسر فسارت باتجاهنا. لن تدوم المقابلة كثيراً.

ـ . كيف يمكنك أن تكون بهذه الثقة، يا سيّد غلاسر؟ ـ سألتُ.

مزيد من السعال. ومزيد من الصمت.

الممرّضة على بعد خطوات.

ـ كيف يمكنك أن تكون بهذه الثقة، يا سيّد غلاسر؟ ـ كرَّرتْ لي.

يتلوّى العجوزُ، مهتزّاً مع كلِّ بلغم. كانت الممرّضة تحرّك ذراعيها باتجاهنا.

ـ لأنّني أنا فعلاً كنتُ شيوعيّاً، يا آنسة. لذلك.

عندما حاولت لي أن تصوغَ سؤالاً جديداً، ربّما المفصليّ بالنسبة لبحثنا، كان الوقت قد تأخّرَ أكثر من اللازم. كانت الممرضة قد جاءت بكرسيٍّ عجلاتٍ إلى غلاسر وتمضي به باتجاه العيادة بكلّ سرعة. لم يتأخّر الحارس الهرم بدعوتنا لمغادرة المكان. لن يتعافى غلاسر من تلك النوبة وسيموت بعد بضعة أسابيع، في السادس عشر من تشرين الثاني ١٩٩٢. دون أن يندم أبداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد التاسع
حول كيف استولى بعض التوائم على العالم وكيف تستخدمُ ابنَكَ كدرع

ثنائي

- ماركس هو من قال التاريخ يعيد نفسه مرّتين في الأولى على شكلِ مأساة وفي الثانية على شكل ملهاة ـ تتباهى لي بسعةِ معرفتها دون أن تتوقّف عن اللعبِ بأذني سالينجِر ـ في حالة هيس حصل العكس، فكوميديا أخطاء المحاكمة الأولى تلتها مأساة الثانية. كثير من الممثلين الرئيسيين استمرّوا على الخشبة، مثل تشامبرز ومورفي، وإن تخلّى ألجير عن خدماتِ ستريكر، ربّما لأنّهُ حقّق انقسام هيئة محلفين على نفسها، بدل أن يُبرِّئه، وتعاقد مع محام من بوسطن، كلود ب. كروس، بهدف ليس فقط الطعن بمصداقيةً ويت وزوجته بل وبالدليل المقدّم من مكتب المدّعي العام. لقد استبدل كوفمان بالمحنّك هنري دبليو غودّارد، الذي لم يكن تعاطفه مع الجمهوريّين سرّاً على أحد.

كانت هناك مناسبات، مثل تلك، وددتُ لو أُحنّط ذلك البيغل[1]

(١) سلالة من الكلاب صغيرة ومتوسطة الحجم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الملعون. كان ينطّ دون كابح ولي، النظيفة جدّاً بالنسبة لأشياء أخرى، لم تكن حتى لتتوقّف أمام آثارِ اللعاب والشعر الذي كان ينثره الحيوانُ في الغرفة.

- أتصور أن المحاكمة كانت هذه المرّة أسرع - قلتُ ساخراً.

- في الحادي والعشرين من كانون الثاني ١٩٥٣، أخذت الناطقة باسم هيئة المُحلّفين الكلمة وصرّحت بأنّ هيس مدان بالحنث. بعد يومين مثل هيس في فولي سكوير كي يسمع الحكم الصادر بحقّه. غودارد أدان العقوبة القصوى، خمس سنوات في سجن فيدرالي عن كلّ من تهمتي الحنث باليمين، واللتين ستنفذان معاً.

- خمس سنوات.

- وهنا يأتي الأهمّ - عضّت لي على شفتها ـ في السادس والعشرين من كانون الثاني ١٩٥٣، تقدّم ريتشارد نيكسون أمام الكونغرس بخطبة بعنوان: «قضيّة هيس، درس للشعب الأمريكي»، أصرّ فيها على أنّ الإدارات الديمقراطية حَمَت عشراتِ الجواسيس في الحكومة، ولكي يُعزّز حجّته نشر المُذَكَّرة المؤلفة من ثماني صفحات التي يُزعمُ أنّ هاري وايت سلّمها لتشامبرز كي ينقلها بدوره إلى الروس.

- أفترض أنّك ستوضّحين لي الآن مضمونها.

توقّفتْ لي توقّفاً مأساوياً مستمتعة بالتشويق.

- لا يوجد موازٍ للنص بين آلاف الأوراق التي تركها وايت في أرشيفه - كانت لي تُراجع ملاحظاتها، تُداعب سالينغر وترفع عينيها نحوي ـ النص هو مسودّة أو دفتر ملاحظات أكثر مما هو مذكّرة، يُغطي فترة سبعة وثلاثين يوماً ما بين العاشر من كانون الثاني

والخامس عشر من شباط من عام ١٩٣٨. بحسب المختصين الخبراء الذين درسوه يمكن أن يكون حصيلة ورقتين سلمتا بتاريخين مختلفين، الأولى في العاشر والثانية في التاسع عشر من كانون الثاني.، وهو ما يمكن أن يوضّح التحرير غير المترابط كثيراً.

ـ وهل يوجد فيه دليل ما مُحَدّد على أنّ وايت نقل معلومات سرّية للروس؟

ـ يؤكّدُ منتقدو وايت أنّ قسماً كبيراً من معلومات المذكّرة كان سرّياً وأنّه لا شكّ يمكن أن يكون مفيداً لأعدائنا. المدافعون عنه، كابن هاري نفسه، ناثان وايت، يؤكّدون أنها لا تملك أي أهمية. الشيء الوحيد الصحيح هو أنّه لا توجد طريقة تُبيّن سبب لماذا انتهت كتابةٌ بهذه الطبيعة، مُعَدّة من قبل وايت بصفته موظفاً في وزارة الخزانة، إلى يد تشامبرز. وكونُ أنّ أهمّ جزءٍ في المذكّرة يشير إلى الجهود الحربية لليابان، التي كان وايت يدرسُ اقتصادَ حربها في تلك السنوات، يثبتُ، كما يبدو، أنّ وايت قرَّرَ، في جهدِهِ لإقامةِ تحالفِ متين لهزيمةِ قوى المحور، أنْ يشاطرَهُ السوفييت هذه المعلومة.

وضعت لي بعضَ حبات اللوز في طبقٍ وبدأت تتقاسمها مع الكلب. لن أتمكّن أبداً من فهم علاقتها بهذا الحيوان الخمول.

ـ الشيء الذي ما زلت لا أفهمه هو لماذا فعل ذلك ـ نهضتُ عن مقعدي وبدأتُ أدور في الغرفة ـ لماذا سيُسلّم معاونُ وزير الخزانة، المسؤول عن نظام بريتون وودز، معلومة سرّية للسوفييت؟ من أجل المال؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أنت تعتقد أنّ كلّ الناس يعملون الأشياء من أجل المال ـ سخرت لي منّي.

ـ إذن؟

ـ وايت لم ينظر إلى نفسه قط كجاسوس. لم ينضم للحزبِ الشيوعي. ولم يكن قط عضواً ولا خادماً. رفيق طريق، ربّما. ولا حتى هذا. رجل حملته عجرفته الرهيبة على التفكير بأنّه سيكون قادراً على مصالحة مصالح الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، الأمل الوحيد الذي كان يلمحه من أجل سلام مستقبلي.

ـ هل هذا هو تفسيرك؟ ـ انتفضتُ ـ وايت خان بلده بسبب غروره المُطلَق؟

ـ على الأقل هذا جزء من التفسير.

ـ وأبي؟ لماذا فعل ذلك؟

داعبتْ لي رأسَ سالينغر كما لو كان رأسي.

ـ أخشى أن نُضطرّ لأن نبحث عن جواب لهذا السؤال في مكان آخر.

آريا سوزان

هل عرف تري بآثار الخديعة من غيابات زوجته، من مداعباتها وعناقاتها المعتدلة أو المتباعدة، من لامبالاتها أو هوسها بإسعاده؟ هل رآها تتسلّل إلى مطعمٍ أو فندقٍ بائس، أو تعقّب خطواتها في صباح من الصباحات التي كانتَ تنسلّ فيها من بيتها باكراً جدّاً؟ أمّ أنّه كان حديث قلب، حديث قلب تافه وجهنّمي؟ أم أنّه تعاقد مع رجل تحرٍّ، الأمر الفظّ والحتميّ في وسطنا؟ أمّ أنّه هو من تعقَّبَها ليزيد من ذلّه وانتقامه؟

ومنذ متى؟ منذ بدأت مُغامَرة سوزان أم في الأسابيع الأخيرة، أو الأشهر الأخيرة؟

ابنتي دائماً ظنّت نفسها ذكيّة جدّاً (عيبٌ عائلي)، لكنّها لم تتميّز قط بحذرها. لا أجرؤ على أن أُلمّح إلى أنَّ ندمَها أو ذنبَها دفعاها إلى اتهام نفسها ـ استنتاجُ الثرثار الذي كان يُعالجها نفسياً ـ، وأقل من ذلك أن أقول إنّها تستحقّ ما حدث لها. ولا حتى أسوأ أمٍّ تستحقُ مثل هذه المعاملة. لكنّ إهمالها لا يُغتفر. إذا كانت قد قرّرت أن تُرَكِّبَ قروناً للبليد، وللطامة الكبرى أنّها فعلت هذا مع أحد شركائه (علمت بذلك لاحقاً)كان عليها أن تُضاعف حَذَرَها. ونظراً لثقتها بالجمود الذي كان يسود حياتها الزوجية، كانت سوزان مقتنعة بأنّ تيري لم يكن يشكّ بشيء ورفضت أن تلاحظ علاماتِ الاغتياظ ـ بلى الاغتياظ ـ الذي كان يتراكمُ في صدر زوجها.

كانت ابنتي تعاني من عيوب زماننا ذاتها: الإهمال والخُيلاء. رفضت أن تُقيّم الأخطار، وفضّلت أن تقلّل من أهمّيتها وتراوغها إلى أن تأخّر الوقت أكثر من اللازم. لا أفهمُ، لا أستطيعُ أن أفهمَ لماذا تمسّكت بهذا العشيق الوحيد ـ الرهان الأخطر بالنسبة لشخصٍ متزوّج ـ بدل أن تركّز على سلسلة فتوحاتها الغرامية المجهولة وغير الدامية!

لم تكُن سوزان وتيري قط متجانسين، كان باستطاعةِ أيّ شخصٍ أن يتحقّق من ذلك. فمنذ البداية شكّلا زوجين غير معقولين، ليس بسبب خصائصهما الجسدية ـ كلاهما كان باستطاعته أن يكون موديلاً، بقدر ما كان بسبب الذبذباتِ المتباينة التي كانا يطلقانها، لكنّ التعايش وَضَعَهما في نوعٍ من السكون الخامل، من التسامحِ اليومي الناتج عن الجمود والفتور. كلاهما كان يجتهد في تحلية صراعاتهما، في إظهارها كما لو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنّ الواحد منهما موجودٌ من أجل الآخر. لذلك ما حدث كان الأسوأ، أسوأ بكثير مما يحدث في أيّ اختلال بين زوجين، من أيٍّ طلاق آخر، من أيٍّ حرب زوجية أخرى: لم يكن انفجاراً فجائياً، بل كابوساً مُحكماً. أنا نفسي لم أُصدّق قطّ أنّ تيري قادرٌ على ارتكاب مثل ذلك العنف النفسي ـ أشقر ألبوم العائلة الأبله ـ وأقلّ من ذلك على أن يُخطّط لضربته بكلّ تلك البرودة.

ما إن ميّزتُ سوزان في باب مكتبي منهارةً وشاحبةً ومنتفخة الأهدابِ من البكاء، حتى اعتقدتُ أنّني عرفت مسبقاً ما سترويه لي. لكن ما حكته كان أسوأ، أسوأ بكثير مما تصوّرته.

ـ ابنتاي ـ انهارتْ بين ذراعي ـ. ابنتاي!

القاعدة الجوهرية والوطيدة الوحيدة بالنسبة للنساء هي هذه: لا تخدعي أبداً زوجكِ في فراشه. أبداً. في المرة الأولى تركت سوزان نفسها تنقاد بإلحاحِ الرغبة، مستغلّةً أن تيري قد خرج في سفرة عمل، سارعت وأرسلت رسالة لِميلتون تستدعيه إلى جانبها. وإن حاولت بعد ذلك أن تحتجّ بأنّها فقط كانت تُفكّر بدعوته إلى قدح، فقد كانت تعرف منذ أن وضعت أصابعها على لوحةِ مفاتيح الجوّال أنّها ستنتهي بحمل عشيقها إلى الملاحف ذاتها التي تشارك بها زوجها. ميلتون، المتهوّر مثلها، أو المُصَمِّم على أن يُدَنِّس بمزاجهِ فراشَ شريكه (وخصمه) لم يتردّد في إرضائها. «فقط هذه المرّة». همست ابنتي في أذنه كما لو أنّ الأمر يتعلّق بجسارة. الرغبة بالراحة جعلتهما يتخليان عن فندقي كوينز ولونغ آيزلند، حيث كانا دائماً مجهولين ورثّي الثياب، بعيدين جدّاً عن ذوقيهما الرفيعين، وفي كلّ مرّة كان يُعلن فيها تيري عن رحلة إلى كونيتيكت، ماين أو بنسلفانيا ـ كانت شركته مكرّسة لسوق القروض العقارية الخصب ـ كانت ابنتي لا تترد بالتخلص من الخدم.

كانت سوزان قد عادت في ذلك الصباح المريع لتبقى وحدها في البيت. كان تيري قد سافر إلى بوسطن منذ الصباح الباكر، والخادمة حصلت على استراحة متأثرة بفيروس والتوأمان في المدرسة. فلماذا لا تستغلّ تلك الساعات مع ميلتون، هذا الخليّ الأبديّ، الجاهز دائماً للقدوم حين تُطقطق له بأصابعها. وصل المتلهّف قرابةَ الساعة العاشرة، استقبلته ابنتي شبهَ عارية وقدّمت له كأس شمبانيا مع عصير برتقال. يبدو أنّه خلع عنها حمالة الصدر الحريرية والسروال الشفاف اللذين انتهيا إلى طاولة الوسط وحمل جسد ابنتي الخفيفَ إلى الغرفة الرئيسية (أمقت تصورّه).

لا بدّ أنّ تيري ضبط لقاءاتهما بِدقّةٍ ميليمترية، أو أنّه حالفه في ذلك اليوم حظٌّ شيطاني. حين فتح الباب بشكل عاصف كان من حسن الحظّ أن ميلتون لم يكن يغرز قضيبه بين وركي ابنتي، ولا يزلقُ لسانَهُ على فرجها، ولا هي كانت تفتح ساقيها أو تستمنيه بأصابعها الأنيقة، لكنّهما كانا ما يزالان الواحد فوق الآخر، مُنَهكَين وعاريين ولاهثين كرياضيين. لم تتمكّن أودري وسارة من رؤية شيء، بسبب يدِ تيري، غيرَ ثديي أمّهما الصغيرين وشعر عانتها لثوان كانت كافية كي يكرهاها طوال حياتهما.

تظاهر تيري بالمباغتة وسارعت سوزان وميلتون ليتغطيا، هسترت سوزان والتوأمان راح يجريان إلى غرفتيهما (كيلا يعودا أبداً)وعلى الفور أصبحت القضيّة بين أيدي فيلقٍ من المحامين.

في المحكمة أكّد تيري أنّ أودري هتفت له من المدرسة لأنّها كانت تشعر بأنّها مريضة، وأنّه اضطُرّ أمام صمت زوجته لأن يعود من بوسطن. لم يثبت قط أنّ هذه القصّة صحيحة. كان التوأمان يؤكّدان بنضجٍ غير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

معقول كلَّ ما كان يقوله أبوهما. على الرغم من أنّني تعاقدت مع أفضل فريق من المحامين، لم يكن هناك الكثير مما يمكن فعله. لم تتأخّر خيانةُ سوزان المخزية من التسرّب إلى صحافة المشاهير، فقدت ابنتي الحماية ثمّ إنّها أدينت بالتعويض عن الأضرار الأخلاقية. بدا المبلغ المُحدّد بالنسبة لتيري مُضحكاً واستأنف كي يحصل على زيادة.

في البداية نجحت سوزان في الحفاظ على بعض توازنها وإن عانت بعد أسابيع قليلة من بدء المحاكمة من أزمة عصبية ووجدتُ نفسي مجبراً على أن أدخلها مستشفى. طالب تيري الذي برهن على انهيارها بمساعدة اجتماعية لترافق الطفلتين في الزيارات المستقبلية لأمّهما. ما نوع الرجل الذي يُضحّي بابنتيه كي ينتقم من زوجته؟ كان تيري، المكار والوديع، المسخَ الذي يجب أن يكون قد أبعد عنهما وليس سوزان. لكنّني سآخذ على عاتقي أن يدفع ثمن الأذى الذي ألحقه بابنتي وبحفيدتيّ.

كاباليتا نُوَا

أعود لأتصوّرك، يا أبي، في السنوات التالية على الحرب. بعد نشوة النصر تمحقك فظائع النازيين، ملايين اليهود المقتولين، معسكرات الاعتقال، ولا مبالاة القوى الغربية أمام المجازر. بماذا أفاد كلّ الجهد إذا لم يملك أحدٌ الشجاعة لوقف المحرقة؟ وللطامة الكبرى أنّ التنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي تتركك في موقع هو في كلّ مرّة أكثر هشاشة وإزعاجاً. صار الوضعُ غير آمن وفظيعاً. ترومان ليس روزفلت ولا وايت ولا أنت تناصران سياساته.

في حالة أقرب إلى السرنمة تتابع تحضيراتك لتُطلق صندوقَ النقد الدوليّ وتَحْضِرُ بصفتك مساعداً لوايت الاجتماعَ الأوّل لحكّام البنك والصندوق الذي يُعقد في سافانّا في آذار ١٩٤٦، حيث تُقابل لأوّل مرة

اللورد كينز وود بريتون. عادت حميمية بريتون وودز الزائفة لتُتَرْجَمَ تبادلاً لمعاتبات مرّاً؛ فالبريطاني ما عاد يُخفي خيبته أمام القوّة التي يستعرضها الأمريكيون الشماليون، بينما تُلاحظ أنّ وايت كان طوال الوقت شاردَ الذهن أو عكرَ المزاج، يكادُ يكون غريباً عمّا كان يجري حوله. والطامة أنّ القاضي فينسون (الذي هو برأيك أحد أمقت الشخصيات في الوسط المالي) يرأس المؤتمر، وزير الخزانة الذي حلّ محلّ مورجنتاو، الذي ينطلق بخطابٍ منافقٍ حولَ الآمال التي تبعثها المؤسسات المالية الجديدة، بينما هو في الحقيقة يُناور كي يضعها في خدمته.

اللورد كينز المنزعج أكثر منكم يستخدم لغةً مشبعة بالصورِ الراقصة للإشارة إلى الأخطار التي تترصّد المؤسّسات المالية الجديدة، تلك التوائم التي يُسميها: ميز صندوق وملكة وميس بنك كما لو أنّهما شخصان مُستخرجان من قصة *الجميلة النائمة*، إحدى الرقَصات المفضلة عند زوجته. «أسوأ ما يمكن أن يحدث للتوأمين» يقول أشهرُ اقتصاديي العالم في مداخلته، «هو أن يصبّ عليهما جنّي شرّير، جنيّ أشمط لعنته. وستكون لعنته التالية: أنتم يا أخوتي الصغار، ستتحوّلون إلى سياسيين. وستهتدي أفكارُكم وأعمالُكم بنوايا خفيّة: كلُّ الذي ستُقَرّرونه لن تُحدّده فائدتُكم أو جدارتُكم، بل أسبابٌ أخرى. إذا ما تحوّل التوأمان إلى سياسيّين، فإنّ أفضل ما يمكن أن يحدث لهما هو أن يغطّا في نوم أبديّ».

يعتقد فينسون منزعجاً أنّ التشبيهَ الذي يقوم به كينز موجّهٌ ضدَّهُ ويهمس في أذنك: «لا يهمّني أن يقولوا عنّي شريراً، لكنّني لا أسمح لأحدٍ أن يقول عني جنياً أشمط» يا له أبله مسكين، تُفكّر، أو تعتقدُ هذا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الرغم جهودك لتهدئة النفوس، فإنّ الفظاظة بين جميع الممثِّلين في المؤتمر تظَهر حتى في الجلسات الاجتماعية ويستمرُّ البريطاني على امتداد الأيام المتتالية باستنكارِ خضوعِ الصندوقِ والبنكِ للمصالح الأمريكية الشمالية؛ بينما يتأكّدُ القاضي فينسون وبدرجةٍ أقلّ منه أنتَ ووايت (المُجبران بسبب الظروف أكثر مما أنتما مقتنعان) من أنّ أمّتَنا العظيمةَ تُحرّك خيوطَ ملكة جمال الصندوق (النقد الدولي) والبنك (الدولي) المعلِّم. يعودُ اللورد كينز، كما كان متوقَّعاً، ليَخْسرَ الجولة، لكن أيضاً لا يمكن القولُ بأنّ المؤتمر يشكل نجاحاً لهاري، الذي لم يلقَ، لأسباب تجهلانها أنت وهو، حتى الآن الدعمَ الرسميّ كي يُسمّى مديراً عامّاً للصندوق ـ المخلوق الذي كوّنَهُ بنفسه ـ وعليه أن يقبل بمنصبِ مديرٍ تنفيذي للوفدِ الأمريكي الشمالي.

«أرفض العمل مع غوت» تقول لهاري، مشيراً إلى وزير المالية البلجيكي الذي صار على رأس الصندوق.

كذلك يعرض عليك وايت منهاراً ـ وإن لم يكد يُظهر ذلك ـ منصباً إلى جانبه. ما من أحدٍ منهما يشعرُ بأيّ حماس للمؤسّستين اللتين ابتدعاهما بكثير من الجهود. اللورد كينز أيضاً لا يخفي في هذه الأثناء مرارته. عند عودتك إلى واشنطن تفتحُ الصحافة وتقرأ تصريحاته: «ذهبت إلى سافانا لألتقي العالم والوحيد الذي التقيت به كان طاغية». من كان سيقول إنّه سيلتقي هو ووايت في وجهات نظرهما؟ لأنّ الاثنين يتفقان على أنّ ذلك الطاغية ليس غير الولايات المتحدة.

أكثر خموداً من أيّ وقت مضى وغير قادر على الاهتمام بأيّ من الموضوعات التي كانت تثير حماسه ـ التاريخ، علم النبات، بل وعلم اللغة ـ يلوذ اللورد كينز في بيته الريفي في تيلتون ولا يشرع برحلاته

المزعجة إلى لندن إلا عندما لا يبقى أمامه من سبيل آخر. في العشرين من نيسان ينتقل إلى فيرل بيكون برفقة ليديا وأمّه، حيث يتنزهان في دروب الضواحي الضبابية.

خلال آخر مشاويره يُلقي أعظمُ اقتصادي في العالم قصيدة لتوماس بارنِل، وهو زميل أصغر لسويفت وبوب، تنتهي بهذه الكلمات: «ومعنى كلّ هذا: لا تهتمّ، دائماً تبقى هناك العدالة الإلهية». في صباح اليوم التالي - يوم أحد فصحٍ - يتعرّض اللورد كينز لنوبةِ سعالٍ حادّة لا يتعافى منها. يُحرَقُ جسدُهُ في بريغتون يوم الرابع والعشرين من نيسان ١٩٤٦ وتنثر ليديا رماده في كرمه المحبوب في تيلتون. أنت تُقَدِّمُ الخبرَ لهاري وتراه يبكي بصمت. وما إن يذهب رئيسك حتى تبكي أنتَ أيضاً.

ترتيل

لا يبدو أنّ أحداً يتذكّر أن انهيارَ لونغ تيرم كان نوعاً من إعلان أو مقدّمة الكارثة التي تسوطنا اليوم. كلّ أعراضِ الأزمة الكامنة كانت تتركّز هناك بمقياس صغير. بخل حفنةٍ من المدراء، غياب القواعد القابلة للتطبيق على الأدوات المالية المتطوّرة والفوضوية (اقرأ المشتقات)؛ إهمال أو غباء المُنَظّمين والسياسيين، والترابط الخطير الذي لم يُرَ قط بين مختلف بؤر الاقتصاد على الكوكب. فجأة يُهدِّدُ انهارُ صندوقِ مخاطِرَ صغير - لم يصل صندوق لونغ تيرم كابيتال منجمنت قط بثقافته السرية وتراتبيته الحديديّة ليكون عملاقاً - النظامَ الماليَّ بمجموعه. لو أنَّ صندوق لونغ تيرم كابيتال منجمنت كان أكبر - من - اللازم لكان فعلاً معدياً - أكثر من اللازم - للسقوط.

- عصابة من العباقرة تستثمر آلاف الملايين من الدولارات في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مراهنات عالية المخاطر ـ أسهبتُ مع فيكرام في لحظتها ـ وعندما لا تعود الأسواق، البخيلة دائماً، تُدَلّلهم فإن هذه الآلاف من الملايين تتبخّر، بوف!، وتُعَرّض عباقرة وبنوكَ وول ستريت والكرة الأرضية بمجموعها للخطر. وهل تعرف كيف حلَّ هؤلاء المعتوهون المشكلة؟ بأكثر الإجراءات مقتاً بالنسبة لأيّ مدافع عن «دَعْهُ يعمل».

ـ إنقاذ بواسطة الصناديق العامّة؟ ـ ثارت ثائرة فيكرام بكلّ ما يمكن لمعلّم روحي مثله أن يثور.

ـ سيكون هذا الطامة ـ صككتُ أسناني ـ لكن لولا التدخل المباشر للاحتياطي الفيدرالي ما كانت البنوك لتفرج عن دولارٍ واحد.

ـ كم انتزعوا في النهاية منهم؟

ـ ٣,٦٢٥ مليون ـ في ضحكتي لم يكن هناك من مكان للمزاج ـ بانكِرز تروست، باركليز، تشيس، كريديت سويس، فيرست بوسطن، ديوتش بنك، غولدمان ساكس، ميريل لينش، جي. بي مورغان، مورغان ستانلي، يو بي إس وسالومون سميث بارني سلّم كلُّ واحد منها ثلاثمئة مليون، سوسيتي جنرال مئة وخمسة وعشرين مليون، وليمان براذرز وباريباس مئة مليون.

ـ ثمن ألا يخسروا أكثر بكثير ـ تفلسف صديقي.

لا أُنكِرُ أنّ رصانتَهُ وصمتَهُ كانا يُغيظانني أحياناً. كان يُذهلني موقفه الفظّ من عالم المال، هذا الذي لم يرتح فيه قط تماماً، لكنّ مقاومته للمشاركة معي بأفكاره أو مشاعره كانت تُثير أعصابي. بينما كان عند ذلك المستوى من علاقتنا يعرف كلَّ شيء عنّي، بينما أنا أجهلُ ما إذا كان له أخوة أو ما إذا كان والداه ما يزالان يعيشان، أين وُلِدَ أو ما هي

علاقاته الغرامية السابقة. عندما كنتُ أتجاسر على مواجهته، كان فيكرام يخترع الطريقة التي تُعيد توجيهَ الحديث نحوي (وكنت أنا المُسْهِب وقليل الحياء أقع مرّة وأخرى). «ليس هناك أيّ لغز» قال لي في مناسبة أخرى بعد أن تعب من استجواباته لي.

ربّما كان صحيحاً أنّ الزمن يجري بالنسبة للهنود بطريقة هلامية أو دائرية وليس بخطّ مستقيم، لأنّ فيكرام لم يجرّب السرعةَ قط، العجلة أو اللهفة اللتين عادة ما تسمّمان سكّان وول ستريت المعتادين. لم تكن الكوارث بالنسبة إتكن تتطابق أو انعطافاتٍ في الحظّ، سُبُل للسَّبْرِ. الميّزة الوحيدة التي لم تكن تتطابق مع موقفه كرجل صالح هو بخله المُفرط. (وانظروا من يقول هذا.) على الرغم من أنّ فيكرام صار في ذلك الوقت غنيّاً إلا أنّه كان يكره أن يُنفق حتى في الأمور التي لا غنى عنها. وأكثر من متقشّف أو زاهد ـ الفضيلتان المرتبطان بديانته ـ كان هذا الذي يسميه القائمون على المجانين بالمُقتِّر. أعظم متعة عنده هو عدّ الملايين المكدّسة في حساباته. في الوقت الذي لم يكن قادراً على التمتّع بها في الواقع. كشريك، كانت غرابة أطواره تامّة: من الذي لم يكن يريد أن يكون إلى جانبه عبقريٌّ الأموال الذي لا يسمح لنفسه بالترف المفرط ولا ينفق دولاراً واحداً زيادة؟ بالمُقابل كان تقتيره الذاتي كرفيقٍ لا يحتمل، فأنا لم يكن بمقدوري أن أتخلّى عن قطار الحياة الذي اعتدته. لكن ربّما كان في التوازن الشاق بين التوفير والإنفاق مقياس نجاحنا المشترك.

ـ مقابل مساعدتك السخيّة ستتلقى البنوك تسعين بالمائة من ملكية لونغ تيرم. ـ بحثُ له.

ـ والشركاء؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

- هاغاني، هيليبراند، ميرتون، سكولز وشركاؤهم سيبقون بلا أيّ شيء.

- وج. م.؟

- مريوذر رأى في لونغ تيرم استعادة لحقوقه بعد حالات فشله السابقة. الأسوأ بالنسبة إليه ليس خسارة رأس المال بقدر ما هو الأبعاد العامة لهذا الفشل الجديد ـ خلصتُ ـ لكن يجب الاعتراف بأنَّ الأمر يتعلّق برجلٍ فريد. لا أشكّ في أنّه سرعان ما سينبعث من رماده[1].

بينما كان الصندوق طويل الأجل ينهار كنتُ أنا وفيكرام نجمع مكونات مستقبلنا. كنتُ أمضي الصباحات أجري مكالمات أو أزور مستثمرين محتملين، بينما هو يُكرّس نفسه لتصميم المالي للد جي في كابيتال منجمنت. بعد انتهاء كلّ منا من عمله اجتمعنا في بيته، حيث استغرقنا في اللعب (أكاد أقول الطقسية) التي أطلقها هو منذ المرّة الأولى التي نمنا فيها معاً. عندها فقط راحت سلبيته الهندستانية الظاهرية تتحوّل إلى حمّى مدمّرة ـ لم يكن مصادفة أنّ كالي الزنجية كانت تتأمّلنا من طاولة سريرها ـ وكان هو يستمتع كثيراً بإخضاعه لي كما أنا حين أستلب (لساعاتٍ) من سطوتي. آخر ما كان يفاجئني في النهاية، هو أنّه هو المتمكّن جدّاً من تقنيات التانترية الحاذقة لم يكن يقذف، كما لو أنّه حتى في الجنس لا يمنح نفسه الفرصة أن يبذّر.

---

(١) بعد أشهر من العوز (عوز الأغنياء الزائف، بحسب لي). ج.م. بدأ مغامرةً جديدة جي. دبليو. إم بارتنرز، بالاشتراك مع هاغاني ووهيليبراند الوفيين وأعلن أنّه سيتابع استراتيجية لونغ تيرم، لكن بطريقة أكثر صرامة. وجد نفسه خلال أزمة ٢٠٠٨ مُجبراً على إغلاق جي. دبليو إم. بارتنرز بعد أن جمع أربعاً وأربعين بالمئة من الخسائر.

فيكرام كوريشي

بقيتْ هذه الأسابيعُ محفورة في ذهني كنوعٍ من الانخطاف الجنسي وتحوّل قصف جسدينا إلى أفضل وسيلة لإدارة جي في منجمنت. كانت لي قد أصابت عين الحقيقة عندما أكّدت أن بالخلط بين مصالحنا العاطفية والاقتصادية سنُشكّل أنا وفيكرام اتحاداً عصياً على الخراب. بعيداً عن توجّهاتنا المتعارضة كنّا في السرير وخارجه نتوجّه نحو الهدف ذاته: أن نضع العالم عند أقدامنا.

رباعية

ألجير هيس، ابن السابعة والثمانين الذي استقبلنا في بيته في ضواحي بوسطن لم يكن ألجير هيس الرياضي المهيب، الذي اقتيد للمحاكمة، ولا ألجير هيس المهيب والممشوق الموجود في فيش

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشرطة، ولا حتى ألجر هيس الهرم المُصوَّر في عشرات التحقيقات الصحفية بعد إطلاق سراحه، لكن صورته المقتضبة والرائعة الجمال، بخلاف ما يحدث عادةً مع شيوخ آخرين، لم تتآكل، بل انتهت بتشذيبها مفسحةً المجال كي يُحوله بروزُ وجنتيه وحيويةُ جبينه، وعمقُ عينيه وبروز شعره ـ قوّة عظامه ـ إلى ألجير هيس النموذجي، جوهر ولبّ كلّ أولئك حالات ألجير هيس التي تعاقبا عليه على امتداد قرن تقريباً من حيواته المضطربة.

كان هيس ومحاموه قد طالبوا في نهايةِ ١٩٥٣ بمحاكمة جديدة مُبيّنين أنّ آلة ودستوك قد زُوّرت. وللبرهان على نظريتهم الغريبة تعاقد محاموه مع مُعَمِّرٍ خبير نجحَ في تركيبِ نموذج مماثل من قطعٍ مستعملة. وبما أنّه لم يكن من السهل إثبات أن البدينَ تشامبرز بأصابعه المدهنة كان قادراً على أن يركّب ليس فقط آلة كاتبة بل ولا حتى قلماً فإنّ الدفاع كان يُشير إلى أنّ لجنة النشاطات المعادية لأمريكا نفسها أو وباحتمال أكبر مكتب التحقيقات الفيدرالي هو المسؤول عن التلفيق. لم تعد الحالة مواجهة فجّة بين جاسوسين بل تحوّلت إلى مؤامرة هائلة. بعد مغادرته السجن في ١٩٥٤ كرّر هيس مرّةً وأخرى هذه الفرضية التي خلّفها مصاغة في كتابه: في *محكمة الرأي العام*.

بعد سنوات شاقة ومضنية وجد نفسه فيها مُجبراً على العمل في بقالية ـ انتهى خلالها بالانفصال بفجاجة عن بريسيلا ـ، استعاد ألجير في عام ١٩٧٥ رخصته كمحام وانتهى بالاستمتاع بحياة مريحة إلى هذا الحدّ أو ذاك إلى جانب زوجته الثانية. على الرغم من أنَّ كثيرين من أصدقائه أشاحوا بوجوههم عنه لم ينقطع قط عن تلقي التعاطف من قبل مئات الناشطين الليبراليين الذين كانوا يعتبرونه الضحية الرمزية لملاحقة الشيوعيين بقيادة هوفر ومكارثي.

في عام ١٩٧٥طالب هيس ومحقّقون آخرون بأن توضع «أوراق اليقطينة» تحت تصرّف الرأي العام عملاً بقانون حرّية الإعلام. في تموز من ذلك العام قامت وزارة العدل برفع السرّية عنها وتبيّن حينها أنّ اللفافة الأولى كانت مطموسة الكلام والثانية لا تكاد تُقرأ (ولا تحتوي إلا على معلومات عن البحرية وأدوات النجاة والإطفاء) والثالثة تحتفظ بالوثائق الأصليّة المقدّمة ضدّ هيس خلال محاكمته.

بعد ما يُقارب الأربعة عقود من خروجه من السجن بالكاد انتهى الجدل حول قضيته. كانت لي قد أمضت ساعاتٍ كثيرةً في مراجعة الشهادات لصالحه وضدّه، وسيرتِهِ الرسمية والمكذّبة، الدراسات النفسية (الصداقة وقتل الأخوة للدكتور ميّر أ. زيلجز) إطراءات التقديس والإهانات القاسية.

هيس ذاته لم ينأى بنفسه عن الجدل ونظّم منذ أواسط السبعينات حملةَ مطالبةٍ بحقوقه. جزء من هذا الجهد كان نشر: *ألجير هيس: القصّة الحقيقيّة*، للصحفي جون كابوت سميث وخاصّة *من يضحك أخيراً*، الدفاع الذي كتبه ابنه توني كدفاع اعتزاز عن أبيه (دون أي دليل، بحسب لي غير حبّه له كابن). وعلى النقيض من ذلك نَشَرَ في ذلك العام ذاته أحدُ الذين كانوا مناصرين لقضيّته: ألين وينستاين كتابَهُ *شهادة زور*، يتنكّر فيه، بعد سنوات من الغوص في الأرشيفات، لتعاطفه الأوّل معه ويعلن أنّه مدان بالتجسّس.

في عام ١٩٧٨ قدّم هيس ومحاموه أمام محكمة المنطقة الجنوبية من نيويورك طلب استرحام، مطالبين بإلغاء الحكم لاختلال المحاكمة. بعد أربع سنوات رفض القاضي ريتشارد أوين طلب الاسترحام وأعلن أن حكم عام ١٩٥٠ كان «عادلاً من أيِّ وجهةِ نظرٍ كانت».

في عام ١٩٨٨ ينشر ألجر مذكراته: *ذكرياتُ حياة*، في جهدٍ أخير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كي يؤكّد من جديد روايته للأحداث. بعدها راح النقاش يتلاشى وإن كانت بالنسبة لألجير وتوني هيس ـ الذي كان يُرافقه باعتداد كبير وحدّية في ذلك المساء ـ، المعركة أبعد ما تكون عن الانتهاء.

ـ يا سيّد هيس، هل تشعر بأنّك أُنصفت؟ ـ سألتْهُ لي، وهي تأخذُ رشفة من الشاي الذي قدماه لنا.

بدا الصالون الواسع ذو الطراز الفيكتوري المتقن مكاناً غير مناسب لمقابلة جاسوس سوفييتي سابق.

ـ طبعاً لا ـ كان صوتُ العجوز ما يزال يرنّ حاسماً ـ. لم يتوقّف القاضي قط ليُقيم حججنا.

ـ هل تعني طلب الاسترحام؟ ـ تدخّلتُ.

ـ وكلّ الأدلة التي قدمناها ـ الآن كان توني المندفع مثله ـ. محاكمة والدي كانت محاكمة سياسيّة.

ـ كانت الآلة الكاتبة مزيّفة ـ تدخّل ألجير.

بدا أنّ الأبَ والابنَ معتادان على أن يُجيبا معاً وتليا علينا حالات الخلل، التي اكتشفاها في المحاكمة واحدة بعد الأخرى: لائحة من عشرين أو خمس وعشرين نقطة، تبدأ من زيف تصريحات تشامبرز (حصان معركته) وحتى الضغط الذي تعرّض له القاضي على يد نيكسون. بقية أعضاء اللجنة وبضعة عشر سياسي جمهوريّ. من الساعات الثلاث والنصف التي قضيناها معهما نفذ أكثر من ثلثيها في الاستماع إلى توني، الذي كان يتبجّح بمعرفة ملفّ والده عن ظهر قلب. ما من شيء مما قاله استطاع إقناعي. كان شيئاً جديراً بالتقدير أن يرغب ذلك الفتى المهجورُ بأن يتحوّل إلى الحليف الرئيسيّ لوالده، لكنّ سخطه لم يكن يجعل منه مصدراً صالحاً. ثمّ إننا لم نذهب لزيارتهما كي

ننضمّ إلى قضيّتهما، وإنما كي نستبين الروابط التي كانت تجمع بين ألجير ووايت ووالدي.

سماء عاصفة، رمادية، كانت ترشح عبر النوافذ حين سمح لنا توني أخير إن نعيد توجيه الحديث.

ـ أكّد تشامبرز أنّكما سافرتما معاً في عام ١٩٣٨ لزيارة هاري دكستر وايت في بتربوروغ ـ قالت له لي ـ حتى أنّه ذكرَ أنّكما توقّفتما خلال الطريق لتُشاهدا مسرحيّة.

ـ ألا تلاحظين لامعقولية المشهد؟ ـ تدخّل توني دون أن يترك والده يتكلّم ـ جاسوسان يتسليان قبل أن يُسلّما تقريرهما السرّي في مسرح ريفي صغير...

ـ وماذا عن مذكّرة وايت التي ظهرت في يد تشامبرز؟

ـ لا بدّ أن أحداً سرقها. كما سرقوا وثائق والدي.

ـ سأسألك بطريقة أكثر مباشرة، يا سيّد هيس ـ توجّهت لي إلى ألجير ـ هل كان هاري وايت شيوعيّاً؟

ـ طبعاً لا ـ عاد توني ليجيب.

ـ رفيق طريق؟

ـ لا.

ـ عندما ذكر تشامبرز أنّ وايت كان صلة وصل مُتفرِّغ بل وأنَّه وضع في أوقات فراغه خطّةً ماليّة للسوفييت، هل كان يكذب؟

ـ طبعاً كان يكذب، كما هي حاله دائماً.

ـ أما من أحد في حلقتك كان شيوعيّاً؟ ـ واجهتُ ألجير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ جوليان ودلاي ـ منِ جديد توني ـ ربّما آخرون، لكن هذا ليس عملنا.

ـ ومعاونو وايت في وزارة الخزانة؟

وضعِ ألجير يداً على فخد ابنه كما لو أنّه يستيقظ من سبات، راجياً منه قليلاً من الصمت.

ـ لا بدّ أن تشامبرز كان يعتمد على ناس يثق بهم في وزارة الخزانة ـ يقول فجأة بصراحة ـ صلة أو صلتين على الأقل. لا بدّ أنّ واحداً منهما هو المسؤول عن استخراج الأوراق من مكتب وايت.

ـ هل يحضرك اسم ما؟

ـ لا.

ـ فرانك كوي؟ ـ اقترحت.

ـ ربّما.

ـ هارولد غلاسِر؟

ـ محتمل.

ـ لود ألومان؟

توقّف هيس وقفة مأساوية.

ـ بلى، أولمان.

تأخرَ هيس دهراً في لفظ الاسم الأخير.

نُوَا فولبي؟

لم يتردّد ألجير العجوز.

ـ فولبي. بلى.

المشهد العاشر
حول كيف تستثمر في الأموال غير المنقولة وأنت شيوعي وتغرق دون طوق نجاة

آريا نُوَا

إذا كنتَ بحدٍّ ذاتك شبحاً أو سوراً، وبالكاد اسماً مماثلاً لاسمي (مجرّد دخان) فإنّ تصوّري لكَ بعد الحرب يبدو لي أكثر مشقّة، كما لو أنَّ من المحال عليَّ أن أثبتك في الفترة الانتقالية، أن أرى إمكانياتك أو ضيقك. تنتهي يومياتك أواسط ١٩٤٦، من المحال معرفة ما إذا كان بعد تأسيس صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، مخلوقَيّ وايت ومخلوقَيْكَ أيضاً، توقّفتَ عن الكتابة، أو ما إذا كانت دفاترك اللاحقة قد ضاعت أو أنّ أمي قرّرت أن تُخفيها عنا، كتابتك تختفي ولم يبق لي غير صدى صوتِك الذي يرشح من أصوات أخرى.

أحاول أن أتبع خطواتك.

الآن أنا أتجسّسُ عليك.

بعد مؤتمر سفافانا يصبح عملك مشوّشاً على وجه الخصوص، فمجلس الحكّام يُقرّر أن تبدأ المؤسّستان عملهما في أيار. تتذكّر أمّي أنّ تلك كانت آخر أشهر الهدوء، لكن فقط بمعنى متخيّل، ذلك أنّها كانت نهارات وليالي لا راحة فيها ومليئة بالاجتماعات في ساعات غير

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مناسبة، هواتف عاصفة أيام السبت والأحد، أيّام العطل والإجازات المؤجّلة أبداً. تُحافظ على نفسك، متحملاً الضغط، رابطَ الجأش، أنت جنديّ عند وايت، جنديّ عند صندوق النقد الدولي وتلتحق بالصفوف في الثكنة المرتجلة في قاعات فندق واشنطن دون أن تناقش أمورك.

هل حقيقة أنّك كنتَ رمادياً كما يصوّرك هذا التقرير، التابعَ الأبدي، والمستخدم في ألف عملٍ عند هاري وايت؟ شخصاً دون أيِّ حياة أخرى غير حياة الموظّف العادية والروتينية، بساعات عمله وتراتبيته، وطقوسه وخموله؟ لا أستطيع أن أعرف ذلك، بالتفصيل، وهذا ما يضيعني. أنظرُ إليك تذهبُ من هنا إلى هناك، من وزارة الخزانة إلى فندق واشنطن، من جناح وايت إلى جناح كوت، ساعياً ـ لا أودّ أن أقول خادماً ضائعاً بين البيانات والقوانين والوثائق والمعلومات التي تدينها أو تلخصها كي يراجعوها هم على مزاجهم. ربّما كانت فكرة أن تُشارك في إنارةِ عالم جديد في البداية تمنحُكَ قوّةً كي تُبرّر تدبيرك لأمورك البيروقراطيةَ، انضباطَك ووفاءَك المثبت، لكنّ القلق الذي انتابكَ في سافانا ازدادت حدّته على امتداد الأسابيع الأخيرة؛ فالمؤسّسة التي تصوّرتَها أنتَ ووايت، هذا الجهاز الذي كان يجبُ أن يعلو فوق كلّ المصالح والاختلافات الوطنية وتبقى على هامش سوقيةِ السياسةِ وطموحاتِ موظفيها، صارت أبعد ما تكون عن الواقع التي تتأمّله يومياً. القاضي فينسون ليس مورجنتاو، كما حدستَ، تختلفُ فكرتُهُ عن كيفية إدارة المنظمتين المنبثقتين عن بريتون وودز تختلف عن المثالية التي شجّعت اختراعهما. فالبنك والصندوق بالنسبة إليه أدوات في خدمة الولايات المتحدة وأيّ اعتبار آخر يأتي في المقام الثاني. هاري نفسه يتأكّد من أنّ مخلوقَهُ يتناسى أغراضه ولا يخفي بأسلوبه الرصين والهادئ انزعاجه.

كان السلام والانسجام الدوليين بالنسبة إليكَ وإلى وايت من الأولويات، وعلى الرغم من الانتقادات التي تعرض لها يتابع في تلك اللحظات دفاعه العلني عن الحاجة للتحالف مع الاتحاد السوفييتي. «أكبر مهمّة تواجه الدبلوماسية الأمريكية والمهمة الوحيدة التي لها قيمة حقيقيّة في المشاكل التي تترصّدنا» يكتبُ هاري في مذكّرة من تلك المرحلة، «هو تصميم الوسائل لمواصلة العلاقة السلمية والودّية بين الولايات المتحدة وروسيا». لكنّ فقرَ السياسة يُكذّب تكهّناته وتتدهور العلاقات بين الشرق والغرب بسرعة غير معهودة. ستالين لا يثق بحلفائهِ ويبحث عن ضمان التحكم أتباعه وترومان المحاصر من الجمهوريين يتشدّدُ في مواقفه.

يتسنّم وايت منصبَهُ في الصندوق في السادس من أيار ١٩٤٦ في ذلك الجوّ المكفهرّ، وبعد ثلاثة أيّام تتلقّى تعيينك كسكرتير تنفيذي لصندوق النقد. كلاهما كانا يجهلان أنّه بعد وشايات إليزابيث بنتلي وويتكر تشامبرز صارت حلقة وزارة الخزانة القديمة تحت المراقبة المُشدّدة لرجال مكتب التحقيق الفيدرالي. كان وقع الاتهامات في البداية ضعيفاً ومريباً ولم يعرها ترومان ولا فينسون مصداقية كبيرة، لكنّ ضغطَ مكتبِ التحقيق الفيدرالي يزداد وتقريراً من ثمانٍ وعشرين صفحة حول نشاطات هاري السريّة المزعومة لا يتأخّر في الوصول إلى البيت الأبيض.

«كما يمكنك أن تُلاحِظ» يكتب ج. إدغار هوفر إلى ترومان، «هذا المكتب أُعلِمَ بأنّ وايت اتُهم بكونه أداة قيّمة في الجهاز السوفييتي السرّي الذي يعمل في واشنطن. مواد مختلفة من تلك التي وصلت إليه كنتيجة لأعماله الرسمية سُلّمت من خلال وسطاء إلى ناثان غريغوري سيلفرماستر، زوجته هيلين وايت سيلفرماستر ووليام لودويك أولمان، الذين كانوا يأخذون على عاتقهم تصوير الوثائق..».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التقرير لا يمرّ على ذكرك، فقط يذكر أولمان.

يرفض فينسون، مقتنعاً بعدم مناسبة الحفاظ على موقفه أمام مثل تلك الاتهامات، أن يتولّى وايت مسؤولياتِهِ في الصندوق ويُقابل المدّعي العام توم كلارك ليبحث معه عن مخرج. في النهاية يطرحان على ترومان ثلاثة سيناريوهات، أن يُطالب الرئيسُ باستقالة وايت دون مزيد من التعليقات، أن يقولَ له إنّه قد غيرّ رأيه ويطلب استقالته أو أن يوجّه المدّعي العام لمتابعة تحقيقاته دون أن يهمّه إلى أين ستقوده. ترى هل تمكّن هاري من معرفة النقاشات المشينة حول مستقبله؟ وأنت نفسك؟. بحسب هوفر، الذي قرَّر أن يدخل (بشكل غير شرعيّ) على هواتفك، لم يتأخّر المديرُ التنفيذيّ اللامعُ في الارتياب بذلك.

في ربيع ١٩٤٦، يضع مكتبُ التحقيقات الفيدرالي في التداول تقاريرَ مختلفة عن بقية موظّفي وزارة الخزانة المتهمين بالتجسّس. يُغادر سيلفرماستر، خائفاً مما هو أسوأ، الحكومةَ في نهاية العام. وأنت؟ أنتَ تُقرِّرُ البقاءَ إلى جانب هاري في صندوق النقد، حتى آخر ثانية. ما أصعبَ التكهّن بمزاجك في تلك الأشهر الخانقة. تستمرُّ بأعمالكَ متظاهراً بأنّ شيئاً لا يحدث، بينما أصدقاؤك يُسْتَجْوَبون، ولا تتصوّر ماذا ستفعل عندما يستدعونك. هل تتنازل، تهرب، تتخفّى؟ في حزيران ينتقل مكتبُ التحقيقات الفيدرالي إلى المكاتب الجديدة التي أنت أنّك مع البنك وتشعر أنت أنّك لن تستمرّ كثيراً في البناء اللامع.

تتركُ الشهورَ تمرُّ وأنت مرهق من الأوراق وتنظيم الأرشيفات ـ تتكلّمُ يومياً مع غلاسِر، الذي ما يزال يحتفظ بمنصبه في وزارة الخزانة ـ يُعَيّن فينسون قاضياً في المحكمة العليا ويضطلع جون دبليو سنيدر، وهو معادٍ شديد للشيوعية، بمنصب وزير الخزانة، في هذه الأثناء يأتي

إصرارُ مكتب التحقيق الفيدرالي أُكْلَهُ ووايت الذي لم يبق أمامه خيار غير أن يُوَقّع استقالته يوم الحادي والثلاثين من آذار ١٩٤٧. «أُريد أن أشكركَ، أيّها السيّد الرئيس على ثقتك بي وعلى الفرصة التي منحتني إياها كمدير تنفيذي للولايات المتحدة في الصندوق كي ننجح في جعل اتفاقيات بريتون وودز تصل إلى خاتمة طيّبة»، كتب لترومان

أجابه الرئيس يوم السابع من نيسان: «بألم صادق وتردّد معتبر أقبل استقالتكم كمدير تنفيذي من الولايات المتحدة في صندوق النقد الدولي، النافذ بدءاً من عودة السيّد كوت من أوروبا. أعرف أنّ باستطاعتك أن تنظر برضاً شخصيّ كبير إلى مسيرتك في الخدمة العامّة المتوّجة بجهودك التي لم تتوقّف للوصول إلى مساهمة حقيقيّة في الاستقرار التجاري الدولي من خلال البنك وصندوق النقد الدوليين اللذين يدخران آمالاً كثيرة بالنسبة للعالم المتلهّفِ لسلامٍ دائم».

بعد ثلاث عشرة سنة في واشنطن ينتقل وايت إلى شقة واسعة في الشارع ٨٦ غرب نيويورك. يتعاقد معه مجلس الفيدرالية اليهودي كمساعدٍ في دوام جزئي ويعرض عليه بنك المكسيك منصبَ مستشار بثمانية عشر ألف دولار سنوياً. يشتري هاري، الراغب باستثمارِ وقتِ فراغهِ مزرعةً صغيرة في بلوبري هيل على بعد ثلاثة أميال من فيتزويليام، في نيو هامبشير. يتعرّض في بداية أيلول من عام ١٩٤٧ لنوبة قلبية كبيرة فيجبره الأطباءُ على التزام الفراش. بحسب أمّي ذهبتَ لزيارته كلّ المرات التي استطعت.

في بداية تشرين الأوّل يحضر ضابطٌ من مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى منزل وايت ويُسلّمه تبليغاً. تطلب زوجتُهُ (رويتُ ذلك) تأجيل الموعدِ نظراً لوضعه الصحيّ. بينما كان يتعافى في منطقة بطرسبرغ، في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فلوريدا يُعَبّر عن دعمه لهنري ولاس، نائب الرئيس روزفلت الأوّل في معركته من أجل الرئاسة. يحضر وايت أخيراً يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين ليُقدّم شاهدته أمام المحكمة الكبرى في نيويورك، دون أن يُعطي مثوله نتائجَ كبيرة. فقط في الثلاثين من تموز عندما تمثل بنتلي أمام الكونغرس تتفاقم المشاكل بالنسبة لحلقة وزارة الخزانة. تؤكّد المشعوذة أنّ «السيّدَ وايت كان يُسلّم تقاريره للسيّد سيلفرماستر، الذي كان بدوره يُسلمها لي» وتؤكّد أنّه كان يعلمُ أنّها ستنتهي إلى أيدي الروس، ثمّ إنّها تُصِرُّ على أن وايت عيّنَ بضعة مناصرين شيوعيين في أماكن مختلفة من الحكومة. وتذكر لأوّل مرّة اسمكَ إلى جانب أسماء كوي، ألدِر، غلاسّر وسيلفرماستر وسيلفرمان: نوَا فولبي.

كيف كانت ردّة فعلك؟ هل التهمكَ الذعرُ أم حافظت، مثل هيس، على اعتدالك دون تبدّل؟ أمّي تصفك بأنَك كنت منهاراً، وإن احتفظتَ بماساتك داخل ألفة جوّ العائلة. مرّة أخرى لا أستطيع أن أميّز قنوطك من خوفك، الضيق الذي كان يُدمّرُ أيامك يوماً بيوم، ولم تعد بالنسبة إليّ الصخرة أو الكتلة الصخرية التي صوّرتها أمّي لسنوات طويلة، لكنّني حتى الآن لا أستطيع أن أحيطَ بك، ما زلتُ غير قادر على معرفة من تكون. تفلتُ منّي. فيك شيء ما زلتُ أجهله، لا أدري ما إذا كنت سأتمكّن من حلّ لغزك.

يسوء وضع وايت عندما يؤكّد تشامبرز شهادةَ بنتلي ويؤكّد أنّه عندما قرّر أن يترك الجهاز السرّي دعاكَ لتحذو حذوه. «لقد تركني في وضع نفسيّ مضطرب جدّاً، فقد اعتقدت أنّني أقنعته»، يؤكّد، «لكنّه على ما يبدو لم يفعل».

هكذا يصل الثالث عشر من آب ١٩٤٨، يوم كلمة وايت الرشيقة

أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا. بعد ثلاثة أيام يموت. أحد الرجال الأساسين في حياتك، الذين تبعتهم وأعجبت بهم لأكثر من عقد يُغادرك. أمي لا تنجح في مواساتك. كلاكما يأتي إلى الجنازة ـ هذا يُشرّفك ـ وبعد أسبوع تترك الصندوق. أمّ أنّ أحداً طالبك بذلك؟ لا يهمّ كثيراً. باتباعك خطوات هاري، تُخلّف وراءك أدغالَ واشنطن وتُقنع أمّي بأن تلحقَ بك إلى نيويورك، وكر العنكبوت الكثيف هذا الذي صار يبدو لك الآن في غاية الغرابة. تتوه من هنا إلى هناك، تؤكّد مواعيدَ غير مجدية وتستنفد انتظارات طويلة دون أن تعثر على عمل جديد. حين تُدرك أنّك ستنتهي إلى الفشل وأنت تتسوّل في الزوايا يعرض عليك رفيق قديم من كولومبيا وظيفة مستشار في مكتبه، وهو عمل بسيط ومنهجيّ وخفيف فتقبله كمتسوّل.

على الأقل مكثت زمناً لا أحد أزعجك فيه. على الرغم من أنّ الوشايات والاتهامات ضدّ جواسيس افتراضيين، شيوعيين، تتكاثر في تلك السنوات (تتابع عن قرب شديد محاكمة هيس)، حتى ليبدو أنّك بقيت على هامش الادعاءات، كما لو أنّ أعداءك قد نسوك. تتابع خلال عامين عملك دون أن ترفع رأسك إلى أن تتلقى في بداية عام ١٩٥٠ تبليغاً كي تمثل أمام لجنة المحلفين الكبرى في نيويورك. وتتمسك ربّما بتشجيع من غلاسّر أو أولمان بالتعديل الخامس وتملصت من الإشارة إلى ماضيك، ذلك الماضي الذي تطويه في النسيان وإلى الأبد، هذا الماضي الذي ما زلت أجهله وتعود إلى مكتبك البائس في غرينويش فيلاج. لقد تركتك التجربة بحسب جوديث أكثر موتاً من ميت. تمرّ سنتا ١٩٥١كثيرة، والأشهر الأولى من ١٩٥٣ دون تهديدات جديدة. هكذا ستكون حياتك دائماً، تُفكّر مُذعناً بحياة مجهولة مثل أخرى كثيرة، حياة محطمة وكئيبة، حياة تستحقّها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فجأة يهزّك خبران. أولاً تعلن لك جوديث أنّها حامل. لا تستطيع أن تُصدّق. لا تُريد أن تُصدِّق. أنت لم ترغب قط بأن يكون لك أولاد، نبّهتها منذ أن تعارفتما. ترفض أن تكون أباً، تتشاجر مع نفسك وفي النهاية تهرب. تهجر أمّي ـ وتهجرني وأنا لست أكثر من جنين مريع. أنا لا أُدينك. تهرب من المنزل محتدماً وتلجأ إلى علّية في كوينز تُصوّرها أمي كقاعة انتظار للجحيم.

في السادس من تشرين الثاني يعيدُ المدّعي برونِل فتحَ قضيةَ وايت كي يكسب بعضَ الأصوات المفيدة ويهين جثةً ما عاد باستطاعتها أن تُدافع عن نفسها. بعدها بقليل يمثل في بيتك ساعٍ يحمل أمراً جديداً بمثولٍ دائماً خفتَ منه. الآن صرت تعرف أنّ مكتبَ التحقيقات الفيدرالي هو الذي يُلاحِقُك. جسدك ما عاد يُقاوِمُ، ما عاد يتحمّل. في الخامس عشر من تشرين الثاني تستيقظ على زعيق فرخٍ عالقٍ بين العضادة والنافذة، تتعثّرُ حين تُحاول أن تُحرِّره، وحين تَسقطُ (أريد أن أفكّر) أنت أيضاً تتحرّر.

جوقة عائلة فولبي

حين أخذتُ أخيراً يدها، تثبّتني سوزان بقوّة لا تُصدّق عند امرأة بحجمها، كما لو أنّها أرادت أن تُبرهن لي أنّها سيّدة نفسها من جديد. بعد أن كسب تيري الاستئناف الأخير عادت ابنتي لتفقد شهيّتها، وراحت تتقيّأ كلَّ نصفِ ساعة، ضاعت بعدها في ضبابٍ دماغي كان يمنعها من أن تعرف أين هي. أُصيبت بأرق مُزمن فصارت تقضي الليالي ساهرة في حديث عن المجرات العائلية والأبناء المهجورين أو المفقودين، بينما هي نهاراً غير قادرة على أن تقيم حديثاً منطقيّاً، وإن لم أقرّر إدخالها المستشفى في مساساتشوسيتس، على الرغم من

معارضة أمّها، حتى اكتشفت يومياتها، حيث ترسم مشاهدَ تعذيب خفيفة بعد أربعة أشهر ونصف من ذلك اليوم المريع خرّجها الأطباء.

في المرّة الأخيرة بدت خرقة، بذراعيها الضامرين عظمي الترقوة الناتئين تحت ثوبها، لكن فاجأني أنّها اكتسبت بعض الوزنِ المعقول إلى هذا الحدّ أو ذاك. كانت ترتدي بنطلون جينز مخصّر وبلوزة بنفسجية داكنة ولو لا بعض الغشاوة في نظرتها لبدت لي جميلة كما في السابق. بل اكتشفت برودة في خضرة عينيها كانت تُضفي عليها سحراً جديداً، بعيداً لكنّه أيضاً أقل زوغاناً.

وقّعتُ أوراق التخريج بينما هي تأخذ أشياءها واتجهنا إلى نيويورك. سوف تبقى مع لي ومعي بضعة أيّام، على الأقل حتى تجد مكاناً في تشيلسي أو في تريبكا. بدت في الطريق أكثر هذراً من أيّ وقت مضى ـ تراه من تأثير مضادات الاكتئاب ـ وفصّلت لي الاجتماعات التي تتوقّعها في الأسابيع القادمة. فاجأتني طاقتها وتفاؤلها وخفتُ أن تكون هبّةً عابرة لن تتأخّر في أن تفسح المجال لعكسها، رواسب الكآبة التي كانت تغزوها منذ طفولتها. لم يحدِث ذلك، على الأقل في لحظتها. بعد أقلّ من أسبوعين من عودتها إلى المدينة عبّرت لي عن نيّتها في أن تنضمَّ إلى الصندوق، الذي كنتُ أستعدّ لإطلاقه مع فيكرام وإسحاق.

شعرتُ في البداية ببعض الريبة، لكنّ سوزان كانت بحاجة لأن تشغل معظم وقتها بمسائل تجعلها تنسى رفض ابنتيها لها. بحسب الحكم كان مسموحاً لها أن تزورهما كلّ أسبوعين، وإن كان تحت مراقبة العاملة الاجتماعية. على الرغم من أنّ الإهانة كان لا بدّ أن تبدو لها غير محتملة، انتهت بالإذعان لهذا الروتين الذي كانت أودري وسارة تمقتانه مثلها. كانت تزورهما في مساءات أيام الأحد، تتحدث معهما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قليلاً، أو بالأحرى كانت سوزان تتكلّم دون توقّف أمام التوأمين، اللتين كانتا تكتفيان بالنظر إليها من طرفي عيونهما، كما لو أنّ الأمر يتعلّق ببائعة تأمينات مزعجة. كانت تهديهما أقراطاً أو أطواقاً (لم تكن الصغيرتان تستخدمانها أبداً) وكان الثلاثة ينتهين شاردات الذهن أمام أمريكان آيدول إلى أن يعود تِيرّي إلى البيت وتضطر سوزان لأن تذهب كما لو أنّها الخادمة.

كانت ابنتي صاحبة مهارة غريبة في تمويه عواطفها ولم تتأخّر بتشكيل صورة جديدة رائقة ورصينة لنفسها، كما لو أنّها وبدل أن تبقى في مستشفى نفسيّ استمتعت ببعض الإجازات في سويسرا. وشيئاً فشيئاً صارت أكثر انبساطاً، وثقةً بإدارةِ علاقاتها العامّة، وعادت لتمنحَ مظهرَها الخارجيّ عناية قصوى. كانت تقضي ساعاتٍ في المنتجعاتِ الصحيّة وصالوناتِ التجميل مصرّةً على أن تظهر بتسريحاتٍ وتزييناتٍ تامّة، ولم تتأخّر في الخروج لشراءِ مراهمَ المضادة للتجاعيد والمنضرة للوجه.هي التي كانت دائماً على معرفة بالموضة لم تقتني مئات قطع الملابس المختلفة وحسب بل وبدأت تتواصل مع أكثر مصمّمي الأزياء شهرةً في التفاحة الكبيرة المتعفّنة حتى كسبت مكانةً مميّزة في مجلاتها الاجتماعية الصارخة. كان كما لو أنّ سوزان اخترعتْ، كي تنتصر على الألم والهجران والعار، سوزاناً أخرى، سوزاناً لا تعرف في أعين الآخرين المعاناة.

أنا لم أكن أعرف أيّها كان أكثر إيلاماً بالنسبة إليّ، هل وأنا أراها هكذا أنيقة وجميلة وطيفاً كما في لوحة رسم أو في مجسّم ثلاثي الأبعاد، أمْ مسحوقة كما في السابق من الإتخام بالحبوب. بطريقة أو بأخرى آليتُ على نفسي أن أنتقم. ما فعله تيرّي ولاس بابنتي لا يمكن أن يبقى دون عقاب. «أعدكِ بأنّني سأدمّره»، قلتُ لسوزان في أحد تلك

المساءات. اكتفت هي، الجميلة بلا عاطفة مثل فينوس يونانية، بأن مثلت أمامي محاكية آخر موديلات ستيلا مكارثي وقدّمت لي أحد عشاقها.

عثر إسحاق أخيراً على العمل الذي كان يحلمُ به. بعكس توقعاتي في الأشهر السابقة على افتتاح صندوقنا نفّذ ابني المهام التي كلَّفتُه بها بسرعة وفعالية. قام بكلّ الإجراءات مع المنظمين والدولة والبلدية وعثر على المكاتب التي ستفيدنا كمقر قيادة عمليات (طابق تاسع في تقاطع الشارع ٥٤ غرباً مع السادس) وافق على شروط عقود العمل، اختار السكرتيرات والمُحاسبين والمحامين وقسماً جيّداً من الوسطاء، زار عشرات الشركاء المُحتَمَلين وفي النهاية أطلق آلية جي. في كابيتال منجمنت في فترة زمنية قياسية. وقامت بيننا لأوّل مرّة علاقة، إن هي لم تقارب الرفاقية أو الاحترام المهني فهي على الأقلّ لم تكن مُخْمَدَة بالحنق والنوايا الخفية. كان من المحال القول بأنني أحسّ به مرتاحاً ـ كنتُ دائماً أخاف يبدر منه شيء سيء ـ لكنّ تمرّده خفَّ أو أنّه اكتشفَ طرقاً أقل أذى (وإن كانت أكثرة كلفة) للتعبير عنها.

عندما انتبهت إلى أنّ السيارات القديمة صارت شغفه الجديد ـ أنا لم أولِ قط هذه الموديلات القديمة أهميّة ـ كان قد صار لديه أكثر من ثلاثين موديلاً قديماً منها، يخزنها في أرض اشتراها قصداً بالقرب من بيته الريفيّ في نيو هامبشير وكان عليّ يومياً أن أبتلع وصفه المنوّم لفورد ولينكولن وباكار الثلاثينيات والأربعينيات، وكنّا نقوم أنا ولي أحياناً بزيارة مجموعته، التي كان علينا أن نتظاهر أمامها بالاهتمام البالغ. في ذلك المساء أظهر تويدلدي وتويدلدوم خشونة أقل وتخلّت كات عن التهكّم الذي كانت تنهال به على لي. لمرّة واحدة بدونا (أقول ذلك بأدنى حدّ من السخرية) عائلة أمريكية حقيقيّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

طبعاً لم يتأخّر السحر في الانفكاك. عندما أخبرتُ إسحاق بأنّ فيكرام لن يصبحَ شريكاً في المؤسسة وبعدد أسهم مساوٍ لأسهمه وأسهم أخته وحسب (وبالتالي فإنّ ابنتي ستبقى تحت إشرافه المباشر) انهار الودّ السريع الزوال بين الأب والابن وعاد على الفور ليلقي في وجهي النكد الذي أنزلته به في الماضي والذي يضيف إليه الآن هذا، الأكثر إهانة منها جميعاً، وهو أنّني لن أثق به أبداً، ولن يبدو لي أبداً صالحاً بما يكفي لذلك أُفضِّلُ غريباً ـ بل وأسوأ من ذلك، أجنبياً لعيناً ـ على ابني نفسه... المعزوفة ذاتها دائماً. لو كان يملك كرامة كما كان يتبجّح لكان ترك منصبه في جي. في. كابيتال منجمنت، لكنّه بالطبع لم يفعل. بحسب رأيه كنتُ أكرهه لأنّه الشخص الوحيد الذي لن أستطيع أن أشتريه أبداً، بخلاف الدمى التي كنتُ أُحيطُ بها نفسي ـ بالكاد تفادى إزعاجي بذكر اسمَي فيكرام ولي ـ، لكنّه أيضاً لم يكن باستطاعته أن يسمحَ لنفسِهِ بترفِ أن تركَ أوّلَ عمل كان يجعله يشعر بأنّه مفيد.

على الرغم من هذه الصراعات، رأى جي. في. كابيتال منجمنت يوم ١٨ تشرين الثاني ١٩٩٩ النورَ بخمسةٍ وثلاثين موظفاً وقاعةِ اجتماعاتٍ متواضعة وقاعةِ عملياتٍ واسعة. أخذ فيكرام على عاتقه الأمورَ الفنّية وأخذ إسحاق مكرها على عاتقه مسؤوليةَ الإدارة، بينما كان عليّ أن أُعِدّ خطابَ الشركة، أن أخطبَ ودَّ الأسماكِ السمينة وأتعاقدَ مع عددٍ من المُحللين الماليين الهاربين توّاً من لونغ تيرم وجمع رأس المال الأوّلي مئة خمسين مليون دولاراً. حين انتقلنا أخيراً ـ مكتبي، بديكوره البسيط بالأبيض والأسود، ينفتح على الهودسون وخمول نيوجرسي ـ، أدركتُ أنّني وصلتُ أخيراً إلى ما كنتُ أتطلّعُ إليه منذ طفولتي. لذلك أُريد أن أوضّحَ مرّةً وللأبد أنّني أنا وفيكرام شكّلنا صندوقَ استثمار حيوياً وجذّاباً وأنّه لم يخطر لنا قط أن نُصمّم مُركباً مالياً قابلاً للاحتيال والخديعة، كما أراد خصومي أن يبرهنوا في المحاكمات المفتوحة ضدّنا.

أيّها القرّاء المرتابون، يجب ألا يخدعونا: عندما أسَّسنا أنا وفيكرام جي في كابيتال منجمنت، ما من أحد منّا كان محتالاً أو يتطلّع لأن يكون محتالاً، فقط أردنا أن نستفيدَ من تجربتنا في جي بّي مورغان ولونغ ـ تيرم كي نكوّن شركةً قادرة على أن تشقّ طريقاً وسطَ المنافسة الضارية التي كانت تهزّ وول ستريت في ذلك الوقت. كما أنّه ليس صحيحاً أنّ وصولَ كوكبة من المستثمرين الكبار ـ عائلات لوينستاين، كاسترو، هاموند أو دومونتيت ـ يعود إلى العلاوات التي وعدتهم بها بواسطة مكائد خبيثة. كان جي في كابيتال منجمنت بنظافة أيّ من صناديق التحوّط في العصر (أُترجمُ: بحدود الشرعية دون أن أتخطّى أبداً الخطّ الأحمر). إذا كانت قائمة زبائننا قد تضاعفت خلال أقل من سنتين خمس مرّات فهذا يعود إلى الإدارة المثالية لحزم استثماراتنا وفعالية استراتيجيتنا على طريقة اللونغ تيرم كابيتال منجمنت ـ مع فارق أنّها أكثر موثوقية منه بكثير ـ التي أطلقها فيكرام والمحللون الماليون الذين تعاقدنا معهم بعد انهيار ج م.

لا أُنكِرُ أنّ النجاح المباغت لشركتنا يمكن أن يفسر أيضاً بإحدى ضربات الحظ تلك التي لن تنبو رجلُ مال أبداً في الأسواق من دونها: الاستثمار في شركات صغيرة في وادي السيليكون. أفترضُ أنّكم سمعتم بها: غوغل. وسّعنا من خلال الأرباح التي حصلنا عليها من هذه العملية مكاتبنا إلى الطابق الثامن، الطابق الثامن المشهور أو سيّئ الذكر الآن، إلى حيث نقلنا أنا وفيكرام مكاتبنا وكوّنا قدّاسَ أقداسنا، غرفة عملياتنا وملجأنا الحصين. بفضل نظر صديقي الهندي، تفادينا انهيار الدوت ـ كوم في نهاية العام ٢٠٠٠ فزاد رأس مالنا بحدود الاثنين وثلاثين بالمئة. بعد أشهرٍ قليلة وسّعنا لائحةَ موظفينا إلى ثمانية وثمانين موظّفاً ونفّذنا بحدود مئتي ألف عملية مالية شهرياً لصالح شركات أخرى بارزة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وول ستريت مثل جي بي مورغان ميريل لينك وليمان براذرس على وجه الخصوص. وإذا لم يكفِ هذا، فثروتي الشخصية ـ لا يُقلقني أن أكشف عنها ـ كانت قد ارتفعت إلى ثمانمائة مليون دولار، ثمانمائة مليون حصلت عليها بأنظف وأشفّ طريقة يمكن أن يُحقّقها المرء في وسطنا.

لكنّ أفضل ما في تلك السنوات لم يكن المكانة المتنامية للشركة أو زيادة ثروتي، بل احتمال استخدام هذه الأرباح في قضايا حقيقةً كانت تهمّني، وبخاصّة الموسيقى والأوبرا. ما إن ارتفعت تبرعاتي بنسبة ارتفاع دخلي من رأس المال حتى دُعيتُ للجلوس في مجالس إدارة متحف المتروبوليتان وجوليارد وسيمفونية نيويورك. لكنّ طموحاتي في رعاية الفنون كانت عالميةً كعالمية شركتي ولم أكتفِ بالدائرة المجيدة للشاطئ الشرقي، التي هي على كلّ الأحوال ريفيّة، إذ سرعان ما سقت خراطيمي أوبرات واشنطون وهيوستن وشيكاغو ولوس أنجلوس ثم وبعد ذلك كوفنت غاردن وكيروف (الذي استعاد اسمه القديم مارينسكي) والأوبرا الحكومية في فيينا ومهرجان سالزبورغ.

هكذا وبينما كان فيكرام وإسحاق يديران جي في كابيتال منجمنت وسوزان تموّل مجموعتها الأولى من الملابس الداخلية، كنّا نسافر أنا ولي من أقصى بقعة إلى أخرى من الكوكب لنحضر وسطياً قرابة السبعين كونشرتو وأوبرا سنوياً، مدعومة بعشاءاتِ سمرٍ وكوكتيل وحفلات كنّا في النهاية نلتقي فيها مع من كانوا معبوديَّ وصاروا (هذا ما كنتُ أعتقده) رفاقي. بافاروتي، دومينغو، ستودِر، فليمنغ، ريكسيارلي وليفين وجرجييف وأوساو وموتي... وما لا نهاية له من الشباب المغنين وقادة الأوركسترات الذين كنتُ أدعمهم بالمنحِ والمحفزات النزيهة، على الأقل حتى انتبهتُ ذات ليلة، تماماً في متحف المتروبوليتان، إلى خطئي.

على الرغم من أنّني دفعت نفقات كامل إنتاج إلتروفاتور، انتبهت بينما أنا أتصفح البرنامج أنّ اسمي لا يظهر إلا في الصفحة الأخيرة وبحرف صغير: *إن متحف المتروبوليتان ليشكر* ج. *فولبي على تبرّعه السخيّ لهذا المنتج*. فقط لا غير، بينما صور المغنين والمخرج والمدير العملاقة تزيّن الصفحات الأولى للنشرة. واجهت في الجلسة التالية زملائي في وجههم بعدم عدالة تلك السياسة، فأنا كنتُ قد استثمرت مليون ونصف المليون دولار في التروفادور ويبدو لي أنّ من الطبيعي أن يظهر اسمي في بداية البرنامج بل واقترحت وارتأيت أن تظهر صورتي مع سيرة مقتضبة إلى جانب صور الفنانين.

عندما قال لي جو فولبِّ الشحيح إنّ مثلَ هذا الطلب غير مسبوق، هدَّدتُ بإلغاء تبرعاتي وذكّرته بأنّني كنتُ قد وعدتُ باثني عشر مليون لذلك الموسم وحده. أخيراً عُثِرَ على حلٍّ أرضى الجميع، لا صورة ولا سيرة ذاتيه، لكنَّ اسمي سوف يتصدّر برامج الإنتاج المموّلة من قبلي بأحرف كبيرة وخطٍّ مقروء. والأهمّ، إذا ما التزمتُ بالمحافظة على تبرعاتي بالمستوى ذاته على امتداد المواسم الخمسة المتتالية، فإنّ غران تيير رستورانت سوف يُعمَّد باسم ج. فولبي غراند تير رِستورانت. ما من انتصار من كلّ الانتصارات التي حقّقتها في تلك المرحلة أثار حماسي مثل هذه *النهاية العظيمة*.

بعدها بوقت قصير احتفلْتُ بعيد ميلادي بإقامة حفل حضره أكثر من أربعمئة مدعوّ في منتجع من منتجعات باهاما المدوخة. بدأ العام بأفضل التوقعات فإلى جانبي كانَ «أحبّتي»، فيكرام ولي وسوزان، بل وحتى إسحاق وكات وأحبتهم، حضر بلاثيدو ليُغني بعض الأغانيّ المنفردة المفضلة لديّ ـ أغنيته «أسفي على فدريكو»، جعلتني أجهش مثل طفل أبله ـ فجأة بدا لي أنّني أتوجّه نحو مرحلة خالية من القلق تتركُ لي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

متسعاً من الوقت كي أُحقِّقَ الشيء الوحيد الذي كان ينقصني في ذلك الوقت: الحقيقة الأخيرة عن والدي.

نهاية. ٢

لا يُشبه أولمان غلاسّر وأقل منه هيس وليس فقط لأنّه يحتفظ ببشرة مخملية بلا تجاعيد وعينيه برّاقتين ولأنّه يرتدي سترة أمريكية تامّة وربطة عنق هرمز عليها صور صغيرة ـ لامات أو زرافات ـ ونظارة مُفضّضة تُضفي عليه مظهر أستاذِ لغاتٍ ميتةٍ متقاعد، بل لأنّ ثبات موقفه ولغته المنطوقة بشكل جيّد كانت تُصوّره كرجلٍ عرف بخلاف رفاقه القدامى كيف يبعث ويتمتع بحياة منتجة محترمة من المجتمع الذي كان يجهل ماضيه. استقبلنا لود أولمان ـ لم يستخدم قط اسمه الألماني ـ في منزله الكبير في باك هافن في نيوجرسي، وهو عقار واسع محاط بالغابات المتلألئة تحت حمرةِ وبرتقاليةِ الخريف.

كان أولمان قد عمل مثل أبي مساعداً لهاري وايت في بريتون وودز وفضّل بعد اتهامه من قبل إليزابيث بنتلي أن ينسحب من العمل العام. انعطف نحو الأموال غير المنقولة، حيث أسّس إلى جانب سيلفرماستر شركة سمحت له بجمع ثروة لا يستهان بها قدرها ثمانية ملايين دولار. تمسّك خلال مثوله أمام لجنة المُحلفين الكبرى في نيويورك بالتعديل الخامس ولم يلاحقوه ولم يُزعجوه قط بجرائم التجسس المزعومة. دوره الرئيسي في حلقة واشنطون السرّية كمسؤول عن تصوير ونقل مئات الوثائق السرّية إلى بوريس بيكوف لم يمنعه من أن يتحوّل إلى شخصيّة من النوع الأول في المجتمع المحافظ تماماً أو بين جيرانه الذين بالتأكيد لم يكن باستطاعتهم أن يتصوّروا أنّه كان في الماضي جاسوساً أو أنّه كان يُشارك في مثلث مع زوجة شريكه.

عند تأمّله مرتاحاً في كرسيّه الجلديّ، محاطاً بصورِ أبنائه وأحفاده ـ الجميلين، الشقر وغير المبالين يمتطون الأحصنة أو يمرون في أماكن مثل جبل ألبان، أنكور بهات أو ماتشو بيكتشو ـ، تساءلت عن الحظ غير المتكافئ بين المتساوين، وأسفت للتناقض الذي يكاد يكون بذيئاً بين الوجود المتناغم لهذا الرجل ونهاية أبي اللامعقولة. ماذا فعلت، يا نُوَا كي تنتهي تلك النهاية؟ لماذا لم تعرف كيف تعثر على مخرج لائق، على هويّةٍ جديدة، عملٍ جديد؟ لماذا اضطُررت للانزلاق ـ حرفيّاً ـ في اليأس والخزي؟

شكرت لي أولمان لاستقباله لنا بينما كان أحد مُستخدميه يُقدّم لنا أقداح نبيذٍ أبيض. بودي لو أصف على مهل الدردشة حول الطقس وهوايته للخيول الأصيلة، ذكرياته عن مؤتمري بريتون وودز أو سافانا وظهور النظام المالي الجديد، لكنّ هذا لن يفعل شيئاً آخر غير أنّه سيُطيل تشويقاً غير ضروريّ.

ومع ذلك اعترف العجوزُ دون تفاصح بمرورهِ بالجهاز السوفييتي السرّي. بلى، كان يقوم بمهمّة تصوير الوثائق ليُسلّمها لِكارل، ذلك البدين المقرف؛ نعم فعل ذلك بطريقة منتظمة؛ بلى، كان على معرفة بأنّ المعلومات ستنتهي إلى أيدي الروس. وهو لا، لا يندم. في الخمسينات والستينات، الفترة المشؤومة، حاول أولمان أن يُخفي تلك الأيّام، أيّام الحماس والتضحية، والإيمان الثوري والثقة بالمستقبل، لكنّه كان يفتخر بنضاله القديم. بالحكم عليه اليوم سيُصنّف سلوكه بأنّه خيانة ويستحقّ ليس فقط الطرد المخزي بل والسجن أيضاً، لكنّ الولايات المتحدة كانت آنذاك حليفة للاتحاد السوفييتي. لا يندم، كان يُصرّ، لأنّه لم يشكّ قط بأنه لا يعمل بشكل سليم.

ـ هل كان هاري وايت جاسوساً أيضاً؟ ـ سألته لي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ لنقل إنّه كان يناصر الاتحاد السوفييتي ويكره البريطانيين.

شعرت بأنّ الهواء ينقصني وسيُغشى عليّ في ذلك الصالون المغطّى باللوحات والأثريات والأعمال اليدوية وأشياء الذكرى من بلاد بائسة وبعيدة.

ـ هل من أحدٍ آخر في فريق وايت كان يعمل معك؟ ـ جاء صوتي واهناً.

ـ لستُ واشياً ـ نظر إليّ بصرامة ـ لا يهمني أن أعترف بماضيّ، لكنّني لا أُفكّر بأن أخون رفاقي القدامى.

ـ هارولد غلاسّر اعترف لنا أيضاً بانتمائه للجهاز السرّي ـ كنتُ آمل أن تفكّ هذه المعلومة عقدة لسانه.

ـ مات المسكين منذ وقت قصير، أليس صحيحاً؟

لزم أولمان الصمتَ، متفكّراً أو متأثّراً وأخذ رشفة طويلة من نبيذه الأبيض. بدا لي صعباً جدّاً تخيّله شاباً، عندما كان يُشكّل جزءاً من الثلاثي المُخجِل مع ناثان وهيلين سيلفرماستر.

ـ أبي هو نُوَا فولبي ـ كشفت له بسرعة.

ـ فولبي ـ ردّد دون توكيد.

ـ مات في العام ٥٣، لا بدّ أنّك علمتَ بالخبر، قبل أن أولد بقليل.

ـ أعرف ـ أغمض أولمان عينيه ـ، يُحزنني.

شحب لون العجوز، أو هكذا بدا لي، ولا بدّ أنّه كان أكثر شحوباً ومسّد شعره الخفيف، الذي كان ينزلق على جبينه، رسم على وجهه لمصة أسف.

ـ دائماً كنتُ أنا ونوَا معاً.

ـ ماذا تقول؟

ـ كنّا ننتمي إلى الخليّة ذاتها منذ الثلاثينات ـ أكّد بشيءٍ من الحنين الحزين.

ـ هل كان أبي شيوعيّاً؟

ـ أكثر شيوعيّة من لينين وستالين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفصل الثالث

الخدعة السعيدة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الأوّل
حول كيف تنقذ العالم بشريطٍ لاصق
وكيف تتاجر بالريح

آريا نُوَا

أسّان وملكان ومع ذلك خسرت. زوجان من الورق ذاته، اللعنة! تقفز عن كرسيِّك، حانقاً، غيرَ مصدِّق، متعثراً بكواحل ومرافق رفاقك في اللهو، تسمعهم يسخرون من حظّك العاثر، يضحكون بصمتٍ من مظهرك الرثّ وتعبيرِ المُستضعفِ عندك. أبهذه السرعة تنسحب؟ يسألك أحدُهم بخبثٍ، واعياً أنَّك بذّرت ما كان قد بقي معك لنهاية الشهر. تلتفت إليه كاشفاً له عن أنيابك كما لو أنّك قرد ربّاح أو بابون، وتشعر بأنّك كذلك أو ما هو أسوأ، زاحفة، جُعَل، حشرة تتجرجر بين القاذورات حتى تعبر الباب وتتوقّف عند أسفل الدرج. في كلِّ مرَّةٍ تستيقظُ فيها بين الغثيان والشقيقة تعدُ نفسك ألا تعودَ إلى ذلك الثقب الذي تُغادره ليلةً وأخرى أيضاً مهزوماً مرّتين لأنّك غير قادر على كبح آمالك الزائفة ـ هوسك بكسب شوطٍ ـ وتُتخم بكحولِ الذرة ذاك الذي يُفكّكك عنقك.

تتركُ نفسَكَ تسقطُ على بسطةِ الدرج، مجهشاً مثل طفل. «مُشْجِن» تهمسُ. منذ وفاة والدكَ لم تعرف كيف تهرب من الانتفاخ الذي يدفعك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأن تتجنَّب الدروس وتنطلقَ نحو هدفك التافه، كيف تُدير ظهرَكَ للقدر وتَهزمُ قدراً مشؤوماً تتكهّن بأنّه عدوّكَ أكثر ممّا تهزم هؤلاء البؤساء. متى كان أن صدَّقتَ أنَّ الفوز بالبوكر يبرهن عن شجاعتك؟ هل انتبهت إلى أنّ تحدّي الحظّ هو هوس رهبان وطغاة؟ ضباب سفيه يُعكّر ضوء المصابيح: لا يبدو أنّها السابعة ليلاً لكنّك ينزلق في أزقة هارلم كما لو أنّ الوقتَ فجر وتتقوقع في زاوية. تحني رأسك وتشبك يديك فوق بطنك ويسيل من فمك دفق من لحم متخمّر.

تسمع مُنكمشاً في تلك الزاوية صراخاً وشتائمَ، طقطقةَ عظام ومفاصل على بعد خطوات منك: على الجانب الآخر من الرصيف ثلاثة أشقياء يسحقون بالرفس فتى لا يبدو أنه تجاوز الثالثة عشرة من عمره. إذا كنتَ قد خسرت في ذلك اليوم شوطاً، فلماذا تُقحمُ نفسك في صراعاتٍ أخرى تعترف بأنّها مستحيلة؟ أو إذا كانت لهفتك للانتقام جامحة فلماذا تهرع وتستدعي الشرطة؟ ربّما لأنّه لا يهمّك هذا الشقيُّ، ضحيةُ الضرب المبرّح في الأحياء البائسة كغيره، أنت لا تبحث عن إنقاذه بل عن إنقاذ نفسك. تترنّح فوق الأشرار بحماقة أعوامك الثلاثين، وتوزّع الضربات يمنة ويسرةً، دون أن تنتبه إلى أنّ تهديداتك كانت تضيع في الهواء. أعداؤك تركوا الصبيّ يهربُ - يبقى لك هذا العزاء - والآن هم يتلذّذون بجسدك. يهزوّنك حتى يكسروا فكّك. ينهالون على عينيك باللكم، يكسرون أسنانك وأضلاعك. تغوص في الطين، دامياً مذعوراً، شبهَ ميت، مثل الزاحفة أو الصرصور الذي اعتقدت أنّك هو وأنت هو الآن.

يُدوّي الصوتُ في مسمعك مثل قرع ناقوس أخرس؛ حين فتحت عينيك - ثلمتين وسط الكدمات - قليلاً تُميز طيفاً وذراعاً يُساعِدُك على النهوض. «هيّا» يهمسُ لك. تستندُ إلى خصره وفي احتضار الليل تَعرج إلى جانبه. يُساعدك الطيفُ على الدخول إلى بنايته ويساعدك على صعود

الطوابق الثلاثة حتى شقتّه الفقيرة البائسة. يُرافقُك إلى الحمّام، يُبلّلُ منشفةً ويُوقف نزفَ جراحك، يُنظّف خدوشك ويجلسك على كرسيّ كبيرٍ مُخلَّع تحت نافذة صغيرة. «أفضل؟». تخرج من فمك المتضخّم نافورة دم متخثّر. «ما اسمك؟» تسأله قبل أن تغيب عن الوعي. «نادِني أنجِل».

يُوقظك في الصباح على كأسٍ من الحليب ورغيفٍ خبز مع الزبدة بينما هو يثني على بطولتك، اندفاعك لمساعدة ذلك الصبيّ معرّضاً نفسك للخطر. تراكَ تُحبّ أن تردّ عليه بأنّه كان سوء فهم، وأنّ قرارك ليس فيه ما يستحقّ الثناء وأنّك لم تُفكّر بإنقاذه أو أنّك لو فكّرت بذلك، فإنما كان في لمحة عابرة، عارضِ يأس أو جنون. يُمطرك أنجِلْ بالأسئلة، من أنتَ، من أين جئتَ، بماذا تحلم. تردّ مراوغاً على الرغم من أنّ التركيز في عينيك يدفعك لأن تكون صريحاً: تحكي له عن دراساتك الاقتصادية، عن موت والديك، عن ضعفك أمام الكحول والقمار. تشكره وأنت ما زلتَ متألّماً وتقول له إنّ عليك أن تذهب، بلى الآن، الآن. يُرافقُكَ أنجل إلى الشارع، تتمتم بأنك أفضل حالاً (كذبة) وتودّعه للأبد (كذبة أخرى).

تستنفد أسبوعين قبل أن تعودَ إلى شقّته. يستقبلك أنجِلْ بحرارة، كما لو أنّكما صديقان منذ الطفولة وهكذا يُسميك، صديقاً، حين يقترح عليك مشواراً في الحي. يا للمشوار! رجال رثّو الثياب يقفون في صف من أجل قصعة حساءٍ خاثر وبارد، نساء بائسات ينكشن في حاوياتِ القمامة، أطفال ضامرون يتراكضون ويتدافعون دون أن يتوقّفوا عند بؤسهم. يُحدّثك أنجِلْ عن الانهيار المالي والظلم، عن الفقر ومسؤولية الأغنياء، أنت تهمّك مسائل أقل بلاغة، مستقبلك، نزعتك للكحول، للحظّ والنساء. ومع أنّك تشعر بتعاطف ساذج مع مقاصده الطيّبة، إلاّ أنّك مُقتنِع بأنّ العالم حظيرة خنازير لا مخرج لها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صارت المشاوير في هارلم وبرونكس روتيناً. إذا كان حقيقة أكثر شباباً منك، إلا أنّ أنجِلْ يزدهي بنضوج واعتدالٍ أنت لا تعرفهما ولا حتى من بعيد. لا تستطيع أن تؤكّد أنّكَ تعود إلى دروسك في جامعة كولومبيا أو أنّ زياراتك لطاولات القمار صارت تتباعد بفضل تأثيره، لكنّ السكرَ ما عاد يصعقك في نهايات الأسابيع كلّها. لا تُخفي أنّ نموذجه وفضيلته (لم تُفكّر قط باستخدام هذه الكلمة) تعدّل من رذائلك وحموضةِ نفسك. كانت أحاديثه تمتدّ حتى مطلع الفجر. يُحدّثك أنجِلْ عن ماركس وأنجلز ولينين، الأسماء التي راجعتها فقط بارتياب. يصفهم كمعارف قدماء، بقناعة هي من العمق والثبات بحيث يكاد يقنعك بقراءتهم. ما عاد لنظرياتهم في مسمعك وقعَ الخطب الحماسية الفارغة (رأي مدرسيك في جامعة كولومبيا) ولا وقع التهديد الذي يعلنون عنه في الإذاعة. في نهاية كلّ درس يتوجّه إلى مكتبة صغيرة مقحمة في الجدار بجانب سريره ويُخرج منشوراً أو دفتراً صغيراً يضعه بين يديك، المهمة التي يُحدّدها المعلّم لتلميذه: إذا كان أنجِلْ يُعَلّمك ـ أنتَ واع ـ فإنّه يقوم بذلك بمنتهى المهارة وتنتهي بأنّك لا تعود تشك بإيمانه وأفكاره.

ذات مساء، عندما تصل إلى بيته، يفتحُ لك الباب شخصٌ مجهول، حتى أنّه لا يُسلِّمُ عليك (عينان خضراوان، وبشرة دهنية). في المكان الضيّق سبعة أو ثمانية أشخاص يلقون خطباً ـ تختلط نبراتهم ـ يُدخنون، يؤشرون بأيديهم. لم يُحِطْكَ علماً بهذا الاجتماع غير المتوقّع والذي أنت فيه الغريب الوحيد؛ حين يخرج أخيراً من المطبخ. يشير لك إلى زاوية دون أن يعطيك مزيداً من التوضيحات. تشغل مكانك متكتّفَ اليدين وتعبيرُ انزعاج يعلوك. تدرسُ، غارقاً في صمتك، الحضورَ: امرأتان وخمسة رجال هوج وعدوانيون، كلُّ هذا مع ذلك البريق في

عيونهم، التي كأنّها تنظر إلى الشمس حتى تحترق، وهذا الشموخ الذي سرعان ما ستعرف أنّه جوّ عائلة. حين ينتهون من مونولجاتهم يظهر في دماغك إعلان فيلم صامت: شيوعيون. هذا هم، شيوعيون. والآن أنتَ شيوعي أيضاً لمجرَّد وجودك برفقتهم. كونك صديق ـ رفيق؟ ـ أنجلْ يجعلك جزءاً من منظومته. بعضٌ منك يُثار ويُريد أن يذهب؛ البعضُ الآخر، الذي ينتصر، لا يتحرّكُ. تَنتزعكَ إحدى الفتاتين من استغراقك (سمراء، فأرية، جسورة) وأنتَ تردّ عليها بكلماتها ذاتها: يُفاجئك أنّكَ تتكلّم لغتها ذاتها، أنّك قادر على أن تحيك جملاً بمفرداتها البطولية والفظّة. وسرعان ما تسمعُ نفسك تخطب حول لينين والخطط الخمسيّة، التضخم في ألمانيا، الثورة والحاجة الملحة لبناء عالم جديد. هل ما زلت أنتَ نفسك؟ أم أنّ أنجل لقحكَ بسمٍّ هو من القوّة بحيث أنّك صرت الآن آخر؟

اجتماعات خليَّتك (تغريك الغمزة البيولوجية للكلمة) تتكرّر مرّتين، ثلاث مرّات في الأسبوع في علياتٍ بائسة، مثل علية أنجل، مضاءة بالحمى، البؤس والغنائية ذاتها. إرل برودِر، الواصل توّاً من روسيا، يحضرُ، في إحدى تلك المناسبات، طويلاً ونحيلاً وأرفل. ينتابك إحساس بشجرة دون أغصان. يُذكّرك أنجل بأنّه السكرتير العام الجديد بعد استقالة ماكس بِداتش ولا يعود يتكلّم عن التسلل إلى النقابات، بل عن سحق التروتسكيين. خطابه يقاطِعه باستمرار رفاقُكَ، الذين يُطالبونه بالأسماء والكنى. يُدافع أنجلْ عنه فيشكره برودر بغمزة. عند انفضاض الاجتماع يوضّح لك بأنّ ساعةَ تجاوزِ النظرية قد حانت ويعين لك لائحةً من الأعمال للأسابيع القادمة. لقد نجحتَ في الاختبار، يُعْتَرَف بولائك، أنت جاهز لتخوض المعركة هناك، في العالم. تقول لأنجل متوتّراً إنّك قرَّرت أن تترك الجامعة كي تكرّس نفسك بالكامل للقضيّة. «نحتاج

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأناس مؤَهَّلين» يردُّ عليك، «أناس قادرين على أن يصلوا إلى مواقع مهمّة كي يخدموا القضية من أعلى». ولكي يطمئنك أنجلْ يعدك بموعد مع برودِر كي يوضّح لك بنفسه المهمّة التي تنتظرك.

حتى الآن لم تتلقّ كتابك من الحزب، لا شيء يؤكّد عضويتك، ما من ورقة، ما من وثيقة تُجرّمُك. عدم معرفة هويتك والدكتوراه التي تحملها من جامعة كولومبيا هما حصنك، يقول لك برودِر بنبرةٍ مُحلاةٍ مثيرة للأعصاب، الدردشة في مطعم صينيّ تنتهي عندما يذهب الأمين العام بغتة من الباب الخلفيّ. تمرّ أسابيع ولا يحدث شيء. تُطالبُ أنجلْ بأخبار لا يستطيع ـ أو لا يريد ـ أن يبوح لكَ بها. تتلقّى في تلك الأيام رسالة من الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك، لقد اجتزت امتحانات الدخولِ بعلامات مرتفعة. المنصب المطلوب بشق النفس، لا يُريحك، ومع ذلك تُوقّع انضمامك وتسكر في تلك الليلة كما في السابق.

يخرجك أنجلْ من خمولك كي يطلب منك أن تذهب في ذلك المساء ذاته إلى مطعم في ليتل إيتالي. هناك يقودك ج. وليامز ـ يرفض أن يبوح بالاسم ـ إلى طاولة معزولة ويتوجّه إليك كما لو كنتَ صنماً. «نحتاجك» يأمرك بفظاظة. «في الاحتياطي الفيدرالي؟» يؤكّد الروسيّ. «في منصب الخراء هذا؟» يؤكّد وليامز من جديد. «لكن عليك أن تقطع كلّ علاقاتك بالحزب، أن تتظاهر أنّك لم تنضوي قط في صفوفه ـ بكلمات صارمة ـ وأن تبتعد عن رفاقك القدامى. بدءاً من الآن سيكون أنجلْ صلة وصلك الوحيدة، هل فهمت؟ ستُسلّمه كلَّ خمسة عشر يوماً تقريراً عن كلّ النشاطات والمعلومات المهمّة التي تستطيع أن تستخرجها من الاحتياطي». تشكّ بأن يسمح لك منصبك البائس بأن تصل إلى شيء مهمّ، لكنّك لا تُناقش لأنّك أصبحت تشعر بأنّك جزء من الجهاز السرّي.

غناء منفرد[1]

لم أرَ الأوّل، مثل الجميع تقريباً في ذلك الصباح الرائق، كانت لي ما تزال نائمة، وجهها متورّم بين الملاحف ـ وقناع النوم على عينيها ـ، خداها حاضرا الحمرة المعتادة، رائحتها، رائحة مرهم اللوز، الذي اعتدتُه أخيراً، بشرتها المطليّة بضربات ريشةِ الشاشة، الأشعة السلبية التي كانت تُشوّه تقاسيم وجهها. الصوت في أف كيلا يقطعَ عليها كوابيسها ـ عادة ما تئنّ ناطقة بجمل طويلة لا معنى لها ـ، كان قد مضى على استيقاظي أكثر من ساعةٍ، فأنا لا أتحمّل في وضعيّة أفقيّة، متدثراً ومتفكّراً، أُفضّل أن أنسلّ إلى المطبخ، أُترع قهوة وخبزاً وعصير جزرٍ كي أدرس الأسواقَ الشرقيّة وأُراجِعَ للمرة التي لا أدري عددها دفاترَ أبي، وإن لم أفعل شيئاً من هذا في ذلك الصبح، كان يحرقني خُمَار المشروب، فأنا لم أقاوم العشاء مع بعض الزبائن الألمان إلا بفضل نبيذ بورديو والويسكي، أو أنّني أكثر مما من خُمار كنتُ أعاني من فرط حساسية، السمع والشمّ المهيّجان، جانب الأثاث الواضح أكثر من أيّ وقت مضى، كما في فيلم ثلاثي الأبعاد، لا أريد أن أُلمّح إلى أنّ هذا الانزعاج حَدْس أو حديث قلب، يستبق أو يتكهّن بسوء الطالع، تُرهات، فقط هذا التجلّي شبه المؤلم وهذه الدغدغة في الجلد بعد الحلاقة، ما زالت تنزّ في ذهني قطرات البخار الدقيقة في المرآة وحرارة وقعقعة الماء في المغسلة بينما على الشاشة يعبر الطوربيدُ الزجاجَ تحت الجليد المتوهّج، لم أره، طبعاً لم أره، ولا لي رأته، فهي كانت ما تزال تتقلّب تحت الملاحف وقناع العينين يحوّلها إلى خلدٍ أو دودة

(١) غناء أوبرالي منفرد ما بين الترتيل والآريا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

زاحفة، خرجتُ من الحمّام، انتهيت من تنشيف نفسي أمام الشاشة، وأنا أرى دون أن أرى وأسمع دون أن أسمعَ دويَّ المعدن، غير مبالٍ بتقلباتِ التاريخ، التاريخ الذي كان يُكتب بذلك المخرز غير المعهود، وغير مبالٍ بالذكاء الفظيع الذي أطلقه، رأيته دون أن أراه وسمعته دون أن أسمعه، أصرُّ، خالطاً بينه وبين إعلانٍ تجاري أو دعايةِ مسلسلٍ تلفزيوني، أو عرضٍ أوليّ لأحدِ أفلام الكوارث التي تُبهرنا، ارتديتُ ملابسي بصمتٍ ـ لي كانت من حجر ـ وقرّرت الوصول سريعاً إلى المكتب، ألف قضيَّةٍ كانت تنتظرُ اهتمامي، كانت الدسيسة قد بدأت بينما أنا أشربُ فنجانَ قهوة اكسبريس مضاعَفاً وأقضم خبزيَ أمام الحاسوب بانتظار يومٍ طويل وعادي، يومِ عملٍ مضن في مكتبي، أناقش مع إسحاق موضوعَ السجاد اللعين وأراقَب مع فيكرام هذا الدَّين الذي كان ينتفخ لا محالة، وعندها رنّ الهاتفُ مرّة وأخرى، بإصرار، كان هذا فيكرام، بالضبط فيكرام، الآن لا، قلتُ له، لنناقشه لاحقاً، أردت أن أغلق الهاتف، لكنّه قاطعني بصرخة دوّت كصهيل، حادث، حادث رهيب، استطعت أن أسمع، نعم، نَعم، يا فيكرام، كما تريد، سوف نتقابل فيما بعد، وقطعت الاتصالَ، ما أكرهه في هذه الساعة، قلتُ لنفسي، وغرقت في الحاسوب حتى لمع فجأة العنوان المشؤوم بأحرف ضخمة على الشاشة، ركضت إلى الغرفة هززتُ لي، نزعت عنها القناع ورفعت حجمَ صوت التلفاز إلى أعلى درجة، ما الذي يجري، تمتمتْ هي عالقة في منامها أو كابوسها، انظري، قلتُ لها، انظري، انتصبت هي وجمدت، منتفخةَ الوجه، رمصاء العينان وكلانا ينظرُ إلى الطائرة الثانية، لا أدري إن كان في زمن حقيقيّ أم في تكرار تلقائي، الوضوح المريع لذلك اليوم من أيلول، صفاؤه المعكّر بالانفجار وبألسنة النيران، اللهب الذي ـ عرفت، بلى عرفت هذا ـ لن يتأخّر في حرقنا، اللهب

والحنق، قبّلتها على جبينها وهرعت في طريقي إلى المصعد، في الشارع لم يكن الرعب قد أصاب بعدواه الآلاف أو الملايين، فاجأني هدوء بارك أفينو. في سيارة الأجرة كان المذياع ينشر الرعب، لكنّني وصلتُ إلى المكتب دون تأخّر، أعطيتُ السائق خمسين دولاراً وسارعت في الصعود إلى مكتبي كما لو أنّني أتسلّق موقع مراقبة، لم تكن قد صارت الساعة العاشرة بعد ولم يكن هناك من أحد غير محلِّلَيْن سارعا ليشاطراني الخبر، تعانقنا نحن الثلاثة أمام الشاشة، تأملنا السقوط، مذعورين، كان هاتفي الجوّال يرن مجنوناً، لي، فيكرام، إسحاق، عشرات المكالمات، لم أرد على أيّ منها، ماذا أفعل؟ سيتبع هذا السقوط سقوطٌ آخر ثمّ آخر في لعبة دومينو جهنمية ستنتهي بسحقنا، هذا ما فكّرتُ به، فقط بهذا، بالسقوط وأدركتُ أنّه لم يبقَ أمامنا وقت طويل، سرعان ما ستُحاصَر المدينة من قبل الشرطة والجيش، سرعان ما ستنقطعُ خطوط الهاتف وتُشلّ الشبكة العنكبوتية. سيُغلِقُ وول ستريت أبوابَهُ، سيكون علينا أن نعمل مثلَ رجال الإطفاء أو الشرطة، بحذرِهم وكسلهم، أن نُنقذ ما يمكن إنقاذه، بل وأن نكسب القليل، لماذا لا؟ كان فيكرام قد وصل إلى البناء. أغلقنا على نفسنا المكتب في الطابق الثامن، الطابق الثامن سيّئ السمعة، وقلتُ له ما علينا أن نفعله، مكالمات في غير أوانها، الواحدة تلو الأخرى، بيع هذا، شراء ذاك، بسرعة، بسرعة كبيرة، قبل أن تُدركنا الحمّى والكراهيةُ، الهذيانُ وألسنةُ النيران، قبل أن يخطر لأحدٍ أن يُجلينا، استخدام تلك الثواني الأخيرة، مثل نيرون أمام روما، إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بالطبع ليس إنقاذ الأرواح، بل رؤوس الأموال، كنتُ أتصوّر ما سيأتي، كلّنا كنّا نحدس بذلك، نهارات وليال الحداد والصلوات - ضغائن بثياب حداد - ثم الرغبة بالعدالة وقرع الطبول، سيزداد التقلّب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بمستويات لا تُصدّق، كان يجب استنفاد تلك الدقائق الأخيرة، واستنفاد اللحظة الأخيرة السابقة على الفوضى، اعتصارها بحدّها الأقصى، لا أدري الزمن الذي بقيناه هناك، متصلين بالهاتف والشبكات (ما يكفي كي نكسب سبعة ملايين) إلى أن أُجبرنا على المُغادرة، توجّهنا أنا وفيكرام لنواسي لي وسوزان وعلقنا بالشاشة بلا توقّف، إلى أجساد الشهداء والضحايا، إلى الصيحات الوطنية ـ بصوت خافت، لجلجة الرئيس ـ، مُفْعَمَيْن بفرح نجاتنا المؤلم.

ترتيل

كما الحياة، الموسيقى أيضاً حرب، وربّما كانت الأوبرا أكثر مسارحها المعركة، ها تكمن العاطفة التي توقظها بين المؤدّين لها كما بين المولعين بها، هذا كيلا نتكلّم عن المسؤولين عن المسارح والمهرجانات، *المدراء* والوكلاء ورجال الدعاية، إليها يعود بالنفوس المتحمّسة أو الصداقات المقطوعة التي تخلّفها على الطريق. واعياً لفضائلي ورذائلي عندما هجرتُ الموسيقى في شبابي لم أتخلَّ عن المعركة، كما اعتقدت أمّي، بل قرّرتُ أن أخوضها ـ أكسبها في مجال آخر، ليس في أرض المعركة كما يفعل المستجدون في معارك لزجة ملتحمين جسداً بجسد، بل من موقع قيادة. انسحابي كان انسحاباً استراتيجيّاً وعدت للهجوم عندما راكمتُ ذخيرةً واستعداداتً، ليس لأسقط مثل مرتزق في الخطّ الأوّل من الجبهة، بل كجنرالٍ قائدٍ لجيوشيَ. صرتُ في الخمسين من عمري، تماماً كما قرّرتُ، مشهوراً كواحد من أعظم رعاة الآداب والفنون على الكوكب.

سرعان ما اكتشفتُ أنّني مختلف عن الذين يحضرون إلى الأمسيات والكونشرتوات، فالمتعصّبون للأوبرا لا يذهبون إلى المسرح كي

يستمتعوا بالموسيقى، بل كي يدعموا مغنيهم أو ينتظروا أن يفشل مغني منافسيهم، أن ينشز كي يلقى الاستهزاء. الشيء ذاته يحدث مع التسجيلات: المهووسون بالأوبرا[1] لا يجمعون الأوبرات كي يكتشفوا أو يُقدّروا الإخراجَ الأخيرَ لعمل معروف بل ليسخروا من فلان أو يبرهنوا على تفوّق فلان في كذا خلال مسامرات الآحاد. يكفي تذكّر المبارزات الكبرى في أزمنة أخرى: كالاس ضدّ تيبالدي (الصراع الشهير)؛ وستيفانو ضدّ ديل موناكو؛ ديل موناكو ضدّ كورِلّي؛ كورِلّي ضد بِرغونزي (وإن كان أنصارُ هذا الأخير، الذي لم يكن محظوظاً جدّاً، قليلين)، ثم لاحقاً بافاروتّي ضدّ دومينغو، بل وبعد ذلك، فيلازون ضدّ كوفمان وكلينبورغ ضدّ فيلا. وكذلك فريني ضدّ سكوتّو بين الصادحين، باستيانيني ضدّ غوبّي، ميريل ضدّ مكنيل أو كابوتشيلي ضد بروسون بين الجهيرين الأوائل، أو كوسّوتو ضدّ باربييري وباديليا ضد أورّوز بين الأصوات العالية ورايموندي ضد غياروف بين أصحاب الأصوات المُنخفِضة.

إنّه مقياس أفضليات يُذكّر بسباقات الخيول: يبرزون الخيول الأصيلة ـ جيبلي، بيورلينغ، لوس أنجلوس، كراوس، جيدّا، فيكرز ـ مقابل البيرتشورون ـ ميلينز، كريستوف، فيشر ـ ديسكاو، سوذرلاند ـ لأنّه من دون التقليل من ميزاتها قليلون من كانوا يُراهنون عليها. ألم تكن الموهبة تفرض نفسها؟ على الإطلاق. بعكس من يعتقدون أنّ ما نفضّله يستجيب لدوافع عقلانية، الأوبرا سمحت لي بالتأكّد من أنّ الدوافع والهوس

---

(١) يستخدم الكاتب هنا تعبيراً مستحدثاً استحدثه خوان بانييث (١٩٣٨ ـ ٢٠٠) operópatas وتعني الذين يرون الأوبرا بأرجلهم بمعنى المرضى بالأوبرا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقوى من الحجج: إذا أراد أحدٌ أن يفوز في هذه المملكة ـ الشبيهة جدّاً بمملكة المال ـ فإنّه مجبر على أن يستفيد من لا عقلانية العدوّ.

من يمكن أن يُصَدّق أنّ أحداً يموت خلال نصف ساعة ويعوي حتى آخر نفس عنده؟ هذا سؤال خاص بالحمقى والمهرّجين، أيضاً أنا رددت عليه في لحظتها: ذاتهم الحمقى والمهرجون الذين يصدقون طيبةَ الديمقراطيةِ والسوق الحرّة. الأوبرا سلّم قياس، ليس لأنّه هامشي هو أقل توضيحاً لولهنا بالحماقة. كلّ شيء فيها غير معقول، ليس فقط حبكاتها المعقّدة أو المسطّحة غير معقولة (ما عدا استثناءين أو ثلاثة) ليس فقط ألحانها المستسهلة (باستثناء خمسة أو ستّة أعمال بارعة) بل مجرّد دفع أربعمائة دولار من أجل مقعد أو مائة ألف دولار من أجل حفل مقبل لبافورتي الصغير. ليست بورصة حيث يُقامر بالملايين على البوب أو كرة القدم المحترفة، وإن كان أيضاً لا يُستهان بدخلها: بافاورتي الحقيقي لم يكسب قط كما كسبت مادونا، لكنّه كان بالنسبة للمتعصبين له معبوداً مغرياً مثلها على الرغم من كلّ شيء ومن أنّه يزن مئتين وسبعين رطلاً.

عندما بدأتُ أهتمُّ بالأوبرا، كانت العروض في تدهور واضح، الشخصيات الكبيرة انسحبت (أو كان مطلوباً منها التقاعد) بينما الشباب لم يصلوا حدَّ أن يُغطوا عليهم، ثمّ إنّ انفجار الثقافة الجماهيرية راحت تُصوّرُ الفنَّ الغنائيّ كممارسة بصرية صالحة فقط للشيوخ. أنا لا أُبالغ، كان يكفي الذهاب إلى عمل من أعمال متحف المتروبوليتان أو كوفنت غاردن للتأكد من أنّ غالبيةَ الحضور يعرجون أو يُعانون من مشاكل في البروستاتا. وللطامّة الكبرى فإنّ الستائر مطلية باليد وديكور الكرتون الحجري على طريقة زيفرلي تظهر كأشياء قديمة والتينور والسوبرانو في كلّ مرّة أكثر شحماً ويثيرون الضحكَ المؤسفَ بثياب زَرَدِهم القروسطية.

كانت الأوبرا قد تخلت عن كونها مجازاً وصغِّرَت كما لو أنّها تتطلع لأن تكون نسخةً طبق الأصل عن الواقع: ما من أحدٍ كان يعتبرُ نفسَهُ عصرياً ويبدي أدنى اهتمام بتلك العروض الرثّة، التي كانت جنازتها تسبقها عند منعطف الزاوية.

من كان يستطيع أن يتكهّنَ ـ ويُراهن بالمال ـ بأنّ الأوبرا، أو على الأقل ما يُشبهها، لم تكن ستنبعث من رمادها وحسب، بل ستغوي الملايين وتُوَلّدُ مداخيلَ لا يطولها الشكُّ؟ للخروج من السمعة السيّئة للفن الغنائي كان لا بدّ من جراحة تجميلية أكبر والاستفادة من جهل الجمهور الجديد. كان الأصوليون يتهمونني بتحويل هذه الثروة المقدّسة إلى سيرك، وإفساده بجعلها بمستوى الأعمال الواقعية والمسلسلات التلفزيونية وتوسيخها بدهمائية هوليوود أو روح الصحافة الوردية ومسلسلات القنوات الكبليّة. حسودون! بين ليلة وضحاها سارع عمالٌ وتجّارٌ، رباتُ بيوت وأساتذةُ مدارس لم يحدث أن سمعوا قط بالآريا ولا بالثنائي ولا بالمثنى، بالاستهلال أو بالترتيل، لشراءِ اسطوانات وفيديوهات مشاهير الموضة، أولئك الموديلات الرشيقين الأنيقين المختلفين جدّاً عن حيتان العصور الأخرى وسارعوا بخاصّة لتأملهم على شاشات التلفاز والسينما. أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بأوبرات كاملة، بل بنتفٍ منها؟ لا بدّ من البدء بشيء. أنّ الهواة الجدد غير قادرين على تقدير الانبساط بالصوت والتنغيم؟ لنعترف: غالبية الشغوفين بالموسيقى أيضاً؟ بعد أن يهتفوا في صالونات بيوتهم لمعبوديهم لا يذهبون لحضور عمل إلاّ بشق النفس؟ على كلّ الأحوال لم يكن لديهم ما يدفعون به.

كان على الأصوليين أن يشكرونا، فلولا الحالمون من أمثال تيبور روداس وأفون ساروريان وأنا نفسي لكانت الأوبرا ماتت بتآكل المفاصل، والسبات. ولكانت المسارح الكبرى بقيت حية بفضل المعونات العامة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

(الكسيحة في كلّ مرّة أكثر) ولكان الهرمون هنا وهناك تابعوا حجّهم لبيروت أو غليندبورن، ولكان هذا هو كلّ شيء، وبخاصّة بعد الأزمة الكبرى لدور الفونوغراف. وبدل هذا الاحتضار الطويل سمحت هذه الحفلاتُ الهائلة التي رعاها جيلٌ جديدٌ من المحرّكين بأن توجد اليومَ صناعة أوبرالية، إذا كانت لا تزدهر تماماً ـ كانت لسنوات أقل نشاطاتي ربحية ـ فهي على الأقل بقيت من دون أرقام حمراء. كفتْ فكرةٌ بسيطة، حدّ أدنى من الدفع لمنع الانهيار. ألا يبدو لهم بصيص عبقرية أنّنا جمعنا بين كرة القدم والأوبرا؟ بين الأبله والأرقى في مضمار واحد؟ إنّ أخذ التينورات الثلاثة (كما لو أنّه لا يوجد آخرون) إلى كأس العالم في إيطاليا غيّر مجرى هذه التجارة للأبد. النهاية الحادّة الرفيعة لِأغنية *لا أحد ينام* (نسوم دورما) المكثّفة بين ميكروفونات دومينغو، كارِّراس وبافاروتي، التي صفّق لها الملايين.

بعدها لم يبقَ غير الوصول إلى النتائج الأخيرة، المطالبة بأن يكون المغنون شباباً وممشوقين ـ ما أروع أن يُشبهَ روميو في النهاية روميو وتكون كارمن من دون تجاعيد! ـ، الغوص في أسرارهم وإدخالهم في مجلة بيو*بل*، إعادة نقل الأعمال المقدمة في متحف المتروبوليتان وسكالا إلى سينما الطبقات الدنيا، تصميم ديكورات في المدينة الممنوعة، المدينة الممنوعة، أهرامات مصر، ملاعب كرة القدم أو ساحات مصارعة الثيران (سيّئة الصوت دائماً) وانتزاع التحكّم بالعروض من مدراء الأوركسترات، المحافظين في جوهرهم لتسليمها لأوقح المخرجين وأكثرهم عدوانية (يُفَضّل أن يكونوا ألماناً) يا له من انتصار غير متوقّع! لا شكّ ارتكبت تجاوزات كبيرة، لم يكن ضرورياً طرد دبروا فويجت لفرط بدانتها ولا نقل عرض *هكذا يفعلن جميعاً* (كوسي *أفانت توت*) إلى مقهى إنترنيت؛ أو لوهينغريم إلى سفينة فضائية، ولا

شكّ أن مشاهدة أوبرا في دار سينما يشبه الذهاب إلى السينما أكثر من الأوبرا (كما صرّح صديقي السابق موتيير) وربّما كان التوسع في الملاعب والمناطق الأثرية يُخرّب الصوتَ، لكن الأمر كان يتعلّق بالبقاء بأيّ ثمن. إنقاذ الآلاف من مواقع العمل للمغنين والبهلوانيين ومدراء الديكور والمخرجين والوكلاء والمراسلين والأزياء والملقنين وقادة الكورس من ركودٍ اقتصادي كركودنا يستحق جائزة (استلمت عدداً منها). إذا كانت الموسيقى الكلاسيكية حرباً لا هوادة فيها والأوبرا خطّها الأمامي فإنّه لمن دواعي الفخر لي أن أؤكّد أنّني تُوِّجت بالنصر. فقط هناك مأخذ هو أنّني حين أعلن ذلك أشعر بوخزة حنين، كم أتوقُ، في حرّ هذه الجزيرة القذرة من الباسيفيك لعرضٍ فقيرٍ ويدويّ لِروجيليتو.

رقصة التوليب

يتقدّم باعة الأزهار محمومين، دفعاً بأكواعهم يمنة ويسرة، يقفزون ويدفعون كي يلفتوا الانتباهَ وينتزعوا الكلمة ـ طبعاً الصالة شبه معتمة ـ: يد هناك، في أقصى اليسار، يزدادُ التحدّي؛ يد هنا، في الأمام، تتفوق عليها. يُرافق جاكوب أبراهامز فإن هالميل، المغطى بنور النافذة الخفيف، مراهنَتَهُ بابتسامةٍ خفيفة وقحة؛ ولكي يعارضه الخبّازُ أولفرت رولوفز يضحك ويضاعف المبلغ ويتلقى ربتة؛ بعد بضع ثوان من التوتر يقوم الصيدلانيّ جان سيبانتز شوتن بمضاعفة ثمنها ثلاث مرّات بين إشارات تعجب مريبة وحسدٍ خالص. حين يبدو أنّ أحداً لن ينتزع منه غنيمته، يصيح فارس أحمر الشعر تهبط لحيته حتى منتصف صدره ـ بالتأكيد هو منونيتي ـ معلناً بصوت أخنّ عن المبلغ النهائي. وسيتسرّبُ الخبرُ بلمح البصر من ألكمار وسينتشر في كلّ المنطقة وسيعبر هارلم ويصل إلى أمستردام وسيدور متضخّماً ومشوّهاً في كلّ العواصم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأوروبية: في المزايدة التي ينظمها ويسكامر يوم الخامس من شباط ١٦٣٧ لصالح أيتام ووتر بارثولوميوز وينكِل، سبعون بصلة توليب من أنواع مختلفة ورائعة جمعت تسعين ألف فلورين، برز بين جواهرها زهرة توليب فايسروي بيعت بـ ٤,٢٠٣ فلورين أو أدميرايال فإن إنكيشتاين هائلة، ناتشة بلغ ثمنها ٥,٢٠٠ فلورين (كي نكون فكرة كان الراتب الشهري لعمدةِ مدينة ٥٠٠).

كانت تجارة التوليب التي راح يُنَدّد بها منذ عدّة أشهر الوعاظ الكالفيون ويستهزئ بها الناس من خلال أغان ومنشورات، قد انزلقت في عاصفة جامحة حتى أدركت أسعاراً لم تخطر بخيال، قادرة على أن تجعل بائعاً يُصبح غنيّاً في مساء واحد. منذ أن اقتلعت هذه الأزهارُ الغريبة، التي كانت تصطبغ نويراتها بألوان اليشب أو الأرجوان أو القرمز بسبب بعض الفيروسات، قبل ستين أو سبعين عاماً، من حديقة التركي العظيم ونُقِلَت إلى البلاطات الأوروبيّة تحوّلت إلى أكثر السلع طلباً ـ والأعلى سعراً ـ في القرن الثامن عشر.. كما تُبرهن لوحات رسم وحفر العصر، صار تألقها السريع الزوال ضروريّاً جدّاً لدبّ الحيوية في صالونات البلاد المنخفضة.

كانت دورةُ حياة هذه النباتات المُتَقَلّبة تُحدّد تجارتها، بحسب تنوّعها، لا يكادُ يمتدّ تألُّقها بضعة أسابيع. ما إن تذبل بتلاتها حتى يتوجَّبُ اقتلاعها ولفّها بالقماش ـ كما لو كانت مولودات حديثة ـ كي تُعاد زراعتها في بداية أيلول بانتظار أن تعود لتولد في الربيع التالي. تبادل بصلها كان يتمّ عبر اتفاقيات هي في كلّ مرّة أكثر تعقيداً. وكان المشترون في بعض الأحيان لا يشهدون جمال نباتاتهم، إذ يُسارعون إلى بيعها إلى تجّار أزهار قبل أن تُزهر بكثير. ولذلك عُرفت تجارتها بـ *وايندهاندل*: التجارة بالريح.

أحدثت حمى العمل على جمع الأنواع الأغرب منها ارتفاعاً في سلّم الأسعار. كان بائعو الأزهار المجتمعون في نزلٍ حيث كانت تجري التحالفات الخاصّة، أو في مزايدات رسمية تُشارك فيها أيضاً جمعيات متخصّصة في تجارة الأزهار يُنْفِقون ثروات (أو بالأحرى يعدون بها) من خلال توقيع عقد بعد آخر، مقتنعين بأنّ هناك دائماً من هو مستعدّ لأن يدفعَ مبالغ أعلى. بحسب مؤرخي المرحلة الذي يتكلّم عنهم الكتاب الخيالي قليلاً: *هذيانات شعبية غير معهودة وجنون الجماهير* لتشارلز ماكاي (١٨٤١)، كان من الممكن لصلة واحدةٍ أن تُباع مئة مرّة في يوم واحد. صار الخطر مجنوناً نظراً لهشاشتها وطقس الشمال في أوروبا، لا شيء كان يضمن أن تُعطي البصلة ثمرتها مُقدّماً. لكنّ المراهنات صارت ولها في البلاد المنخفضة، لا أحد ـ ولا حتى رامبرانت المقامر العريق ـ نجا من تأثيرها.

كانت تجارة التوليب تتمتّع بصحة حديدية حين غابت يومَ السادس من شباط عن المزايدات المبرمجة مجموعةٌ مؤثرة من تجار الأزهار. مجرّد حدوث هذا تسبّب بذعرٍ انتشر في المدينة والمقاطعة. ما الذي جعل هذه الفقاعة البدائية، التي هي أمّ كل الفقاعات، تنفجر؟ من الصعب معرفة ذلك عن بعد. يؤكّد بعد الضليعين أنّه يبدو أنَّ بعضَ التجار شكّوا بأنّ الأسعار لا يمكن أن تحافظ على نفسها وبدؤوا يطالبون بمدفوعاتهم. ويرى آخرون، أنّه قد يكون حدث زيادة مفاجئة في التوزيع، وإن كان هذا لا يفسّر لماذا حدث الانهيار في شباط، حين كانت الأبصال راقدة تحت الأرض. مهما يكن الأمر سرعان ما رفضت مجموعة من الدائنين أن تدفع المبالغَ الموعودة وانتهت عشرات المواجهات إلى المحاكم. بدءاً من ذلك حدثت الفوضى. باعة ومشترون توجهت كلّ مجموعة منهم إلى السلطات. الأولى كي تُطالب بإلغاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العقود، الأخرى كي يدفعوا لها مهما كلّف الأمر. وانتصرت كما كان متوقّعاً المجموعة الأخيرة؟ هل تبدو لكم هذه الحكاية معروفة؟ هل ينتابكم شعور مُزعج بأنّكم سبق ورأيتموها عندما تسمعونها؟ هل تُذَكّركم بحدث حدث بعدها بقليل ـ لنقل بعد أربعة قرون تقريباً ـ على الجانب الأخر من الأطلسيّ؟ وماذا لو استبدلنا التوليب بأشياء، بأشياء مُدهشة، بحدائقها وشرفاتها، بغرفة أو غرفتين، هل ستُعطيكم فكرة؟ الحلم الأمريكي (الأيرلندي والإسباني) المُعزّز في عهد بيل كلينتون: الجميع، بمن فيهم البؤساء والمبذرون، المهاجرون غير الشرعيين، والمحرومون، لنا الحق بأن يكون لنا بيتُ أحلامنا الصغير...

وكما التوليب بالنسبة للهولنديين، تحوّلت العقارات في بداية القرن الحادي والعشرين إلى ميزان لجشعنا. ما بين ١٩٩٧ و٢٠٠٥ ارتفعت أسعارها ثمانين بالمائة، لكنّ لا يبدو أنّ المعلومة استفزّت علماءنا الذين هم دائماً أنفسهم اقتصاديونا وسياسيونا المشهورون: لا خطر من فقاعة، كانوا يُكرِّرون، حتى أنّ رئيس الاحتياطي الفيدرالي الحالي بن بِرنانك المُحتَضَر، القائم وقتها على مكتب الرئيس للعلاقات الاقتصادية، أكّد أنّ زيادة خمس وعشرين بالمائة في الأسعار في السنوات الأخيرة يعكس... وضعَ الاقتصاد الرائع.

وهكذا بينما كان تشاماناتنا[١] الماليون يُشجّعوننا على متابعة الرقص، كنّا نحن نجري باحثين عن قلاع زائفة وقصورٍ خادعة يسمح لنا بها التجار. مع عائق صغير: نظراً للأسعار العالية جدّاً فإنّ البيوت والأراضي لا يمكن أن يتمّ الحصول عليها نقداً (باستثناء الأثرياء

(١) Chamán هو في الأصل شخص تُعزا له القدرة على تغيير الواقع أو الإيحاء بذلك وشفاء المرضى وغير ذلك مما كان ينتشر في المجتمعات التي كانت تعيش على الصيد والتقاط الحبوب والثمار بشكل أساسي.

الدائمين)، بحيث أنّنا وبدل الأراضي والخشب والطوب نشتري، نعم، قروضاً. يستغلّ مسؤولو البنوك الدبقون الانخفاض الكبير في سعر الفوائد ـ لطف من المعلّم العظيم كرينسبان ـ كي يُوقِعوا بأوّل مُغفّل يمرّ. هذا لا يعني أنّ أصحاب المكاتب العقارية كانوا في السابق يتميزون بنزاهتهم الصارمة، لكن سرعان ما صار لا يهمّ أحداً أن يبحث في ماضي زبائنه الاعتمادي؛ كان يكفي أن يطبع هؤلاء توقيعهم على نماذج عقودهم كي يحصلوا على بيوتهم الصغيرة، أو بالأحرى على قروضهم العقارية، بسرعة البريد. ما الفارق بين أن تدفع خمسين ألف دولار (المضبوطة على التضخم في أيّامنا) ثمن توليب يشبي اللون أو أربعمئة ألف دولار ثمن غرفتين مع حمام مُنمنَم؟ سيتساءل أكثر القرّاء فطنة لماذا البنوك (والضامنون) مستعدون لتوزيع القروض العقارية يمنة ويسرة، غير مبالين بمظهر زبائنهم الكالح أو القذر؟ بسيط جدّاً: لأنّنا، سحرة الهندسة المالية، نقنعهم بأنّ الخطرَ من عجز عام غير وجود.

هل تتذكّرون، قرّائي الأعزاء، عقودَ البيسترو التي ساعدتُ على تطويرها كموظف في جي. بي. مورغان. كانت هذه قد تطوّرت في عام ٢٠٠١ بكل أنواع التزامات الديون المتكافلة (اعذروني على اللغة الاصطلاحية) أو مقايضات الائتمانات الافتراضية. خلال تلك السنوات المحمومة فاوضنا أنا وفيكرام على الآلاف من هذه الأدوات المالية وبخاصة على ما يسمى منها «التزامات الديون المتكافلة التربيعية» أو التزامات الديون التمكافلة التربيعية لالتزامات الديون المتكافلة التربيعية. خلال فترة قصيرة طبّق السوقُ الجديد معايير صارمة، لكن ما بين ٢٠٠١ و٢٠٠٥ ارتفع بيع القروض العقارية عالية المخاطر (الأقل أماناً) ألفاً بالمائة حتى لامس الثمانمائة مليار دولار. وبالطريقة ذاتها التي لم يتبصر فيها تجار الأزهار في أبصالهم المزهرة لأنّهم ما إن كانوا يحصلون عليها حتى يُسارعوا لبيعها، كانت البنوك أيضاً تعمل على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التخلّص من قروضها العقارية بأسرع ما يمكن، حازمة إيّاها في تلك الأدوات التي توزّعها على كلّ النظام المالي.

سبق وقلتُ: التعليم الوحيد في مجالنا يقوم على قبول ألا يُجرّب أحدٌ برأس غريب. هل من أحد تكهّن بما كان سيحدث فيما لو أنّ القروض العقارية عاليةَ المخاطر توقّفت عن الدفع، كما حدث عندما لم يحضر تجّار الأزهار مزايدةَ السادس من شباط ١٦٣٧؟. لا. ما من أحد استشرفه. أعني بلا أحد من يملك القوّة على التدخّل في السوق. العلماء في هذه الأثناء كانوا يصرون على طقوسهم: لم تُعانِ الولايات المتحدة في السنوات السبعين الأخيرة أزمة عقارية، فلماذا عليها أن تُعانيها الآن؟ (الجواب كان بسيطاً: لأنّه لا شيء يُثبت أنّ شيئاً لم يحدث في الماضي لن يحدث غداً.)

بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٧ ركّز جي في منجمنت على التفاوض حتى على الأدوات الأكثر تعقيداً CDA's من ABS. لن أحاول أن أشرح كيف تعمل لأنّني أنا نفسي لا أعرف (توضيح طبيعتها مسؤولية فيكرام الحصرية) سوف أكتفي بقول إن بناءها المركب كان يسمح برافعات مالية غير مسبوقة. وبفضل ذلك يستطيع رجال المصارف أن يجمعوا بين السندات ذات المخاطر العالية والسندات ذات المخاطر الأعلى. أنتم ستُفكّرون، قرّائيَ الجحودين، أنّني لا بدّ أقل من أحمق بقليل وأنني بعد أن قضيت نصف حياتي أتاجر بهذه التجديدات المالية لا أستطيع أن أعرف كيف تعمل. فقط أستطيع أن أقول دفاعاً عن نفسي أنّ آلاف المستثمرين، ولاعبي البروكر ورجال المصارف والناظمين لم يكونوا يعرفونها أكثر منّي.

مثلما كان تجّار الأزهار يُفاوِضون الريحَ كنّا نحن نفاوضها أيضاً.

المشهد الثاني
حول كيف تُدَفئُ نفسك في شتاءِ موسكو
وكيف تُصبِحُ مليونيراً بالقسائم

ترتيل

ـ هنا يوجد كلّ شيء ـ وضع التتاري الطردَ على الطاولة الصغيرة.

لم أقاوم إغواء تصفّح الوثائق، فقط ميّزتُ جملاً متقطّعة، بأحرف كبيرة، مقابل ترجماتها المكتوبة بأحرف سيريلية مضغوطة. شعرت بعيني أركادي البلوريتين قلقتين على يديّ. أخرجتُ المغلّف من سترتي وسلّمتُه آخر دفعة، استثمار صغير لي وثروة متواضعة بالنسبة إليه. لم يتنازل لعدّها في ذلك البار البائس، الذي على الرغم من أنّه كان شبهَ فارغ في ساعات الصباح تلك، إلا أنّه لم يبدُ المكان الأكثر أماناً لأيّ تبادل تجاري.

ـ سباسيبا ـ قلتُ له بارتباك.

ـ انتصب أركادي بغتة، هازّاً الكرسيّ. لفّ رقبته، التي لثورٍ، بلفاع وغامر بابتسامة يصعب تفسيرها وبالتوغّل في الصقيع. كان واحداً من الرجال القساة الذين يتميزون بخطواتهم البطيئة والمتردّدة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ظاهرياً. هل سأعود وألتقي به أم أنّ ذلك كان النهاية المعبرة عن علاقتنا؟ من المحال تصديق أنّ ذلك الرجل الضخمَ والفظَّ وسيّئ الكلام سيتحوّل إلى صديق لي، لكن منذ المرّة الأولى التي سكرنا فيها ـ أُصحّح: منذ أن سكرتُ أنا بينما هو يجترع الفودكا كالماء ـ اكتشفنا أن منظوري الحياة عندنا كانا في غاية الاختلاف.

انتسب أركادي إيفانوفيتش (لم أعلم قط ما إذا كان هذا هو اسمه الحقيقيّ) إلى الكي جي بي حتى عام ١٩٩٠، حين استقال بسبب إجراءات غورباتشوف الإصلاحية. عندها تحوّل إلى صحفيّ مُستقلّ، المصطلح الذي كان معناه في روسيا يلتسين أكثر من غامض، وكان يُشكّل جزءاً من جمعية ضباط المخابرات المتقاعدين (أريو) مجموعة لها نفوذ، كانت مجساتها تنتشر في كلّ فروع الحكومة. ما الذي كان يمكن أن يجمعني، أنا المالك المُراوغُ لصندوقِ تحوُّط في وول استريت، بجاسوس سوفييتي قديم؟ طموح وريبة متبادلان، الإحساس ذاته بأنّنا محاطان بالمنافقين والبلْهاء، عدم الرضا المتعادل عند كلينا، كلّ عن محيطه وقتذاك.

كنتُ قد أُعلِمتُ باسمه ـ بمهاراتِهِ الخاصّة ـ في نهاية ١٩٩٢، في لينينغراد، التي كان أصل أركادي منها، مثله مثل أشهرِ عملاء الكي جي بي، مثل رفيق سلاحِهِ القديم فلاديمير بوتين. كان الاتحاد السوفييتي قد انهار للتوّ وراح كلّ الناس وسط الفوضى والآمال التي أفلتها من عقالها انعطافُ يلتسين الرأسمالي وشبابه الأتراك، يبحث عن إعادة اختراعهم لأنفسهم في ذلك المحيط الوحشي والجامح. الرابط بيننا كان رجل أعمالٍ معروف من قبل فاليري جرجييف، الذي كنتُ قد بدأت معه صداقةً مُثمرة سوف ينتج عنها عددٌ من المشاريع المشتركة مع مسرح مارينسكي، الذي كان معروفاً حتى ذلك الوقت بـكيروف. كان التقصيّ

عن نُوَا وحلقة جواسيس وزارة الخزانة متوقّفاً نظراً لرفض مكتبِ التحقيقات الفيدرالي ووكالاتِ أمنٍ أخرى في الولايات المتحدة أن تفتح لنا أرشيفاتها على الرغم من الجهود التي بذلتُها لي للعمل بقانونِ حرية الإعلام. من كان باستطاعته أن يستبق أنّ الروس بالمقابل سوف يشرعون بممارسة حقيقيّةٍ للشفافية وسيُبدون استعداداً لفتحِ أرشيفاتهم ليقلّب فيها المؤرخون والصحفيون (هذا صحيح، للروس دون استثناء)

ـ عمّ تبحث؟ ـ لم يكن أركادي يتحمّلُ اللفَّ والدوران.

وضّحتُ له بأكثر الطرق الممكنة إيجازاً: معرفة ما إذا كان يظهر في أرشيفات المخابرات السوفييتية أسماء نُوَا فولبي، وهاري دكستر وايت، ناثان جورج سيلفرمان، هارولد غلاسِر، فرانك كوي. سونيا غولد، ويليام لودويك أولمان، سولومون ألدِر وويليام تايلور. وبالمناسبة (لن أفوّت الفرصة) اسم ألجير هيس.

ـ أسماء أكثر من اللازم ـ تكتّفَ أركادي.

ـ حدّد السعر.

نهض الجاسوسُ السابق البدين من وراء طاولته وأمرني أن أتحلّى بالصبر. بقيت أشهراً لم أتلقّ فيها أخباراً منه، على الرغم من أنّني كتبتُ في مناسبات عديدة لرجل الأعمال المعروف جرجييف لأسأله عما إذا كان يعرف شيئاً عن طلبي. لم يحدث ذلك إلا في صيف ١٩٩٤ عندما عاد أركادي ليواعدني في البار النتن بالقرب من لوبيانكا. تحدّثنا عن ألف شيءٍ وعن لا شيء، عن إمكانيات التجارة بين الولايات المتحدة وروسيا، عن الخصخصة، عن بشاعات يلتسين الكحولية، عن الأكاديميين الأغرار الذين كانوا يقودون الاقتصاد، عن الأوليجاركيين ونزواتهم، عن دوستويفسكي وإسحاق بابل بل وغنينا أيضاً ثنائياً بعض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقطوعات بوريس جودونوف والعيون السود. فقط في الصباح، عندما أودعني في غرفتي في الفندق وقد صرتُ خرقةً كتب على منديلٍ رقماً وضعه بعدها في جيبي: لحظة الدفعة الأولى التي كان عليّ أن أُسَلِّمها له نقداً وليلاً في المكان ذاته.

في تشرين الثاني ١٩٩٤ عدتُ إلى موسكو. المكان ذاته، زجاجة الفودكا ذاتها، الحيوانية الأولية ذاتها.

ـ لا أعرف ما إذا كان ما سأقوله لك أخباراً سارّة أو سيّئة ـ لعق شفتيه ـ ما من مكان يظهر فيه اسم هيس.

ـ بعد كلِّ حساب ربّما قال هيس الحقيقة ـ غامرتُ.

ـ أو أنّ أحداً سحب ملفّه.

ـ والبقية؟

ـ لنشرب النخبَ ـ أمرني.

جرعت الفودكا دفعة واحدة.

ـ الآن فقط أستطيع أن أقول لك إنّ البقية جميعهم، بما فيهم أبوك، موجودون في الأرشيفات.

ـ هذا يؤكّد...

سجّل أركادي رقماً جديداً على المنديل، طلب زجاجةَ فودكا أخرى وبدأ يحكي لي عن مشاكله العاطفية، النقاشات المتوقعة بين زوجته وعشيقته، مقتنعاً بأنّه ليس عندي شيء آخر أفضل من ذلك أفعله.

عندما استجوبني عن حياتي الخاصّة اخترعتُ له قصّةً مع ثلاث نساء، فاحتفى بها بضربة هائلة من يده ودورةِ مشروبٍ أخرى.

في كانون الثاني ١٩٩٥ سافرنا أنا ولي إلى سان بطرسبرغ لنحضر

عملين في مارينسكي (ساعدت في تمويلهما) عن النسخة الأصلية لـ *قوّة القدر*. عندما انتهى الموسم انتقلنا إلى موسكو. كانت قرون الجليد تتدلّى من شجر التنوب والسماء تزدهي كبلاطة معدنية متسخة. بينما زوجتي تنتظرني في الفندق، انتقلت إلى كهفنا المعتاد بالقرب من لوبيانكا، حيث كان أركادي ينتظرني بزجاجة من الفودكا وقدحين.

ـ هو ذا كلُّ شيء هنا ـ وضع الطردَ على الطاولة.

بعد انتهاء التفاوض ـ واستنفاد الكحول ـ سرتُ مترنّحاً إلى سيارة أجرة قادتني عائدةً بي إلى فندقنا، حيث كانت لي تنتظرني بلهفة. فتحت المغلّف ونشرت الأوراق على السرير. كان التتاري قد قام بعمل متقن: لم يترجم كلّ بطاقة من بطاقات الكي جي بي وحسب بل ووضعها في تسلسل زمني، رابطاً بين سلسلة من الحكايات التي يكاد يبدو أنّها تُشكّل رواية.

ودون أن أكبح لهفتي أريتُ لي الصفحةَ التي تظهر فيها الكتابة التالية: فولبّي، نُوَا ـ الملقب بليسيتا.

قصّة بونزي

يتصوّر كارلو فكرته العظيمة في هبّة أخرى من هبّاتِ الحظّ السيّئ التي راحت تسوطُهُ منذ أن نزل في أمريكا في ١٩٠٥. لم يكن قد مرَّ أسبوع على إغلاقهِ لشركة الدعاية، متأكّداً من تنبؤات حميهِ السيّئة حين تلقى رسالة من شركة إسبانية تطلب منه كتالوجه. لم يكن قد رأى قط ورقة كتلك التي كانت تُرافق الرسالة. «انظر فقط!» يقول لنفسه ولا يتأخر في التحقّق من أنّه وبناء على تعليماتِ اتحادِ البريد العالمي، فإنّ هذه القسائم تسمح لمواطني البلدان الأعضاء بأن يستلموا القسائم فور

https://telegram.me/maktabatbaghdad

استلام البريد. إلا أنّ موقعي اتفاقية اتحاد البريدي العالمي لم يأخذوا بالحسبان تخفيض العملات الذي نتج عن حرب ١٩١٤ والذي أحدث اختلافاً هائلاً في أسعار الطوابع الأمريكية وطوابعِ الأمم الأوروبية؛ كما لم يأخذوا بالحسبان أنّ أحداً بخبثِ كارلو يمكنَ أن يستغلّ الأزمة كي يجمع الملايين.

آخذين بالاعتبار فروق سعرِ الصرف، فإنّ كلَّ قسيمة بقيمةِ دولار مُحرزة في إسبانيا ومستعملة في بوسطن تسمح له بالحصول على عشرة سنتات إضافية. إذا استخدم الليرة الإيطالية أو الكورون النمساوي فإنّ الفائدة سترتفع ألفاً بالمائة. إنّها دجاجة البيضِ الذهبي! ولكي يصل إلى غايته لن يحتاج إلا إلى... سيولة نقدية. عوائق صغيرة: كارلو مدين حتى العظم ودائنوه لا يتوقّفون عن إزعاجه. في هذه الظروف لا أحد ـ وحموه أقل من أيّ شخص آخر ـ سيُقرضه.

ـ أنت تعرف أنّ من المستحيل أن تستخرج دماً من الفجل ـ يقترح على جوزيف دانييلز، جاره ـ أقرِضني مئتي دولار أخرى وأعدك بأن أُسلّمك المبلغ كاملاً، إضافة إلى خمسين بالمئة إضافية، خلال تسعين يوماً.

ـ وكيف تُفكّر أن تحصل على هذا المبلغ؟

يشرح كارلو إلى هذا الحدّ أو ذاك مشروعه ويقرأ له، بهدف إضعاف مقاومته، مقاطعَ من دليل الهاتف الرسمي للولايات المتحدة، الذي يُبيِّن شرعيةَ الخدعةِ. ولمفاجأته يقبل دانييلز. إنّه زبونه الأوّل. تحتفل روز معه بذلك، على الرغم من أنّها تؤكّد بأنّها ستكون مغامرة أخرى من مغامرات زوجها التي ستبوء بالفشل. بدل أن يعتمدَ على المقرضين المعتادين (أولاد الحرام، أولئك الذين لن يثقوا أبداً بفطنته) يقنع كارلو

بضعة عشرَ صديقاً وشخصاً معروفاً بتسليمه مبالغَ صغيرة، لن يُنكر عليه أحدٌ عشرة أو عشرين بل ولا خمسين دولاراً إذا ما عوّضهم عنها في الموعد المتفق عليه. يؤسِّسُ بعد أن حصل على تراخيص البلدية شركةَ تبادلِ السندات ويضع مئات القسائم عند أصدقائه، الذين يوزّعونها كلّ على أصدقائه. بعد مضي الموعد المحدّد، يدفع كارلو لكلٍّ واحدٍ في وقته. يعود زبائنه الجدد المرتبكون ليستثمروا نقودهم، وبسرعة يجتمعُ حشدٌ أمام مكاتبه في سكول استريت. كانت قد تلاشت فكرته الأوّلية وقتذاك، من المحال معرفة ما إذا كان قد حاول أن يشتري القسائم من أوروبا كي يبيعها لاحقاً في الولايات المتحدة. كانت العملية متعبة إلى حدٍّ أنّه فضّلَ أن يدفع ديونه بالأوراق التي تملأ صندوقه الحديديّ. عملية اسرقْ بِدرو لتدفع إلى بِدرو، كما يلاحظ المثل القديم، مع مكوّن جديد مضاف: أن يُقنع كلَّ زبون بأن يأتيه بمغفّلٍ جديد.

بعد أسابيع قليلة من بدء المغامرة ـ نحن في آذار ١٩١٩ ـ، صار عند كارلو مئة وعشرة مستثمرين ورأسمال يقارب الخمسة والعشرين ألف دولار. مستبقاً على أيّ تعقيد قانوني كان يستخدم جزءاً من أرباحه لدعم جمعية دعم شرطة بوسطن، الأولى بين عدد من الأعمال الخيرية التي ستحوله إلى واحد من مشاهير المدينة. لا أحد يستطيع أن يوقف جبل الثلج وكارلو يفتح فروعاً في بروكتون وكلينتون وفول ريفر، فرامينغام ولين وبليموث وكوينسي وورسيستر والتي يضيف إليها لاحقاً فروعاً في نيو هامبشير وفيرمونت وكونيتيكت، وماين وورود أيسلاند ونيوجيرسي. تدور حياته الخاصة دورة موازية، فلكي يُفْرِحَ روز يشتري بيتاً كبيراً فيه هواء مُكيّف، وبيانو ذو ذيل كبير ومسبح حراري، بينما يدفع لأمّهِ ثمن بطاقة سفر من الدرجة الأولى من إيطاليا وإذا ما بدا هذا قليلاً فإنّه يملأ بالدولارات الحساباتِ التي يفتحها في كلّ بنوك إنكلترا الجديدة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما تنشر صحيفةُ بوسطن بوست في العشرين من آب ١٩٢٠ مقالاً تمدح فيه شركة تبادل السندات، كان كارلو قد بلغَ القمّة. يُفكّر للحظة أن يُعيد المالَ ويهرب مع روز ـ ومعه بضعة آلاف من الدولارات ـ، لكنّها كانت لحظة فقط، يقنعه الجمودُ الذي انضمّ إلى تدفق نقديّ لا ينضب بأن يُصلي كيلا يكتشفه أحد. يهرب كارلو إلى الأمام، يحصل على أسهم في ما لا نهاية له من الشركات (بما في ذلك عدد من البنوك) واثقاً من أنّ تجارته الشرعية سوف تُغطّي على خديعته. مسخ. ولا حتى إذا تحوّلَ إلى أنجح رجلِ أعمالٍ في التاريخ سيستطيع أن يدفع مئات الآلاف من الدولارات (الملايين إذا ما أخذ بالحسبان تضخّم ١٩١٢) التي أنفقها.

نهاية القصّة بالنتيجةِ مُتَوَقّعة تماماً ـ وعِبرتها مُقرفة جدّاً ـ أكاد أحجمُ عن روايتها هنا. تشارلز بونزي، المولود في الثالث من آذار ١٨٨٢باسم كارلو بييترو جيوفاني جوجلييلمو تابلادو بونزي، يُقدَّم على أنّه واحد من أكثر الأنذال عجرفة في التاريخ. ما إن يبرهن المُحلّل المالي الشهير كلارنس بارّون بناء على طلب البوسطن بوست، على أنّه لا يوجدُ تفسير لأرباحه، حتى يحاصر حشدٌ مكاتبَهُ ويجد كارلو نفسه مُجبراً على أن يدفع لهم. الطلب الذي يُقدِّمُهُ العجوزُ دانييلز بدفع مليون دولار، خيانةُ رجلِ دعايته، الذي يقبل أن يكتب مقالاً في البوسطن كي يندّد فيه بمناوراته، الكشف عن سجنه في أتلانتا ومونتريال وتدخّلُ مفوّض ماساتشوستس المصرفي، تجتمع كي تُدمّره. في أواسط آب لم يكن قد بقي من شركة تبادل السندات غير الرماد.

ـ لا أُفكّر بالهرب ـ يتبجّح أمام روز ـ **سأبقى كي أواجه الموسيقى.** سأُبرهن على أنّني على مستوى الظروف.

بعد ساعات يمثل شخصياً ـ بمحض إرادته ـ في مكتب ضابط مكتب التحقيق الفيدرالي باتريك ج. دوان، الجاهز لمحاكمته بأربع وثمانين تهمة نصب. سقوط كارلو بحسب أقلّ الحسابات مخاطرة يُسبّب إفلاس خمسة بنوك وخسارةً بحدود العشرين مليون دولار في تلك المرحلة، التي تعادل قرابة المائتين وخمسة وعشرين مليون دولار اليوم (**صفقة ممتازة** مقارنة بالخمسة والستين مليار دولار التي اختلسها برني مادوف أو الخمسة عشر مليار دولار التي تُحمّلني إياها السلطات) بعد أن أعلن عن مسؤوليته، يحكم القاضي عليه بالسجنِ خمس سنوات في سجن فيدرالي، وحين يُتمّها تَحْكمُ عليه الآن محكمةٌ حكومية بتسع سنوات أخرى. عندها فقط يُظهرُ حدّاً أدنى من الشجاعة ويهرب إلى فلوريدا، حيث يُحاول أن يشيد هرماً آخر. عندما يجد نفسه مُجبراً على الهرب يحلقُ شعرَ رأسه ويترك شارباً كثيفاً قبل أن يتسلّق سفينة في طريقها إلى إيطاليا. في نيو أورليانز يُلقى عليه القبضُ ويُعادُ إلى بوسطن، حيث يقضي سبع سنوات أخرى في السجن. بالإجمال تبلغ السنوات التي أدين بها أكثر من عشر سنواتٍ بقليل. (عشر سنوات مقابل المائة وخمسين سنة التي يحكم بها على برني والثمانين أو التسعين سنة التي تنتظرني!)

حين يُطلق سراحه في ١٩٣٤ يُعاد إلى إيطاليا ـ في هذه الأثناء تهجره روز ـ، ينزل في البرازيل، يُحاول القيام بمغامرات جديدة، يفشل في كلٍّ منها ويُضطر لأن يقبل بمنصب محاسبٍ في شركة خطوط جوّية. ينهي أيامه غارقاً في الفقر، نصفَ أعمى ومن دون سنت واحد في مستشفى ساو فرانسيسكو دِ أزيز في ريّو جانيرو، حيث يموت يوم الثامن عشر من كانون الثاني ١٩٤٩.

أفي بونزي، ملهم ليس لثلة ضخمةٍ من النصابين، لفوج من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكذابين والأوغاد، والمحتالين والغشاشين، بل أيضاً لعصرٍ بكامله. هذه المرحلة الانتقالية الهائلة بين الألفية الثانية والثالثة، تلك السنوات المجيدة التي يتبع فيها كثيرون منّا مَثَلَكَ دون ندم ولا تثريب! ارقدْ بسلام، يا كارلو بونزي، يا ساحر الأموال، يا مُبّرر الثراء السهل وقديس مليارديرات الأرض! كم نحن مدينون لك! أنا واثق من أنّ تمثالك يستحقّ أن يحلّ محل ثور وول ستريت المضحك!

تشارلز بونزي في البرازيل

بلى، أيّها السيدات والسادة: تحوّلنا أنا وفيكرام ما بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٧ إلى مُقلّدين لكارلو العظيم. في البداية دون أن ننتبه، ثمّ واعيين تماماً لأعمالنا، صار لنا أيضاً فكرتنا العظيمة. مع فارق أنّنا وبدل أن نكتشف دجاجة بيضنا في بعض قسائم البريد المجعدة، اعتقدنا أنّنا وجدناها los CDS de ABS في مقايضة الائتمان الافتراضي المدعومة بأصول تركيبية ومشتقات مالية عقارية أخرى عالية المخاطر، الأدوات المثالية لإقناع مئات البلهاء بأن يأتمنونا على أموالهم. كان لاقتراحاتنا ـ ومبادئها الرياضية الالتفافية جدّاً ـ وقع هو من الاشتهاء بحيث أنّ المالَ بدأ يتدفّق أنهاراً على جي. في كابيتال منجمنت، خاصّة حين تابعنا دفعَ أرباحٍ أعلى بكثير من أرباح أيّ صندوق آخر. مع العائق ذاته الذي عانى منه بونزي: كانت الدخول لا تتوافق مع تلك الكذبة الكبرى التي نُسميها الواقع. بحيث أنّنا اكتشفنا، مثل مُعَلِّمنا، أنّ الطريقة الوحيدة للخروج بتجارتنا والمضيّ بها إلى الأمام هي في استخدام المبدأ الحكيم القائل بأن نسرق بِدرو كي ندفع لبِدرو (بطريقة أعقد قليلاً).

أعتقد أنّ بونزي خَبِرَ الإثارةَ والضيقَ ذاتهما اللذين خبرناهما عندما تأكّدنا أنّ تجربته كان من الممكن أن تستمرّ لو أنّه نجحَ في ضخّ الأموال في دفقٍ متواصل ومضمون. أيّ دوّامة، أي إحساسٍ هذا المعاش في إلقاء المرء لنفسه في مزلقة لا نهاية لها! لا بدّ أنّه حدث في شباط أو آذار ٢٠٠٥ حين تبيّن لنا أنّه لا عودة إلى الخلف، تماماً كما اشترى كارلو بنوكاً وشركاتٍ أخرى شرعية كي يُغطّي على أوهامه، وسّعنا أنا وفيكرام استثماراتنا نحو قطاعات اقتصادية لا نهاية لها: من المحال التراجع! خطوة خاطئة واحدة ستوقظ كلّ أنواع الشكوك، وليس هناك ما هو أخطر بالنسبة لصندوقٍ استثمار من الدسيسة أو الشائعات! هكذا وبينما كان إسحاق والمحللون الماليون في الطابق التاسع يحسبون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أرباحنا الخارقة، أوجدنا، أنا وفيكرام في الطابق الثامن، شركةً وهميّة، لها محاسبتها الخاصة الموازية، ولا أحد غيرنا نحن الاثنين يستطيع أن يسبر أعماقها. لم تكن شيئاً خططنا له مسبقاً، يا أعضاء هيئة المحلفين الموقّرين، ولا خدعة صُمّمت غدراً، بل الردّ الوحيد الممكن على الهوّة التي كانت تنفتح تحت أقدامنا.

الفقاعة دامت أكثر من المُتَوَقَّع بفضل أنّ كلّ المُمَثِّلين الماليين على سطح الكرة ساهموا بطرق أكثر حذقاً، لكنّها ليست أقلّ فساداً، في نفخها. كان العالم كلّه قد تحوّل إلى نظام بونزي عملاق. كان المال يتدفّق ملء الأيدي والبنوك تسمن والشركاتُ تزدهر وصناديق التحوّط تراكم الملايين، والإنتاج المحلّي الإجمالي ينمو إلى جانب رواتبِ وتعويضاتِ الموظفين والمدراء، من كان سيجرؤ على إيقاف تلك الدوّامة؟ من؟ يا أفي بونزي، يا شهيدنا، وقدّيسنا، وإلهنا! من هنا أُعبّر لك عن إجلالنا.

مع تحفّظ واحد: بخلافك، أنا لا أُفكّر أن أُسلِّم نفسي.

أريا نُوَا

لا، لم تتصوّره، تقولُ لنفسك، لكنّك تتظاهر بأنّك لم تنتبه إلى عناقات وحركات الودّ، وتتوغّل في القاعة بخطوات ثابتة. بينما تُسوّي ـ غنج غير مجدٍ ـ هيلين سيلفرماستر (دورا في الأرشيفات السوفييتية) كشكشَ بلوزتها وخصلة شعرها التي انزلقت فوق أذنها، تدعوك كي تنتقل إلى الصالون وتُقَدّمُ لك فنجانَ شايٍ مُثلج سارعت بالمجيء به من المطبخ. «ستُفَضّلُ شيئاً أقوى؟» اقترح لود أولمان•(بولو في الأرشيفات السوفييتية) تغامر بالذهاب باتجاه صينية الكحول: تنتبه إلى ربطة عنقهِ المشدودة وأثرَ أحمر شفاهٍ على قميصه.

«شكراً»، تُتمتمُ بجفاف. زميلك يصبّ كأسين صغيرين ويقودك من ذراعك نحو الكراسي المزهرة في الغرفة. تجلسان وتتذوّقان الكونياك بصمت يكسره هُوَ بضحكةٍ مجاملةٍ خفيفة تُخجلك أكثر مما تزعجك. تشعر باشتعالٍ في أُذنيك: أيّ نوع من العملاء هذا الذي يخجل من خيانة غريبة، توبّخ نفسك.

«لن يتأخّر نات» يوضّح لود، مسوّياً ربطة عنقه ومنظفاً شفتيه بمنديل. أنت لا تُقرِّر بعد ما إذا كان مُستهتِراً أم جباناً.

سيلفرماستر (بال، في الأرشيفات السوفييتية) أعطاك موعداً في منتصف النهار كي تُسلّمه مواد هذا الأسبوع، لذلك استخدمتَ البابَ الخلفيّ وجهدتَ في ألا تُحدث ضجّة. لم تتصوّر قط أن تُصادف زوجته بين ذراعَيّ أولمان. دائماً بدا لك غريباً أنّ الثلاثة يشتركون في بيت واحد، لكنّهم دائماً قدّموا أنفسهم كأخوة ولم تولِ قط الثرثرات أذناً صاغية. تتساءل ما الدور الذي يلعبه نات في المثلث، ما إذا كان دور المُستميل المجمِّل للمغامرة، دور الزوج المذعن أو ببساطة دور الديوث.

«ما رأيته توّاً...» يعتذر لود، لكنّك لا تسمح له بأن يُكمل الجملةَ. «أنا لم أرَ شيئاً وعلى كلّ الأحوال لا يهمّني»، تجيبه بجفاف. وبإيماءة غضب يُحاول أولمان أن يأخذ بزمام توضيحه ودفاعه، لكنّ سيلفرماستر يقتحمُ الصالون طارقاً الباب.

تُلاحظ أصابعه المنكمشة، نظرته العكرة ـ ليست المرّة الأولى التي تُعَكِّر فيها عينا القرد مزاجك ـ، خطوطَ العرق التي تسيل على جبينه وتبلّل إبطيه. يَرْمي القبعةَ والسترة فوق المشجب دون أن يُسلّم، يفكُّ أزرارَ قميصه، يصبُّ لنفسه قدحاً ويرتمي فوق الأريكة. تتصوّر أنّكَ على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وشك أن تشهدَ معركة منزلية وتستعدّ للمغادرة، لكنّ مُضيفكَ يشرب كأسه بصمتِ المستسلم. «اترك الأوراق هناك» يشير عليك ومن جديد لم يتعكّر صفوه، كما لو أنّ الأمر لا يتعلّق بشيء مهمّ. تعود هيلين من المطبخ محافظة على توازن صينية ـ ملابسها وتسريحتها على حالهما من جديد لم يُمسا ـ، لكنّها تضعها، حين تكتشف زوجها، جانباً وتُسارع لتدغدغ وجهه بنعومة. «هل أنتَ بخير، يا عزيزي؟» يُحاول سيلفرماستر أن يتحكّم بنفسه، لكنّ عريكته لم تتكيّف قط مع الحكمة.

«مير يريد أن يُنحّيني جانباً»، صاح فجأة (بحسب الأرشيفات السوفييتية، مير هو عميل المفوضيّة الشعبية للشؤون الداخلية إسجاك أخكيروف) وينطلق في خطبة لاذعة ضدّ الروسيّ: «بعد كلِّ الذي حقّقتُه!».

يُحاول أولمان أن يجعله يسكت، لكنّ سيلفرماستر يفقد أعصابه وكما لو كان بطلَ كوميديا هوليودية سيّئة رمى صديقه بالكونياك المُتبقي في قاع كأسه. «أنت لن تأتي إلى بيتي لتقول لي ما عليَّ أن أفعله! أقسم أنّني سأكسر عظامك! انقلع من هنا إذا كنت لا تريدني أن أخرجك بالضرب!».

بتحكّم مذهلٍ بنفسه يُنظّفُ لود وجهه بمنديل. «من الأفضل لك أن تذهب، يا نُوَا»، يقول لك. «أنا ونات نعرف بعضنا طوال حياتنا، وسنعرف كيف نحل المسألة». تسمعُ، بينما أنت تشقُّ طريقَكَ نحو الرواق الخارجيّ، انتحابَ هيلين.

منذ أشهر ونات مُنفَلت: جميع أعضاء الحلقة يشكون من تقلّبات مزاجه، من فظاظته، من تهوّره وإهماله، لكن بعيداً عن فوضى علاقته الزوجية، يشكّل سلوكه أكبر خطأ يمكن لعميل سرّيٍ أن يرتكبه. حتى

ولو كنتَ أنتَ على معرفة بأنّ هيلين ولود ينتميان إلى الجهاز، وأنّهما يعترفان بولائكَ، فإنّ هناك قاعدة جوهرية تمنع اختلاط الخلايا المختلفة. الكشف عن صراعاته لمراقبهما السوفييتي يبدو لك دليلاً على اليأس أو الجنون. إذا ما استمرّ سيلفرماستر هكذا سوف يحرج كلَّ الجهاز، المشكلة أنّه لا يقبل أدنى نقد وهو في كلِّ يوم أقلّ تسامحاً. ليست المرّة الأولى التي يخلط فيها بين الحياةِ الاجتماعية وعملِهِ السرّي، كما لو أنّ تسليمَ الوثائق السرية خلال حفلة شواء أو لعبِ بكرة طاولة ـ أو وسط فورة غيرة ـ أكثر ما في العالم من طبيعية.

منذ أن جُنِّدتَ في ١٩٣١ (حين كان اسمُك بحسب الأرشيفات السوفييتية بود) بدا لك عملُك في الجهاز أمراً تافهاً ـ قيامك بدور ساعي البريد هنا وهناك بلا أيّ نظام أو إستراتيجيّة مميزة، صامّاً أُذُنَيْك عن عمليات التطهير أو التناقضاتَ الإيديولوجية، مثل الحلف الألماني ـ السوفييتي ـ، إلى أن وصلك صديقك القديم جورج سيلفرمان (أليرون في الأرشيفات السوفييتية) في عام ١٩٤١ بحلقة واشنطن. كان هذا في البداية يكتبُ تقاريرَهُ إلى جاكوب غولوس (جون)، لكنّه وجد نفسه، بعد موته، مُجبراً على تسليم المعلومات التي كان يستخرجها من عملائه إلى عشيقة هذا، إلى المَلِصةِ إليزابيث بنتلي (ميرنا).

سيلفرماستر، الهائج والمنعزل أحياناً ـ أخمروف لا يتوقف عن إرسال التقارير عن سوء سلوكه في كلّ اتصال من اتصالاته بموسكو. ويملكُ مهارة عظيمة للدخول إلى مختلفِ الطبقات الاجتماعية ومهارته في الإغواء والتي لا جدل فيها سمحت له بأن يصبح أفضلَ مصدرٍ ملكه (وسيملكه) الروس في الحكومة الأمريكية. في البداية لم يكن بمقدورك أن تُدرك أبعادَ الشبكة الحقيقيّة، بل وكان من الممكن أنّك، مثلك مثل أعضاء آخرين، لم تعرف يقيناً أنّ الوثائقَ السرّية التي كنتَ تستخرجُها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من وزارة الخزانة لن تنتهي إلى الحزب الشيوعي، كما أكّد لك نات، بل إلى مفوّضيّة الشعب للشؤون الداخلية أو للمخابرات العسكرية السوفييتية. اليوم لا شكَّ عندك، لكنّك مثل هاري، تُفَضّل ألا تطرح أسئلة غير مُناسِبة. القضية، كنتَ تُبرر لنفسك، هي في دحر الفاشيّة، وأيّ وسيلة للوصول إلى ذلك صالحة.

كان سيلفرماستر نفسه يتبجّحُ أمامكَ، في بعضِ المناسبات، بعد عدد من الأكواب، بمسيرته المتعرّجة كعميل سرّي: هو المولود في أوديسا عام ١٨٩٩، بدأ نضالَهُ ما إن وصل إلى الولايات المتحدة في وهو السادسة عشر من عمره. انتقلَ، بعد مسيرة سرّية مكثّفة في الشاطئ الغربي، كان خلالها رفيقاً لِ إيرل برودِر، إلى واشنطن، حيث بدأ الإشرافَ على عمل بضعة عملاء. حتى وإن كنتَ لا تستطيع أن تتكلّم عن هذا، فأنت لا تشكّ بأنَّه بالإضافة إلى سيلفرمان، كان فراك كوي (بيك)، سونيا غولد (زينيا)، سولومون أدلِر (ساكس) ولاوكلين كوري (باج) وحتى هاري نفسه (المحامي)، الذي تصفه وكالات المخابرات السوفييتية بأنّه أحدُ أفضل المتواصلين معهم، ينتمون إلى الشبكة.

بُدِئ في عام ١٩٤٢ بتحقيق رسميّ ضدّ سيلفرماستر، نظراً لنشاطه الشيوعي في كاليفورنيا، ويأمرك أخمِروف بأن تقطع لقاءاتك به لبضعة أشهر. يجمع مكتب التحقيقات الفيدرالي معلوماتٍ عن الخائن المزعوم بين أعضاء وزارة الخزانة ذاتها، حيث كان أصدقاؤه أنفسهم، بمن فيهم أنتَ وهاري يُقلّلون من أهمّية أي شكّ به. «إنّه عامل عاّم لا يطاله شكّ، ووطنيّ من الطراز الأوّل» تُوَضّح أنتَ لرجل الأمن الفيدرالي الذي يستجوبك في تلك الأيّام. وبفضل تدخّل كوري، الذي كان يقوم وقتها بدور مساعد لروزفلت، فإنّ النتيجة الوحيدة للتحقيقات كانت نقل سيلفرماستر إلى إدارة تأمينات المزارع، حيت لا يتأخّر في معاودة أعماله التجسّسية.

فاسيلي زاروبين (مكسيم)، ورئيس المحطّة السوفييتية في نيويورك، يعترف في مكتبه بقيمة العمل الذي يقوم به سيلفرماستر ومجموعته (عملاء منتجون، نتلقى منهم معلومات قيّمة، يستطيعُ المرءُ أن يشعر بالرضا تجاههم)»)، لكنّه يُطالب بأن تنتقل تبعيته لمواطن سوفييتي. تصدر موسكو أوامرها لِأخمِروف بأن يخرج حلقة واشنطن من يد زعيمها غير المهضوم وأن يُنظّم شبكة أفضل تركيباً. بدءاً من ١٩٤٣ يَظهرُ الروسيّ في كلّ مرّة أكثرَ قلقاً أمام الخلل المهني والعاطفي لسيلفرماستر. يكتبُ أخمِروف إلى موسكو في إشارة إلى المثلث الذي يقيمه مع هيلين وأولمان: «لا شكّ أنّ هذه العلاقات غير السليمة لن يكون لها تأثير جيّد على سلوكه وهي النتيجة السلبية على عملنا».

في بداية ١٩٤٤، تُبلغ موسكو أخمِروف بأنّ عدداً من حلقةِ واشنطن تحتَ مجهرِ مكتب التحقيق الفيدرالي وأنّ هواتفهم قد اخترقت. في التبديل الجماعي للأسماء الرمزية اللاحقة على هذا الكشف، صار مير (أخمِروف) ألبِرت؛ بال (سيلفرماستر) روبرت؛ بولو (أولمان) بيلوتو)؛ المحامي (وايت) ريتشارد وفيما بعد ريد؛ وأنت، نُوَا فولبي، لن تعود بود وتتخذ اسم زورو (الثعلب، وليسيتسا بالروسية)، سئماً من زلاّتِ سيلفرماستر، راحت زياراتك لبيته تتباعد: لستَ مُستعدّاً لأن يُعرِّض خطرٌ جديد كلَّ مسيرتك للخطر. يتّخذُ رفاقُك قراراتٍ مُشابهة وفي نهاية ١٩٤٤ يبدو أنّ سيلفرماستر لا يلقى تعاوناً من أحدٍ غير تعاون من لا ينفصل عنه: أولمان، الذي سينتهي بأن يُنشئ معه وكالة عقارية في نيوجرسي.

ينشبُ في أواسط ١٩٤٥ خلاف جديدٌ بين رئيس المحطة السوفييتية الجديد فلاديمير بّرافدين وبين سيلفرماستر. كان موقفُ هذا قد صار في ذلك الوقت شبهَ هستيريّ، وتلاشت علاقاته ببقيّة أعضاء الحلقة تماماً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُضاف إلى عدم استقراره العائلي زيادةُ حِدّة نوبات الربو. يشكو سيلفرماستر، دون أن يعترف بأيّ مسؤولية عن تفكيك الجهاز، إلى برافدين أنَّكَ وفرانك كوي توقّفتما عن مدِّهِ بالوثائق، بينما جورج سيلفرمان اتخذ وظيفة في المبادرة الجديدة دون أن يستشيره. ويتهم هاري وايت بأنّه لا يُسلِّم أيّ نوع من الوثائق لأنّه يعتقد أّن دوره بعد انتهاء الحرب يقوم على تقديم المشورة للاتحاد السوفييتي في مجال السياسة الاقتصادية عن القنوات الرسمية.

يقوم برافدين في محاولة منه لإنقاذ ما تبقى من حلقةِ واشنطن بإجراء مقابلاتٍ مع أعضائها، بينهم أنتَ نفسك. «لا أفهم كيف استطاعوا أن يختاروا شخصاً مثله ليتولّى أمرَ المجموعة» تُطالِبُ الروسيَّ بصراحة. «تقلّبات أمزجته ولامبالاته وفظاظته تجعلُ منهُ خطراً على الجميع» وتُوَضِّحُ أنّ المجموعة لم تعد موجودة بسببه، وتقول له إنّه لا بدّ في الجوّ المعادي الذي أحدثه ترومان بعد وفاة روزفلت من تشكيل مجموعة جديدة لها إستراتيجية واضحة وقيادة أقوى. «بهذا الشكل فقط سأكونُ مستعداً للاستمرار بالعمل لصالحكم».

إسجاك أخمروف الخائب مثلك يُطالب بأن يُعاد إلى الاتحاد السوفييتي، الأمر الذي لم تتأخّر موافقةُ موسكو عليه. يلتقي بكَ لآخر مرّة، قبل أن يُغادر، في حانةٍ في إست فيلاج. حين يكتشفك مستنداً بكوعك إلى طاولة عرض الحانة يضعُ يدَهُ على كتفك ويقودك إلى طاولة صغيرة في العمق. على عكس ما يجري مع معظم زملائه، كانت لغته الإنكليزيّة تامّة. الروسيّ لا يُحَلّق في السحاب ويكشف لك عن الأخبار السيّئة: «ميرنا (إليزابيث بنتلي) خانتنا. استعانت بمكتب الحقيقات الفدرالي وكشفت عن هويّة جميع أفراد المجموعة».

يؤكّد أخمروف في تقريره إلى موسكو أنّك لا تُظْهِرُ قلقاً شديداً: «أنا لم أعمل قط لصالحها، وأشكّ بأنّها تعرفني»، تُبرِّرُ لنفسِك. (أنا أتصوّرُك ترتعد.) ومع ذلك تتفقان على الجواب الذي عليك أن تُقدّمه لمكتب التحقيق الفيدرالي عند الضرورة. «طبعاً، سينفي زورّو أيّ علاقة بنا» يختم أخمروف في آخر اتصال له في الأرشيفات السوفييتية التي يرد فيها اسمك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الثالث

حول كيف تتحوّل لأنّك ذكيٌّ ووسيمٌ إلى بطل وتتحوّلين لأنّك ذكية وجميلة إلى عاهرة

ثنائيّ روزنبرغ

يظنُّ الضابط الذي يقوده إلى الكرسيّ أنّ وجْهَهُ من شمع، لا يَلْمَحُ في بؤبؤيه أثارَ خوف ـ ولا إذعان أو غضب ـ كما لو أنّه مساء جهم مثل مساءاتٍ كثيرة أخرى،، كما لو أنّ وقته لا يتلاشى حتى العدم، كما لو أنّ أعضاءه لن تتفكّك وتتلوّى، كما لو أنّ جلدَه لن يصير رقّاً مسودّاً ومتهالكاً. يجهد الضابط في تفادي نظرتهِ، يضبطُ له الحزام ويدخل الأبازيم في فتحات الجلدِ حول ربلتي الساقين والساعدين. حين يُعطي الفنيُّ الإشارة يضعُ على رأسهِ قلنسوةَ الجلد ويتنحّى جانباً كي يمنحه آخرَ ثانية للتوبة. لا يبدو له جوليوس روزنبرغ وهو يراه عن قربٍ مقرفاً. أحد عيوب عملِه هو أنّه ما إن يُجرَّدَ المحكومون من الأمل، حتى يبدوا جميعاً أبرياء. ما الذي سيجري في داخله، يتساءل. هل سيُراجع حياته أو يُفكّر بأشياء أكثر طفولية، بيومٍ من شهر أيّار، بابتسامة أولاده، بالفطر المشع الذي سيلتهمنا بسببه؟ ربّما أنّ جوليوس متعبٌ أكثر من اللازم بعد كلّ تلك الشهور من الاستئناف والإجراءات والتأجيلات والتأخير ـ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا بدّ أنّ الزوجين موجودان في سينغ سينغ منذ سنتين، يحسب ـ، ويتوقان فقط لقليل من الصمت.

ضابط السجون لا يُصيب إلا جزئياً: لا شكّ أن الزوجين روزنبرغ سئما من العذاب الذي لا ينتهي، من مقابلة المحامين مرّة وأخرى، من تلقّي البراهين عن التضامن، كما عن الاستنكار، من التقوقع في زنزانتيهما في أقسام منفصلة من السجن، من الكتابة اليومية (رسائلهما نُشرت من قبل اللجنة التي تُدافع عنهما)، من البكاء، من الصراخ، من الانتحاب، سئمَيْن من المطالبة غير المجدية ببراءتهما. لكنّ جوليوس وإثيل في هذه اللحظة، وإن كانت إثيل ربّما بدرجة أكبر من جوليوس، ما زالا مُتَعَلّقين بالهاتف الذي يرتاح على بعد إنشاتٍ من يد الضابط، هذا الهاتف الذي يمكن أن يُعلن عفوَ الرئيس. احتمالاتُ أن يحدث ذلك (يعرفان) بعيدة: حين أكّدت المحكمة العليا إدانتهما، سارع إيزنهاور ليُصَرّح بأن الحكمَ بدا له عادلاً وأنّه لن يتدخّل في القضيّة.

لم يحصل محاموهما الذين تذرعوا بانعدام الكياسة الذي يمثله تنفيذُ الحكم بهما يومَ السبت، إلا على يعِد المُدّعي العام برونل بتنفيذ الحكم قبل الغروب. في الصباح عاد محامي الزوجين إلى البيت الأبيض كي يوصل للرئيس طلباً أخيراً مرتكزاً على قرار المحكمة العليا، الذي إذا كان صحيحاً أنّه يؤكّد على شرعية الحكم، إلاّ أنّه يأسفُ لعدم تناسب العقوبة مع الجريمة. لكنّ الدقائق تمرّ والهاتف يبقى أخرس. جوليوس يحزن فقط أن تدفع إثيل ثمن جرائره. لماذا كذب ديفيد حتى حصل على إدانة أختِهِ؟ لماذا عدَّل شهادته كي يُصوّرها كساحرةٍ شريرة من الضروري التخلّص منها؟ جواسيس نوويون! هكذا صُوِّرا كاريكاتورياً في الصحف والإذاعة، كما لو أنّهما كانا حقيقةً من سَلَّم مخططاتِ القنبلة للسوفييت، كما لو أنّ علماء ستالين لا يملكون المعلوماتِ كي يركبوها بأنفسهم. من كان سيصدّقهما؟ كان البلدُ المرعوب من القنبلة بحاجة إلى كبوش فداء.

في السادسة وخمس وأربعين دقيقة يحضر محام آخر من محاميهما إلى المحكمة الفيدرالية في نيويورك ويطلب التأجيل لعدم كفاية الأدلّة، فيرفض كوفمان، كما كان مُتوقّعاً، الطلب. الزوجان روزنبرغ اللذان أُجبرا على الانفصال لا يعلمان بإعلان البيت الأبيض الذي يؤكّد قرار الرئيس. في هذه الأثناء مئات الناشطين سواء في واشنطن أو باريس ولندن ونصف العالم. يقيمون حراسة ليلية. «نحن بريئان»، يصيحان ويُصليان من أجل أن تحصل معجزة. أمامهم آلاف آخرون يُعربون عن غضبهم على الكلاب اليهود («لا تقلوهما لأنّ نتنهما سينتشر، الأفضل أن تُعلّقوهما») الوغدان اللذان باعا نفسيهما للحمر، الجاسوسان اللذان أثارا حرب كوريا وربّما يكونان السبب بانقراض سلالتنا.

تشير الساعة إلى الثامنة: لن يرن الهاتف بعد الآن. يأمر الضابط بتخفيت الأضواء وفسح المجال للتنفيذ. يتذكّر جوليوس صباحاً من صباحاتِ طفولته ـ ضباب واهن تحت أشجار السرو، نباح كلبٍ ـ حين يعبر التيار الكهربائيُّ جمجمتَهُ، يرجُّ قلبَهُ ويتوغل في أحشائه: أعضاؤه تتلوّى وجسده ينفجرُ في تشنجات. في الثامنة وستِّ دقائق مساءً يقيسُ الطبيبُ الشرعيّ نبضه ويُعلِن أنّ المتَّهَمَ ابنَ الخامسة والثلاثين ميت. في واشنطن ونيويورك، في باريس ينهار المدافعون عنه، بينما يرجمهم خصومهم بالحجارة.

يُحرّك أزلامُ سينغ سينغ جثّةَ الجاسوس ويتركون إثيل تمرّ يرافقها حارسان. تبدو المرأةُ من ورق وشفتاها المشَقّقتان يسيل منهما اللعاب بلا توقّف. قبل أن تُسوي وضعيتها على الكرسيّ تأخذُ يدَ إحدى المرأتين وتُقبل خدَّ الأخرى، يضبطُ مديرُ السجون الحزام، الكمادات على الذراعين والساقين ويدخل في رأسها قلنسوة الجلد. إشارة من الضابط ويُفعّلُ الجلاّدُ عتلةَ التحكّم فتهزّ الشحنةُ إثيل التي يرتجّ جسدها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كما لو أنّه يرقص لبضع ثوانٍ تتحوّل إلى أبدية. حين تسكنُ أخيراً والأزلام يفكونها، يتبيّن للطبيب أنّها ما تزال تتنفّس. مخفياً ذعرَهُ يأمرُ الضابط بإعادة الجهاز إليها، ثمّ ودون إضاعة للوقت تتلقى الخائنة المزعومة شحنتين متتاليتين إلى أن تخرج من جمجمتها سحابةُ دخان وتنتشر رائحة نتن نافذة في الصالة. أخيراً وفي الثامنة وستّ عشرة دقيقة مساءً، قبل الغروب بقليل، يُعلِن الطبيبُ موتَها.

بينما أثار إعدام إثيل استنكارَ الغالبية، يكتب الرئيسُ آيزنهاور لأبنائه: «في هذه اللحظة المرأة هي الأقوى والأكثر جموحاً والرجل هو الأضعف. واضح أنّها كانت هي زعيمة حلقة الجواسيس. لو خُفّف الحكم عنها دون تخفيف الحكم عن الرجل لكرّس السوفييت أنفسهم ببساطة من الآن فصاعداً لتجنيد الجواسيس من بين النساء».

كلّ هذا يحدث في التاسع عشر من حزيران ١٩٥٣؛ قبل ستّة أشهر من سقوط نُوَا من النافذة.

آريا إليا ستراوس

رياضيّ، لامع، ساحر. وغنيّ. كان إليا ستراوس يملك كلَّ شيء. لم يكن مُستغرباً أن تطلق سيرته كلّ ذلك المديح والحسد ولا أن تُزَيِّنَ ملامُحه الحادّة، وجسدُهُ البرونزي وابتسامتُهُ ـ الحلوة والحارّة بالنسبة للمتعصبين له، والتهكمية والغامضة بالنسبة لأعدائه ـ تكراراً الصحفَ وبرامجَ الاستعراضات الحوارية. كانت عائلته تامة مثله، زواج يحتفل بعقدٍ مع سونيا ديل، محامية في التاسعة والثلاثين من عمرها تبدو أصغر مما هي بعشر سنوات، جميلة بقدر ما هي مُحترمة نظراً لمبادراتها الاجتماعية، إضافة إلى طفلتين ساحرتين في السادسة والثامنة من العمر، ليلي وماديسون، جسورتان وحالمتان، كما لو كي تؤكلا بضفائرهِما

وملابسهما المتماثلة. «لكن لا بدّ أنَ في زوجك عيباً ما» استطاعت صحفيّة أن تُفاجئ السيّدة ستراوس؛ فاكتفت هذه بأن أجابت: «إلياس، لا يقف، لا يتوقف، لا يهدأ أبداً». لم تُخفِ الصحفية خيبتها من الجواب، دون أن تفهم أنّ أحداً قدم لها لمرّة واحدة جواباً حصرياً حقيقياً.

ربّما كان طموح إليا ستراوس سيبدو في مكان آخر عيباً، لكن في أمريكا، وخاصّة في نيويورك، كان عدم تحفّظه يُستقبل بالإعجاب الأكثر برودة. متواضع، لم يكن ما يقال عنه تواضعاً: لا يضيع فرصة في كلّ مقابلة ليُذَكّرنا بأنّه كان أفضل طالبٍ بين أبناء دفعته في وودرو ويلسون سكول، جامعة برينستون وأنَّه بعد أن حصّل العلامة التامّة في امتحان القبول ـ يتضخّم الصوت عند إبراز الصفة ـ حصل على شهادة دكتوراه من كلّية الحقوق في جامعة هارفارد بأعلى مراتب الشرف إضافة إلى أنّه عمل كناشر لمجلتها المرموقة ـ المرموقة *جدّاً*.

كما يحدث لصبيّ بذكائه وطبقته، لم يتأخّر حتى تعاقدت معه شركة بِيتر، لوكاس، جونسون ومارك، حيث كان ينتظره قدره السعيد في كرسيّ هفهاف من الجلد أمام منطقة مانهاتن، لكنّه ترك الشركة بعد سنتين ـ لم يستشر في ذلك غير سونيا ـ وانضم كمساعد لمدعي قضاء مقاطعة نيويورك. ترسّخت مكانة صديقنا السبراني إليوت نيس بعد إلقاء القبض على اثنين من ورثةِ عائلة غامبينو. بعد سنتين، أعلن ستراوس عن قراره بالترشّح لمنصب المدّعي العام لنيويورك. في هذا التاريخ وُلِدَت ماديسون ولم يتردّد في أن يظهر مع مولودته في عددٍ من المجلات الورديّة. كان متوقّعاً أن يكون الانتخاب مغلقا في وجهه، وما من أحدٍ اعتقد أن الغرَّ سيحصلُ على المنصب، وكان ستراوس نفسه قد موَّلَ ترشيحه وتعاقد مع مكتبٍ صحفيّ قدَّمَهُ كسوط ضدَّ الجريمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المنظّمة في **التفاحة الكبيرة الفاسدة**. ومع أنّه حصل على دعم نيويورك بوست وديلي نيوز، إلا أنّه بقي الأخير: الهزيمة الأولى في حياته. انتهى ستراوس إلى الاعتراف بأنّ تلك الزلّة كانت دافعه الأكبر في الحياة، وأنّه بفضلها تَعَلّم من أخطائه، صار أكثر تواضعاً (أكثر تواضعاً!) واستطاع أن يفوز في انتخابات ١٩٩٨، بالثرثرة. استطاع بعد أربع سنوات أن يهزم قاضية جمهورية مشهورة بثمانية وستين بالمائة من الأصوات، واحد من أعلى الانتصارات في تاريخ الولاية.

لم يكن يمرُّ أسبوع لا يتلقى فيه إليا الأضواء لإظهار عملٍ ناجح بقدر ما هو ترويجي. فكرته الراسخة الجديدة: سحق كلّ من يعترض طريقه من أقطاب وول ستريت. استحضر ستراوس يشجعه استعراضُ وسائلِ إعلامٍ مجنون كلَّ أنواعِ تشريعات الماضي الملتبسة كي يتدخّل في حالات لَو قام بها بطريقة أُخرى لانتهت به إلى المحاكم الفيدرالية، متحوّلاً إلى العدوّ العام رقم واحد لأصحاب الثروات الكبرى في البلد. تعاقد مع العشرات من خرّيجي إيفي ليج. أسّسَ وحدة تفتيشٍ مالي متطوّرة فعثر بتقديم نفسه كديمقراطي ليبراليّ على الثغرة التي ستشهره في السنواتِ اللاحقة على أزمة الدوتْ كوم وفضائح الووركدكوم وإنرون: سحق الذين استفادوا من رفع القيود الذي أطلقه ريغان وبوش الأب وكلينتون نفسه (الذي لم ينسجم معه قط).

واجه صديقُنا دافيد في واحدة من أوائل قضاياه الشهيرة، ميريل لينش. أنكرَ بنكُ الاستثمار، المتّهم بسوء الاستخدام، في البداية الوقائعَ، ثمّ أعلن أنّه ضحية مؤامرة ـ كلّ منافسيه كانوا يتصرفون بالطريقة ذاتها ـ، بعدها تجرّأ على تهديدِ المدّعي الحديدي وقَبِلَ على المدى الطويل أن يدفع مخالفةً قدرها مئة مليون دولار كان ستراوس قد بعثرها يمنة ويسرة. بعد أن استنفد هذا النصر أعلنَ شريف وول ستريت

أنّ هدفه هو فضح صراعاتِ مصالحِ «كلّ البنوك» في حالاتٍ سرعان ما وصلت حتى صفحات نيويورك تايمز الأولى ـ حليفته الجديدة ـ ـ، نجح ستراوس في أن يفرضَ عقوباتٍ بالملايين على كلّ المُمَثّلين الماليين الكبار، بدءاً من غولدمان ساشز وحتى بير ستيرنز، ومن كريديت سويس فيرست بوستوم وحتى مورغان ستانلي ومن ج بي مورغان وحتى ليمان براذرز، دون أن نحسب ملاحقته الإشكالية لرئيس سوق الأوراق المالية أو اصطياد العشرات من صناديق التحوّط المخالفة للأصول. كان إليا ستراوس يستعرض نفسه كنجم من النجوم الصاعدة في الحزب الديمقراطيّ وبحسب الشائعات التي كانت تنتشر مثل النار في وول ستريت، كان قد بدأ يظهر كمرشحٍ لمنصب حاكمِ نيويورك أو مباشرة كنائب للرئيس.

يجب أن يكون تماماً عندما بدأت الانتخابات الأولية أنّ تيري ولاش، زوج سوزان السابق، تناولَ أوّلَ عشاء له مع ستراوس. لم أتمكّن من معرفةِ من الذي سهّلَ لقاءهما، لكنّني أعرف أنّه تمّ في مطعمِ روسا مكسيكانو في برودوي وأنّ صهريَ السابق استفاض أمامَ طبقِ الناتشو(١) أو كؤوس المرغريتا، حول عمليات جي في كابيتال منجمنت غير الشرعية المزعومة، ولا بد أن ستراوس اشتمَّ رائحةَ الدم ووعد بالقيام بتحقيق، بدأه في بداية ٢٠٠٤ على يد دونّا دوران، إحدى

(١) Nacho في الأصل اسم وكنية وهذا الطبق يعود اسمه إلى صاحب مطعم مكسيكي، جاءته نساء بعض العسكريين في ساعة متأخّرة فحضّر لهم صاحب المطعم طبقاً مما كان متوفّراً عنده: عجّة بيض وجبن. قطّع العجة إلى مثلثات وراح يقليها مضيفاً إليها الجبنة. فأعجبت السيدات بهذا الطبق وفي اليوم التالي ضمّه صاحب المطعم إلى قائمة أطباقه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشرس مساعداته. هل من طريقة أفضل من هذه كي يُبرز مكانته من الكشف عن مُضارب، كان بحسب معلوماته، يخدعُ مئات الزبائن بينما يُقدّم نفسه كمُحسن وراعٍ للفنون والآداب؟ قبل أن أتلقى التدقيق الأوّل للحسابات هتفتُ مباشرة لمكتبه ودعوته للعشاء.

شريف وول ستريت إليا ستراوس

بالمختصر لم يكن يبدو رياضياً ولا وسيماً إلى ذلك الحدّ، على الرغم من أنّه كان يتميز بوجهِ غندورٍ من وجوه المسلسلات التلفزيونية. هناك عرّة كانت تحمله على أن يُدغدغ جبينه باستمتاع، كما لو أنّ التأكّد من أنّ آخرَ شَعْرٍ عنده باقٍ في مكانه كان يقلقه. لم أحاول أن أَظهر لطيفاً كما لو أنّني أُحاول أن أرشوه أو أُهدِّده، كما سيُسرِّبُ رئيسُ اتصالاتهِ للصحافة لاحقاً، عملياً انسابَ الحديث من موضوعٍ لآخر دون أن يُلامِسَ أيَّ موضوعٍ مزعج. الشيء الوحيدُ الذي كنتُ أَرغبُ به هو أن

أنظر إليه وجهاً لوجه، أن يكون قريباً منّي، قريباً جدّاً، أن أُقيِّمَ حركاته، أقيسَ كلماتهِ، أحفظ إيماءاتهِ، وربّما أن أُميِّز عنده وهناً، ضعفاً، أو هوساً ما. أفترض أنّ هذا كان قصده أيضاً. لعبة بوكر أو شطرنج يقيس فيها الخصمان، العقربان، بعضهما بعضاً باحترام.

ودّعَ كلّ منا الآخر بشدّة على يدٍ قوية ووعدَ أن يكرّر التجربة: الدردشة، اتفقنا، كانت مُمتعة. طبعاً لم يحدث هذا أبداً. ما الذي اكتشفته في ذلك العشاء؟ ظاهريّاً كان ستراوس مطابقاً للصورة التي باعها لنا مساعدوه، كان رياضيّاً، لامعاً، محبوباً، ثريّاً. بالفعل، كان إليا ستراوس يملك كلّ شيء. لكنّ الكمالَ، يجب ألاّ ننسى هذا، وهمٌ. بعيداً عن دهائه وسحره، عن ابتسامته المتلوية والمتباهية، كان المدعي العام بهلواناً مستَهْلَكاً. وككلّ مُمَثِّلٍ لا يمكن أن يكون وجهُهُ مطابقاً لقِناعِهِ. لم أكن قد عرفت بعد ما إذا كان يُخفي سرّاً كبيراً أم كانت زلةً منه لا يترتب عليها نتائج، لكن لا شكّ أنّ لديه سرّاً.

ـ كي تجد ما يخفيه ـ وجّهتُ فيكرام ـ عليك أن تستخدمَ طرائقه ذاتها. تابِعْهُ عن قرب. افهمني جيّداً: ليس هو، فنحن لسنا في رواية جواسيس، بل مصروفاته، بطاقات اعتماده، حساباته. إذا كان الشقيّ يُخفي شيئاً، سنجده حيث هو نفسه يبحث عنه.

ثنائي

كان والدي قد عمل لصالح الروس، لم يبقَ عندي أدنى شك بذلك. لا أستطيع أن أقول إنّ مثل هذا التأكيد سيتركني ممحوقاً، لكنّه أغرقني في وضعٍ نفسيٍّ قريبٍ من اللامبالاة. ما إن كنتُ أصلُ إلى البيت بعد رحلةِ عملٍ، موعدٍ مع مستثمرين، أو نزهةِ جنسٍ قصيرةٍ مع فيكرام، حتى ألوذ بالمكتبة، أضع السماعتين على أذنيّ وأُمضي بقيةَ المساءِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالاستماع إلى أوبرات هاندِل وفيفالدي، الترياق الوحيد لهذا الماضي العائليّ الذي كان يتكشّف لي فجأةً، والذي إن لم يكن مُقرفاً فهو على الأقل لا يُمْسَك. في معظم الأحيان كنتُ أتناولُ عشائي وحيداً، شطيرةً أو سلطةَ تون تأتيني بها الطباخةُ إلى ملاذي، حيث كنتُ أمكثُ حتى منتصف الليل، غير مبالٍ بمشاريعِ أو بنشاطاتِ زوجتي.

كان أركادي قد أخبرني قبل ذلك بقليل أنّ الرياحَ السياسية في روسيا تعرَّضت لانقلابٍ وأنّ المسؤولين عن الأرشيفات صاروا في كلّ مرّة يضعون مزيداً من العوائق أمام بحثه. مكتبه نُهِبَ ـ خلصت السلطات إلى أنّها كانت عملية عصاباتٍ لصوص ـ وأسرته كانت ضحيّةَ تهديداتٍ هاتفية. قاوم التتاري الحصارَ، لكنّه وبعد أن تعرّضَ لاعتداء سرقةٍ على أيدي مسلحين ولضربة كادت تودي بعينه اليسرى، قمتُ بالإجراءات الضرورية كي ينتقل إلى ملاذ في أوروبا الغربية، ، على الرغم من أنَّ ملاحظاتِهِ كفته لأوديسة خاصة بجيمس بوند. إذا كان هناك مزيد من أسئلة يجب أن تُطرَحَ، كما كانت تُصرّ لي، فإنّ الأرشيفات السوفييتية ما عادت تصلح للإجابة عليها.

على الرغم من فتوري النفسي، كنتُ أعترف أنّ هذا الزقاق المسدود لا يمكن أن يستمرّ طوال الحياة، غادرتُ أخيراً وبعد أشهرٍ كثيرة برزخي الباروكي واقتحمتُ دون مقدمات الحمّام، حيث لي تفرك تحت المرذاذ جسدَها بالصابون. لم يُفاجئها كثيراً اقتحامي كما فاجأتْها نبرةُ صوتي المثارة. بدا جسدُها خلفَ الزجاج المدخّن رسماً إجمالياً مهزوزاً، كما لو أنّها هي أيضاً راحت تفقد صلابتها في تلك الأسابيع.

ـ ألا يكفيكِ؟ ـ سمعت نفسي أصرخ بها ـ هل تحتاجين إلى مزيد من الأدلّة.

أغلقت لي الصنبورَ والتفّت بمنشفة عقيقيةٍ وبدأت تُنشف قدميها وأُربتيها. أنا اعتدتُ أن أهرب من غضبها، لكنّني لم أُقاوم هذه المرّة الحاجةَ لإثارتها.

ـ أنا ابن عميل روسيّ لعين، هل تلتقطين السخرية في كلامي؟

ـ هل يُزعجكَ؟ ـ بالكاد رفعت نظرها.

ـ لا، يا لي، بل أستمتعُ به ـ ضحكتُ ـ منذ سنوات وأنا أُريد أن أعرفه، والآن أعرفه. ماذا تريدينني أن أقول لك؟. لقد انتهى هذا العذاب أخيراً.

لزمت زوجتي الصمتَ بحركة تنمّ عن عدم الرضا جعلتها تبدو أكبر بعشر سنوات. كم مضى علينا معاً؟ دهرٌ بالنسبة إليّ. لثانية رغبتُ أن أبقى وحيداً في ذلك الفضاء الفسيح، أمام عاهرة مانهاتن المتلألئة، لكن سرعان ما انتبهت إلى ظلمي: كانت لي زوجة لا غبار عليها، ووصول بحثي إلى نهاياته لا يخوّلني بالتخلي عن خدماتها.

عندما انتهت من تجفيفِ شعرها وارتدتْ منامةً وردِيّة اعتباطية ـ منذ زمن تخلّت عن العناية بصورتها عندما تنام معي ـ، أخذتني لي من يدي، حملتني إلى مكتبِها وكشفت لي أنّها، بينما كنتُ أُكرِّس وقتي لاجترار مآسيَّ، توصَّلَتْ هي إلى آخر اكتشاف. فتحت زجاجة بورديو، شربت كأسَيْن وطلبت مني أن أجلس أمام حاسوبها.

ـ سأحكي لك قصّةً ـ قالت لي ـ. كان يجري شهر آذار ١٩٤٣ حين أمر الكولونيل كارتر كلارك، رئيسُ فرع الجيش الخاصّ، المسؤول عن أعمال مخابراتِ الإشارة، بإنشاءِ مشروع صغير لفحص البرقيات الدبلوماسية التي كانت ترسلُها السفارةُ السوفييتية في واشنطن والقنصلية السوفييتية في نيويورك من محطات بثّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سرّية. كان كلارك قد ركّزَ على فكّ الرسائل الألمانية واليابانية دون أن يكاد يهتمّ بحلفائه الروس، لكنّ الإشاعات التي كان ستالين بحسبها يستعدُّ لتوقيع السلام مع هتلر بدّلت استراتيجيته، وتبيّن له أنّ المهمّة أصعب من المتوقَّع، فقد كان الاتحاد السوفييتي يستخدمُ نظامَ تشفيرٍ على مرحلتين ولم تنجح تحليلاتُهُ في فكّ مضامينها حتى وقت متقدّم من عام ١٩٤٦، عندما كانت الحرب قد انتهت.

ـ هل حقّاً أنّ ستالين كان يُريد أن يَغدر بروزفلت؟

ـ البرقيات لا تشير ولا في أيّ لحظة إلى مباحثاتٍ مع النازيين ـ تابعت لي ـ، لكنّها تكشف عمّا نعرفه نحن: أنّ الاتحاد السوفييتي يملك شبكةً هائلة سرّيةً مندسّةً في مؤسّسات الحكومة الرئيسية. في عام ١٩٣٩ لم يكد يملك مكتبُ كلارك عشرةَ مختصين، لكنّه في عام ١٩٤٥ صار يستخدم مئة وخمسين عاملاً ما بين مُفَكّكِ شفراتٍ ومُحلّلٍ ولُغويّ وخبير في إشارات الذبذبات وانتقلوا إلى مدرسةٍ قديمة للآنسات في أرلينغتون هيل، فرجينيا. في عام ١٩٥٢ اتخذتْ الاسمَ الذي ما زالت تُعْرَفُ به حتى الآن: وكالة الأمن القومي، الأكثر تعتيماً بين مراكز مخابراتنا. عُرِف جهدُ كلارك في البداية بـ«المشكلة الداخلية السوفييتية» ثم اتخذ أسماء جاد وإسبوسا ودروغا وأخيراً في عام ١٩٦١، مشروع فينونا.

هل من الممكن أن تكون وكالات مخابراتنا السرية قد تجسّست طوال سنوات الحرب على الجواسيس؟ أسارع لأفتحَ الزجاجة. على لوحة المفاتيح تنشط أصابعُ لي مثلَ ديدان خرجت توّاً من بيوضها.

ـ هل نجح كلارك في فكّ شفرات تلك البرقيات؟

ـ ما بين ١٩٤٠ و١٩٨٠ حين أُتلف البرنامج لعدم أهميته التكتيكية، فكّك مشروع فينونا كلّياً أو جزئيّاً، ١,٨ بالمئة من برقيات ١٩٤٢؛ ١٥ بالمئة من برقيات ١٩٤٣؛ نصف البرقيات السوفييتية المرسلة في عام ١٩٤٤؛ لكنه فكّك فقط ١,٥ بالمئة من برقيات عام ١٩٤٥ ـ قرأتْ على الشاشة.

سرعان ما شعرتُ بالحاجة للمسها. على الرغم من أنّني تجنّبت في الأشهر الأخيرة أي احتكاك جسدي بها، إلا أنّني شعرتُ ساعتَها أن بشرتها وحدها قادرة على أن تُعيدني إلى المرحلة التي كان يُلهبني فيها ذكاؤها.

ـ ولماذا لم نعرف عنها شيئاً قط؟ ـ سألتُها.

ـ لأنّ الحكومة قرّرت الإبقاء عليها سرّية. لم تُستخدم البرقيات المكتشفة قط في المحاكمات التي بدأت ضدّ عناصر التجسّس خلال الحرب الباردة.

ـ فضّلت الحكومةُ أن يُحاكَموا خطأً على أن تكشف عن وجود المشروع...

ـ هذا ما أخافه.

ـ لكنّني أعتقدُ أنّكِ تحكين لي كلَّ هذا لغاية ما ـ شربتُ بقيةَ كأسي وداعبتُ شفَتَيْها بطريقة صائبة.

ـ هنا يأتي الأهمّ ـ تنحّت جانباً دون أي رقّة ـ بفضل تدخّل مؤرّخَيْن، جون إيرل هاينز وهارفي كلير، اللذين قابلتهما منذ بضعة أيّام، قرّرت وكالة الأمن القومي أخيراً أن تفتح أرشيفاتها. في مؤتمر صحفيّ أُقيم في لانجلي، كشفت وكالة المخابرات الأمريكية ومكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الأمن القومي عن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مشروع فينونا ونشرت أوّلَ لائحة بالبرقيات التي فكّكَ المُحلِّلون شفرتها. يُقدرون أنّهم سيضعون خلال الأشهر القادمة تحت تصرف الخبراء قرابةَ الخمسة آلاف صفحة من المواد الأوّلية[1].

لم تحتَجْ لأن تمنحني مزيداً من التفاصيل كي أعرف أهمية إعلانها. على الرغم من أنّ براءة أبي صارت مستبعدة، ربّما استطعنا أن نقترب أكثر من دوافعه.

ـ وأين توجد هذه المواد؟

ـ هنا بالذات، في نيويورك ـ صاحت منتصرة ـ. أحتاج لفريق يُساعدني على فحصِ هذا الكم الهائل من المعلومات.

ـ كنتُ أعلم أنّ اللغز سيُحل في النهاية بالمال.

قبّلْتُها بإصرارٍ لا يختلفُ عن الهياج. ما كدتُ أعرف طعمَ شفتيها، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بغريبة. هي لم تساعدني في حميّتي، لكنّني رفعتها بين ذراعيّ ـ فاجأني تأكّدي من السهولة التي ما زلتُ قادراً على حملها بها ـ وحملتها على ظهري حتى السرير. إذا لم نكن يوماً منسجمين في الجنس، فإنّ السنين علّمتنا أن نتظاهر بأنّ باستطاعتنا إن نُرضي بعضنا بعضاً. ربما لَم يتمكّن تفريغ تلك الشحنة الجنسية من مصالحتنا، لكنّه أزال لأشهرِ الإحساسَ بأنّ قصتنا المشتركة، بعد كلّ تلك المغامرات المشتركة، لا معنى لها.

---

(١) لمراجعة أرشيفات فينونا يمكن الرجوع إلى موقع وكالة الأمن القومي: http:// www.nsa.gov/public_info/declass/venona/index.shtml (N.del E).

ـ لا أتحمّلها، يا فيكرام ـ انفعلتُ عندما اكتشفتُ وجه إرين كالان مرّة أخرى على الشاشة.

كم كنتُ أمقتُ زغرداتها، سخرياتِها وانفجارتِها، انفجاراتِ الطفلة الساذجة، خصلةِ شعرها القزحية، موديلاتِها المستوردة، وَلَهَها بالذوق الذي فقط يظهر انعدام الذوق عندها! ما من ليلة إلا وكنتُ أصادف وجهها المزيّن بشكلٍ فاضح في السي إن بي سي. إرين كالان، أقوى امرأة في وول ستريت، بحسب كوند ناست بورتوليو ـ في الصورة الهائلة، حيث توشك أن تنزل من سيارة الليموزين، تتباهى بساقيها المنسلتين والأرضية الحمراء لحذاء اللبوتان ـ كانت تُحاول أن توضّح لماذا لم يكن ليمان براذرز في خطر. إذا لم يكن هناك شيء لا يُطاق أكثر من تصريحات عجوز من وول ستريت، فإنّ سماع إرين كالان يصير عذاباً. لم يكن عند الضبعِ أي تجربة في القطّاع، لم تُدِرْ قط مجموعةً من أكثر من خمسين شخصاً وظرافتها العظمى في عدم الخجل من التبجح بمشترياتهم من بيرغدورف غودمان.

ـ في ويكيبِديا يجب أن تأتي كلمة وصوليّة مرفقةً بصورتها ـ أطلقتُ بحنق.

ـ كيف تحوّلت إلى مديرة ليمان المالية؟ ـ سألني فيكرام.

كان صديقي قد لبس بنطلونه وبقي عاريَ الصدر. كانت عضلات بطنه تدلّ على الساعات التي كان يقضيها في الرياضة كي يُخفّف من توتّرات الموسم.

ـ لأنّ جو غريغوري أراد ذلك ـ قلتُ له.

ـ يا له من فظ!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ يقول آخرون إنّها ليست أكثر من محمّية.

كان غريغوري الذي صادفته في بعض اجتماعات مجالس الإدارة وعدد من الحفلات الخيرية، يبدو لي ظريفاً تقريباً، خاصة إذا ما قورِنَ بِديك فولد، صديق حياته. أكبر مساهمة له كرئيسٍ لِليمان براذرز كانت في إدخال اختبار الشخصية ذي الطبيعة اليونغية لقياس فعالية وسطائِهِ ولتصميم سياسةِ مساواةٍ بين الجنسين دفعت إلى ترقية نساء وعضوات مجتمع السحاقيات والمثليين والثنائيين والمتحوّلين (LGBT). لم يكن تعيين كالان حسبَ هذا المنطق إلاّ ضربة ماهرة من استرتيجيته لتنظيفَ سمعة البنك. وبفضل غريغوري لم تحصل إرين كالان ـ التي تبجّحت في إحدى المقابلات بأنّها تخرج مع رجل إطفاء، كي تبرهن على دنيويتها، ـ على نفوذٍ مفرط وحسب بل صارت وجهَ ليمان أيضاً.

ـ «نتائجنا صلدة» كانت توضّح إرين كالان لصحفيّةِ الـ سي إن بي سي مبتسمةً «نحن سعداء بأن نفتح الكيمون ونسمح لأيّ شخص بأن يرى تاريخنا».

ـ الكيمون؟ ـ زعق فيكرام ـ ويُفتَرَض أنّ هذه المرأة تريد أن تُطمئننا؟

أطفأتُ التلفاز. كنّا أنا وفيكرام نشكّ منذ أشهر بأنّه لا بدَّ أنَّ ليمان، الذي كان يُنفّذ معه جي في كابيتال منجمنت معاملات بما يُقارب المليار دولار، يلجأُ إلى حيلة غير شرعية كي يُبرّر أرباحه غير المعهودة. كنّا نعرفُ أنّ البنك خاضعٌ منذ أشهرٍ لتوتّر داخليّ هائل وأنّ بعضَ العاملين فيه الأكثر خبرة غادروا مناصبهم (أو فُصلوا) بعد أن أبدوا عدم رضاهم عن صفقات غريغوري، الوحيد الذي يبدو أنَّه لم يكن يبالي بالتهديد الذي كانت تمثله اقتناءاته المجنونة على الشركة. كان باستطاعة أيّ

شخص يُراجع بتمهل تقارير ليمان أن يكتشف أنَّ آلافَ المشتقات المالية عنده المرتبطة بالقروض العقارية عالية المخاطر كانت تقوده إلى مستويات غير طبيعية. لكنّ ديك فول كان يصمّ أُذُنَيْه عن النقد. كانت نقطة ضعفه أمام غريغوري تطمسُ تفكيره.

ـ ألستم قلقين قليلاً من الملكيات العقارية؟ ـ كنتُ قد سألتُ ديك خلال استراحةِ أوبرا *حكايات هوفمان* في متحف متروبوليتان في نيويورك في شباط ٢٠٠٨.

ـ إنّنا محميون جيّداً ـ دمدمَ دون أن يترك كأسَ الشمبانيا.

سرعان ما ستتلقى ثقته المفرطة صفعةً. في أواسط حزيران سرى خبرُ أنّ بير ستيرنز، خامسَ بنوك الاستثمار في وول ستريت، كان على حافّةِ الإفلاس، وفقط أمام التهديدِ بالانهيار هرع جي بي مورغان ليبقي عليه عائماً. بحسب ما أعلمني فيكرام، الذي استمرّ بالحفاظ على علاقاتٍ وطيدة مع عدد من التنفيذيين في مكتبنا القديم، سيطروا على بير ستيرنز مقتحمين إيّاه كي يُراجعوا سجلاته.

ـ إنّه أسوأ مما كنّا نعتقد ـ كشف لي صديقي ـ. بحسب مُخْبِرِيَّ هناك على الأقل ثلاثون مليار دولار يعتبر حصولُ جي بي. مورغان عليها مخاطرة مفرطة من دون مساعدة الحكومة.

في محاولة لمنع كارثةٍ كبرى وافق الاحتياطي الفيدرالي على ضمانها إذا ما قدّم جي بي. مورغان للمساهمين أكثر من دولارين عن كلّ سند (في النهاية صارت ١٠ دولارات، دون أن يُساهم هذا في تبديد الرعب). الاثنين ١٧ آذار لم يعد هناك ما يمكن عمله. بير ستيرنز، المؤسسة المنشأة قبل خمسة وثمانين عاماً والمعتبرة على امتداد عقودٍ نموذجَ الجدّيةِ والاستقامةِ تموت نتيجة إدارة مديريها السيّئة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندها توجّهت كلُّ الأنظار إلى فيش الدومينو التالي: ليمان براذرز.

ـ الآن لم يعد باستطاعة ديك فولد أن يبقى مرتاحاً إلى ذلك الحدّ ـ صاح فيكرام.

في الثامن عشر من آذار عادت إرين كالان لتظهر على الشاشات وتُعلن أنّه خلال الثلث الأوّل من ٢٠٠٨، حصل ليمان على بعض الأرباح المتواضعة، لكنّها على كلّ الأحوال مدهشة، نظراً لعدمِ استقرار الأسواق. «خمسة مليارات دولار» تباهت متبجّحة.

ـ هل حقيقة تعتقد أنّنا سنبلع الكذبة؟ ـ قلتُ لفيكرام.

ـ لا أرى تفسيراً آخر ـ دمدم صديقي ـ. لا بدّ أن ليمان يقدر أمواله بأقل من ذلك بملايين كثيرة.

في تلك الليلة قام فيكرام بتشريح تقرير البنك الفصلي ووجد تناقضاً كبيراً بين النتائج المعلنة من قبل إرين كالان والتقارير المقدّمة قبل أسبوع أمام هيئة الأوراق المالية والبورصات في الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ كنتُ على حقّ ـ قال لي دون أن يُخفي اعتزازه بقدرته على التحرّي ـ. إنّهم يزوّرون أرقام جي في.

سارعت كما لو أنّ الأمر يتعلّق بعمليّة تلاعب إلى إرسالِ بريد إلكتروني إلى المديرة المالية لليمان. «إرين، كلّميني من فضلك». لم تمضِ عشرُ دقائق حتى كانت *أمُ عامر* تدقّ رقمي.

ـ بماذا أستطيع أن أُساعدك؟ ـ زعقتْ في أذني؟

ـ لنرَ، يا إرين، هل تستطيعين أن تُوَضّحي لي كيف أمكن لاستثماراتكم المرتبطة بالملكيات والقروض العقارية أن زادت قيمتها في حين أنّ السوق في سقوط حرّ؟ ـ أفلتُ عليها ملء فمي

ـ بحسب حساباتي، فإنّ التزامات الدين العقاري المكفول في ليمان يجب أن تدور حول... ستة مليارات وخمسمئة مليون...

ـ حسن، المسألة هي أنّ...

تهدّجٌ ومزيد من التهدجِ في صوتها.

ـ لهذا وَقْعٌ هو في كلّ مرّة أسوأ، يا فيكرام ـ قلتُ أخيراً بقلق ـ لنا معهم صفقات أكثر من اللازم...

خلال مداخلة لي في مؤتمر مالي يوم الحادي والعشرين من أيار، لم أستطع أن أتمالك نفسي، كان عليّ أن أُبَيِّن للعالم أنّ استهتار غريغوري وكالان يُعَرّض النظام المالي برمّته للخطر. (وخاصّة جي. بي. كابيتال منجمنت

ـ أخشى ألا يُعاقب ليمان على ما فعله. بل وأشكّ بأنّ بعض السلطات تُشجّعه على ممارساته الحسابية المريبة ـ انزعجتُ من سمن وعسل وول ستريت ـ إذا لم يكن هناك عقوبات على التصرفات السيّئة واستمرّت هذه التصرفات ملهمة مديحَ الصحافة لكيفية إدارة هذه الأزمة، سندفع جميعنا الثمن غالياً جدّاً.

هل تعتقدون، أعزّائي القرّاء، أنّ إرين كالان لزمت صمتاً حكيماً أمام اتهاماتي؟ طبعاً لا! استمرّت بعرض خصلة شعرها القزحية وتوضيحاتها المُخدّرة في السي إن بي سي وكلّ القنوات التي زارتها على امتداد ذلك الأسبوع ـ بزيٍّ دائماً مختلف ـ، حاطة من قدر كلٍّ من يُشكّك بأرقامها. في مقابلة لها مع وول ستريت جورنال، كذّبت اتهاماتي بذريعة وحيدة لا بدّ أنّها بدت لها غير قابلة للدحض: لائحة بالمجوهرات التي كانت قد حصلت عليها في ذلك الأسبوع.

عندما أعلنت إرين كالان عن نتائج ليمان للثلث الثاني من ٢٠٠٨،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان قد فات الوقتُ ولم يعد ممكناً تغطية الثقب الأسود: ملياران وثمانمئة مليون دولار من الخسائر. في صباح اليوم التالي هبطت أسهم البنك ٢١ بالمئة. حتى أن أحداً جلِفاً مثل ديك فولد، لا بدّ أنه يقضمُ بالتأكيد أظافرَه، وبعد اجتماع طارئ أعلن ليمان أخيراً خروج غريغوري «لأسبابٍ شخصية».

- كذب - أكّد لي فيكرام - جو فُصِلَ، وإن سمح له ديك بأن يتقاضى راتبه حتى كانون الأوّل. وحده غريغوري، المشجِّع لسياسة المساواة والمدافع عن المثليين والسحاقيات والمتحوّلين لم يبغِ أن يذهب إلى التاريخ كُمسبّبٍ للمأساة.

حين انتشر الخبرُ، انقضّ النقادُ على إرين كالان، أقوى امرأة في وول استريت. بالمقابل بالكاد لمسوا غريغوري.

ثنائي

ما إن أراني فيكرام قُصاصةَ الصحيفة (وجهه من ورق صيني، أصابعه متردّدة)حتى لم يبقَ أمامي من وسيلة غير أن أخرق قواعدي المقدَّسة وأقطعَ بكلّ سرعةِ المئة وعشرين ميلاً التي تفصل كوخنا في المنطقة السياحية من الجزيرة بحثاً عن مقهى إنترنيت. جنون العظمة عندي راح يتنقّى مع السنين: قرأتُ عشرات القصص عن الهاربين من العدالة، الذين أُلقي عليهم القبض في غفلة مشابهة، مكالمة مستهترة بالجوّال، بريد إلكتروني مُريب، بعض صفحات الويب منزّلة من الحساب ذاتِه. عين الله - أو عين بدلائِهِ: وكالات مخابرات الكرة الأرضية - تُراقبنا من فوق، ممتطية قمراً صناعياً.

فتحتُ التايمز (عشرة مقالات مجانية، دون الحاجةِ لأن تُسجّل

نفسك) بعدها البوست (الأكثر شعبيةِ والأقل قيوداً) وبالقفز من نافذة إلى أخرى، ستّة مواقع مختلفة للتعمّق في الخبر: بدء المحاكمة ضدّ إسحاق وسوزان فولبي في المحكمة الفيدرالية من المنطقة الجنوبية من نيويورك في الثامن من كانون الثاني ٢٠١١. هكذا علمتُ أنّ ميل غونثالث، وهو من غولدبورن، لاوش وميرفين، كان يقود الدفاع عن ولديَّ. المكتب ذاته الذي عملتُ معه خلال أكثر من عقد ونصف وخسر أعضاؤه أكثر من مليون دولار عن كلّ شخص بعد أن استثمروا في جي في كابيتال منجمنت. ميّزت على الشاشة صورتي ابنيّ المحزونين. سوزان تُحاول أن تختبئ خلف مجلّة موضة ـ على غلافها كيم كارداشيان ـ أثناء صعودها درج المحكمة، بينما إسحاق يغطيه السواد ويظهر مثل فزّاعة العصافير.

منذ كم من الزمن لم أرَ ابنيَّ؟ منذ سنتين؟ منذ ثلاث سنوات، صحّحَ لي فيكرام. ثلاث سنوات من الحياة المضطربة: ثلاث سنوات من التشرد من هنا إلى هناك مثل صعلوك مُكرَهٍ أو سائح عابر (أسرق المصطلح من آن تايلور)؛ ثلاث سنوات من عدم القيام بأي تواصل مع التوأمين (ولا مع لي ولا بيكا)؛ ثلاث سنوات من تصوّرِهم عن بُعد، من الصلاة لأجلهم لإلهٍ لا أؤمن به، من انتظارِ محاكمةٍ لا تُعقَد. انتابتني قشعريرة حين اكتشفت اسمَ المُدّعي العام، بِنروبرتسون/الأعسر، أحد أبناء زوجة إليا ستراوس. انعدام حياديّته مؤكّد.

ما من موقعٍ يحكي تلك الجلسة بالتفصيل الذي كنتُ أودّه ويُركّز على الكشف عن الجانب الإنساني للضحايا (ضحاياي: كليشيه معسولة) أو يتلذّذ بصور متتالية حزينة لسوزان ولائحة غرامياتها العاصفة والتعيسة. يبدو أنّ المسكينة لم تجد، بعد كارثتي وهربي، مهرباً غير الجنسِ الجامح مع عليّةِ المجتمعِ الوردي وممثلي السينما المستقلة الصغار. عنوان أحد التعليقات، وليَس أكثرها خداعاً أو عدوانية، يلخّص الهواء الذي يُشمّ حول القضيّة: «أسرة المافيا».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ازداد اكتئابي حين اكتشفتُ أنّ أحد المحركين الأساسيين للقضية الإجرامية ضدّ ولديَّ ـ الدعاوى المدنية بالنتيجة لا مناص منها ـ هي كاري دومونتِت، ابنة فرانك دومونتِت الصغرى، شريك جي. في كابيتال منجمنت القديم، المتوفّى عام ٢٠٠٦، الذي كان يُمثّل عدداً من صناديق التقاعد التي أفلست بحسبها «بسبب آل فولبي» وكان محاموها يزعمون أنّه نظراً لموقع سوزان وإسحاق فإنّهما المسؤولان عن الأضرار، دون أن يهمّهم ما إذا كانوا على معرفة أم لا باستخداماتي المالية الغريبة (فتنني التعبير المُلطف). بحسب ما تأكّدتُ منه من بعض المواقع والمقالات هنا وهناك لا يبدو أنّه يوجَدُ من يثق ببراءة ولدَيَّ. كيف يمكن أن يجهلوا الخدع التي كان يرتكبها أبوهما أمام ناظرهما؟ كيف يمكن ألا يكونا على اطلاع على المحاسبة الموازية، على نظامِ بونزي، على متاهة التحويلات وتبديل المسارات وهما ابنيَّ بجدارة؟

كانت قد كرّرت عليّ مرّة وأخرى الذرائع ذاتها، أنّ زبائنها لم يكونوا يعرفون بمناوراتي الاحتيالية، أنّهم لم يشاركوا في الخدائع، وأنّها عندما علمت بعملية النصبِ سارعت لتُبلِغَ عني مكتبَ التحقيقات الفيدرالي وأنّها تعاونت في كلّ لحظة مع العدالة. بالنسبة للرأي العام ـ هذا الأفعوان الذي له ألف رأس وليس له أي دماغ ـ لا شيء من هذا كان يهمُّ. التعيسان كانا بعضاً من آل فولبي وبغياب فولبي النهائي، فولبي الأصلي، أور ـ فولبي الهارب من العدالة، عليهما أن يدفعا ثمن أخطائي. هكذا كان يُفهم من حكم القاضي مكولكي، الذي اعتبر مؤشراتِ التآمر الإجرامي التي قدّمها الادعاء العام صحيحةً وفرض على سوزان وإسحاق كفالة بستة عشر مليون دولار لم يستطيعا تأمينها إلا بالاقتراض (يا لها من سخرية) على الأملاك القليلة التي بقيت لهما بعد المزايدة الأخيرة على أربعة بيوت ومزرعة مونتانا.

ـ ماذا أستطيع أن أفعل لأجلهما، يا فيكرام؟ ـ قلتُ له ما إن عدتُ إلى الكوخ، وأنا أكثر انهياراً من أي وقت مضى.

اكتفى صديقي، الوديع والغامض، بهدوء الزِّنْ الذي يزعجني، بأن قوَّسَ حاجبَهُ الأيسر. لو أنّه طعنني بسكين ما كنتُ لأشعر بأسوأ مما شعرت به. فقط كان هناك جواب واحد على سؤالي الأحمق، جواب بالطبع ما كنت لأجرأ على النطق به.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الرابع
حول كيف تؤخّر الحقيقة لنصف قرن
ولماذا انهار برج بابل

أريا إليا ستراوس

يتكرّر المشهدُ، وقد صار أمريكياً كلاسيكياً مرّة بعد أخرى على الشاشات. يمثل الاثنان تحت نورٍ قاتل، متشابكَي اليدين، محمرَّي الوجهين أو مُنهكين ـ هي صارمة وأنيقة، تكاد تكون ذابلة؛ وهو مُهَشّم الصوت، رطب العينين ـ، ثقل تعايشهما معكوس في ذلك التوتّر الناعم الذي يَعِدان من خلاله أن يتحمّلا الحادث بينما هما يجهدان في أن ينظر الواحدُ منهما إلى الآخر بين الفينة والأخرى، أو بالأحرى يتأكّدان من أنّ الآخرين يرون تلك الغمزة، تلك الحركةَ المتواطئة حيث يُختَزلُ احتمالُ أن يُعذرا: إذا كانت هي ما تزال تستطيع أن تنظر إلى وجهي، فلماذا لا تفعلون ذلك أنتم، أيها المواطنون والناخبون؟ قليلاً ما يهمّ أنّ المرأة سئمة، غاضبة، مفكّكة، ليس بسبب الخديعة (فهي واحدة من خدائع كثيرة) بقدر ما بسبب الإهانة، الحاجة لعرضها كسامريّة حقيقيّة تتلقّى بطريقة بطولية، رائعةٍ، كلَّ كشفٍ ـ كلّ إهانةٍ جديدة ـ دون أن تنقبض. حتى ولو لعنته، وشرعت بالأسهم الأولى كي تضبط حدود الطلب، فهي تعرف أنّه ليس أمامها من وسيلة أخرى غير أن تظهر إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جانبه ـ تظهر، الكلمة الدقيقة ـ، أن تُرافقه في محنةِ الحقيقة والألم تلك، التي تُسْعِدُ كثيراً المتُعصبين للميلودراما السياسية، أن تبتلع كلماتهِ غير المجدية، خطأهُ، خطأه الكبير، الذي ارتكبتُه، أن تضبط ندمها ـ ليس بسبب سلوكها، بل بسبب ارتباكها وهي تُموّه عليه ـ وأن تتحمل دقائقَ العار العشر أو الخمس عشرة تلك، ذلك الاعتراف الذي يُطالَبُ به هنا كلُّ الموظفين العامّين، البلهاء بما يكفي كي يسمحوا لخياناتها الزوجية أن تملأ الصحف الشعبية.

بيل كلينتون؛ السناتور والمرشح الأوّلي الديمقراطي للرئاسة، جون إدواردس (دي ـ إن سي)؛ عضو الكونغرس مارك سودر (ري ـ آي إن)، المشهور بحماسه للتقشّف؛ المرشّح الأوّلي الجمهوري للرئاسة هرمان كاين؛ الجنرال *المذهل* ديفيد بيتروس؛ عضو الكونغرس والمدافع عن المحافظين الجدد نويت غينغريش (آر ـ إن واي)؛ عضو الكونغرس ثاد فييرز (آر ـ إس سي)؛ عضو الكونغرس أنتوني وينر (دي ـ إن آي)؛ عضو الكونغرس إريك ماسّا (دي ـ إن واي)« المرشح للكونغرس توم غانلي (آر ـ أو أتش))؛ السيناتور جون إنسنغ (آر ـ إن في)؛ أحد أشرس نقاد كلينتون؛ عضو الكونغرس فيتو فوسّيلا (آر ـ إن واي)؛ عضو الكونغرس تيم ماهوني (دي ـ إف إل)؛ الرئيس جورج دبليو بوش؛ السيناتور ديفيد فيتر (آر ـ إل أي) مدمن الشهيرة مدام ديبورا جان بالفري؛ حاكم نيويورك الديمقراطي إليوت سبيتزر (المخزي «الزبون رقم ٩»)؛ الرئيس باراك أوباما؛ الحاكم السابق مارك سانفورد (آر ـ إس سي) وواحد فقط بين كثيرين، المدّعي العام لنيويورك، إليا ستراوس. إذا كانت هذه اللائحة تُظهر فقط من تمّ الكشف عنهم، فإنّنا نشكّ بأنّه لا بدّ أن في بلدنا يختبئ عشرات السياسيين الذين يعيشون في سلام مقدّس حياةً مزدوجة حلوةً ـ أو مثيرة ـ. يكفي أن نُلقي نظرةً على جوليانا

مارغيليس، بطلة *الزوجة الجيدة (ذي كود وايف)*، التي تُحاكي أو تُكرّم كلّ أولاء الزوجات الرائعات (رأيت توّاً الموسم الأوّل على قرص دي في دي)، كي تكتشف المرض الذي أثارته فصول العقوبة هذه. مشهد مذهل حيث لا يستطيع المرء أن يتلذّذُ بسقوط *الآخر* الخائن وحسب بل ويُبرّره حين يرى صور الزوجة الناعمة أو الذابلة ـ خصل شعر مصبوغة، تجاعيد العيون، ثياب جذابة ـ مقابل الثديين البركانيين للمساعدة المقبلة.

«الخدمة الأكثر حشمة وحصرية للقاءات الاجتماعية»، كانت تُعلن صفحة الويب. «لدينا موديلات، فائزات بمسابقات الجمال وطالبات ينفذن أرفع متطلبات الذكاء، جمال وسحر. كلّ واحدة من مُرافِقاتنا هي نتاج تاريخ استثنائي ونجاح بجدارة خاصة» وبعدها لائحة أسعار تمتد من النجوم الثلاث فيكتوريا أو أديل (ألف دولار) في الساعة مع خدمة الحدّ الأدنى لساعتين) وحتى النجوم السبعة أندريا أو ثيسيل (من ألفين إلى ثلاثة آلاف دولار في الساعة) لا مؤخرات مفرطة، لا تقويرات صدر خلاعيّة، ولا أفخاذ فاحشة. كان الإمبرورز كلوب في آي بّي يُراهن ليس فقط على الفتيات الأكثر رقياً في المدينة بل على الزبائن الأرفع. كانت صورهنّ تظهرهنّ كفنانات، نساء أعمال أو أكاديميات: «موديل، ممثلة، مُغنّية وخبيرة علاقات عامّة»١؛ بنت وباعت منتجعاً في مانهاتن قبل أن تبلغ العشرين« راقصة كلاسيكية بعينين زرقاوين ساحرتين» «عازفة بيانو منذ كانت في السادسة من عمرها، ذات ذكاء خارق» الطول مثالي.

بحسب رأي مالكيه ـ بولدوغ روسيّ وخطيبته الصغيرة ٢٢ سنة ـ هذه التجارة مشروعة شرعية مقهى الإنترنيت، فهما لم يكونا، كما كانا يوضحان للشابات اللواتي كنّ يملأن مسابقاتهما، يعملان شيئاً آخر غير تسهيل التواصل مع السياسيين الذين يعيشون وحيدين، ورجال الأعمال المنهكين، أو مستثمري وول ستريت العصبيين، الذين كانوا يلجأون إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خدماتهما. لا شيء من الجنس ـ كان ممنوعاً على الفتيات أن يذكرن ما كان يجري في الغرف ـ، رفقة بسيطة وخالصة. كما أنّ الإمبرورز كلوب في آي بّي كان يسجل حساباتهن باسم جوثام ستيك ويتلقى الحوالات من خلال حسابين موجودين في جزر كايمان. حشمة مضمونة. كيف لن تجرؤ على اتصال؟

ـ مرحباً؟

ـ هل تستطيعين أن تقولي لي اسمك ـ صوت غَنِجٍ على الجانب الآخر من الخطّ.

ـ تِيري ـ يُجيب الزبونُ نصفَ مضطرب.

ـ عمَّ تبحث هنا، يا تيري؟

ـ هل عندكم أحد... جاهز؟

ـ ماذا تُحب؟

ـ كيف يجب أن أدفع؟ أين نلتقي؟

كان تيري، نعم، *هذا* تيري.

زوج سوزان البائس السابق. مثل كثير من الزبائن الأغرار. أتصوّره مُنتفخاً باللهفة كما بالتستوستيرون. الشقيُّ يحتاج لأن يعرف بالتفصيل كيف يعمل النادي، عندها فقط سيكون مستعداّ لأن يُسجِّل ويدفع. بعد أكثر من ست مكالمات مع عاملة الاستقبال ـ أيلين دوشامب، ٩٠ ـ ٥٨ ـ ٩٤، خطيبة المالك ـ، يقتنع تيري أخيراً بالاستفادة من خدماته.

ارضي بلَطف من قبل شارليز، وهي شقراء ناعمة، ٢٣ سنة، ٩٢ ـ ٥٨ ـ ٨٩، عينان بنفسجيتان صافيتان، يتحوّل صهري السابق إلى *معتاد*. كم سيتأخر في مشاركة اكتشافه لعرّابه الجديد، مدعي نيويورك العام،

الذي كان (أقول ذلك في السياق) مجبراً على ملاحقة دوائر العهر كما على ملاحقة أسماك قرش وول ستريت؟ أوصل فيكرام لي التقارير الأولى التي تقول إنّ ستراوس صار في ربيع ٢٠٠٦ مدمناً على إمبرورز كلوب في آي بّي. وكما في حال الجواسيس الشيوعيين يستخدم شريف نيويورك اسماً مستعاراً كي يغطي على سريته الجنسية: جورجز رينارد. فرنسي؟ «جدّاي» كان يتباهى أمام الفتيات الفضوليات.

تماماً كما سينتهي بالنشر في أكثر الصحف الاجتماعية والبرامج الحوارية تفاهة على سطح الكرة الأرضية، لم يكن جورج رينارد زبوناً حساسا أو مؤدّباً، كما كان يُنتظر من شخص مستعد لأن يدفع حتى خمسة آلاف وخمس مائة دولار لساعة واحدة مع موديلات الذروة الجديدة اللواتي تُرَوّجهّن الوكالة. بخلاف تيري، الذي كان يبحث عن بعض العزاء في اختفاءاته السريعة، كان رينارد يتمتع بحياة عائلية مُرْضِية تماماً ـ هكذا سيُصرّح ـ وكانت اختفاءاته استجابة لدوافع جسدية خالصة و«لحاجته الملحة للتحكّم بالشدة النفسية» لا شيء من الرومانسية ولا من الأحاديث القصيرة ولا الخيال. كما حصل وقال لإيفا، واحدة من المرافقات القليلات اللواتي لم يشكون من معاملته: «اضربي وانفجري دون حاجة للشكر، يا سيّدتي».

بحسب شيلا، المسؤولة عن تأمين مواعيد للإمبرورز كلوب في. آي. بّي، ردّت ذات صباح على مكالمة السيد رينارد، الذي كان يطلب فتاة تذهب إلى غرفته في والدورف أستوريا فوراً. شيلا، الفخورة بفعاليتها قامت بالتسويات وهيلين ٩٤ ـ ٦٣ ـ ٩٥، مثلت منتصفَ الظهيرة. بعد أقل من ربع ساعة، طلب رينارد مرافقة جديدة، ميلّي ٩٠ ـ ٥٨ ـ ٨٨، التي طارت في طريقها إلى غرفته نحو الساعة الرابعة. أخرى، راكيل، ٩٨ ـ ٦٤ ـ ٩٥، استدعيت في الساعة الثامنة ليلاً. حتى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنّ واحدة تحمل لقب شيلا ذُهلت. وبحسب ما راحت مسيرة ستراوس تلقى تصفيقاً أكثر وأعماله كمدّعي عام تصبح أكثر ضغطاً ـ ومن بينها اتهامه لي بالنصب ـ كانت شهوات رينارد تتكثّف وسرعان ما طالب بخدمة جديد، رحلات ليوم أو يومين مع واحدة من الفتيات. ما من مشكلة، يا سيّد. لكن لكلّ شيء له ثمنه وصار تبرير المدفوعات أصعب. ستراوس، الحاذق دائماً أنشأ شركة وهمية يقوم نشاطها الوحيد على تثليث إيداعاته.

حضرت في ظهيرة الثامن من أيار ٢٠٠٨ الدبقة مجموعةٌ من الشرطة الفيدرالية وعلى رأسهم التحرّي هارينغتون، إلى مكتب نائبِ نيويورك العام كي يُحقّق في شركة، كانت بحسب سجلات النظام الضرائبي قد حولت مبالغ مهمّة إلى حسابٍ خارجيّ مرتبط بشبكة دعارة. «هناك سياسيّ مهمّ مرتبط بالحالة» نبّه. لم تمضِ ثلاثة أيّام حتى كشفت البنوكُ التي قامت بالتحويل عن اسم الشخص. سارع مكتب التحقيق الفيدرالي مستبقاً حالة قوادة بل اختلاس، لمراقبة كلّ صفقات ستراوس وحصل على أمر قضائي لاعتراض هواتف إمبِرورز كلوب في. آي. بي.

في الخامس عشر من حزيران ـ مصادفة ماحقة: اليوم السابق على تقديم ستراوس لاتهامه الرسمي ضدّ جي في كابيتال منجمنت ـ، رتّب جورجز رينارد رحلة إلى بوفالو مع الفتاة الأعلى ثمناً في إمبرورز كلوب في. آي. بي، والأكثر طفولية «الجذابة جنسياً بشكل هائل»، الطامحة لأن تُصبح مغنية تُدعى ربيكا سنودرز سميث، إحدى وعشرون سنة، ٩٣ ـ ٦١ ـ ٩٤، التي كانت تحمل اسم سينا ميغنون الفنّي (الغلاف المستقبلي لبلاي بوي، آب ٢٠٠٩). بحسب تقرير مكتب التحقيقات الفيدرالي، اتصل رينارد في الثالثة مساءً بشيلا كي يعرف ما إذا كان الدفع قد تمّ في وقته وأكّدت له هذه بأنّ «رزمته» قيد التحويل. في

العاشرة ليلاً؛ صعدت سينا في مصعد فندق الشيراتون في طريقها إلى الغرفة ٢٠٦. «الحقيقة أنّني استلطفته منذ البداية»، صرّحت الموديل في مقابلة ساعة الاستماع القصوى. «تصرّف بشكل ممتاز، تكلّمنا قليلاً وقدّم لي كأساً. الشيء الوحيد الغريب هو أنّه كان يرفض أن يخلع جوربيه». الجوربان! يا لها من ضربة معلّم، يا فيكرام! ما كانت لتخطر ولا على بالي أنا!

في السادس عشر من تموز، اقتحم مكتب التحقيقات الفيدرالي مكاتبَ إمبرورز كلوب في آي بي، زريبة خنازير لا تليق باسمه، واعتقل البولدوغ وفتياته الصغيرات بتهمة الدعارة وغسل الأموال. وللعدل لم يكن هناك سبب كي ينشروا أسماء زبائنه. باستثناء اثنين بارزين: المستثمر تيري والاس والمدعي العام إليا ستراوس. لماذا نشر مكتب التحقيق الفيدرالي تقريراً من خمس عشرة صفحة لا تفعل شيئاً آخر غير أنّها تُفصِّل نشاطات هذين الزبونين المعتادين على إمبرورز كلوب في آي بي؟ فرط في الحذر؟، أتصوّرُ. لمرّة بدا أنّ العدالة عمياء. عندما وضعت نيويورك تايمز هذا العنوان على صفحتها الإلكترونية: ستراوس مرتبط بشبكة دعارة«، أغلقت ملف شريف وول ستريت للأبد. عذابه مع وسائل الإعلام اللاحق الذي لن أتنازل وأفصّل تفصيلاته اللاأخلاقية، ربّما ما كان ليفيد في وقف التحقيقات ضدّ في جي كابيتال منجمنت ـ وهو ما لم أبغِهِ قط ـ، لكنّه منحني أثمن ما كنّا حينها أنا وفيكرام بأمسّ الحاجة إليه: مزيد من الوقت.

ثنائي (مع جوقة جواسيس)

كان الثلج ينفجر على بلور النوافذ حين نشرت لي أمامي نتيجةَ عملها الأخيرة، تقريراً قصيراً من عشرين صفحة تقريباً. نور الغرفة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الخفيف يبرز زوايا وجهها، مع أنّني لم أستطع أن أميّز فيه تعبر انتصار أو رضا، بل بالكاد ميّزتُ تعبيرَ حزنٍ ناعماً. أبقيتُ على الوثيقة بين أصابعي كما لو أنّها منديل وتركتها تطفو فوق الطاولة.

ـ هكذا إذن، هنا توجدُ كلّ الأجوبة ـ سخرتُ.

كانت لي ترتعدُ. كانت قد وصلت قبل دقائق ولم أسمح لها بأن تذهب لتُبدّل ملابسها. انتزعت منها المعطف انتزاعاً تقريباً وجررتها إلى المكتبة. قدّمت لها فنجاناً من شاي الحمية الذي تستخدمه كي يداخلها الدفء. عن قرب أكبر كانت تبدو متوترة ومتعبة، لكنّني تصوّرت أنَّ موضوعَ ربطِ خيوط قصةِ الخيانة والكذب تلكَ التي تَرَكَتْها كما تركتني، فارغة.

ـ على الرغمِ من كلّ جهودنا، فقط استطعنا أن نتتبع أربع مكالمات من مشروع فينونا، استطعنا أن نعرف فيها نُوَا ـ صوته الكهفي بدا لعجوز ـ تؤكّد ما كنّا نعرفه، انتماءه إلى حلقة سيلفرماستر خلال سنوات الحرب.

لا أستطيع أن أقول أن خيبتي كانت كبيرة: كنتُ قد انتهيت إلى التأقلمِ مع فكرة أنّ أبي لن يكون إلا الشبح الفرورَ الذي كنتُ أجرجره معي منذ طفولتي. سويت جلستي في كرسيَّ، وكمريض في مرحلته النهائية، انتظرتُ التشخيص.

ـ سوف أحكي لك كيف كان يعملُ نظامُ التشفير الذي استخدمه السوفييت لنقل الرسائل إلى موسكو ـ أخذت لي بعضَ الأوراقِ ونشرتها أمامنا ـ أولاً كان ضابط المخابرات يكتبُ الرسالة التي عليه أن يرسلها بأكبر قدرٍ ممكن من الإيجاز ويبدأ بتغيير الأسماء بكلمات مشفرة. بعدها وبالاعتماد على دفتر الرموز، كان الضابط

يُحوّل النصَّ إلى مجموعات من أربعة رموز يمكن أن تمثل مقاطعَ، كلماتٍ، جملاً بل وحتى علاماتِ ترقيم.

- تابعي.

- ما إن تُستقبل في موسكو - صارت نبرتها بطيئة وجافّة - حتى يشرع ضابط الـ ك جي بي أو الإدارة المركزية للمخابرات، مُستخدماً دفتراً مماثلاً لدفتر زميلهِ في الولايات المتحدة، بالعملية العكسية. إنّه نظام، كما قلتُ لكَ، لا يمكن اختراقه. فقط عندما قرّر هتلر أن يقطعَ تحالُفَهُ مع ستالين وغزا الاتحادَ السوفييتيَّ فجأة، لم يعد الخبراء الروس يَكْفون كي يُنتجوا ما يكفي من الدفاتر، وبمناورة، سيظهر أنّها كانت كارثية بالنسبة لأمنِ نظامهم، راحوا ينسخونها ويستخدمونها في أكثر من مناسبة، بعد سنوات انتهى فريق وكالة الأمن القومي إلى أن فكّ رموز هذه العملية وسطا على دفترِ تحويلِ اكتشفه الجيشُ خلال عملية تحريرِ أوروبا ونجح أخيراً في إعادة إنتاجِ قسم كبير من مختلف دفاتر الرموز.

تكتّفت لي كطالبة حصلت على أفضل العلامات في صفّها. لا أدري ما إذا كانت تنتظر جائزة أو تهنئة.

- لنبدأ برسائل روزنبرغ - اقترحتُ.

أعادت زوجتي ترتيبَ أوراقها وغرزت نظرها فيها.

- تُبين رسائل مشروع فينونا أنّ جوليوس كان يعمل لصالح الروس منذ الثلاثينات - فرقعت براجمَ أصابعها -. إحدى وعشرون رسالة من هيئة الشعب للشؤون الداخلية بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ تُبَيّنُ عملَهُ كمُخبر. تذكرُ الأولى منها، أيار ١٩٤٤، أن شبكته ناشطة وتعمل جيّداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ وهل هم من سلّموا مخططات القنبلة للروس؟

ـ لا ـ صار صوتُ لي أقوى ـ. تؤكّدُ البرقياتُ أنّ هذا كان من عملِ هاري غولد وكلوس فوشز، على الرغم من أنّه لا شكَّ في أنَّ جوليوس ضم شقيقَ زوجته، ديفيد غرينغلاس، الذي كان يعمل وقتها كفنّيٍ في مختبرِ لوس آلاموس، كي يشاركه معلوماتٍ حول مشروع مانهاتن.

ـ وإثيل؟

ـ هناك رسالة واحدة فقط يَظهر فيها اسمُها؟ يُشار فيها إلى أنّها على الرغم من كونها شيوعية متعصبة، إلا أنَّها لم تلعب أيَّ دورٍ في المؤامرة. بحسب الرسائل السوفييتية أُبعد جوليوس عن الشبكة في شباط ١٩٤٥.

ـ إذن لماذا أُعْدِمَت؟

ـ اتهمَها أخوها ـ برزت شرايينُ رقبة لي ـ بهدف الحصول على حصانة لزوجته، شهد بول ضدّ إثيل... اخترع الاتهامات أو على الأقل بالغ بها.

ـ باعها كي ينجو...

ـ ما كان يجب أن تُحاكم إثيل أبداً، فكيف أن تُدان بالموت بالكرسيّ الكهربائي. لو أنّ الحكومة أظهرت الرسائل خلال المحاكمة لكان جوليوس حُكم في أسوأ الحالات بسنواتِ سجنٍ قليلة ولكانت إثيل بُرِّئت.

فجأةً انهارتْ زوجتي لثانيةٍ متأثّرةً بهاتين المِيتتين البعيدتين. لي القديمة، عادت لي، التي كانت تُدافع عن كلِّ القضايا النبيلة، لتظهر

للحظةِ. بالمقابل لم أنجح في أن أشعر بالتأثّر. شيء ما كان يمنعني من التعاطف مع الشيوعيين، مهما كانت الأحكام الصادرة بحقّهم ظالمة.

ـ وهيس؟ ـ

ـ عشرات البرقيات تُشير إلى عملِهِ كجاسوس. تؤكّد برقية تعودُ إلى عام ١٩٤٣أنّه اجتمع مع العميل أَ (أي إسجاك أخمروف) كي يُسَلِّمَهُ معلوماتٍ من وزارة الخارجية ـ راجعت لي ملاحظاتها وتنفّست عميقاً ـ وبرقيّة أخرى تُؤكّد أنّه تمّ تكريم أربعة عملاء مكافأة لهم على جهودهم ضدّ الفاشية، بأربع سجّاداتٍ من بخارى، بينهم هيس.

ـ هكذا إذن، أكبر كذّاب في تاريخ أمريكا كان ألجير... وماذا عن صديقنا غلاسّر؟

ـ أيضاً لا توجد شكوك حول وجوده في الحلقة. تقولُ برقية من عام ١٩٤٤ : هارولد غلاسّر فلاّح قديم»، وهو ما يُبرهن على انتمائه للحزب. نحو عام ١٩٣٧، حين وجد نفسه منزعجاً في وزارة الخزانة أرسله مراقبه السوفييتي إلى خليّةِ تشامبرز كي يضمن له الوصول إلى هاري وايت.

ـ والبقيّة؟

ـ على الأقل خمس وثمانون برقيّة مرسلة ما بين ١٩٤٢ و١٩٤٥ تُشير إلى حلقة سيلفرماستر ـ تؤكّد لي ليَ ـ. ناثان وزوجته هيلين، أولمان، سيلفرمان، كوي، كوري، أدلِر...

ـ جميعهم كانوا عملاء شيوعيين.

ـ جميعهم.

رفعت لي أصبعاً إلى فمها وقضمت جزءاً من ظفرها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ برقيات أخرى تؤكّد أنّ هيلين سيلفرماستر كانت تتعاون مع زوجها وتذكر الراتبَ الذي كانا يتلقيانه من الروس، وكذلك تسليمهما في عام ١٩٤٤ قسيمةً إضافية بمبلغ ٣٠٠ دولار.

ـ كان الشيوعيون يتلقون مكافآت...

ـ يظهر أولمان في أربعٍ وعشرين برقية وسيلفرمان في اثنتي عشرة. هناك تسع برقيات تُشير إلى كوري ومثلها تُوَثّقُ انتماءَ كوري وأدلِر للجهاز.

ـ ووايت؟

رفعتْ لي يدَها إلى صدرها.

ـ هل أنتِ بخير؟ ـ سألتُها.

ـ خمس عشرة برقية تَذكرُ وايت ما بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ ـ تسرّبت إلى وجهها لمصةُ ألم ـ في واحدة منها، يعرض نفسَهُ كي يُساعد موسكو في كيفية التعامل مع الحكومة البولونية في المنفى ويؤكّدُ أنّ الولاياتِ المتحدة ستنتهي بقبولِ ضمّ السوفييت لأستونيا، ليتونيا وليتوانيا. هناك أخرى من عام ١٩٤٥ تُثبِت أنّ وايت المُنْتَدَب إلى مؤتمرِ الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو التقى مع عملاء سوفييت كي يقدّم لهم معلوماتٍ حول إستراتيجية الولايات المتحدة. رسالة أخرى تؤكّدُ أنّه تلقى سجادةً أخرى من سجاد بخارى اعترافاً بخدماته. هناك نصٌّ دامغ يُشير إلى انزعاج سيلفرماستر عندما علم بأنّ وايت يتواصل مباشرةً مع هيئةِ الشعب للعلاقات الداخلية من دون وساطته. ورسالة من آب ١٩٤٤ تنقل اللقاء التالي بين وايت وصلة وصله السوفييتي ـ لم تتجنّب لي إغواءَ قراءتها لي بصوتٍ عال:

«فيما يتعلّق بتقنيات عمله اللاحق معنا، يقول خوريستا إنّ زوجتَهُ مستعدَّة لأيّ تضحية: هو نفسه ليس قلقاً على أمنِهِ الشخصيّ، لكنْ تسلّلاً واحداً يمكن أن يقود إلى فضيحة سياسيّة وتشويه سمعةِ كلّ حلفاءِ المسار الجديد، وهو ما يوجب الحذر على وجه الخصوص. سألَ هو إلى أيّ حدٍّ يستطيع [مقطع يصعب فكّ رموزه] عمله معنا. أجبتُه إنّ عليه أن يتوقّف. خوريستا لا يملك شقّةً مناسبةً للقاءاتنا؛ فجميعُ أصدقائه لديهم عائلات. يجب أن تتمّ الاجتماعات في بيوتهم كلّ ٤ أو ٥ أشهر. يقترح محادثات غير متكرّرة، لا تدوم أكثرَ من نصف ساعة، خلال قيادته لسيارته».

- على الرغم من أنّها تقدّم تفاصيل مقلقة - اعترفتُ - إلا أنّ هذه البرقيات لا تؤكّد في الحقيقة إلا ما كنّا نعرفه...

- وهكذا نصل إلى والدك - راحت عصبيّة زوجتي تصبحُ في كلّ مرّةٍ أكثرَ وضوحاً - كما قلتُ لك، في النهاية وجدنا فقط أربع برقياتٍ تُشير بالتحديد إلى نُوَا. الأولى تعود إلى أيلول ١٩٤٢، تقتصر على تأكيدِ انتمائهِ إلى حلقة واشنطن - نشرت لي ورقةً أمامي وقرأتْ:

«قام زورو اليوم بتسليم روبرت (سيلفرماستر) المعلومات المطلوبة عن قرض الحكومة الصينية».

- الشيء ذاته الذي تقوله الأرشيفات الروسية - نبّهتها.

- الثانية أكثر وضوحاً. تؤكّد أن نُوَا نقل إلى الروس حالةَ اتفاق القرض والإيجار لبريطانيا العظمى، بمساعدة عميل مُغفل الاسم - قرَأنا معاً بصوتٍ واحد.

«بعد تأخّر يعود لأسباب عائلية، نقل إلينا أنجل وثائق زورو المتعلّقة بـ [نص يصعب فكّ رموزه] والخطّة الاقتصادية لمساعدة البريطانيين».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ الرسالة الثالثة، تموز ١٩٤٤، يبدو أنّها تعكس صدى قلقِ حلقةِ واشنطن بخصوص سيلفرماستر. ومن حساب جديد يظهر اسم هذا العميل الآخر:

ـ « أظهر زورو لألبرت (أخمروف) ممانعته للاستمرار بالعمل مع ريتشارد (سيلفرماستر). يتهمه بتعريض الجهاز للخطر وباتباع سلوكٍ هو في كلّ مرّة أكثر اضطراباً. وعده ألبرت بالتدخّل في المسألة. قال زورو إنّه غير مستعد للاستمرار إلا إذا تبدّل حال الأشياء [مقطع يصعب فك رموزه]. يؤكّد ألبِرت أنّ أنجِل بعكس زورو يستمرُّ بإرسال رسائله بطريقة عادية».

ـ أنجل ـ كرَّرتُ.

ـ أخيراً، هناك برقية تعود إلى حزيران ١٩٤٥ تُشير إلى القطيعة النهائية بين والدك وسيلفرماستر:

«منذ أكثر من أربعة أشهر لم يحتكّ ريتشارد بزورو. مجموعة بابيلونيا (واشنطن) مفكّكة. وحده أنجِل يُحافظ على تواصله مع ألبِرت ووعده بأن تتكلّم مع زورو كي تُطمئنه».

ـ وأيّ شيطان كان أنجل هذا؟ ـ سألتُ.

جوقة المصرفيين

ما عاد بالإمكان إخفاء أعراض المرض. الطفيليات التي احتضناها أنا وفيكرام في مجال المشتقات المالية في جي في مورغان، التهمت هياكلَ كلِّ مؤسّسات وول ستريت، بير ستيرنز، أضعف كبار بنوك الاستثمار، كان الأول في الانهيار. لكنّ النزيف ما كان ليتوقّف. مغلقين على أنفسنا في ملجئنا في الطابق الثامن، حيث كنّا، أنا وفيكرام، نشكّل تلك الحياة

الموازية التي تربط بيننا في تواطؤ بين الجريمة والفراش، كان فيكرام يجهد عبثاً في رسم نموذجٍ لا يعني النهاية الواضحة لـ جي في كابيتال منجمنت.

ـ إذا لم تتدخّل الحكومةُ، فإنّ كلّ بيادقِ وول ستريت ستسقط الواحد تلو الآخر ـ لخّص ـ. ونحنُ معهم.

الاثنين الثامن من أيلول، قبل أسبوع من الكارثة، كان قد بدأ العدّ التراجعي.

ـ هذا جنون ـ كان فيكرام يلعبُ بوضعِ وخلع الخاتم الذهبيّ الضخم الذي كنتُ قد أهديته له في ذكرى علاقتنا السنوية ـ. في تموز، كان منظمونا يؤكّدون أنّ فريدي ماك وفاني ماي قد تعافت حساباتهما. والآن يُعلنون أنّهم بحاجة إلى مئتي مليار دولار كيلا يعلنا إفلاسَهما. تصوَّرْ فقط ما سيكون قد أخفاه في دفاتر البقيّة.

ـ بادئاً بليمان ـ قلتُ.

ـ بادئاً بليمان ـ ردّد.

بينما لم يبدأ قسمٌ كبير من زملائنا يستيقظُ بعدُ من إجازاتِ الصيف الوديعة، كنّا نحن قد عدنا إلى المدينة منذ أواسط آب. كانت رطوبةُ تلك الأسابيع اللزجة قد دفعتنا للاسترخاء. بتطبيق صيغ فيكرام على ليمان بخاصة وعلى جميع زملائنا بعامّة، كانت النتيجة مُقلقة إذا لم تكن كارثية فإنّ أيّ اضطراب في الأسواق سيضع في حالة خطرِ النظامَ الماليَّ كلّه، الذي التهمته من داخله مشتقاتُ قروضنا العقارية النهمة. إذا سقط ليمان فلن يتأخّر جي في كابيتال منجمنت أسبوعاً واحداً في أن يلحق به.

ـ لا أرى كيف يُفكّرون كي يُوازنوا ميزان مدفوعات ليمان في وقت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قصير ـ فيكرام يعتصر رأسه. لكن الأغرب هو أنّه يبدو أنّ ما من أحد غيرنا ينتبه للخطر.

ـ لأنّنا، بخلافِ أولئك المنافقين، نعرفُ وضعَ سجلاتنا ـ اعترفتُ.

كانت الكلبية درعيَ الوحيد في وجهِ واقعِ حساباتنا. كانت المعادلة بسيطة: إفلاس بير ستيرن + ذعر معمَّم + إفلاس فاني ماي وفريدي ماك + ذعر مُعَمَّم + سقوط ليمان + ذعر معمَّم+ إفلاس جي في كابيتال منجمنت = الهرب أو السجن. لن يكون فيكرام بكلّ دهائه قادراً على أن يحيك عالماً أقل غموضاً.

ـ يقولون إنّ بيرنانك يعملُ على عدد من المبادرات لإنقاذ ليمان ـ تمتم.

حتى في لحظات القنوط، كان فيكرام يظهر صامداً ورياضيّاً: كانت عضلاته تقوى وتجعله يتألّق مثلَ تمثال.

ـ هذا فقط يعني أنّ رئيس الاحتياطي الفيدرالي لا يملك أدنى فكرة عما سيفعله ـ ترجمتُ.

ـ إذا لم ينجح ديك فولد في أن يصوغَ اتفاقاً مشابهاً للذي توصّل إليه مع لونغ ـ تيرم، لا أظنّ أن ليمان سيصل إلى نهاية الأسبوع القادم ـ حكم صديقي برباطة جأش زائفة.

نادراً ما كان فيكرام يُخطئُ عندما ينطقُ بمثل تلك التنبؤات. عيناه شديدتا السواد كانتا مثل كوكبين يوشكان على الانفجار.

ـ فولد أعندُ من بغلٍ ـ ضرب الطاولة ـ. سيحاولُ أن يُحافظ على مصرفهِ حتى النهاية. وسيستهين بالوقتِ القليلِ المتبقي له كي يعثر على مشترٍ.

دعا ديك فولد صباح العاشر من أيلول لمؤتمر صحفيّ ليُطمئن

المستثمرين. تابعناهُ أنا وفيكرام مباشرة عبر دارة تلفزيون مغلقة. لم يكن وجه مدير ليمان التنفيذي المتجهّم مطمْئِناً، كان كما لو أنّ في تماسك كلماته وإيماءاته المفتعلة يكمن حيوانٌ ضارٍ ومُحاصر. خطب خلال أكثر من نصف ساعة، قائلاً إنّه سيُقَلّص هنا، وإنه سيبيع هناك وإنّه سيعود أكثر فعالية، لا أدري ماذا يوجد أكثر هنالك، دون أن يعرض فكرة واحدةً واضحة حول الوضع الحقيقيّ للبنك. خلفه كانت أحرف اسم ليمان الباهتة ردّاً مريعاً على التباس كلماته.

ـ هل سمعته؟ ـ ارتاعَ فيكرام.

ـ نوايا جيدة وما من إجراء واحدٍ مُحدَّد ـ استشطّت غضباً ـ. لم يفعل المتخبّط شيئاً آخر غير أنّه أشار إلى السرّة.

بقيتُ في تلك الليلة لأنامَ في شقّة فيكرام المفتوحة، العنبر الأبيض الأنيق الذي لا شيء فيه يُذكّر بشقته الصغيرة متعدّدة الألوان في تشيلسي. كنتُ بحاجة لأن يربطني إلى السرير ويلجني بعنف. لكنّ الرعشة هذه المرّة لم تكن مُخلّصة. تركني مفتوحاً في قناة، لكنّه لم يُنظّف روحي. بالكاد استطعتُ أن أنام. لأوّل مرّة صارت الحاجةُ لأن أحكي لِلِي ولولديّ ما كان يحدث حقيقة في قدسِ أقداسِ جي في كابيتال منجمنت مُلحّةً جدّاً. غضب إسحاق هو الأقل أهمية. لكن كيف أواجه توقعاتِ لي وضعفَ سوزان؟

حين نهضت كان شعاع نورٍ خفيف يُضيء ظهرَ فيكرام العاري. لم يُواسني التفكيرُ بأنّني على الأقل أستطيعُ أن أستيقظ كلَّ صباح إلى جانبهِ. ما إن وصلنا إلى مكاتبنا قرابةَ الثامنة حتى بدأت أتصلُ بإصرار بهاتف فولد بعد فشلِ مؤتمرهِ الصحفيّ، لم يكن باستطاعة الشقيّ أن يرفضَ الكلامَ معي حتى ولو لثوان قليلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ هل أنت تُحاول من جديد؟ ـ نظر إليّ فيكرام من طرفِ عينه عند الظهيرة.

أخيراً بعد مُحاوَلاتٍ لا تُحصى استقبل فولد المكالمة. ما إن عبّرتُ له عن قلقي من الأخبار الأخيرة حتى انطلق المنفاخُ في خطابٍ لا نهاية له، أصرّ على أنّ جورنال بالغت في صعوباته، وإنّ صقور الصحافة كانوا يبحثون عن تدميره (كان هذا صحيحاً) وأنّ ليمان سوف يُقاوِم حتى النهاية. كان لعدوانيته وقع قنوط خالص.

ـ ماذا قال لك؟ ـ سألني فيكرام.

ـ صبّ جام غضبه عليَّ وأغلق الهاتف ـ اختصرتُ.

كشف لي صديقي عن أسنانه البيضاء والمصقولة بأقرب ما يكون إلى الابتسامة التي لم أرها منذ أسابيع.

ـ ـ يُقال إنّ بنك أمريكا كما باركليز يريدان أن يشتريا ليمان ـ أمال رأسه.

ـ هذا لأنّهما لم يدرسا بعد أرقامه ـ بدأتُ أمقتُ تشاؤمي ذاته.

بدا لي شبهَ مُضحِكٍ التأكّد من أن كلَّ شيء حولنا مريح وعاديّ تماماً. كانت التعليقاتُ الماليةُ على الشاشات ومواقعِ ويب بلومبِرغ وسي إن بي سي وسي إن إن تُتابع تلقيننا درس استعادة السوق القريبة لعافيتها بينما الوسطاء والمستثمرون يواصلون أعمالهم اليومية، غير آبهين بالخطر النوويّ الذي كان يسقط فوق رؤوسنا.

ـ إذا ما نظّمت الحكومةُ عمليةَ إنقاذ فستثير سخطاً هائلاً بين الناس العاديين ـ حكم فيكرام ـ. كيف ستُبَرّرُ للمواطنين أنّها تُصَحّح سوءَ إدارةِ بعضِ الإداريين بضرائبهم؟

ـ لا أشكّ بذلك، لكنّ البديلَ سيكون أسوأ بشكلٍ مُطلق ـ ابتلعت

لعابي ـ إذا لم تنجح وزارة الخزانة والاحتياطي الفيدرالي بأن تُنْقِذَ عمالقةُ وول ستريت ليمان، سيكون هؤلاء الناس العاديون من سيدفع الثمنَ من جيوبهم.

مرّةً أخرى قرّرتُ أن أقضي الليلةَ مع فيكرام، وهي حالة لا شيء غير طبيعيَ فيها ـ اعتدنا أن ننام معاً مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع ـ، إلا في حالة وجود طارئ مُستجد: السرّ الذي كنا نشترك به أنا ولي منذ بضعة أسابيع. للأسف كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أبقى إلى جانبها، وأنا أعرف أنّ شاغلها الوحيد في تلك الساعات المضطربة هي تلك الخلايا التي كانت تتراكم في بطنها.

أغلقنا يومَ السبت الثاني عشر من أيلول جحرنا على أنفسنا باكراً. إذا كان بعض المُحَلّلين الماليين يجترّون صيغَهم وتقاريرهم في الطابق العلوي، فإنّ إحساسنا كان إحساسَ أن نكون آخر سكّان المعمورة.

ـ مصادري تُخبرني بأنّ بنك أمريكا فضّل التوصّل إلى اتفاقٍ مع ميريل لينش ـ حكى لي فيكرام بينما كان يمضغ بعضَ الشطائر ساعةَ الغداء ـ. هذا يعني أن مصير ليمان صار بأيدي باركليز.

ـ لن يخرج من هناك شيء، سوف ترى ـ غطيتُ وجهي بيديَّ.

عدنا يوم الأحد لنُعَسْكِرَ باكراً واعيَيْن بأنّه لن يكون يومَ عطلة. كانت الحكومة قد استدعت إلى بناء الاحتياطي الفيدرالي جميعَ أصحابِ الأمرِ في وول ستريت. كانوا هناك لمهمّة واحدة فقط: إعادة الحياة إلى ليمان براذرز. يا له من شعور غريب أن تشهدَ عن بعدٍ غرق عالمنا! ويا لمفارقةِ الشعور بأنّني ساهمتُ في هدمِ الرأسماليةِ بطريقة أكثر فاعلية من كلّ مؤامراتِ والدي الشيوعي!

ـ يُصرّ باركليز على أنّه إذا لم يكن هناك مالٌ من الحكومة يضمنُ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فلن يُخاطر بشراء ليمان ـ لخّصتُ لفيكرام بعد أن أغلقتُ الهاتف مع أحد روابطنا في الاحتياطي.

على الرغم من أن جيزنر كان قد منعَ الهواتف الجوّالة، إلا أنّ أحد مساعديه كان يعمل لصالحنا ونجح في الإبقاء علينا مطلعين على ما كان يجري في الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك في الزمن الواقعي تقريباً.

بولسون (ينظر إلى السماء) بِرنانك وجيزنر

ـ المسألة أنّه ما من طريقة لحساب مقدار القروض العقارية عالية المخاطر التي على كاهل ليمان، بدقّة. ـ لم يتوقّف فيكرام عن النقرِ على حاسوبهِ المحمول، غارقاً في ذلك الواقع الافتراضي الذي كان يُشكّل بالنسبة إليه الواقعَ الحقيقيّ.

ـ يُحاول بولسون وجيزنر أن يجمعا خمسةً وثلاثين مليار دولار كي يشتريا أصول ليمان السامة.

ـ هل تعتقد أنّهما سينجحان؟

ـ نظريّاً ما زال هذا ممكناً ـ ميّزتُ نبرةَ ضيقٍ في جوابي ـ. يبدو أنّهم توصّلوا إلى اتفاقٍ أوّلي، وإن كان ما يزال هشاً. لكنَّ هذا لن يُفيد في شيء ما لم تتدخل في ذلك صناديق عامّة.

ـ هل ستنجح؟

ـ هل تريد رأيي صريحاً، يا فيكرام؟ ـ درتُ حول المكتبِ وعانقته من خلفٍ ـ. أعتقدُ أنّ ساعة حزم الأمتعةِ قد حانت.

لم تمضِ خمسُ ساعات حتى ثبتت تكهناتي. ثمّ وبعد ثلاث أو أربع مكالماتٍ هاتفية أخرى تأكّدت أنّ الاتفاق مع باركليز ذهب أدراجَ الخراء.

ـ لم يُوافِق المُنظِّمون البريطانيون على العملية لأنّها لم تلقَ ضمانات الحكومة. وبولسون ليس في ظروف تسمح له بأن يُعطيها.

ـ إذن هذه هي النهاية...

توجّه فيكرام باعتداله المعتاد إلى مكتبه وانهمك في مهمَّة إنقاذ ما يمكن حتى الآن إنقاذُهُ من جي في كابيتال منجمنت. بضعة ملايين من هنا وهناك، مُحَوّلة إلى الخارج بأسماء أصدقاء مُتَبَرِّعين بأسمائهم، ما بالكاد يكفي لتسهيل هربنا. عند السابعة مساءً وافانا مُخبرونا بخبر أنّ الحكومة تركت ليمان برادزر، رابع أكبر بنوك الاستثمار في العالم، يُعلن إفلاسه. كان محيطُ مقرّ الاحتياطي الفيدرالي، المنطقة المالية في نيويورك، يظهر مقفراً كما في أيّ يوم أحدٍ آخر. لم يكن باستطاعة السياح القليلين، الذين كانوا ما يزالون في تلك الساعات يتجوّلون في طريقهم إلى أطلال مركز التجارة العالمي، أن يتكهّنوا أنّه على بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خطوات منهم يوشك أن يقعَ الانهيارُ، ربما الأعنفُ من انهيار الحادي عشر من أيلول.

ـ هتف رئيسُ لجنة الأوراق المالية والبورصات توّاً لِفولد كي يخبره ـ تمسّكتُ بفيكرام.

ركّز صديقي في الساعات التالية على تصميم طرقِ هربنا. عندها فقط قرَّرتُ أنّ لحظةَ أن أشاركه سرّي قد أزفت. كانت يداي ترتجفان.

ـ لي حامل ـ قلتُ ولم أزد شيئاً.

لم ألحظ أي مفاجأة أو انزعاج في نظرته المركَّزة والنافذة. ربّما رفّة أجفانه كانت أطول من المعتاد.

ـ وماذا تُفكّر أن تفعل؟ ـ نبرته المحايدة هدّأتني.

ـ هي قرّرت أن يكون لها ـ اعترفتُ ـ. أطلبُ منكَ أن تقوم بالترتيبات اللازمة كي يستطيعا أن يعيشا دون منغصات.

ـ ونحن؟ ـ شدّ على يدي.

ـ نحن علينا أن نسرع.

أريا نُوَا

سماء طيفية من دون أيّ أثرٍ للنور. أتصوّرك أمام النافذة، بعينين مفتوحتين جيّداً، مهووساً بتلك الظلمة من دون مُسكّنات. عدتَ لتستيقظ في الخامسة فجراً كما في كلّ يومٍ منذ أن رحلت. عند تمييز انعكاسات الفجر الأولى تستلقي من جديد على السرير. في الخزانة ترتاح أطقمك الثلاثة أو الأربعة، على الرغم من توسّلات أمّي الأخيرة، استطعت أن تنتزعها من يديها؛ هناك على الطاولة، بضعة عشر كتاباً وغمد كمان. في الأيّام الأخيرة أفسح القلقُ الطريقَ أمام المرارة التي تخترقُ جسدَك من

القدمين وحتى الرأس. إذا كنت في السابق لا تستطيع أن تُقاوِم فكرةَ أنّ جهودَ حياتك قد ذهبت عبثاً فإن المُبررات الأخيرة التي تُبقي على تألّقك قد دُمِّرَتْ الآن. ومع ذلك لا تتردّدُ، لا تتوبُ. عملتَ، مثلها، ما كان عليكَ أن تعمله. مع فارق أنَّ كليكما انزويتما الآن على نفسيكما ناقضين الوفاء الذي أسرفتما به خلال عقد ونيف.

فجأة طلعَ الفجرُ وامتلأت الغرفةُ بأضواء ملتهبة تُجبرك على أن تلوذ بالحمّام. في البعيدِ تُمَيِّزُ صخبَ العصافير، العصافير اللعينة، التي تُصرُّ على الزقزقة ما إن ينبلجُ الصبح. تتعرّى دفعة واحدة، مدفوعاً بسرعة مباغتة. تُديرُ الصنبورَ وتنزلُ دفقةُ ماء مُثلج على صلعتك المُستجِدّة. القطرات على وجهك لا تنعشك. وما إن تصبح خارجَ المرذاذ حتى تتوقّفَ أمام المرآة، زجاج مستطيل يعيد إليك وجهَكَ المتلف بالدموع. تكرهُ أن ترى نفسك هكذا مسحوقاً، وأنت في كلّ مرّة أقلّ شبهاً بالذي كنتَهُ حتى وقت قصير، الشعر مبيضّ، الوجنتان بارزتان، الجلد مثلوم، كيسان تحت العينين. تفركُ نفسك بالصابون وتزلق الموسى على رقبتك وفكّك: قطرة من دم تصبغ بياض الفسيفساء.

تعودُ إلى الغرفة وترتدي سروالَكَ الداخليّ والبنطلون، القميصَ والشيّال. تبدأ النهارَ، لكنّك تشعر بنفسك مُنهكاً، كما لو أنّك تسلّقتَ منحدراً لا نهاية له. معدتُك تُقرقِرُ جوعاً، لكنّك تهرع في طلب كأس تملؤها مرّتين دون أن ترتوي. عندها تحرفُ نظرتَكَ وتُمعن في ذلك الغمدِ الأسودِ، الشبيهِ بحيوانٍ نائم، يرتاحُ على طاولةِ الصالون. أنت لا تعرفُ حتى لماذا قرّرتَ أن تجيء به إلى هنا. مرّت سنون، سنون كثيرة، منذ أن فتحتَهُ آخر مرّة، وتأمّلتَ الخشبَ الصامتَ الذي يرتاحُ في داخله. هل كنتَ بحاجة لأن تنتزعَ من أمّي هذا الأثرَ الأخيرَ من ماضيك؟ لأن تتصالحَ مع تلك الحياة الأخرى التي أصررت على التخلي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عنها؟ تُزيحُ المزلاج كما لو أنّك تُعرّي عشيقةً مراهقةً وترفع الغطاء دون ضجة. يُقلقُك أن توقِظ المخلوقَ الذي بقي وديعاً غيرَ مبالٍ بتعبك وضيقك. تُداعبُ الأوتارَ بنعومة. تيّارٌ يُكهرب أنامِلَكَ ويسري سريعاً في ساعدِك. تقتلعُهُ من سريره دون أن تُفكِّرَ وتكتشفُ نفسك تدوزنُهُ بِحُنوٍّ منْ يهزُّ لوليدٍ حديث. تحني ذقنك كي تسنده ـ كلاكما يعرف الآخر وينسجم معه ـ بينما يدُك اليمنى ترفع القوسَ في الهواء وتستعدُّ لاستنباط العلاماتِ الأولى من المقطوعة رقم ١. أتصوّرك أكثر رزانة مما أنت منهك حيت تتوقّف فجأة، تَتركُ الكمانَ على الطاولة وتتجهُ دون أن تتجرّأ على تدنيسه، في طريقك إلى النافذة.

ثنائية الحقيقة

عندما أودعتْني سيارةُ الليموزين في بابِ المأوى ـ رصيف رمليّ خشن في مستنقع ـ كانت الأضرار التي تسبّب به إعصار *فيرونيكا* ما تزال ظاهرة: أشجار ملتوية، أشجار نخيل قصمت من وسطها، أوراق على الأرض توحلُ الحدائقَ ورائحة تربة رطبة وجذوع متعفّنة، مُسكرة. بشرةُ السماء الضاربة للحمرة مع ضرباتٍ بنفسجية، تنشق مُفسحةً الطريق لدفقة نورٍ وحدهم الحمقى لا يرون فيها سخريةَ إله. لم أكن أملك صبراً حتى تحين ساعة الزيارة. حييتُ عاملة الاستقبال بغمزةٍ دون أن أوسِّط الكلمةَ، وضعتُ ورقةً ماليّةً من فئة المئة دولار أمام أنفها. وضعتْها المرأةُ في محفظتها دون أن تشعرَ بالإهانة وركّزت انتباهها على برنامج المُسابقة ـ *هل تريد أن تصبح مليونيراً؟* ـ الذي كان لحنه المقيت يتسرّب من التلفاز المخفي تحت طاولة عملها.

كانت تبدو مقبرة مهجورة أكثر من مسكنِ عجزة هادئ. لا شيء كان يتحرّك في تلك الساعة التالية على العصرونية، لا أحد يجول في

القاعات العامّة أو ينسلّ في الممرات، كما لو أنّ رفيقات أمّي قرّرْن أن يمنحننا الوحدةَ التي نستحقّها. لم أحتج ولا حتى لأن أقرع باباً: اكتشفتُ بابها المشقوق، كما لو أنّها تنتظر زيارتي. ميّزتُ ظهرَها المقوّسَ فوق حافة النافذة، فستانَها المزهر، شعرَها الأبيض النظيف. يبدو أنّها ترتاح متأمّلة كيف أنّ الليلَ راح يلتهم آخر بقايا النهار.

ـ تصل متأخّراً ـ التفتت إليّ.

كنستني عيناها باستهجان.

ـ ازددتَ وزناً عدّة كيلوغرامات، أليس صحيحاً؟ ـ جلستْ على السرير وأشارتْ إلى كرسيّ خشبي في زاوية.

ـ كيف حالكِ؟

ـ أفضلُ من أيّ وقت مضى ـ ضحكت بنعومة ـ. هل أُقدّم لك فنجاناً من الشاي؟

ـ شكراً، أنا بخير.

كان عليّ أن أقول لها أن نبدأ بالكلام على الفور، لكن في ذاكرتي كلّ شيء كان يجري بكاميرا بطيئة، بإيقاع يُخَفّته حرُّ الليل الخانق. لم تكن أكثر شيخوخة ولا أكثر تجاعيدَ مما هي عادة، لكنّني اكتشفتُ في طريقة مواجهتها لي رقّةً مجهولة. ضاع الأثر ما إن أشعلت مصباحاً وعادت صورة أنفها الجانبية أكثر بروزاً وحدّة، معيدةً إياها إلى قسوتها المعتادة.

ـ أعتقد أنّك تظنّ أنك صرت تعرف كلّ شيء. أليس صحيحاً؟ ـ كان صوتُها أنعمَ، أعذبَ من أيّ وقت مضى.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ في كلّ يوم أعرف أكثر وفي كلّ يومٍ أعرف أقلّ.

ـ أخيراً ها أنت تصير حكيماً، يا بُنَي.

أمالت أمّي رأسها جانباً مستنكرة. نفاد صبري بدا لها قلّة احترام غير محتملة.

ـ ألا تُريد أن تجلس؟ ـ كان لأسئلتها وقع الأوامر.

ـ لا.

كنتُ أشعر بعضلاتي مُخَدّرة، كما لو أنّ جسدي فقط يستطيع أن يُقاوِم هذا الحديث ببقائي واقفاً.

ـ يُخيّبني أنّك تأخّرت كلّ هذا الوقتَ حتى فهمته ـ استضاء وجهُها بهالة ذهبية ـ وأنتَ تعرفني المعرفة التي تعرفها، هل تعتقد أنّ رجلاً، أيَّ رجلٍ، كان باستطاعته أن يكذب عليّ خلال كلّ تلك السنوات؟

ابتسمت جوديث بمكرٍ.

الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو ألاّ تسألني لماذا ـ وبّختني ـ عند هذا المستوى يجب أن تكون قد كوّنتَ فكرةً عمّن كان والدُك.

ـ وأنت؟

ـ أنا؟

حكَّت أمي معصمَها بشدّة بدت لي شبه هستيريّة.

ـ بالله عليك، يا ولدي ـ عادت لتبتسم ـ كلانا كان، كيف سأقوله؟ كان مؤمناً. الآن صار من الصعب فهم ذلك، لم يبق منّا الكثير.

ـ هل أقنعك نُوَا منذ البداية؟

ـ كيف يمكنُ أن تكونَ ذكيّاً جدّاً وغبيّاً جدّاً في آن معاً؟ ـ راح صوت أظافرها على جلدها يصيبني بالجنون ـ لم أكن قطّ فتاةَ القصّةِ الساذجة.

حدٌّ من نورٍ كسر النافذة وكلانا كما حين كنتُ طفلاً، قطع نفَسَهُ إلى أن حدث الانفجار.

ـ ستّ ثوانٍ ـ غامرتُ ـ يجب أن يكون قد وقع قريباً كفايةً.

ـ قريب جدّاً.

ـ أنتِ كنتِ أنجِل[1]، أليس صحيحاً؟

لم يبدُ أنّ سؤالي فاجأها. خفضتُ نظرَها. وسرعان ما بدت في غاية الضعف والبراءة والنقاء.

ـ كنتما يعملان في مجموعات ـ تابعتُ قصّتي ـ كنتما مؤمنين، كلاكما كان يعملُ لصالح الروس.

ـ لا، ليس لصالح الروس، بل لصالح الثورة. لصالح البقيّة ـ صارت نبرتها خشنة ـ أو ربّما لصالحنا، نحن أنفسنا، ما أدراني.

حملت يدها إلى جبينِها وغام وجْهُها الحيويُّ والفضوليّ. اقتربتُ منها لمستُ جبينها الخشن المثلج.

ـ هل أنت بخير؟

---

(١) تذكير اسم أنجِل في الفصول السابقة من الرواية ناتج عن عدم معرفة من يكون صاحبه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمّي مع مُراقبها الروسيّ

ـ فقط أحتاج لأن أرتاح قليلاً ـ تمسّكت بيدي بقوّة ـ. عُدْ غداً وسأحكي لكَ كلَّ شيء، كما أردتَ دائماً، منذ أن دخل والدُك إلى الدكان ليشتري لفاعاً وأخذته إلى أوّل اجتماع للحزب.

ـ هل أنتِ واثقة من أنّكِ لا تريدينني أن أبقى برهة أكثر؟

ـ أنا بخير، يا بُني، إلى الغد.

تراني حدستُ به؟ ومع ذلك تركتها وحيدة هناك، في صمتٍ، في مهبِّ البروقِ التي كانت تُشْعِلُ نافذَتها. استدرتُ، عدتُ إلى الليموزين ومضيتُ إلى غرفتي الموحشة في الفندق. هتفتُ لفيكرام ثمّ لِلي، على

الرغم من أنّني فضّلتُ ألا أعطيهما تفاصيل عن الحديث مع أمّي. أشعلتُ التلفازَ ولم أتأخّر في النوم. في الخامسة صباحاً أيقظني ارتجاجُ الجوّال على صوتِ عاملة الاستقبال الشاردِ والحزين.

ـ على الأقل لم تُعانِ ـ قالت ـ حدث بينما هي نائمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الخامس
حول كيف تبقى حيّاً في نهاية العالم

آريا الشجاعة

للغيوم جانب عكر، مستنقعي، على الرغم من أنّه لم تُلْمَحْ بعدُ رشقاتُ الإعصار الذي تنبّأت به نشرةُ الأخبار. كيف نَواجِهُ، قرّائي الصبورين، نهايةَ هذه الأوبرا الموبوءة بالفزع والسقطات، بالخدع والازدواجيات؟ كيف نربط بين مصائرنا التي فحّمَها الجشعُ وذلك الصباح، قبل سبعين عاماً، حين ألقى والدي بنفسه في الفراغ كي يُنقذ حمامةً؟ أو تلك الأزمنة المليئة بالأفكار العظيمة والمجازر وبين الكارثة المادية التي تغمّنا اليوم؟ هل كان يعرف العملاءُ أو الجواسيسُ الشيوعيون أنّ طوباويتهم سوف تجرُّ أنهاراً من دمٍ وأنّ الأجيالَ اللاحقة لن تعوّضهم تضحياتهم وأنّ العالم سوف يبقى تحتَ سيطرة أبسط وأنقى الحُمّيّات، ذلك البخل المُشفَّر في جيناتنا؟ هل كنّا نعرف نحن أنّنا كنّا ننفخ مثانةً سوف تنفجر عاجلاً أم آجلاً؟ هل كنت تعرفين، يا أمّي، حين حملتِ بي، أنّ جمجمة والدي سوف تنفجر على الرصيف؟ هل كنتُ أعلم أنا أنّ هربي، هربي الاستراتيجي، سيكون بالنسبة لأولادي على تلك الدرجة من الصعوبة؟ سبق وقلته: كنّا نعرف ولا نعرف، كنّا نعرف ولا نريد أن نعرف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سقطت روما، سقطت القسطنطينية، سقط جدار برلين، سقط برجا مركز التجارة العالمي، فكيف لن يسقط وهمٌ أضعفُ، أكثر أثيرية مثل الرأسمالية العالمية؟ هل كان يتصوّر وزير الخزانة ورئيس الاحتياطي الفيدرالي ورئيس الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك ما كان سيحدث بعد سقوط ليمان براذرز؟ من جديد كانوا يعرفون ولا يعرفون. أو لم يكونوا يريدون أن يعرفوا. لا أحد كان يريدُ أن يعرف. وفي واحد من أكثر القرارات رعباً تمّ اتخاذه من قبل غرفة السياسيين، وزير الخزانة ورئيس الاحتياطي الفيدرالي ورئيس الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك ـ بمباركة من بوش الصغير ـ هزّوا بأكتافهم وسمحوا للماستودنت[١] أن يهوي بصخب نحو العدم. بدا لهم فعل عدالة. عدالة شعرية، أفترض، لأنّ المناورة كانت في النتيجة أكثر ضرراً واستمرارية مما ظنَّ أولئك المعتوهون. كانت عظام ليمان قد نَخرتها مشتقاتُنا المالية الماكرة وأورامها الخبيثة انبثقت في كلّ ما بقي منها على قيد الحياة، في المجموعة الأمريكية الدولية، في ميريل لينك، في جي بي مورغان تشيس، في غولدمان ساكس، في سيتي بنك وفي مجرةِ أخواتها اللانهائية. طبعاً بما في ذلك جي في كابيتال منجمنت.

عدوى لا سابق لها، أو بالأحرى أكبر عملية تحويل رؤوس أموال نُظّمت بدءاً من الطبقة الوسطى وحتى أصحاب الملايين المتعددة. لأنّه بعيداً عن الخسائر والإفلاسات وعن انتحار تنفيذيٍّ ما وضغطِ بعضِ موظفي وزارة الخزانة، فإنّ الكبارَ بالكاد تأثّروا. سأقول أكثر: ربحوا مع الأزمة، كما ربحوا من قبلُ مع الفقاعة، وباستثناء بضعة ضحايا (مثلي أنا) احتفظوا بموادهم الأولية الفلكية، ومظلاتهم الذهبية وبيوتهم الكبيرة

(١) الماستودنت حيوان ثديي ضخم شبيه بالماموث، وينتمي مثله إلى العصر الجليدي.

في هامبتونز وريفيرا، وسهراتهم الحمراء الهوليودية، وسياراتهم الرياضية. أُنْقِذوا في اللحظات الأخيرة بأموالنا ـ لطف من أوباما الاشتراكي ـ، يعيشون اليوم الحياة بالطول والعرض.

لا، يا قرّائي المُفقَرين، العالم بالنسبة إليهم لم يلامس نهاياته، ليس عبثاً أنّهم الأقوى، الأكثر أهلية. آخرون دفعوا ثمن طموحاتهم وأخطائهم: أنتم. الجماهير المُغفلة التي عاشت لعقدين على القروض، الأشقياء المساكين الذين صدّقوا كذبةَ أنّ امتلاكَ بيتٍ يُعادل أن يكون المرءُ سيّدَ القلعة. أنتم، بلى خسرتم كلّ شيء. أوّلاً انتزعوا منكم بيوتكم الصغيرةَ ومدخراتِكم، ثمّ كرامتَكم وفي النهاية حتى الخدمات العامّة المشينة. «نحن آسفون، أيّتها السيدات والسادة، يجب شدُّ الأحزمة» نصحكم السياسيون، يمينيون ويساريون «أنفقتم أكثرَ من اللازم، حلَمتم بشكلٍ أخرق والآن عليكم أن تدفعوا الثمن». وأنتم صدّقتموهم ـ يا أشقياء! ـ وعُذتُم وصَوَّتُم لهؤلاء، أوغادِ اليمين واليسار الذين اتهموكم بأنّكم المسؤولون الحقيقيّون على الأزمة.

بعد أن لُغِّمَت معظمُ المؤسّساتِ المالية على سطح الكرة الأرضية، صار وصولُ موجاتها الارتدادية إلى مركزي التجاري الرصين مسألة وقت. كنتُ أعلم، وإن كنت لا أُريد أن أعلمَ بأنّ جي في كابيتال منجمنت لن يُقاوم هذا الهجومَ الأخير، وأنّه ما من مناورة سوف تُخفي نظامنا، نظام بونزي الأنيق، الحياة المزدوجة للشركة أو المحاسبة الموازية التي كان يضبطها فيكرام في الطابق الثامن على هامش ما كان يعتقدُ إسحاق، الكدود دائماً أنّه يُنسّق في الطابق التاسع. لم تعد مسألة أشهر بل ولا حتى أسابيع، بل مسألة أيامٍ، وربّما ساعات، كي تُعرض أحشاؤنا. الشيء الوحيد المعقول كان الهربَ.

كان قد مضى خمسة عشر عاماً منذ أن بدأنا، أنا ولي، البحثَ حول

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والدي وثلاثة عشر منذ أن بدأ زواجنا المؤكّد. ثلاثة عشر عاماً من التواطؤ والرفقة. ثلاثة عشر عاماً خُصِّصَت للأوبرا والبحث في قروح نُوَا ورفاقه. ثلاثة عشر عاماً من الصراع كي أرى ما إذا كنتُ سأطيح بمثاليتها أم أنّها ستُلقحني بلقاحِ ما من لقاحاتِ الرحمةِ بالفقراء (النتيجة قاربت التعادل) ومع ذلك انتظَرتُ حتى اللحظة الأخيرة كي أكشف لها الحقيقةَ حول الشركة.

كان قد مضى علينا أكثر من أسبوعين مُنْفَصِلَين ـ كنت قد لذت طوال ذلك الوقت بفيكرام ـ حين عدتُ أخيراً إلى البيت. أفترضُ أنّ لي كانت تعرفُ أو لا تعرف ما كنتُ سأعترف لها به. قلتُ لها إنّ عليّ أن أهربَ وإنّه لم يبقَ أمامي وسيلة أخرى. ووضّحتُ لها، دون أن يُخفّف هذا من قلقي أو احتقارها، أنّني رتّبتُ الإجراءات كي لا يُعاني المولودُ (ستكون طفلة بحسب ما كشفت لي بشكلٍ عابر) بسببي. الحقيقة، أعتقدُ أنّ لي لم تبنِ قط أوهاماً كثيرة. لا بدّ أنّها حدستْ منذ البداية أنّ أموالي ـ أموالنا ـ لم تكن مصادرُها شرعيةً فقط، لكنّها حين راحت توزّعُ الملايين على مشروعاتها الاجتماعية نسيت أن تطرح مصدرها.

توجّهت لي، دون أن تنبسَ بكلمة واحدة، إلى الاستوديو وعادت بمغلّف وضعته كشهادة بين يديّ. «هذه فعلاً هي النهاية»، قالت لي زوجتي إن كنتُ أُريد أن آخذ شيئاً فعليَّ أن آخذه فوراً، فهي لا تريد أن أكون قريباً منها ولا من ابنتها. واعدتُ سوزان وإسحاق بعد ذلك بقليل في مكتبي، ثمّ وبعد أن رجوتهما أن يمنحاني بضع دقائق زيادة عنهما، تسللت إلى أوّل ملاذاتي الاستوائية التي استقبلتني منذ ذلك الوقت، متحوّلاً من جديد إلى اليهودي التائه. تركت ورائي لي والمخلوق الذي كان يرتاح في بطنها (فقط لاحقاً سأعرف اسمها: رِبيكا)، وتركت ورائي سوزان وتقلباتها ثنائيّةَ القطب وتركت ورائي إسحاق، ذلك الجبان.

كنّا قد نزلنا أنا وفيكرام توّاً في تلك المحطّة المتأخّرة من جولتنا ـ لم يُغادرنا الغثيان حتى وطئنا الميناء ـ، وحين سوينا وضعنا في الكوخ لم يخطر لصديقي فكرة أفضل من تشغيل التلفاز. في الليل كنّا نغوص في رسائله الشرقية أو نتأمّل لساعاتٍ بصمت (مسكنات خُمارِه التكنولوجي)، لكنّه هذه المرّة سوّى جلسته إلى جانبي وأخذ يتنقّلُ بجهاز التحكم بين القنوات وجعلنا نواجه ذاتَ التوافه المعتادة، البرامج التافهة للمسابقات وبرامج النقل الواقعي المباشر مع مشوقاتها الخلاعية، الدهمائية ذاتها التي تلقى صداها في كلّ مكان حتى توقّف عند تلك القناة المنوّمة التي هي عادة سي. إن. إن. فجأة ظهر وجهُ إسحاق في صورة قديمة أعتقد أنّها من حفلة سمر أو عرضٍ أوبرا. ابتسامته البرّية، ربطة عنقه المُخطّطة، خصلات شعره الأشعث وعيناه الزرقاوان المفتوحتان تماماً.

بحسب كاتب التقرير وصل حفيداي من المدرسة باكراً بعد زيارةِ حديقة عامة ومتحف. أيضاً كانت بالنسبة إليهما أيّاماً عصيبة، تبديل المدينة والمدرسة والرفاق الذين كانوا يشتمونهما ويخيفونهما أو يصفونهما باللصين والوغدين. أيّة مسؤولية يمكن أن يتحمّلها تويدِليدي وتويدليدوم ـ أعني ديف وجو ـ من اختلاساتي؟ لم أشعر قط بأنّني قريب منهما، فقد كانا يبدوان لي باهتين كأمّهما وقاسيين كإسحاق، لكن هذا لا يُحوّلهما إلى مُجرمَيْن. وضعهما السائق في الحديقة، تخلّصا من حقيبتي الظهر وهرعا إلى المطبخ بحثاً عن الليمونادا. كانت أمّها ما تزال في المكتب (وظيفة المحامية التي اضطرت لاستعادتها بعد الكارثة) كان الوغدان الصغيران يحلمان بتكريس بقية المساء للقفز فوق المستويات في ستار وارز، ماريو بروس أو مكان آخر من أماكن السراب الإدمانية تلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يكن قد مضى على استقرارهما في ذلك البيت الصغير في نيو هامبشير ثلاثة أشهر، الفقير جدّاً بالمقارنة بشقّة مانهاتن، للهرب من صقور الصحافة وتفادياً للضغينة التي يثيرها اسمنا (في الأسبوع الماضي تقريباً فرّغت عجوزٌ في سوبر ماركت ليترَ حليب على قميص أبيهما). صعد الصغيران عبر الدرج متلهفين للبدء بلعبهما، حين ميّزا شبحاً أو طيفاً، هزّة غريبة وشنيعة. توقّف الكبير أمام الباب المشقوق، لكنّ الصغير دخل دون تردد فالتقت عيناه الصغيرتان بجسد إسحاق. مترنّحاً مثل دمية عرائس، حاول ديف أن يُنزله بينما جيم يتلوى على الأرض حتى جاء صراخه بالجيران. عليك اللعنة، يا إسحاق!

حياة مزدوجة، حيوات مضاعفة. ربّما لهذا السبب يغرينا الجواسيس إلى هذا الحدّ، نحلم بأن نكون آخرين، أن نخدم سادةً مُتَبَدّلين دائماً، أن نهرب من الضوء الاصطناعيّ الذي يُقَدّم لنا اسماً واحداً. أُحاول أن أتصور جوديث ونُوَا في شقتهما في بارك سلوب، خلال السنوات الأولى من التواطؤ والرومانسية. شابان غضوبان عازمان على أن يخلقا عالماً أفضل، عالماً جديداً. أنا لا أسخر منكما، يا أمّي، أقسم لك. المساواة. أنا لا أنظرُ إليكما كمُراهِقين واقعين في حبائل أكاذيب الشيوعيين، بل كشابَّيْن مُستعدَّين لأن يُجازفا بحياتهما ـ الشيء الوحيد الذي يملكانه ـ في سبيل بعض التجريدات. المساواة. العدالة. الأخوة بين الشعوب. أنا معجب بكما، يا أمّي، حقيقةً. كنتما تثقان بقوّة الكلمات، فكيف ألومكما؟ أتكهّن بيديكما متشابكتين، بقناعاتكما المشتركة وأكاد أحسدكما. لن أستطيع أبداً أن أكون مثلكما.

ومع ذلك أتساءل، إلى أيّ حدٍّ لم تنحرف مؤامرتكما مع الزمن باتجاه شيءٍ آخر، باتجاه روتين أو عادة، طريقةٍ في الحياةِ لامعقولة بقدر ما هي عبثية. خلال السنوات التي تعاونتما فيها مع الروس، هل

حافظتما على ذاتِ الروح التي لا تُهزم، ذاتِ الحيوية، ذاتِ الولاء الذي كان لهما في البداية. هل كنتما تعتقدان دون خوف بأنّكما ناسكَان حقيقيَّان في محراب القضية، نصيران ساذجان للثورة؟ أم أنّكما كنتما تشكّان أحياناً وتشعران بأنّ مهمّتكما قد لا تكون بمثل تلك البطولة؟ هذه القضايا بالنسبة لواحدٍ غير مؤمنٍ مثلي تعذّبه. لذلك يبدو لي من الصعوبة جدّاً أن أفهم، كيف أنّه بينما كان نُوَا يترفّع في وزارة الخزانة ويتحوّل إلى شخصية حاسمة في اتفاقيات بريتون وودز وفي إنشاء صندوق النقد الدولي بقي في خدمة الروس. أقبل أنّكما حافظتما على إيمانكما بمهمّتكما، لكنّ تسلّلاتكما كي تُسلّما وثائق سرّية لسيلفرماستر أو أخمروف تبدو لي مشاهدَ من فيلم جاسوسيّ سيّئ. لا تسيئي فَهْمِي، يا أُمّي، ثبت لي أنّكما خاطرتما بجلدكما، لكن فقط من بعيد يبدو لي أنّكما خسرتما المباراة وقد قبرت الشيوعية في أعمق بئر في التاريخ ولا أستطيع إلا أن أشعر بالخجل أمام حجم فشلكما. أرشيفات موسكو وبرقيات مشروع فينونا لا تترك مجالاً للشك: إذا كنتِ أنت أنجِل، كما اعترفتِ لي في ذلك المساء الأخير في مأوى العجزة، فإنّ انتهاء الحرب لم تُعَدّل في قناعاتك. على الرغم من أنّك ونوَا قطعتما كلّ صلاتكما بالروس في نهاية ١٩٤٥، إلاّ أنّكما حافظتما على عضويتكما ومبادئكما. الآن أعرف أنّك لم تكوني المرأة الساذجة التي كانت تجهل حياةَ زوجها المزدوجة، بل كنتِ العمود الذي أبقى عليه فاعلاً وأنّ الخوف والتهديدات في تلك السنوات سمحت لكما بأن تردّا بكرامة على الاتهامات الأولى. وقتها كان التحالف مع الروس قد تهشم والرعب الأحمر راح ينتفخ مثل فقاعة؛ وفجأة صار أيّ شخص مريباً، وأيّ شخص يمكن أن يكون عدوّاً.

بعدها بقليل، وكان وايت قد مات ودُفِن، استُدعي سيلفرماستر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورفاقه للمثول أمام لجنة النشاطات المعادية لأمريكا وسكتوا أو كذبوا بالنسبة لانتمائهم إلى الجهاز السرّي. بعد خروجه المخزي من صندوق النقد الدولي، لم يرفع نُوَا رأسه، لم ترِهِ قط بمثل ذلك الشرود، ونفاد الأمل. «بماذا أفاد نضالنا؟»، كان يتساءل، مهدوداً من انتصار إيزنهاور ونيكسون. لكّنكِ كنتِ ما تزالين تثقين بأنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي سيترككما مع الزمن بسلام. من يمكن أن يهمّه ما فعله أو لم يفعله نُوَا خلال الحرب الآن حيث ما عاد يشغلُ منصباً مُهِمّاً في الحكومة؟ كنتِ تعتقدين أنّكما ستبقيان وحدكما مع ذلّكما وهزيمتكما. ماذا كنتما غير آخر نفايات الحرب الأخيرة؟ فقيران بلا أهمية لم يبق لكما غير أن تنصاعا لحياة خشنة وقاتلة.

آخر صورة لوالديَّ (١٩٥٣)

هذه المرّة أخطأتِ، يا أمّي، فالجمهوريون لم يكونوا مُستعدّين لأن ينسوا وأصرّوا على البرهان بأنّهم على حقّ وأنّ المؤامرة الشيوعية كانت خطراً حقيقيّاً وأنّ الديمقراطيين حَموا المناجذَ عن معرفةٍ. فجائع جديدة: حرب كوريا وخبر أنّ الروس قد صنعوا القنبلة. في نظركِ كانت محاكمة الزوجين روزنبرغ تحذيراً من المصير الذي كان ينتظركِ أنت وأبي في المستقبل. كان الرأي العام يرى في الزوجين شيطانَيْن لا يستحقان مصيراً آخر غير المحرقة، لكنّك كنتِ تُقاوِمين أن تصدقي أنّهم سيحكمون عليهما بتلك الميتة فائقة الوصف. في الليلة التي اقتيد فيها جوليوس وإثيل إلى الكرسيّ الكهربائي، لم يفعل نُوَا شيئاً آخر غير المشي من جانب إلى آخر من الغرفة متحوّلاً إلى حيوان صغير مريضٍ ومُحاصر. وأنت، يا أمّي؟ أنتِ قرَّرتِ أن لا تستسلمي لهذا المصير. كنتِ بحاجة لأن تنقذي نفسك. وكنتِ تحتاجين *لي*.

قرارك بالمجيء بي إلى العالم كان استراتيجيتك الكبرى. كما في حكايات الجدّة عن قريتها اليهودية أوقعتِ زوجك، أسكرته وأغريته ونجحتِ في أن يُحبّلك. حبلى بي: كان ردّك على الخوف والرعب. عندما كشفتِ لنُوَا أنّه سيصير أباً، لم يستطع الشيطانُ المسكين أن يُقاوم، فقرَّرَ يائساً ومنهكاً أن يهجرك. يهجرنا. هل من خيانة أعظم من هذه؟ أمام عينيك لا شيء كان يُبرّر ذلك، لا الاكتئاب ولا الخوف من أن يعتقل ولا فكرته التافهة بعد استجرار مزيد من التعاسة إلى هذا الركن من العالم.

وهكذا حلَّ الفصلُ الأخير من هذه الأوبرا الهزلية المليئة بالأكاذيب والازدواجيات. بعد أن جدّد المدّعي برونِل الاتهامات ضدّ وايت فعّلَ مكتبُ التحقيقات الفيدرالي تحقيقاتهِ حول زملاء وموظّفي وزارة الخزانة. الآن فعلاً سيأتون في طلبكما، كنتِ تقولين لنفسِكِ، الآن فعلاً لن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يرحموكما. أنت ونوَا كنتما تعرفان ذلك دون أن تعرفا، مستبقين المساء الذي ستكسر فيه الشرطة قفلَ بابكم كي تقيّدكما. هل كانت هذه هي اللحظة التي قرّرت فيها، يا أمّي، ألا تكوني إثيل روزنبرغ؟ متى قرّرتِ أن تفعلي أيَّ شيء - أيَّ شيء - مقابل أن تفلتي من ذلك المصير؟ متى سجّلت ذلك الرقم وخطّطت لتلك الزيارة، مُقلِّدة إليزابيث بنتلي؟ الشيء الوحيد الذي كنت تتلهفين له هو بعض الهدوء، الراحة كي تُربي ابناً، ابنك الوحيد. الإيمان ذاته الذي دفعك إلى أن تحقني نوَا بحقنة الشغفِ بالشيوعية والإيمان ذاته الذي دفعك خلال سنوات لأن تُسلّمي مئات الوثائق السرية للروس، يمنحك القوّة كي تخطي تلك الخطوة المريعة، تلك الخطوة المتطرّفة. صار عندك الآن مسؤولية أكبر من الثورة. الآن أنا على عاتقك ولا شيء غيري كان مهمّاً.

قبل أن أختم قصّتَك، عندي شيء أحكيه لك، يا أمّي. منذ ساعاتٍ شعرتُ بمطرقةٍ على جبيني، ربّما نتيجة الصباح تحت الشمس والقيظ، وتوغّلت في البيت الخشبيّ أبحث عن حبّةَ أسبرين. على الطاولة اكتشفتُ ملاحظة موقّعة من قبل فيكرام فكاد الغثيان يهدّني. ركضتُ إلى الغرفة وتبيّنت أنّ حقيبته وأوراقه اختفت. قال لي بخطّهِ المُخربش إنّه قرأ خلسة هذه الصفحات وإنّه ما عاد يتحمّل كذبي وإنّ كلّ الذي كتبتُهُ مهزلة؛ وربّما كنتُ أُحَضّر ذلك الخراء كي أزيدَ من مسؤوليتِهِ عن سوء إدارة جي في كابيتال منجمنت؛ وإنّه تَبِعَني حتى هنا، لكنّه لم يكن مستعدّاً لأن يتحوّل إلى عملةٍ للتبادل، إذا كنتُ أُفكّر أن أتفاوض مع السلطات. وإنّ عليّ أن أُغادر بأسرع وقت هذه الجزيرة، التي لن يتأخّر في الكشف عن اسمها للإنتربول. أحمق! حتى ولو أردتُ أن أكرهه بسبب هذه الخيانة الأخيرة وغير المتوقّعة أبداً في متتالية الخيانات هذه، إلاّ أنّ قلبي يبقى لا يتعكّر تجاهه. هذه الأوبرا المليئة بالوشايات والكذب تقترب من نهايتها وعليّ أن أكتبها بنفسي.

في الخارج تستمرّ الغيومُ العالية والمشؤومة وصدى الرعودِ يهزُّ الزجاجَ، علامات الإعصار الذي لن يتأخّر في الانفلات. أخيراً ها قد بقينا وحيدين، يا أمّي. أعودُ لأتصوّركِ في تلكَ الأشهر المُفجعة من عام ١٩٥٣. مضت عدّة أيّام على رحيل نُوَا إلى كوينز ـ ذلك الملاذ الذي تصرّين على تصويره كحظيرة خنازير ـ، بينما تستمرّين أنتِ في بروكلي، متعلّقة بي، بتلك الحشرةِ التي تتغذّى من جسدك. في ذلك اليوم تزيّنتِ كما لو أنّك ستحضرين احتفالاً أو حفلة، تلتهمين بقايا الشولنت[١] التي تتراكم في البرّاد وتهبطين الدرج مستعجلة، سيّدة نفسك كما أنت دائماً. بحسب المحضر الذي أرسلتْهُ لي إليَّ، المستخرج من يدري كيف من ملفّكِ في مكتب التحقيقات الفيدرالي ـ القطعة الأخيرة من بحثنا ـ. تَمْثُلين في فناء البناء الفيدرالي في تمام الواحدة مساءً. تصعدين الدرج (أتصوّر قلادة كريمة في حقيبة يدك النظيفة) وتتوغّلين في مكتب الشرطيّ الخاصّ هاريسون، الذي تكلّمتِ معه بالهاتف، ستّ أو سبع مرّات على امتداد الأسابيعِ الأخيرة. ترتعدين؟ لا يليق بك ذلك، يا أمّي. كما كنتِ تُنفِّذين أوامر الروس عندما كنتِ تتعاونين معهم بدأبٍ أنت الآن لا تُناقشين دوافعك. التاريخ يمسكُ بكِ من عنقك. بماذا سيفيدك أن تُقاومي؟

تبدأين بقصّتك، حذرةً، متجنّبةً الأسماءَ والأماكن، لكنّ الكلام يبدأ ينبثق من حنجرتك دفقاً لا كابح له. تتكلّمين وتتكلّمين، دون حتى أن تشربي الماء الذي يُقدِّمُهُ لك الشرطيّ الخاصّ هاريسون، حتى ساعة الغروب. كما لو أنّك كنتِ تحتاجين لأن تُديني مسيرتك، كما لو أنّه لم يكن هناك وقت لتصحيحات لاحقة، كما لو أنّ عذابَكَ سينفد في تلك

(١) طبق أشكينازي يُطبخ على نار هادئة ويشبه الدفين العربي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اللحظة. مقابل كلماتك، اعترافك البغيض ستحصلين على السلام الذي طالما تقتِ إليه. بدءاً من اليوم لن يُنَغّص عليكِ حياتكِ أو يزعجكِ أحد، إنّه ثمن سلامك وسلامي. ها أنتِ في بروكلين من جديد، بعد أن انتهيت من الإدلاء بشهادتكِ، وتُرَكِّزين مساءً على حياكة كنزة لي. دون أن تسمحي للغمِّ أو الشعورِ بالذنب أن يهزمك، تحيكين ببساطة الخيوطَ بصمت. هل شعر أبي بسبب استدعائك الجديد؟ ربّما عرف به دون أن يعرف. أو عرف به ولم يبغِ أن يعرف، وصادفَ فرخَ الحمام.

نجحتُ في الوصول إلى نهاية هذه الأوبرا الهزلية، المليئة بالخدعِ والأكاذيبِ والمكائدِ والخيانات، تماماً حين بدأتْ ستارةُ المطر تُمزّقَ الأفق. والآن؟ بقي أمامي شيء واحد أفعله، أليس كذلك، يا أمّي؟ أن أتبع خطواتك! أحمي سوزان كما حميتني! أُضحّي بكلِّ شيء من أجلها! أليس هذا هو الدرس الذي كنتِ تودّين أن أتعلّمه؟ أن أغادر هذه الجزيرة وأعودَ إلى نيويورك كي أُنقذ صغيرتي!

ستارة

قرّائي، أشباهي، أخوتي، هل من أحدٍ منكم ترك نفسه يُخدع بنهاية هذه البضاعة الرخيصة؟ عند هذا المستوى بِتُّم تعرفونني جيّداً وتعرفون أنّني لا أستطيع أبداً أن أفعل مثل هذا. الآن وقد اكتشفتُ من كانت جوديث ونُوَا، لا أحد يمكن أن يُصدّقَ أنّني سأبقى مخلصاً لقيمٍ رفضتُها دائماً. الحب الأبوي؟ الأسرة؟ الشرف؟ لنكن واقعيين، عودتي لن تفيد ابنتي في شيء وسأحكم على نفسي بأن أقضي السنوات الأخيرة المتبقّية لي في زنزانة معزولة الصوت، مُجرَّداً من موسيقاي.

لا شكّ سيكون عليَّ أن أُغادر هذه الجزيرة بأسرعِ وقت ـ خيانة فيكرام لا تتركُ لي خياراً آخر ـ، لكن ما زال لديّ الإمكانات كي أنتقلَ

إلى جنّةٍ أخرى من هذه الجنان الأخّاذة (الضرائبية). منطقة استوائية حيث لا أحد يسأل أكثر من اللازم، وحيث ينتظرني بفارغ الصبرِ شركاء لي كي نسبر أسواقاً جديدة. اسمحوا لي أن أختمَ هذه الصفحات، بواحد من تلك الأسطر الأوبرالية التي طالما تقتُ لأن أغنيها جهاراً:

انتهت المهزلة

في مكان مجهول، ١ آذار ٢٠١١

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفهرس

افتتاحية ٩

الفصل الأوّل: الفاسق المُعذّب ١٣

المشهد الأوّل: حول كيف دمّر فرخُ حمام عيدَ ميلادي الأول وجحود جراء الذئاب ١٥

المشهد الثاني: حول كيف أخطأ بعضُ الجنّ في سحرهم الأسود وانضمّت أُمي إلى الكائنات غير الأرضية ٣٣

المشهد الثالث: حول كيف تُقطّع كماناً بمنشار كهربائي وتكون شيوعياً ومعادياً للشيوعية في مساء واحد ٦٥

كاباليتا ٧٥

المشهد الرابع: كيف ظهر واطسون بتنورةٍ هيبية واليهودي الوغد الذي اخترع صندوق النقد الدولي ٨٧

المشهد الخامس: حول طبيعة الجينات القاتلة والحروب التي تدور في العائلة ١٠٣

المشهد السادس: حول كيف تنظّف اسمَك من العار وانقراضِ الأنبياء ١٢٥

المشهد السابع: حول كيف جعل بعض السباحين مؤسسة كوكب الأرض تفلس، وعناد الفيروسات ١٣٧

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المشهد الثامن: حول الحيوات الكثيرة للجثث وكيفية تشكيل فريق
تنس من الشيوعيين ١٤٩
المشهد التاسع: حول كيف تركّب قنبلة هيدروجينية من سندات
القمامة وكيف تغني ثلاثياً غناءً ثنائياً من بوهيميا ١٥٧
المشهد العاشر: حول كيف تؤثّر في الناس وتخون أصدقاءك
والغربان التي تعشّش في القلب ١٧١
الفصل الثاني: **الفرصةُ تصنعُ اللصَّ** ١٩٧
المشهد الأوّل: حول كيف تزور واشنطن ليلاً وتجرّ جثّةً في الوحل . ١٩٩
المشهد الثاني: حول كيف حصل اقتصاديان على الحجر الفلسفي
واقتصاديان لعبا دور البطولة في صراع القرن ٢٠٩
المشهد الثالث: حول كيف تعشق جاسوسة وتسمنُ بوجبَةٍ من الحنق ٢٣٣
المشهد الرابع: حول كيف تثقبُ فقاعةً جنسية وحرب العالم ٢٥٥
المشهد الخامس: حول كيف تميز الأسنان السيّئة وكيف تحصر
جاسوساً في يقطينة ٢٧٣
المشهد السادس: حول كيف تُكوّنُ حياة زوجية تامّة وتصفع مُعَلِّمَكَ
بنعومة ٣٠١
المشهد السابع: حول كيف تربح وأنت تخسر وتخسر وأنتَ تربح
وكيف تُرَتّب ألبوم عائلة صغير ٣١٥
المشهد الثامن: حول كيف يُبنى العالم في فندق فاخر وحياة
الجواسيس الهادئة ٣٣٧
المشهد التاسع: حول كيف استولى بعض التوائم على العالم وكيف
تستخدمُ ابنَكَ كدرع ٣٥٩

المشهد العاشر: حول كيف تستثمر في الأموال غير المنقولة وأنت
شيوعي وتغرق دون طوق نجاة ٣٧٩
الفصل الثالث: الخدعة السعيدة ٣٩٩
المشهد الأوّل: حول كيف تنقذ العالم بشريطٍ لاصق وكيف
تتاجر بالريح ٤٠١
المشهد الثاني: حول كيف تُدَفِّئ نفسك في شتاءِ موسكو وكيف
تُصبِحُ مليونيراً بالقسائم ٤٢١
المشهد الثالث: حول كيف تتحوّل لأنّك ذكيٌّ ووسيمٌ إلى بطل
وتتحوّلين لأنّك ذكية وجميلة إلى عاهرة ٤٤١
المشهد الرابع: حول كيف تؤخّر الحقيقة لنصف قرن ولماذا انهار
برج بابل ٤٦٥
المشهد الخامس: حول كيف تبقى حيّاً في نهاية العالم ٤٩٥

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا الكتاب

يوم السبت التالي وبينما كنّا نلعب أنا وزوجتي البريدج مع مؤلِّفِ رواياتٍ بوليسية مشهور وزوجته، هتفت لي إس. سي أتش. لتُخبرني بأنّ المخطوط إما أنّه عمل لفولبي، أو لشخصٍ كان يعرفه عن مقربة كبيرة جدّاً: عليّ أن أُلقي عليه نظرة بأسرع وقت. التهمتُ يومَ الاثنين، قبل أن أنتبهَ إلى أنّ عليّ أن أُعلِمَ السلطات بوجود المخطوط، أكثرَ من ثلثِه دفعة واحدةً. كنتُ قد وصلتُ، أخيراً حين أدرتُ قرصَ هاتف مركز التحقيق الفيدرالي إلى نهايته، وأنا مصرٌّ على استخدام القفازات المطاطيّة كي لا أُخَرّب البصمات المحتملة المتناثرة بين صفحاته.

مكتبة بغداد

ISBN 978-9933352455